الحضارة الإسلامية

في

القرن الرابع الهجري

الحضارة الإسلامية

في

القرن الرابع الهجري

أو

عصر النهضة في الإسلام

تأليف
الأستاذ آدم ميتز
أستاذ اللغات الشرقية
بجامعة «بازل» بسويسرة

نقله إلى العربية
محمد عبد الهادي أبو ريده
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

أعد فهارسه
رفعت البدراوي

المجلد الثاني

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الخامسة

مزيدة بفهارس الأعلام والأماكن والمدن

دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت سنتر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٥٤٧٨/٨٠٠٨١١/٨٠٠٨٣٢

تلكس: ٤٠١٣٩ .L.E كتاب برقيا: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان

مقدّمة الناشر

« الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ، أو « عصر النهضة في الاسلام » ، كتاب أشهر من أن يُعَرَّف ، وأقيم من أن يقرظ أو يمدح ..

واذا ذكر هذا الكتاب ، لم يذكر إلا مقرونا باسم الاستاذ « محمد عبد الهادي أبو ريدة » ، فهو صاحب الفضل الأكبر في نقل هذه الصورة المشرقة لنهضة العالم الاسلامي في القرن الرابع الهجري إلى ملايين القراء في العالم العربي ، المتطلعين دائما الى الاطلاع على أسباب الحضارة ومظاهر النهضة التي تجلّت وتوطّدت في ذلك العصر ... وهو صاحب الجهد العظيم الذي لا يقل عن جهد المؤلف الاستاذ « آدم متز » بل قد يفوقه . فلم يكن الأمر أمر ترجمة للكتاب فحسب ، بل كان بحثا مضنيا عن مصادره الأصلية المتفرقة في مختلف المدن والأقطار ، وعن أصول النصوص التي أوردها المؤلف وتصحيح ما قد يكون فات المؤلف في ألفاظها ومعانيها لجهله باللغة العربية ؛ ثم كان مراجعة شاملة دقيقة لصحة ما ورد من المعلومات في النصوص والمراجع ذاتها ومقابلتها بنصوص ومراجع أكثر دقة وشمولا .. ثم ، ولعل هذا هو أهم ما يستلفت النظر ، كان تنظيما شاملا للمراجع واستكمالا لأسماء الأعلام ، التي لم يتمكن المؤلف من ضبطها ..

ولم يكتف الاستاذ أبو ريدة ، بكل هذا التدقيق والتمحيص ،

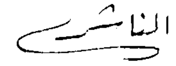
بل أراد ، وهو الحريص على الحقيقة ، أن يوضح ما غَمُضَ على المؤلف ، وأن يصحح بعض وجهات نظرٍ له لا تطابق الحقيقة ، فأضاف تعليقات جمّة أضفت على الكتاب المزيد من الدقة والوضوح .

والكتاب في جزءين ، يضمان تسعة وعشرين فصلا ، لم يترك ناحية من نواحي البحث فيما يتعلق بالحياة في ذلك العصر ، وفي جميع أجزاء الدولة الاسلامية العظمى إلا وفصلها ، حتى جاء أشمل صورة ممكنة عما كانت عليه حال الدولة . خلفاء وأمراء وقوادا وشعبا ، جماعات وأحزابا وأفرادا ، علما وأدبا ، فكرا ومعتقدا واجتهادا ... حتى ليحس القارىء وكأنه ينتقل من عصره الحاضر إلى ذلك العصر ، يشارك أهله حياتهم بجميع دقائقها وتفاصيلها .

.. مثل هذا السّفر القيّم ، لا تكتمل فائدته إلا بفهارس الأعلام والمدن والأماكن ، التي تسهّل للباحث الاهتداء إلى ما يود الرجوع إليه حين دراسة الشخصيات الإسلامية والأحداث التاريخية وأماكن وقوعها ؛ هذه الفهارس التي تحتاج في إعدادها وترتيبها ، إلى مجهود ودقة وصبر ، بذلناها عن طيب خاطر في سبيل استكمال الفائدة المرجوّة من الكتاب .

وإننا إذ نقدم هذا الكتاب القيم ، في مجلدين فاخرين ، لنشعر بأننا نؤدي لملايين الأدباء وطلاب البحث والقراء في العالم العربي ، خدمة ، هي جزء من رسالة دارنا التي تأمل دائما أن تنشر كل ما يوطد دعائم النهضة الثقافية العربية الاسلامية .

والله الموفق .



الفصل الثامن عشر

الجغرافيا

«تقويم البلدان»

في القرن الرابع الهجري نجد التقدم في البحث الجغرافي تقدماً واضحاً كل الوضوح ؛ ولا أريد أن أتناول بالبحث من هذه الناحية إلا ما صُنِّف من الكتب ، وذلك في شيء من الإيجاز .

كان البحث في أحوال الأقاليم وليدَ النهضة العلمية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري .

وأولُ ما كان من ذلك كتبُ الكندي[1] ، حوالي عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م[2] وكان الكندي من رؤساء حَمَلَةِ العلم اليوناني بين العرب .

ثم ظهر بعد ذلك ، حوالي ٢٣٢ هـ — ٨٤٦ م ، كتابُ المسالك والممالك لابن خُرْداذبة ؛ ويَعتَرِف هذا المؤلف بأنه اعتمد في بيان حدود الأرض ومسالكها على ما كتبه بطليموس في ذلك[3] . ويقول

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٢) هذا التاريخ غير دقيق ؛ وليرجع القارىء إلى الترجمة العربية لكتاب تاريخ الفلسفة في الاسلام للأستاذ دي بور ، عند الكلام عن الكندي . (المترجم)

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٣ ؛ ويقول متز إن كلمة خرداذبة تطلق على نوع من الآنية ، ويشير إلى كتاب مطالع البدور (ج ١ ص ١٨٩) ؛ ولكن النص هو : ثم اخرج الصواني فيها الخماسيات والخرداديات (المترجم) ، وكذلك يريد أن يقرأ المقريزي : خرداذبي بلور بدلا من خردادي بلور (خطط ج ١ ص ٤١٤) .

المسعودي حوالي عام ٣٣٢ هـ ــ ٩٤٣ م ، إن كتاب ابن خرداذبة ، على الرغم من عيوب فيه ، هو أحسنُ كتاب في موضوعه[١] . أما المقدسي الذي ألف كتابه في الجغرافية حوالي عام ٣٨٥ هـ ــ ٩٨٥ م ، فهو يرى أن كتاب ابن خرداذبة مختصر جداً ، لا يحصل منه كبيرُ فائدة[٢] .

والمقدسي ينتقص أيضاً كُتُبَ من تقدمه من الجغرافيين ؛ فيقول عن أبي عبد الله الجيهاني (حوالي آخر القرن الثالث الهجري) ، وهو الذي جاء بعد ابن خرداذبة وردّد كلامه ، إنه كان وزيراً لأمير خراسان، وكان صاحبَ فلسفة ونجوم وهيئة ، « فجمع الغُرَباء وسألهم عن الممالك ودَخلِها ، وكيف المسالك إليها ... ليتوصلَ بذلك إلى فتوح البلدان ،ويعرفَ دخلَها ،ويستقيمَ له علم النجوم ودورانُ الفلك... مرة يذكر النجوم والهندسة ، وكرّة يورد ما ليس للعوامّ فيه فائدة ، وتارة ينعت أصنام الهند ، وطوراً يصف عجائب السند ... ، ولم يفصّل الكوَر ، ولا رتّب الأجناد ، ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها ، بل ذكر الطرقَ شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، مع شرح ما فيها من السهول والجبال ، والأودية والتلال ، والمشاجر والأنهار ؛ وبذلك طال كتابه ، وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووَصْف المدائن الجياد » .

أما أبو زيد البلخي فيقول المقدسي عنه إنه اختصر ، ولم يذكر الأسباب المفيدة ، ولا أوضح الأمور النافعة ، وترك كثيراً من أمهات المدن ، فلم يذكرها ؛ ثم يرميه بأنه يدوّخ البلدان ، ولا وطيء الأعمال.

أما ابن الفقيه (حوالي آخر القرن الثالث الهجري) فيقول المقدسي

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٠ ــ ٧١ .

(٢) المقدسي ص ٤ ــ ٥ .

إنه لم يذكر إلا المدائنَ العظمى ، وانه « أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم ، مرةً يُزَهِّد في الدنيا ، وتارة يُرَغِّب فيها ، ودفعةً يُبكي ، وحيناً يُضحك ويُلهي »[1] . والحق أن ابن الفقيه كأنما قد أراد أن يستجمَّ ، فجعل بين الكلام عن اليمن والكلام عن مصر بابَيْن : أحدهما في تصريف الجد إلى الهزل والهزل إلى الجد ، والثاني في مدح الغربة والاغتراب . وهو يجمل من وصف مدينة رومية مناسبة للكلام في مدح البناء وذمّه ؛ ثم يتكلم في ذكره لهمذان عما جُبل عليه الناس من حبِّ الأوطان . أما معاصره ابن رسته فأكبر ما كان يستهويه الأشياءُ العجيبة النادرة في اليمن ومصر والقسطنطينية والهند وفي بلاد المجر والصقالبة .

وأما الهَمْدَاني (المتوفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م) فهو يصف جزيرة العرب وَصْفَ عالم اللغة .

وكذلك وَصَفَ قدامةُ بن جعفر (المتوفى عام ٣١٠ هـ —٩٢٢م) مملكة الإسلام ، وما جاورها من الممالك ، في كتـابه الصغير المسمى « كتاب الخراج وصنعة الكُتَّاب » .

وكان اليعقوبي (حوالي آخـر القرن الثالث الهجـري) أولَ جغرافيّ بين العرب وصف الممالك معتمـداً على ملاحظاته الخاصة ، ومتوخّياً قصد ما أراد من وصف البلاد وخصائصها ؛ وهو يقول عن نفسه إنه عُني في عنفوان شبابه وحدّة ذهنه بعلـم أخبار البلـدان ، ومسافة ما بين كل بلـد وبلـد ؛ لأنه سافر حديثَ السنِّ ، واتصلت أسفاره ، ودام تغرُّبه ؛ وقد طاف في بلاد المملكة الإسلامية كلها ، فنزل أرمينية ، وورد خراسان وأقام بمصر والمغرب ، بل سافر إلى الهند ؛ وكان متى لقي رجلا سأله عن وطنه ومصره،وعن زرعهِ ما هو ؟ وساكنيه

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ص ٣ — ٤ .

من هم ؟ عرب أو عجم ؟ وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم ، من غير أن يلحقه من ذلك ملال ولا فتور . وهو يقول : « ثم أُثبِتُ كلَّ ما يخبرني به من أَثِق بصدقه ، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألتُ خلقاً كثيراً وعالماً من الناس في الموسم وغير الموسم ، من أهل المشرق والمغرب ، وكتبتُ أخبارَهم ، وَرَوَيْت أحاديثَهم ... فلم أَزَلْ أكتب هذه الأخبار ، وأُؤلّف هذا الكتاب دهراً طويلا وأضيف كلَّ خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدّمت عندي معرفته »[1] . وقد وصف المملكة الإسلامية ، مبتدئاً ببغداد ، وصفاً منظما مع إصابة جديرة بالثقة والإعجاب ؛ ولكنه لم يخطر له ، مع الأسف ، أن يؤلف كتاب رحلة على الحقيقة ، يصف فيه تجاربه الخاصة ، وأحوال الناس ، وما لقيه في أسفاره ؛ ولم يكن جغرافيّو ذلك العهد قد بلغوا هذه الدرجة من اعتقاد الطرافة في أنفسهم ، فلم يقيموا لأنفسهم وزناً في هذه الناحية .

على أن المسعودي (الذي ألّف حوالي عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م) لم يفعل من ذلك أكثر مما فعله اليعقوبي ، مع أن حبه للاستطلاع حمله إلى بلاد بعيدة في إفريقية وفي الصين ؛ ولكنه تكلم في كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات في أسفاره ، وهذا ما تجنَّبه اليعقوبي وتحاشاه تحاشياً تاماً .

ثم جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري ، فكانت هي الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان ؛ وكلاهما قد سافر حتى دوَّخ الممالك ، وحمله تيار الأسفار، واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين .

---

(١) كتاب البلدان لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ، ص ٢٣٢ من الطبعة الأوروبية .

فأما المقدسي فيقول عن نفسه إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيباً[١] ، غير الكُدْية وركوب الكبيرة ، وإنه أنفق في أسفاره ما يزيد على عشرة آلاف درهم .

وأمـا ابن حوقل فيقول إنه شاهد كل مـا كتب عنه وعاينه إلا الصحراءَ الغربية الكبرى ، فيعترف بأنه لم يشاهد جميعها[٢] .

وقد اقتصر كلٌّ مـن المقدسي وابن حوقل على وصف مملكـة الإسلام ، ويعترف المقدسي بأنه لـم يتكلّف وَصفَ مسالك الكفار ، لأنه لم يدخلها[٣] ، ولم يذكر إلا مواضع المسلمين منها ؛ وكان عدمُ دخوله لها كافياً في منعه من التعرض لوصفها ، لأنه كان يجعل المشاهدة ومعاينة ما يريد الكلام عنه أولَ دعامة لكتابه[٤] .

---

(١) وهو يقول (ص ٨) إنه لم يظهر كتابه حتى بلغ الأربعين . أما تجاربه فهو يقول (ص ٤٤) : « فقد تفقّهت وتأدّبت وتزهّدت وتعبّدت ... وخطبت على المنابر ، واذنت على المنائر ، وأمَمّت في المساجد ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتي العصائد ... وسحت في البراري وتهت في الصحارى ، وصدقت في الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ... وملكت العبيد ، وحملت على رأسي بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق ، وقُطع على قوافلنا الطرق ... وسُجنت في الحبوس ، وأخذت على أني جاسوس ، ومشيت في السمائم والثلوج ، ونزلت عرصة الملوك بين الأجلة ، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة ، وكم نلت العز والرفعة ، ودُبِّر في قتلي غير مرة ، وكُسيت خِلَع الملوك ، وأمروا لي بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات ... ... » ؛ وكان يداخل كل طائفة لابسا ثوبها ليعرف حقيقة أمرها ، حتى دُعي بأسماء تزيد على الثلاثين لاختلاف البلدان والاحوال ؛ انظر كتابه ص ٤٣ ، ٤١٥ ؛ وكتاب تاريخ الفلسفة في الاسلام للأستاذ دي بور في الترجمة العربية ، عند الكلام عنه . (المترجم)

(٢) المسالك والممالك ص ١١١ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٣ ، ٤٣ ، وكتاب تاريخ الفلسفة في الاسلام . (المترجم)

وكلاهما أيضاً قد اطلع على الكتب التي صُنِّفت في هذا الفن ؛ فقد صرح المقدسي بذلك في وضوح وإيجاز[1] ؛ أما ابن حوقل فهو يقول إنه لم يزل منذ عهد الصبا شغوفا بقراءة كتب المسالك ... « وترعرعتُ فقرأتُ الكتبَ الجليلة المعروفة ، والتواليف الشريفةَ الموصوفة ، فلم أقرأ في المسالك كتاباً مُقنِعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ... وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرةُ أبي الفرج قدامة بن جعفر » .

وكلاهما قد انتهت إليه اللغة أكثر انصقالا ودقة وأسلس قياداً مما وجدها المؤلفون المتقدمون ، وقد استعملاها في فنّهما استعمال من يملك ناصيتها ، وإن كان ابن حوقل في ذلك أقلّ إظهاراً لتكلف الطرافة والجمال من المقدسي .

على أن بعض العلماء من معاصري المقدسي المحافظين قد رموه بمخالفة الأصول المعروفة وبالعدول عن التقسيم السباعي المعروف إلى التقسيم الرباعي في كلامه عن الفرق والمذاهب ، فهو يجيب على نقدهم بحجج مثل حججهم ويقول إنه يتأسَّى ـ فيما خالف فيه ـ أهل الرأي من صدور الأئمة ، ويقول : « فلا عجب أن نرى نحن أيضاً في هذا العلم آراء ، ويكون لنا فيه قياس" واختيار" »[3] ؛ وكذلك حاول المقدسي أن يثبت من القرآن أن في العالم بحرين فقط هما : بحرُ الروم، والبحرُ الصيني ، مستنداً إلى سورة الرحمن آية ١٩ وما بعدها ، حيث يقول الله تعالى : « مَرَجَ البَحرين يَلتَقِيان ، بَيْنهما برزخ" ، لا

---

(١) انظر ما تقدم ؛ وص ٤٣ من كتاب المقدسي حيث يقول إنه لم تبق خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها . (المترجم)

(٢) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٥ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ من طبعة ليدن ١٨٧٢ م .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٣٧ ـ ٤٣ ، وص ٢٧٠ .

يَبْغِيان ؛ فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان • يَخْرُجُ منهما اللؤلؤ والمرجان » ؛ فلقي من العلماء معارضة شديدة[1] •

ثم إنه أضاف إلى كتابه خريطة مثّل فيها الأقاليم وحدودَها وخِطَطَها ؛ ولكن هذه الخريطة لم تصل إلينا ، وهو يقول إنه بيّن فيها الطرق المعروفةَ بالحُمْرة ، والرمالَ الذهبيةَ بالصُفْرة ، والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبالَ المشهورة بالغُبْرة[2] ؛ ويذكر أنه رأى مثل هذا التصوير في كتاب البلخي(المتوفى عام ٣٢٢هـ — ٩٣٤ م) ، وفي خزانة أمير خراسان ، وفي نيسابور عند أبي القاسم الأنماطي ، وفي خزانة عضد الدولة والصاحب ، هذا إلى دفاتر رآها مع البَحْريّين[3] وقد لقي أبا علي بن حازم بساحل عدن ؛ وكان الشيخ من أعلم الناس بالبحر الصيني ، لأنه إمام التجار ، ومراكبه أبداً تسافر إلى أقاصيه ،فسأله عن صفة بحر الصين ،فمسح الرمل بكفّه ، ورسم صورة البحر أمام المقدسي وبيّن له معارجه المتلسّنة وشُعَبَه الكثيرة[4] ؛ وقال له غسان الحكيم ، وهو بأريحا : ترى هذا الوادي ؟ قال : بلى ، قال : هو يمتد إلى الحجاز ، ثم يخرج إلى اليمامة ، ثم الى عمان وهَجَر ، ثم إلى البصرة ، ثم إلى بغداد ، ثم يصعد الى مَيسرة الموصل الى الرقّة ، وهو وادي الحر والنخيل[5] •

وكذلك زعم ابن حوقل أن الرمل المعروف بالهبير يمتد من وراء

---

(١) ليرجع القارىء إلى هذه المناقشة الطويلة في كتاب المقدسي ص ١٦–١٩ • (المترجم)

(٢) نفس المصدر ص ٩وما بعدها •

(٣) نفس المصدر ص ١٠ •

(٤) نفس المصدر ص ١١ •

(٥) نفس المصدر ص ١٧٩ •

جبلي طيء غرباً ماراً بمصر والمغرب ، حتى ينتهي بالمحيط وغانة ؛ وكذلك يمتد شرقاً إلى الصين والمحيط[1] ؛ وهو يزعم كذلك أن جبال الصين تمتد إلى التبت وفارس وأرمينية ، حتى تتصل بجبال الشام وجبال المقطم وجبال المغرب[2] .

على أن الجغرافيين المتأخرين نسجوا على منوال ابن حوقل أكثر مما نسجوا على منوال المقدسي[3] .

وكلاهما كان باحثاً ناقداً يتحرى تمحيص ما يَنْقُل ، فهما مثلا أكثر نقداً وتحرّياً من الإدريسي ، أحد الجغرافيين المتأخرين ؛ فإنه نقل عن « كتاب العجائب » للحسن بن المنذر أخباراً لو رآها المقدسي وابن حوقل لرفضاها .

وفي القرن الرابع الهجري قويت روح الاستطلاع العلمي ، وأخذت أصابعها تمتد متلمسة للحسّي في كل ناحية .

فكان الناس يُصغُون متشوّقين لما يقصّه عليهم البَحْريون من حكايات ومن مشاهداتهم وتجاربهم في بحر الصين وبحر الهند[4] .

وحوالي منتصف القرن الثالث الهجري أرسل الخليفة الواثق بعثة برّيّة إلى سد يأجوج ومأجوج[5] .

---

(١) ابن حوقل ص ٣٠ ، ١٠٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٤ ، ١١٠ وما بعدها ؛ وانظر المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكري ص ١٦٠ ؛ وأول من ذهب إلى ذلك ابن خرداذبة (ص ١٧٢ — ١٧٣) : وانظر مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٧١ .

(٢) جغرافية أبي الفدا طبعة رينو (Reinaud) ص ١ — ٢ .

(٤) سلسلة التواريخ ، عجائب الهند ، طبعة رينو (Reinaud) ، طبعة باريس ١٨١١م .

(٥) حفظ لنا الادريسي ما حكاه سلام قائد هذه البعثة ، ونشر ذلك دي غوى (De Góeje) بعنوان : سد يأجوج ومأجوج ؛ (وانظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٥٦ وما بعدها من الطبعة الأوروبية — المترجم) .

وقد وصف ابن فَضلان رحلته التي قام بها حوالي عام ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١ م إلى البلغار الذين يسكنون حول نهر أتل (الفلجا)[١] .

وكذلك حكى أبو دُلف خبرَ رحلتـه إلى بـلاد آسيا الوسطى والشرقية حوالي عام ٣٣٣ هـ ـ ٩٤٤ م[٢] .

وحوالي هذا الوقت عرف الأصطخري من رجل كان يخطب بمدينة بُلغار أن الليل عندهم يقصر في الصيف بحيث لا يتهيأ للإنسان أن يسيرَ فيه أكثر من فرسخ ، وفي الشتاء يقصر النهار ويطول الليل ، حتى يكونَ نهار الشتاء مثل ليالي الصيف[٣] .

وكذلك خرج من مدينة لشبونة جماعةٌ كلهم رجالٌ أبناء عمّ ؛ فأنشأوا مركباً ، وتزوّدوا فيـه ، ثم ركبوا بحر الظلمات ، واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه ؛ وهم يُسمَّون المغرَّرين (أو المغرّبين)[٤] .

وكان صاحب الفهرست يستقي أخبارَ الصين حوالي عام ٣٧٧ هـ ـ ٩٨٧ م من راهب نجراني كان الجاثليق قد أنفذه إليها ، ومعه خمسة من النصارى القائمين بأمر الدين ، فأقام بها سبع سنين ، ثم رجع[٥] .

وكان التجار يزوّدون أهـلَ بلادهم بأخبار بلاد الألمان و بـلاد الفرنسيين .

---

(١) انظر معجم ياقوت طبعة فرين (Frähn) ، بيترزبرج ، ١٨٢٣ م .

(٢) هذه القصة كما جاءت في معجم ياقوت تحت كلمة صين غير صحيحة . انظر Marquart, Sachau-Festschrift, S. 272, Anm.

(٣) ابن حوقل ص ٢٢٥ .

(٤) الادريسي ، طبعة دوزي ص ١٨٤ ، وانظر فصل الملاحة البحرية .

(٥) الفهرست ص ٣٤٩ .

وفي سنة ٣٧٥هـ ــ ٩٨٥م كتب المهلّبي للخليفة الفاطمي العزيز بالله كتاباً في الطرق والمسالك ، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفاً دقيقاً ، وكان علماء الجغرافية في القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان إلا قليلا جداً[١] .

وكذلك ألف محمد التأريخي (توفي عام ٣٦٣ هـ ــ ٩٧٣ م) ، وهو عالم جغرافي أندلسي ، كتابا في وصف إفريقية والمغرب[٢] .

وكذلك وضع المعلم خواشيرُ بن يوسف بن صلاح الأَرِكي الذي سافر حوالي عام ٤٠٠ هـ ــ ١٠٠٩ م ، في مركب دَبَوْكَرَه الهندي ، وطاف بسواحل إفريقية الجنوبية ، ووضع أصولَ المصورات البحرية (وكانت تسمى الرهمانيات) التي عملت في القرن السادس الهجري أو الثاني عشر الميلادي[٣] .

وحوالي ذلك الوقت[٤] بدأت الحروب تُشَنّ من غزنة على الهند ، فأتاح ذلك مناسبة للأستاذ أبي الريحان البيروني كي يكتب أول كتاب ، والكتاب الوحيد الخاص ، بالهند (وهو الذي سماه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ») ؛ وهو يعيب فيه الهنود بأن علومهم غيرُ مهذبة ، وأن كتبهم مضطربة غير منظمة ، مشوبةٌ بخرافات العوام ؛ ويشبه ما في كتبهم « بصدف مخلوط بخزف ، أو بدرّ ممزوج ببعر ، أو بمهي مقلوب بحصى ؛ والجنسان عندهم سيان ، إذ لا سبيل إلى معارج البرهان »[٥] .

---

(١) وكان كتابه المسمى العزيزي ، باسم الخليفة الذي أهداه إليه ، أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان .

(٢) وهو أكبر مرجع اعتمد عليه البكري ؛ انظر كتاب المغرب للبكري ١٦ .

(٣) كتاب الفوائد في أصول البحر تأليف رئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله الشيخ شهاب أحمد بن ماجد السعدي مخطوط رقم ٢٢٩٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ص ٣ ب ــ ٤ أ .

(٤) يعني سنة ٤٠٠ هـ .

(٥) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٢ ــ ١٣ .

على أن كلا من الجاحظ والمسعودي قد كتب على نحو ما كتب الهنود • ولكن نقد البيروني للهند يدل على أن مؤلفي العرب خطوا في التأليف خطوة جديدة قبض بها عنان الاستطراد والخلط •

تعليق

يزيد المرحوم الأستاذ خدابخش مترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية، أن أحمد بن سهل البلخي من قرية الشامستيان بجوار بلخ ، وكتابه يسمى « صور الأقاليم » ، وهو أكبر مصدر رجع إليه الإصطخري •

أما أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ، فيقول صاحب الفهرست (ص ١٥٤) إنه أخذ كتابه من عدة كتب ، وخصوصاً كتاب الجيهاني ؛ ولكن يتبين من كتاب الهمذاني أنه ألّف قبل عام ١٩٠ هـ أي قبل أن يؤلف الجيهاني كتابه بعدة سنين • انظر مقدمة دي غوي لكتاب البلدان ، حيث يشك دي غوي في صحة التاريخ الذي ذكره ياقوت لوفاة الهمذاني ، وهو عام ٣٤٠ هـ •

وفيما يتعلق بالجغرافيين المسلمين ليرجع القاريء إلى هذين الكتابين :

1 — Beazley, Dawn of Modern Geography, vol I (1897)

2 — Wright, Geographical Lore of the time of the Crusades, New York, 1925.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني من جيهان ، بلدة بخراسان، على شاطيء نهر جيحون ؛ تولى الوزارة للأمير أبي الحسن نصر

بخراسان بعد مقتل أبيه ، فقبض على زمام الحكومة بالحزم والحكمة .
أما كتابه فيسمى « كتاب المسالك في معرفة الممالك » ، وقد مات قبل أن يتمه ؛ فاختُصر وكتب من جديد . ويذهب رينو (Reinaud) في مقدمته لجغرافية أبي الفدا (ص ٦٤) إلى أن الذي اختصره أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ؛ ويقول إن اختصار الكتاب ربما كان هو السبب في إهمال شأنه ـ انظر أيضاً مقدمة دي غوي لكتاب البلدان .

* * *

الفصل التاسع عشر

الدين

وكذلك أحسّ المسلمون من أعماق نفوسهم بحاجات جديدة في الدين منذ القرن الثالث الهجري ؛ وسرعان ما تقدمت لسدّ هذه الحاجات الدياناتُ القديمة التي كانت دائماً مستترة وراء ستار ظاهري، ولا سيما النصرانية ، أعني مجموعة الفلسفة اليونانية في عصرها الأخير في الشرق والمشربة بالنصرانية ، وإن الحركة التي غيرت صورة الإسلام في أثناء القرنين الثالث والرابع ليست في مجموعها سوى نتيجة لدخول التيارات الفكرية النصرانية في دين محمد (عليه السلام)[1] .

(١) وربما كان المذهب الافلاطوني الجديد وحده غير قادر على إحداث هذه الحركة الشاملة في العقول ؛ وينبغي ألا ننسى أيضاً أن هذا المذهب نفسه كان من قبل وليد الحكمة الشرقية القديمة . وقد عالج الاستاذ جولدزيهر (Goldziher) في كتابه المسمى محاضرات عن الاسلام (Voilesungen üben den Islam) ص ١٦٠ وما بعدها بيان التأثيرات الهندية ، ولا سيما البوذية ، التي لا شك في أنها قد أثرت في المسلمين ، وإن كان تأثيرها ثانوي المرتبة . ولنضف إلى ذلك أنه ــ فيما عدا الحلاج ــ يذكر بين حين وآخر عن بعض الصوفية أنهم جاءوا إلى بلادهم بحكمة من الهند (انظر مثلا رسالة القشيري ص ١٠٢ ، وكشف المحجوب للحجويري ص ١٤٣ ، ٢٤٢ وما بعدها ؟) .

(أما كتاب جولدزيهر فهو مترجم إلى الانجليزية بعنوان : Moḥammad and Islm وإلى الفرنسية بعنوان Le Dogme et la Loi de l'Islm وإلى العربية أخيراً بعنوان مترجم عن العنوان الفرنسي . أما ما يذكره المؤلف عن القشيري فلم أجد له مقابلا في الرسالة ؛ غير أن كثيرين من الصوفية ينسبون إلى مدن في شرق المملكة الاسلامية ، ويحكي القشيري « ١٣ من طبعة مصر ١٣٤٦ » أن أحد الصوفية أخذ في طريق الزهد بعد كلام له مع خادم لبيت أصنام ببلاد الترك ؛ ولا شك أن كلام المؤلف فيما يتعلق بالتأثير النصراني فيه مبالغة كبيرة ، وهو شبيه بمزاعم بِكَر C. H. Becker من المسيحيين المتحمسين ؛ وإلا فأين قيمة التأثير اليوناني ، وأين نصيب العقل الاسلامي نفسه ؟! المترجم) .

وعبّر البعض عن المثل الأعلى الجديد في الدين بأنه « معرفة الله »، وهي عبارة ربما كانت في نظر محمد (عليه السلام) مُشعرة بالنيْل من قدر الذات الإلهية[1] . وهذا المثل الأعلى الجديد ، حتى من حيث التسمية ، هو مذهب الغنوسطيين القديم ، يعود إلى الظهور في وطنه الأول ، وتصبح له السيادةُ في جميع نواحي الحياة الروحية طول هذين القرنين ؛ وقد ظهر عند أهل التفكير الحرّ في صورة مذهب عقلي أو مذهب لاهوتي علمي ، وعند الآخرين في صورة التصوف ؛ والتصوف عند المسلمين أيضاً يحمل الدلالة الواضحة على صلته الوثيقة والتحام نسبه بالمذهب العقلي ، هذا الالتحام الذي نستطيع إثباته في كل أطوار التاريخ العالمي ؛ لأن التصوف علم أيضاً له أصوله ، وليس الذي يقابله هو المعرفة العلمية النظرية ، بل المذهب الذي يقول به نبيٌّ يحسّ في أعماق نفسه بعقيدته ، ويكون مذهبه معرفةً غير نظرية ، بل مباشرة وقائمة على العاطفة الملتهبة في حالة تَغلب فيها النفس على أمرها .

وكذلك عادت إلى الظهور كل علامات المذهب الغنوسطي الأول ، من علوم سرّية ، وتنظيمٍ للجمعيات السرية ، وإنشاء لدرجات في المعرفة بعضها فوق بعض ، وقول بصدور الموجودات عن الله ، وبالتوازي والتقابل بين العالميْن ، وظهور خصائص الحكمة البابلية القديمة ، ونشوء مذاهب تتردّد بين الزهد والإباحة ، وتصور الكمال والسمو الروحي على أنه « طريق » .

وتدل أقدمُ الكتب الصوفية التي وصلت إلينا ، وهي مصنفات الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ ــ ٨٥٨ م دلالة واضحة على أنه تأثر بالنصرانية تأثراً ؛ فإنه قد بدأ أحد كتبه بمثل الباذر المذكور

---

(١) ربما يقصد المؤلف ما نُهي عنه من التفكر في ذات الله ومحاولة إدراك ماهيته (المترجم) .

عن المسيح عليـه السلام ؛ والكتاب الآخر نستطيع أن نعتبره صورة مكبرة لخطبة الجبل[1] . وكذلك نجد الحكيم الترمذي ، وهو من كبار شيوخ الصوفية القدماء (توفي عام ٢٨٥ هـ ــ ٨٩٨ م) ، يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء ، وهو يبيّن مكانته[2] . ولم تكن المملكة الإسلامية « مملوءةً بالآلهة » المزعومين ، كما امتلأت في ذلك العصر ؛ حتى انمحت الحدود بين الله وبين عبده ؛ وصار بعض المتصوفة يدّعون الوصول إلى درجة الاتحاد بالله ؛ ويروي أبو العلاء لبعض أهل النحلة الحلولية :

رأيتُ ربي يمشي بلا لكة في سوق يحيى ، فكِدْتُ أنفطر

---

(1) Margoliouth, Verhandlngen des 3 Religionsgeschtichen Kongresses, Oxford. Bd I, S. 292.

(وهي أعمال المؤتمر الثالث لتاريخ الاديان الذي عقد باكسفورد (ج ١ ص ٢٩٢) . والكتاب الأول هو كتاب « الرعاية لحقوق الله » ؛ أطلعني الأستاذ الفاضل لويس ماسينيون على صورته الفوتوغرافية ؛ وينقل المحاسبي فيه عن بعض الحكماء تمثيل الهادي بالباذر ، وكلامه بالبذر ، والناس بأرض صالحة مثمرة ، أو أرض ذات شوك يخنق الزرع ، أو صخر أملس لا يمكن الزرع من النماء ، وهكذا . وتدل المقارنة بين كلام المحاسبي وبين مثل الباذر في انجيل لوقا مثلا (الفصل السابع والعشرين) على أن المحاسبي ينقل عن السيد المسيح عليه السلام . أما الكتاب الثاني فلعله كتاب الوصايا ، وهو المسمى كتاب النصائح ، كما اخبرني الدكتور عبد الحليم محمود الذي ألف كتاباً عن المحاسبي باللغة الفرنسية ــ المترجم).

(2) كتاب الطواسين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ١٦١ هامش رقم ٢ . (وقد ذكر ابن العربي في الفتوحات المكية (ج ١ ص ٢٠٦ طبعة بولاق عام ١٢٥٩ هـ) أن عيسى عليه السلام سينزل ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بوحي من الله أو باطلاعه على روح النبي محمد عليه السلام ، ومن هذا الوجه يرى ابن العربي أن سيدنا عيسى يكون صاحباً وتابعاً ، وخاتم الأولياء وأفضل الأمة المحمدية . ويذكر ابن العربي أن الحكيم الترمذي نبه على ذلك في كتابه ختم الولاية ، وشهد لعيسى عليه السلام بالفضيلة على كبار الصحابة ؛ وقد ترجمت كلام المؤلف هنا لا بنصه ، بل بحسب الأصول العربية ، لأن ما يذكره من رأي الحكيم الترمذي فيمكانة عيسى بالنسبة لمحمد عليهما السلام غير صحيح في الأصول ــ المترجم).

فقلت : هــل في اتصالنـــا طمع ؟ فقـــال : هيهات ! يمنع الحذر[1]

وكان بين يدي بعض طوائف القائلين بالمهدي من يعبث بالقول ؛ فيصف الخلفاء بالألوهية ، على نحو لا نظير له من قبل ولا من بعد ؛ فمن ذلك غلو ابن هانيء في مدحه للخليفة المعزّ ، حتى كفّره العلماء في قوله :

ما شِئتَ لا ماشاءتْ الأقدارُ فاحكــم فأنت الواحدُ القهــار

وقوله مخاطباً حاملَ لواء الخلافة :

ولطالمــا زاحَمْتَ تحت ركابه جبريلا

ولما نزل هذا الخليفة في مدينة رقّادة ،وهي بلد قريبة من القيروان، قال ابن هانيء :

حــلّ برقّــادة المسيح حــل بهــا آدم ونوح
حلّ بهــا الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح[2]

وفي آخر ذلك العصر ظهر أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، ولا يزال الدروز حتى اليوم يعظمونه معتقدين أنه إله .

وكان أول ظهور طوائف الصوفية حوالي عام ٢٠٠ هـ ــ ٨٠٠ م ، وذلك في مصر ، مهد الرهبة النصرانية .

« ففي عام ٢٠٠ هـ ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمّون الصوفية ،

---

(١) الجزء الخاص بالزندقة من رسالة الغفران لأبي العلاء في JRAS 1902. S. 835 .
(٢) نفس المصدر ص ٨٣٦ ؛ ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ٤٥٧) بعد ذلك بكثير إنه لم يجد هذين البيتين في ديوان ابن هانيء ، ولكنهما في الديوان طبعة بيروت ١٣٢٦ هـ ص ٤٠ .

يأمرون بالمعروف ، فيما زعموا ، ويعارضون السلطان في أمره ؛ وترأس عليهم رجلٌ منهم ، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي »[1] .

وكذلك يُطلِق ابن قُدَيْد (المتوفى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٥ م) اسمَ الصوفية على جماعة كانت تحيط بعيسى بن المنكدر ، الذي ولي قضاء مصر في عهد المأمون ؛ وكان هؤلاء القوم « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ؛ ولما ولي ابنُ المنكدر القضاءَ كانت هذه الطائفة تأتيه ، وهو في مجلس الحكم ، فتقول : أيها القاضي ! ذهب الإسلام . فُعِل كيت وكيت ؛ فيترك المجلس ويمضي معهم ، ثم لم يزالوا به ، حتى جعلوه يكتب إلى المأمون كتاباً لا يرضى فيه بولاية أبي إسحاق المعتصم على مصر؛فكان ذلك سبب خلعه من القضاء ومَوْجدة المعتصم عليه[2] .

وإذن فقد كان ثَمّ صوفية أتقياء من أصحاب النزعة العملية ، أخذوا جادّين بالواجبات المفروضة على المسلم ، وكانوا يتدخلون في حياة المجتمع تدخلا شديد الوطأة .

وأول ما أطلق اسم الصوفية على هذه الجماعات ، وذلك أنه كان يقال لخواص الناس ، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد ؛ ثم « انفرد خواص أهل السنّة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبَهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ؛واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[3] » .

---

(١) الولاة للكندي ص ١٦٢ ، ونقل ذلك المقريزي في الخطط ج ١ ص ١٧٣ ؛ وقد ذكر جولدزيهر .Goldziher, ZA. 1909 S. 343 حديثين يتضمنان أن عام ٢٠٠ هـ هو مبدأ ظهور التصوف .

(٢) الكندي ص ٤٤٠ .

(٣) رسالة القشيري (ألفت عام ٣٤٧ هـ — ١٠٤٥ م) ص ٧ — ٨ من طبعة سنة ١٣٤٦ هـ بمصر .

ولم يكن في مذهب هؤلاء القوم في أول أمرهم شيء" من مذاهب الصوفية الذين جاءوا بعدهم ؛ على أن إپيفانيوس (Epiphanius) يشكو في القرن الرابع بعد الميلاد من أنه كان لا يزال بمصر عدد كبير من الغنوسطيين الذين لا ضابط لأخلاقهم[1] والذين تسرب الكثير من آرائهم إلى جماعات الصوفية .

وقد أشار الأستاذ رينولد نيكلسون (Reynold A. Nicholson) إلى الأثر الكبير الذي أحدثه ذو النون الكيميائي المصري (المتوفى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) في مذهب الصوفية[2] ؛ والحق أن كثيرين من مشايخ الصوفية في المشرق تأثروا بالتصوف المصري[3] ،ولم تنقطع حجة « الفقراء » في دخولهم مصر إلا بعد موت أبي بكر الزقّاق[4] .

أما نمو مذهب الصوفية وتكامله فقد كان كله في المشرق ، وخصوصاً بغداد[5] ، وكان نمواً سريعا متتابع الخُطى .

---

(١) Hilgenfeld : Ketzergeschichte S. 283.

(٢) JRAS 1906. S. 309 ff.

(٣) منهم أبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ (القشيري ص ١٤) ؛ وكذلك صحب أبو تراب النخشي المتوفى عام ٢٤٥ هـ أبا حاتم العطار المصري ، ونقل ما سمعه للكثيرين (قشيري ص ١٧) . وقد سمع من ذي النون أيضاً وصحبه أبو عبد الله ابن الجلاء ، وهو من أكابر مشايخ الشام (قشيري ص ٢٠) ؛ وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى عام ٣٠٤ هـ، وكان شيخ الجبال والري في وقته؛ وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ، فقد صحبا ذا النون أيضاً (قشيري ص ٢٢ — ٢٣) .

(٤) القشيري ص ٢١ .

(٥) لا تقول الآثار البغدادية شيئاً عن مصر ؛ أما الخلدي المتوفى عام ٣٨٤ هـ ، وهو اقدم من أرّخ للصوفية ، فانه ينسب ، في أخباره ، إلى معروف الكرخي المتوفى عام ٢٠٧ هـ — ٨٢٢ م ، وهو الشيخ البغدادي الذي يعظمه أهل بغداد . ويردّ بقية نسبه إلى الزاهد القديم المشهور وهو حسن البصري ؛ انظر كتاب الفهرست ص ١٨٣ .

ويُروى أن أول من تكلم في علوم التوحيد والورع ببغداد هو أبو الحسن السريّ السقطي (المتوفى عام ٢٥٣ هـ ـــ ٨٦٧ م) ؛ وكان تاجراً ، فترك التجارة ، وقام من السوق ، ولزم بيته للعبادة ، وانقطع عن الناس[١] ؛ وقد اشتهر بأنه أول من تكلم ببغداد في الحقائق والتوحيد[٢] ، ويقال أيضاً إنه أول من تكلم في المقامات والأحوال[٣] .

وكان أوّل من تكلم في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر ، وجمع الهمّة ، والمحبة والعشق ، والقرب ، والأنس ، أبا حمزة محمد بن إبراهيم الصدفي البغدادي (المتوفى عام ٢٦٩ هـ ـــ ٨٨٢ م) ؛ ولم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس المنابر ببغداد أحد . وكان تلميذ أحمد بن حوقل ، وهو الذي خاطبه بقوله له : يا صوفي ![٤] .

ويظهر أن معاصره طيفوراً البسطامي هو الذي أضاف إلى ذلك استعمال لفظة السكر ؛ فكان لها ، إلى جانب كلمة العشق ، أكبر مكان في التصوف الإسلامي[٥] .

وقد روي لعليّ بن الموفّق (المتوفى عام ٢٦٥ هـ ـــ ٨٧٨ م)

---

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة مخطوط باريس ص ٥ ب ؛ وانظر ايضا Schreiner, ZAMG. 52 S. 515.

(٢) تذكرة الأولياء لأبي حامد بن ابي بكر إبراهيم الشهير بفريد الدين العطار النيسابوري (كتاب بالفارسية) ، طبعة ليدن ١٩٠٥ ج ١ ص ٢٧٤ ، نقلا عن نيكلسون Nicholson JRAS 1906. 322. وروضة الناظرين للوتري ص ٨ .

(٣) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١١٠ .

(٤) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (ليدن) ج ٢ ص ٤٧ ؛ وزبدة الفكرة ص ٧٣ ا (مخطوط باريس رقم ١٥٧٢) ، وقيل في وفاته إنه تكلم يوماً في علوم الارادات بجامع الرصافة ، فسقط من المنبر ، واقام مريضاً ؛ ثم توفي بعد ايام (نفس المصدر ص ٧٣ ب).

(٥) كشف المحجوب ص ١٨٤ .

دعاء" لا يتمشى في صميمه مع ظاهر الإسلام ، وهو قوله[1] . اللهمّ إن كنتَ تعلم أني أعبدُك خوفا من نارك فعذّبني بها ، وإن كنتَ تعلم أني أعبدك حبًّا مني لجنتك فاحرمْنيها وإن كنتَ تعلم أني إنما أعبدك حبّاً مني لك وشوقا إلى وجهك الكريم ، فأَبِحْنيهِ وافعلْ بي ما شئت ! » .

ثم جاء أبو سعيد الخرّاز البغدادي (المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م) ، وهو تلميذ ذي النون المصري ، فكان أول من تكلم في « الفناء » ، وهو من أقوال الغنوسطيين القديمة بينهم ، ولا شأن له مطلقاً بالنرفانا عند الهنود[2] .

وكان أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصّار النيسابوري (المتوفى عام ٢٧١ هـ — ٨٨٤ م) أول من سلك طريق الملامة ، ومنه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ؛ وكان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أن يصرفه تعظيمُ الناس له عن الله[3] .

على أن فكرة الملامتية أيضاً فكرة قديمة ؛ فقد وصف أفلاطون في أول الكتاب الثاني من الجمهورية العادلَ الحق الذي يُظن به أنه ليس عادلا .

وهكذا خرج الصوفية عن طريقهم الأول بالكلية ؛ فعلى حين أنهم

---

(١) زبدة الفكرة ص ٤٧ ا — ب .

(٢) كشف المحجوب ص ١٤٣ ، ٢٤٢ وما يليها ؛ على أنه في القرن الخامس الهجري — الحادي عشر الميلادي شنع البعض على «الصوفية الجاهلين» الذين يقولون بالفناء الكلي ؛ ومما تنبغي ملاحظته أن الحجويري ، مع أنه في الهند ، ينتقد هذا القول الذي يقوله الصوفية الجهال ، ويقول إن القول بالفناء الكلي مكابرة (كشف المحجوب ص ٢٤٣) .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٣ ، (ويحكي القشيري (ص ١٨) عنه أنه قال : إذا رأيت سكراناً فتمايل ، لئلا تبغي عليه فتبتلى بمثل ذلك ، وأنه كان يقول : من ظن أن نفسه خير من فرعون فقد أظهر الكبر — المترجم) .

كانوا في أول الأمر تدفعهم غَيْرَةُ الأتقياء إلى التدخل في حياة الجماعة وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى جرّهم ذلك إلى معارضة أمر السلطان أحياناً ، كما تقدم القول ، نجد أبا عمر وإسماعيل بن نخشد (المتوفى بمكة عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م) يُسأل عن التصوف ، فيقول : هو الصبر تحت الأمر والنهي[١] ، وهذا ينطوي على ترك الأمور على مجاريها وعدم المبالاة بما تكون عليه حياة الجماعة .

وكانت بغداد والبصرة مختلفتين في أمر التصوف ، كما كانتا مختلفتين في مسائل اللغة وعلم الكلام ؛ فكانت بغداد أكبر مركز للمتصوفين ، على حين كانت البصرة أكبر مركز للزهاد ، وبقيت كذلك حتى أيام المقدسي .

ويُنسب للحسن البصري ، شيخ زهاد البصرة ، أنه رأى على مالك ابن دينار كساءً صوف ، فقال له : يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : إنه كان على شاةٍ قَبْلَك[٢] . ولكن هذا النقد للصوفية لم يمنعهم من أن يضموا إلى رجالهم أكبر رجل من خصومهم ، فيعتبروا الحسن البصري — وهو أشهر عُبّاد العراق — أول أستاذ أوضح سبيل مذهبهم . على أن سند المذهب امتد أكثر من ذلك ؛ فأراد قوم أن ينسبوا مذهب التصوف إلى النبي (عليه السلام) ، فردوا علم الحسن إلى حُذَيفة ابن اليمان الصحابي المشهور ؛ ويحكى أن الحسن سُئل عن ذلك فقال: « أخذته عن حُذَيفة بن اليمان ، وقال حذيفة : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؛ ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم اختص

---

(١) القشيري ص ٢٨ .

(٢) انظر ما يلي ؛ على أنه يحكى أيضاً عن مالك بن أنس أنه سُئل عن لباس الصوف للرجال ، فقال : لا خير في الشهرة، ومن غليظ القطن ما هو في مثل ثمنه وابعد عن الشهرة؛ انظر المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ١٨ ؛ ومن هذا ما حكاه جولدزيهر : Goldziher, WZKM. 13, S. 40 .

حذيفة من بين الصحابة بعلوم منها علم معرفة النفاق والمنافقين وعلم خفايا اليقين ؛ « وكان عمر رضي الله عنه إذا دُعي لجنازة ليصلي عليها ، نظر ، فإن حضر حذيفةُ صلّى عليها ، وإن لم يرَ حذيفة لم يُصلِّ عليها »[1] .

وحوالي أواخر القرن الثالث الهجري حمل تلاميذ السريّ السقطي مذاهب الصوفية البغداديين إلى أنحاء المملكة الإسلامية ؛ فحملها موسى الأنصاري بمرو (توفي حوالي عام ٣٢٠ هـ ـ ٩٣٣ م) إلى خراسان ، والروذباري (المتوفى حوالي عام ٣٢٢ هـ ـ ٩٣٤ م بالفسطاط) إلى مصر ، وأبو زيد الآدمي (المتوفى بمكة عام ٣٤١ هـ ـ ٩٥٢ م) إلى جزيرة العرب[2] ؛ وكذلك ظهر التصوف بمدينة نيسابور على يد أبي علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ـ ٩٤٠ م)[3] ؛ وكانت شيراز بنوع خاص مملوءة بالصوفية حوالي آخر القرن الرابع[4] . وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري لقي الحجويري الأفغاني ثلاثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان وحدها ، لكل منهم مشرب ، والواحد منهم يكفي الدنيا بأسرها »[5] .

وكان يعيش في بغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م ثلاثة من كبار

---

(١) قوت القلوب للمكي ج ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، وانظر فيما يتعلق بحذيفة : Goldziher Vorlesungen über den Islam. S. 193. وكان للفراسة ومعرفة ما في نفوس الناس ووقوع الحوادث في القلب شأن كبير عند الصوفية في القرن الرابع (انظر باب الفراسة في الرسالة القشيرية) .

(٢) روضة الناظرين ص ١٣ .

(٣) القشيري ص ٢٦ .

(٤) احسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٣٩ .

(٥) كشف المحجوب ص ١٧٤ ، ص ٢١٦ من الأصل الفارسي .

مشايخ الصوفية متقاربين وهم : أبو بكر الشبلي المشهور بإشاراته ، وكان أبوه حاجباً بدار الخلافة ، وتولى هو نفسه إدارة دواوين كثيرة ؛ وأبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش (المتوفى عام ٣٢٨ هـ ــ ٩٤٠ م) صاحب النكت الصوفية ؛ والخلدي (المتوفى عام ٣٤٨ هـ ــ ٩٥٩ م)، عن خمس وتسعين سنة،وهو أول من ألف في تاريخ الصوفية وحكاياتهم، وكان يفتخر بأنه يحفظ أكثر من مائة ديوان من دواوين الصوفية[1] .

وكان في المملكة الإسلامية خوانق وأماكن للعبادة قبل ظهور الصوفية ؛ ويذكر لنا مثال واحد يدل على أن صاحبه كان يقلد النصارى ؛ فيحكى أن أبا الخير فهر بن جابر الطائي (المتوفى عام ٢٢٥هـ ــ ٨٣٦ م) دخل بلاداً كثيرة من ديار الشام ، واجتمع بالنصارى ورهبانهم ؛ وكان جده نصرانياً ، ثم أسلم تقربا من الأمويين ؛ ولما دخل في السنة الخمسين من عمره اعتزل الناس في جوار دمشق ؛ وقد ألف كتاباً يسمى « العروج في درج الكمال ، والخروج من درك الضلال » ، ذكر فيه تاريخ الزهد عند اليهود والنصارى وغير ذلك ؛ وذلك طبقاً لما شاهده عياناً أو سمعه من الرهبان[2] .

ويحدثنا المقدسي أنه لقي في جبل الجولان من جبال الشام أبا إسحاق البلوطي في أربعين رجلا ، يقتاتون بالبلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير بريّ ، ويلبسون الصوف[3] .

---

(١) الفهرست ص ١٨٣ (؟) ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٩٢ ، وروضة الناظرين ص ١٢ ، ١٣ ، ١٥ .

(٢) مجلة المشرق عام ١٩٠٨ م ، ص ٨٨٣ وما بعدها .

(٣) المقدسي ص ١٨٨ .

وكان الكِرامية[1] أصحاب محمد بن كِرام هم الذين أنشأوا أكبر عدد من الخوانق ؛ ويذكر المقدسي أنه كان لهم خوانق كثيرة بإيران وما وراء النهر ، وكان لهم أيضاً خوانق ومجالس ببيت المقدس ؛ وكان لهم فوق ذلك محلة" بالفسطاط ، ويذكر المقدسي أنه قرأ في كتاب صنّفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور أن بالمغرب سبعمائة خانقاه لهم ، ثم يقول : فقلت : لا والله ، ولا واحدة . وكان لهم في خوانقهم مجلسُ ذكر يقرءون فيه من دفتر ، كما كان ذلك لأصحاب أبي حنيفة[2] . وكان الكرامية جماعة من المتسوّلين ، وقد دعوا إلى الزهد وترك الكسب الدنيوي ؛ ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى ، والعصبية ، والذلّ ، والكُدْية[3] .

ولم يكن للصوفية خوانق في ذلك الوقت[4] ، وكل ما كان لهم بيوت صغيرة للذكر في ظاهر المدن ، سمّوها رِباطات ، بالاسم الحربي[5] . ولكن يظهر أنه كان يعيش في هذه البيوت المنعزلة بعض

(١) الكرامية بكسر الكاف وتخفيف الراء ؛ انظر كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي طبعة كلكتة ١٨٦٢ م ، ص ١٢٦٦ .

(٢) المقدسي ص ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٨ ، ١٨٢ ؛ والفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ ؛ ويقول أبو الفدا (تحت سنة ٢٥٥ هـ ج ٢ ص ٢٢٨ من الطبعة الأوروبية) إن محمد بن كرام هو صاحب المقالة في التشبيه ؛ وهو سجستاني ، وتوفي بالشام .

(٣) المقدسي ص ٤١ ؛ والكلاباذي ص ٩٤ ا – ٦٥ ب (في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف طبع بمصر ١٣٥٢ هـ – ١٩٣٣ م ص ٥٧ ، ٧٢ المترجم) . وانظر Goldziher : WZKM, 13, S. 43. هامش رقم ٢ .

(٤) يقول المقريزي (الخطط ج ٢ ص ٤١٤) إن الخوانق حدثت في حدود الأربعمائة من سني الهجرة – (ويلاحظ القارىء أن بين كلام المؤلف هذا وبين كلامه منذ قليل شيئاً من التناقض ، ويقول المقريزي إن أول من اتخذ بيتاً للعبادة ، فجمع فيه العباد وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم زيد بن صوحان في خلافة عثمان بن عفان – المترجم) .

(٥) المقدسي ص ٤١٥ ، والقشيري ص ١٤ .

العباد في ذلك العصر ؛ فيحكى عن علي بن إبراهيم الحصري الصوفي (المتوفى عام ٣٧٠ هـ ـــ ٩٨٠ م) « أنه كبرت سنّه ، فصعب عليه المجيء إلى الجامع ، فبُني له الرباطُ المقابل لجامع المنصور ، ثم عُرف بصاحبه الزوزني »[١] .

وكان الكرامية يلبسون رداء من الصوف وفوطة[٢] مُدَلاّة على رءوسهم تحيط بقلنسوة طويلة ؛ ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق ، إما لأنه لباس الحداد ، وإما لأنه ، كما يقال أيضاً ، يلائم حال قوم فقراء جوّالين في البلاد[٣] ؛ وربما كان الأول هو الصحيح ، لأن الفوطة أيضاً كانت لباس الرأس عند الحزن[٤] ؛ ويقول ابن عبد العزيز السوسي في القرن الرابع الهجري من قصيدته التي ذكر فيها تنقّله بين المذاهب والديانات ، يصف عهده في التصوف[٥] .

سلكت في مسلك التصوف تنـ ـميساً ، فكَمْ للذيول قصَّرتُ !
سوَّيت سجادةً بيوم وأحـ ـفيت سبالا قد كنت طوَّلتُ

وكان للأغاني الروحية العاطفية شأن كبير في عبادات الصوفية ، كما كان الحال بين عبّاد الألمان المتطهرين في القرن التاسع عشر . ويقول

(١) المنتظم لابن الجوزي مخطوط برلين ص ١١٩ ا .

(٢) المقدسي نفس الاشارة .

(٣) كشف المحجوب ص ٥٣ .

(٤) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٥٧ . اما في القرن الخامس الهجري ، فكان يندر أن يلبس الصوفية الصوف ، وكانت عادتهم لبس المرقعة ـ كشف المحجوب ص ٤٥ وما بعدها ؛ على أن المرقعة كانت من قبل إلى جانب كساء الصوف لباس الصوفية ، ثم صارت لباس المتجولين من الصوفية الذين لا ينتمون إلى طريقة معينة ، وذلك بعد أن صار اتخاذ الصوف علامة الصوفية. (انظر القشيري ص ١٦، ١٦٢؛ وإرشاد الأريب لياقوت ج ٢ ص ٩٢ ـ ٢٩٤).

(٥) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ٢٣٧ .

الجاحظ : « ومن تمـام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيـا ويكون الداعي إلى الله صوفيا »[1] .

ويحدثنا المقدسي عن حضوره مجالس الصوفية بمدينة السوس قائلا : « فكَرَّةً أزعق معهم ، وتارةً أقرأ لهم القصائد »[2] .

وفي القرن الخامس الهجري زاد الرقص إلى جانب الغناء ؛ ويقول الحجويري إنه لقي طائفة من العوامّ يظنون أن مذهب التصوف ليس إلا الرقص[3] ؛ وكذلك يعيب المعرّي (المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) ذلك على الصوفية وهو يقول :

أرى جيـل التصوف شر جيـل	فقـل لهمـو : وأهون بالحلول
أقـال الله حـين عبـدتمـوه :	كلوا أكل البهائم وارقصوا لي[4] ؟!

وكانت عادة النساء أن يشاهدن غناء الدراويش من فوق الأسطح أو من مكان آخر ؛ ولذلك يحذّر الحجويري المبتدئين من السماع وما يتصل به[5] . وسرعان ما اخترع خيالُ أهل التصوف أن في الجنـة كراسي يجلس عليها الصوفية وهي تميل بهم وتدور ، فتكفيهم مؤونة الرقص ؛ وذلك ، كما قالوا ، بأن يبعث الله لأهل الجنة مغاني من الحور العين ، وتنصب لأهلهـا المراتبُ والمساند ، ثـم تغنّي الحورُ العين بأصواتٍ لم يُسمع أحسن منها ، ويقول الله للحور العين : أَسْمِعْنَ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٤١ ، على ان المؤلف يريد أن يفهم أن كلام الجاحظ معناه ان الشاعر الروحي الحقيقي لا بد ان يكون صوفيا . (المترجم)

(٢) المقدسي ص ٤١٥ .

(٣) كشف المحجوب ص ٤١٦ ، انظر ايضا ص ٤٣ .

(٤) الارشاد ج ٢ ص ١٨٥ .

(٥) كشف المحجوب ص ٤٢٠ .

عبادي الذين نزهوا أنفسهم عن مطربات الدنيا ، وتلذّذوا بسماع كلامي وأحاديث الرسول عليه السلام ! فيطرب القوم ويهيمون ، فتقدم الملائكة إليهم كراسيَ من ذهب ، وتقول لهم : لا تزعجوا أعضاءكم بالرقص ! فقد كفى ما تعبتم في الدنيا بالصلاة والعبادة ، واجلسوا على تلك الكراسي ، وهي تميل بكم وتدور ! فيغيبون عن وجودهم من الطرب[١] .

ولم يكن ثمّ ما يوجب على الصوفية أن يلتزموا الكُدْية ؛ ولكن الخوارزمي يقول إن « الفقير خفيفُ الظهر من كل حق ، منفكّ الرقبة من كل رقّ ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا تُنْتَظَر في الفطر صدقته ، ولا في العيد أضحيته ... فإنما هو مسجد يُحمل إليه ولا يحمل عليه ، وعلويّ يؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه ، فهو إما غانم أو سالم »[٢] ؛ وكذلك سُمِّي الصوفية فقراء[٣] .

وكان المحبّون لأهل الطرق الصوفية يدعونهم إلى الطعام ؛ ويحكي لنا المقدسي أنه دفعت به الظروف إلى مجلس الصوفية بشيراز ، فأراد معرفة طريقتهم وحقائقهم ؛ وحلّ من قلوبهم بحيث لا غاية ، وقصده الزوّار ، وحُملت إليه الثيابُ والصُرَر ، فكان يأخذ ذلك ويدفعه إليهم ، وهو يبين سبب ذلك قائلاً : « لأني كنت غنيا في وسطي نفقة وافرة ، وأنا كل يوم في دعوة وأيّ دعوة »[٤] .

---

(١) قرة العيون ومفرح القلب المحزون ، لأبي الليث السمرقندي على هامش الروض الفائق في المواعظ والرقائق ، طبعة مصر ١٣١١ هـ ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٩٠ ؛ (على أنه ليس من المحقق أن الخوارزمي يقصد بالفقير الصوفيّ ، لأنه يتكلم بعد ذلك مباشرة عن الغني فيقول إنه غنيمة كل يد سالبة ، وصيد كل نفس طالبة ، هذا مع أن تسمية الصوفي بالفقير تسمية مألوفة ـ المترجم) .

(٣) المقدسي ص ٤١٥ ؛ والقشيري ص ١٢ ، ٢١ ، ٣٠ .

(٤) المقدسي ص ٤١٥ ؛ القشيري ص ٣٠ .

وكان الشيخ أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري (الثاني ؛ وهو ابن أخت أبي علي الروذباري) المتوفى بصور سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م ، وشيخ الشام في وقته ، سيداً غنيا عالي الهمة رفيع النفس ؛ فكان إذا دعا أصحابه معه إلى دعوة في دور السوقة ومن ليس من أهل التصوف ، لا يخبر الفقراء بذلك ، وكان يُطعمهم شيئا ، فإذا فرغوا أخبرهم ، ومضى بهم ؛ فكانوا قد أكلوا قبل ذهابهم بقليل ، فلا يمكنهم أن يمدُّوا أيديهم الى طعام الدعوة إلا بالتعزُّز ؛ وإنما كان يفعل ذلك لئلا تسوء ظنون الناس بهذه الطائفة ، فيأثموا بسببهم[1] .

وكان خاله أبو علي الروذباري (المتوفى عام ٣٢٢ أو ٣٢٣ هـ — ٩٣٣ م) أحد أئمة الصوفية ، وكان بغدادي الأصل ، وأقام بمصر ؛ وكان من أبناء الوزراء والرؤساء ، يتصل نسبه بكسرى أنو شروان ، ويروى أنه « اتخذ مرة أحمالا من السكر الأبيض ، ودعا بجماعة من الحلوانيين ، حتى عملوا من السكر جداراً عليه شرافات ومحاريب على أعمدة ، ونقشوها كلها من سكر ؛ ثم دعا الصوفية حتى هدموها وكسروها وانتهبوها » . وكان الصوفية في كثير من الأحيان مشهورين بكثرة الأكل وجودته ، حتى ليُضرب المثل « بأكل الصوفية »[2] .

وكان أكبر الآفات على الصوفية في ذلك العصر « مخالطة المخالفين الذين ليسوا على شاكلتهم ، ومصادقة النساء » ؛ وهذه هي بعينها الآفات التي تعرّض لها ، وكان يعاني التغلب عليها ، الفقراءُ المسيحيون في العصور الوسطى ؟ على أنه ُأضيفت إلى ذلك آفة شرقية خاصة هي « صحبة الأحداث »[3] ؛ وقد تُنظر إليها نظرة الجدّ ، حتى يُحكى عن

---

(١) طبقات السبكي ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٢ والقشيري ايضا ص ٢٦ .
(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، للثعالبي ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(٣) القشيري ص ٢٢ .

أبي سعيد الخراز (المتوفى عام ٢٧٧ هـ ـــ ٨٩٠ م) أنه قال : « رأيت إبليس في النوم ، وهو يمرّ عني ناحيةً ، فقلت له : تعال ، ما لك ! فقال : إيش أعمل بكم ، أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس ، فقلت : وما هو ؟ قال : الدنيا ؛ فلما ولّى عني التفت إليّ ، وقال : غير أنّ لي فيكم لطيفةً ، فقلت : وما هي ؟ قال : « صحبة الأحداث »[1] . ويُروى عن الواسطي (المتوفى عام ٣٢٠ هـ ـــ ٩٣٢ م) أنه قال : « إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف » ، يريد به صحبة الأحداث[2] . ويعترف الحجويري أيضاً في القرن الخامس الهجري أنه قد بلغ من جهال الصوفية أنهم جعلوا صحبة الأحداث بما فيها من مفاسد قاعدة في مذهبهم ، وأن العامة أخذوا عليهم ذلك وأنكروه[3] .

على أنه قد ظهرت عند الصوفية نزعة قديمة إلى عدم المبالاة بكل ما في هذه الدنيا حتى بالشريعة ،

فيحكي ابن حزم « أن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم : واتصل بالله تعالى . وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلا يكنى أبا سعيد أبا الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ومرة يلبس الحرير المحرّم على الرجال ، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة ؛ وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال ... »[4] .

ويشكو ابن حزم فوق ما تقدم من أن طائفة من الصوفية ادّعت

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤ ، وقارن ص ١٨٤ .

(٣) كشف المحجوب ص ٤١٦ ، ٤٢٠ .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٨٨ .

« أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ؛ وقالوا : من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلّت له المحرماتُ كلها من الزنى والخمر وغير ذلك ؛ واستباحوا بهذا نساء غيرهم ، وقالوا : إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قـُذف في نفوسنا فهو حق »[1] .

ويقول الحجويري إن دعوة «سقوط الشريعة إذا كـُشفت الحقيقة» هي مقالة الزنادقة من القرامطة والشيعة ومن وسوسوا إليهم من الأتباع[2] . ويحكي القشيري أنه سمع الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعتُ أبا القاسم الدمشقي يقول : سُئل أبو علي الروذباري (المتوفى عام ٣٢٢ هـ ــ ٩٣٣ م) عمن يسمع الملاهي ، ويقول : هي لي حلال" ، لأني وصلتُ إلى درجة لا يؤثر فيّ اختلاف الأحوال ؛ فقال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سَقر[3] .

وكان أكثر الصوفية القدماء متزوّجين .

ويـُحكى أن امرأة أحد الصوفية كانت سيئة الخلق ، تستطيل عليه ؛ وأعطته مرة درهمين من ثمن غزلها ليشتري الدقيق ، فلقي في طريقه جارية تبكي ، لأنها أضاعت درهمين لسيدها ، فخافت أن يضربها ؛ فدفع إليها الدرهمين ، وقعد على حانوت صديق له يشقّ الساج ، وذكر له الحال ، وما يخاف من سوء خلق امرأته ، فقال له : خذ من هذه النشارة في الجراب لعلكم تنتفعون بها في سجر التنور ، إذ ليس في إمكاني مساعدتك بشيء آخر ؛ فحمل الصوفي النشارة وفتح

---

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢٦ . انظر .Schreiner, ZDMG 52, 476 .
(٢) كشف المحجوب ص ٣٨٣ .
(٣) القشيري ص ٢٦ .

باب داره ، ورمى بالجراب ، وردّ الباب ، وذهب إلى المسجد إلى ما بعد العتمة ، ليأخذ أهله النومُ ولا تستطيل عليه زوجته ؛ فلما فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز ، فقال : من أين لكم هذا الخبز ؟ فقالوا : من الدقيق الذي كان في الجراب ، لا تشترِ غير هذا الدقيق ، قال : أفعلُ إن شاء الله ؛ وهكذا لم ينقذه من سوء خلق امرأته إلا كرامة[1] .

وكانت تخدم الجنيد جارية" تسمى زيتونة ، وكذلك خدمت شيخين غيره ، ويدل اسمها[2] ، على أنها كانت أمَة مملوكة ؛ وأعطى الجنيد جارية أخرى أُهديت إليه إلى أحد أصحابه ليتزوجها[3] .

وكان الشبلي متزوّجاً[4] .

ويحكى عن أبي الحسين بن أبي الحواري ، ريحانة الشام ، (المتوفى عام ٢٣٠ هـ) أنه كان له أربع نساء ، وعن معاصره أبي عبد الرحمن حاتم الأصمّ من أكابر مشايخ خراسان أنه خلف تسعة أبناء[5] .

ومما يزيد في غرابة مثل هذه الحكايات أننا نجد بين جماعة الزهاد العبّاد الذين لا ينتمون لأهل التصوف من تمسك بالتجريد ، أعني العزوبة ، وهي نزعة غير إسلامية مطلقاً .

ففي كتاب بستان العارفين (ص ١٩٧ — ١٩٨) لأبي الليث السمرقندي الحنفي (المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٥ م) حضٌ من يستطيع

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٨ .
(٢) نفس المصدر ص ١٨١ .
(٣) روضة الناظرين ص ١٠ .
(٤) نفس المصدر ص ٢١ .
(٥) نفس المصدر ص ١٩٨ .

الاستغناء عن الزواج أن يظل حصوراً ، وأن يتفرغ إلى عبادة الله ، فهي أفضل[1] .

ولا بد أن يكون هذا الرأي قد غلب على الصوفية في القرن الرابع الهجري ، حتى يقول الحجويري في القرن الخامس : « وقد أجمع شيوخ هذه الطريقة على أن أحسنَ الصوفية وأفضلهم المجرّدون ، فإن قلوبَهم خاليةٌ من الآفات ، وطباعَهم مُعرضة عن المعاصي والشهوات ، وبالجملة فإن أساس هذه الطريقة هو التجريد ، وأن الزواج لغيرهم »[2] .

ولكن كلام الحجويري هذا يخالف ما قد وقع بالفعل تمام المخالفة. والحجويري أيضاً أوّل من حكى أخبار الزواج الظاهري الصوري فقط ، فذكر أن أحد مشايخ الصوفية في القرن الثالث الهجري عاش مع زوجته خمسة وستين عاماً من غير أن يقربها[3] ؛ وحكي عن أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي المشهور (المتوفى عام ٣٧١ هـ ــ ٩٨١ م)[4]، وكان من أبناء الملوك ، أن بنات الملوك والرؤساء كُنّ يتقربن منه تبرّكا ، حتى يعقد عليهن ؛ وقد عقد أربعمائة نكاح ؛ ولكنه كان يقبل الزواج ، ثم يطلقهن قبل الدخول بهن[5] .

على أن الحجويري نفسه لم يكن متزوجاً ، وهو يقول : « وبعد أن صانني الله من آفة الزواج أحد عشر عاماً قُدّرَ لي أن أقع في فتنة ، وأن أصير أسيراً لتلك التي لم أرَها ، وبقيت في ذلك عاماً ، حتى قرب ديني من الهلاك ، إلى أن منّ الله عليّ بكمال فضله وتمام لطفه ، فأرسل عصمته إلى قلبي الضعيف ، وخلّصني من هذه الأوزار ؛ فالحمد لله على جزيل نعمائه »[6] .

---

(١) Amedroz, Notes on some sufi lives JRAS, 1912, S. 558.

(٢) كشف المحجوب ص ٣٦٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٦٢ .

(٤) يقول القشيري إنه توفي عام ٣٩١ هـ – (المترجم)

(٥) كشف المحجوب ص ٢٤٧ .

(٦) نفس المصدر ص ٣٦٤ ، ص ٤٧٦ من النص الفارسي .

ويظهر أن الكثيرين من بين الصوفية أنفسهم لم يكونوا راضين عن تطور مذهبهم وانتهائه إلى ما انتهى إليه .

فلما صنّف الشيخ أبو سعيد الأعرابي (المتوفى عام ٣٤١ هـ ــ ٩٥٢ م) كتاب طبقات النسّاك ، وهو أول كتاب في ذلك ، وصف أول من تكلم في هذا العلم ، ثم من بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان إلى أن كان آخرهم البغداديين ؛ وهو يجعل أول التصوف آخره ، فيقول مثلا إن آخر من تكلم في هذا العلم الجنيد وإنه ما بقي بعده « إلاّ مَنْ مُجالَسَتُهُ غيْظٌ » ، « وإلا مَنْ يُستَحيى من ذِكره »[1] .

وقد حُكي عن أبي سهل التستري الإمام الصوفي (المتوفى عام ٣٧٣ هـ ــ ٨٨٦ م أو ٢٨٣ هـ ــ ٨٩٦ م كما يقول القشيري) أنه « كان يقول : بعد سنة ثلثمائة لا يحلّ أن يُتكلّم بعلمنا هذا ، لأنه يحدث قوم يتصنّعون للخلق ، ويتزيّنون بالكلام ، لتكون مواجيدُهم لباسَهم ، وحِلْيَتُهم كلامَهم ، ومعبودُهم بطونَهم »[2] .

وفي سنة ٤٣٧ هـ ــ ١٠٤٥ م كتب عبد الكريم بن هوازن القشيري رسالته المشهورة إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ؛ وذلك أنه لما رأى انقراضَ أكثر شيوخ الصوفية المحققين ، وفسادَ حال كثير من الباقين ألّف رسالته ، وذكر فيها سيراً من سِيَر شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم لتكون قوةً للصوفية وعوْناً على صلاح أمرهم ؛ ومما قاله في أولها : « اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ؛ وقلّ الشبابُ الذين كان

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ١٦٢ .
(٢) نفس المصدر .

لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ؛ وزال الورعُ وطُوي بساطُه واشتد الطمع وقوَى رباطُه ؛ وارتحلت عن القلوب حرمةُ الشريعة ، فعدّوا قلةَ المبالاة بالدين أوثقَ ذريعة ؛ ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ؛ ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ؛ واستخفّوا بأداء العبادات ؛ واستهانوا بالصوم والصلاة ؛ وركضوا في ميدان الغفلات ؛ وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ؛ ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رقّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ؛ وأنهم قائمون بالحق ، تجري عليهم أحكامه ، وهم محو ؛ وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتب ولا لوم ؛ وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختُطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية »[1] .

وفي هذا العصر المتأخر أُثرت عن قدماء مشايخ الصوفية حكايات تدل على الشدة والقسوة في قمع شهوات النفس والتكفير عن ميولها ؛ ويشبه أن تكون هذه الحكايات إنما اختُرعت ونُسبت لأصحابها دفعاً لما شاع من ركوض بعض المتصوفة في الشهوات وتعاطيهم للمحظورات.

فيحكى عن السري السقطي (المتوفى عام ٢٥١ أو ٢٥٧ هـ) ، أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة وأكلت تلك اللقمة من يده ؛ وذات يوم اشتهى أكل الخبز بالقديد ، فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ؛ فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الأدام[2] ؛ وقد لبث ستين سنة لم يضطجع ، فإذا غلبه النوم نام

---

(١) مقدمة الرسالة القشيرية ص ٢ ـ ٣ .

(٢) عجائب المخلوقات للقزويني طبعة فستنفلد ص ٢١٦ ، والقشيري ص ١٠ .

قاعداً القرفصاء[1] .

وتحكى عنه حكاية شبيهة بما يؤثر عن ديوجينيس Diogenes ؛قال تلميذه الجنيد : « دخلت يوما على السري السقطي ، وهو يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت ؟ هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلقه ههنا ؛ ثم إنه حملتني عيناي ، فنمتُ ، فرأيت جارية من أحسن الخلق ، قد نزلت من السماء ، فقلتُ : لمن أنتِ ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان ؛ فتناولتُ الكوز ، فضربتُ به الأرض ، فكسرته »[2] .

ويحكى عن أبي محمد رُوَيم بن أحمد البغدادي (المتوفى عام ٣٠٣ هـ ــ ٩١٥ م) أنه اجتاز بغداد وقت الهاجرة ببعض السكك ، وهو عطشان ؛ فاستسقى من دار ، ففتحت الصبيةُ بابها ، ومعها كوز ماء ، فأخذ منها وشرب ؛ فقالت الجارية : صوفيٌّ يشرب بالنهار ! ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[3] .

ويروى عن الجنيد أن ورده كان في كل يوم وليلة ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة[4] ، وأقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع[5] . على أنه يحكى خلافاً لهذا أنه كان بديناً ، ولذلك كان يشك الناس في زهده[6] .

---

(١) روضة الناظرين للوتري ص ٨ .

(٢) القشيري ص ١١ .

(٣) القشيري ص ٢١ ؛ والقزويني ص ٢١٨ .

(٤) زبدة الفكرة ص ١٤٦ ا .

(٥) القزويني ص ٢١٦ .

(٦) روضة الناظرين ص ١٢ ؛ وتحكى حكايات أخرى كلها من المصادر المتأخرة وتدل على الزهد التام . انظر Amedroz, JRAS, 559 ff. .

ويحكى عن أبي نصر بشر الحافي (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) أنه مر ببعض الناس ، فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كله ، ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرة ؛ فبكى بشر ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة ، ولا أني صمت يوما ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه وكرماً[1] .

ولا نجد مفرّاً من القول بأن مذاهب الصوفية تأثرت بمذاهب المتكلمين (المعتزلة) ؛ ذلك أن الصوفية أخذوا المسائل والمناهج من المعتزلة ؛ فتأمّلْ مثلا قول أبي علي بن الكاتب الصوفي المتوفى سنة نيف وأربعين (٣٤٠ هـ ــ ٩٥١ م) : « إن المعتزلة نزّهوا الله من حيث العقل ، فأخطأوا ؛ والصوفيةُ نزّهوه من حيث العلم ، فأصابوا »[2] ؛ ولذلك انتشر التصوف أسهل انتشار في فارس التي كانت كلهــا معتزلة[3] . ثم إن الصوفية جعلوا مسألة القدر ــ وهي أهم شيء عند المعتزلة ــ نقطة أساسية من مذهبهم ، فقالوا بالجبر على نحو لا اضطراب فيه : يُحكى عن أبي عبد الله أحمد بن يحيى الجلاّء أنه قال : « من استوى عنده المدحُ والذم فهو زاهد ؛ ومن حافظ على الفرائض في

---

(١) القشيري ص ١١ .

(٢) القشيري ص ٢٧ ؛ ومعنى هذا ان المعتزلة نفوا عن الله العقل بالمعنى الانساني ، والصوفية نفوا عنه المعرفة العلمية الاستدلالية . انظر ما قاله الأستاذ ماسينيون في هامش كتاب الطواسين ص ١٨٧ (ولكن لعل صاحب هذا القول يقصد ان المعتزلة نزهوا الله مستندين في ذلك إلى تحكيم العقل والنظر ، فانتهوا إلى التعطيل وما يشبه النفي ؛ على حين ان الصوفية لم يلجأوا إلى العقل ، بل نزهوا الله عن احكام العلوم العادية ومالوا إلى الأخذ بالشرع في ظاهره وإلى العلم المنقول وإلى طريقتهم في التصفية ليحصل لهم العلم به من غير رجوع إلى النظر . المترجم) .

(٣) كان ابو القاسم علي بن احمد بن مبروك الزوزني الشاعر متفنناً في العلوم ، قائلا بالاعتزال والزهد والتصوف (يتيمة الدهر ص ٣٢٤) ؛ وكذلك كان ابو حيان التوحيدي اكبر كتاب النثر في القرن الرابع الهجري متفنناً في الكلام على مذهب المعتزلة ، كان صوفي السمت والهيئة (الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٠) .

أول مواقيتها فهو عابد ؛ ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحِّدٌ لا يرى إلا واحداً »[1] .

على أن الجبر عند الصوفية ليس هو ذلك الاقتران الآلي بين الأسباب والمسببات على النحو الذي يذهب إليه أوساط المتفلسفين وعامّتهم ، بل إن الصوفية جعلوا للجبر معنى دينيا . وقد كان الإسلام دعا من أول الأمر إلى الثقة بالله والتوكل عليه ؛ أما الصوفية فإنهم لم يألوا جهداً في دعوة الناس إلى التوكل على الله والثقة المطلقة به ، تاركين الأمر كله لمشيئته من غير أن يعملوا شيئاً ، ذاهبين إلى أن « أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجلَّ كالميت بين يدي الغاسل ، يقلّبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير »[2] ؛ ومعظم كرامات الصوفية إنما هي جزاء وتحقيق لهذه الثقة التي بفضلها تبقى خزائن الله مفتوحة للمتوكلين . وكان التوكل أكبر عقيدة للصوفية في القرن الرابع الهجري[3] ؛ وكان مذهبهم يقوم على أربعة أصول ؛ فكان فيها بعد التوكل الصبرُ والرضا والرجاء ، وهذا الرجاء شبيه باعتقاد البروتستانت بالفضل الإلهي . وقد أثر الصوفية تأثيراً قويا في الإسلام من طريق قولهم بالتوكل ، حتى طبعوه بطابعه ، وهو ما يسمى بالاستسلام أو الجبر الإسلامي (Muhammedanischer Fatalismus) .

---

(١) القشيري ص ٢٠ ؛ ولكن توحيد الصوفية على هذا المعنى يناقض ما ذهب إليه المعتزلة من قولهم باختيار الانسان في افعاله وخلقه لها .

(٢) ونجد هنا لأول مرة التمثيل بالميت بين يدي الغاسل ، ولم يكن هذا التشبيه قد أصبح في القرن الرابع شيئا عاديا مألوفا . وإذا كان السكلاباذي (المتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) قد ذكره (انظر مقالة الأستاذ جولدزيهر Goldziher, Materialien Zur Entwicklungsgeschichte des Sufismus (WZKM. 1899, S. 24, فإن المكي (المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لم يذكره ؛ وذلك خلافاً للقشيري (ص ٧٦) وقد بين جولدزيهر في مقالة المتقدم شأن القول بالتوكل عند الزهاد .

(٣) انظر مثلا باب التوكل في رسالة القشيري . (المترجم)

ولم يكن للقول بالجبر عند المتكلمين ولا عند المنجمين من الأثر في الإسلام ما كان لتوكل الصوفية ، وما ذلك إلا لأن الصوفية كانوا يطبقون قاعدة التوكل ، جادّين كل الجد ، في شؤون الحياة اليومية العملية .

على أن الاصطلاحات الإسلامية الخاصة بالجبر لم يكن ظهورها في هذا العصر ، بل هي جمعت فيه ورسخت ، كما هي عليه اليوم[1] . وهذه هي النقطة الهامة ، وقد رسّخ المتصوفة في ذهن كل مسلم بأفعالهم وبكلامهم البليغ ، أن أرزاق الناس قد قسّمت ، وكُتبت قبل خلقهم بزمان طويل ، « وأن لكل عبد رزقاً هو آتيه لا محالة ، ولو هرب العبد من رزقه ، كما لو هرب من الموت ، لأدركه »[2] ، « وأن من اهتم برزق غد ، وعنده اليوم قوت ، فهي خطيئة تُكتب عليه »[3] ؛ وأن رزق كل إنسان قد كُتب في اللوح المحفوظ ، «ولا يُزاد فيه بحول ولا حيلة»[4]، وأن الأرزاق قد خلقت قبل خلق الأجسام بألفي عام[5] .

وكان وهب بن الورد يقول : « لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً ثم اهتممت برزقي لظننت أني مشرك »[6] .

وأخيراً قوّى الصوفية روحَ التوكل ، كما دعا إليه الزهّاد العبّاد ، وحثّت عليه النصوص المأثورة ـــ وهذا شيء في غاية الأهمية

(١) اما كلمة الفتوح (كقولهم العيش من الفتوح أو على الفتوح من ابواب الرزق)، وهو الاصطلاح الذي صار فيما بعد هو وحدة المستعمل بين الصوفية ، فقد كان في هذا العصر نادر الاستعمال ، وإن كان يذكر بين حين وآخر (انظر .Goldziher, WZKM, 1899, S. 48 ff) .

(٢) قوت القلوب ج ٢ ص ٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٧ .

(٥) قوت القلوب ج ٣ ص ١١ من طبعة ١٣٥١ هـ ـــ ١٩٣٢ م .

(٦) قوت القلوب للمكي ج ٢ ص ٩ .

من الناحية الدينية ــ وفسروه بأنه الرضاء التام بكل الأحكام الإلهية[1] (amor fati) والسرور باستقبال مجاري القضاء كلها ، بحيث يكون العبد راضياً عن المصيبة والنعمة على السواء ؛ ويحكى عن رابعة أنها سئلت : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت إذا سرّته المصيبة كما سرته النعمة ؛ ويحكى عن بعض مشايخ الصوفية أنه قال : أرجو أن أكون عرفتُ طرفاً من الرضا : لو أدخلني النارَ لكنت بذلك راضياً[2] .

وتدل على توكل الصوفية الحقيقيين تلك الحكايةُ المشهورة التي تروى عن الدرويش الذي وقع في دجلة ؛ فقد أبصره رجل من المارّة ، ورأى أنه لا يعرف السباحة ، فقال له : أتريد أن أرسل إليك من ينقذك ؟ فقال : لا ؛ فقال له الرجل : أفتريد أن تغرق ؟ فقال : لا ؛ فقال له : فأي شيء تريد ؟ فقال : أي شيء أريد ! أريد ما يريده الله لي[3] .

وفي أوائل حركة التصوف كان المحاسبي (المتوفى عام ٢٤٣ هـ ــ ٨٥٨ م) أول من فصل بين الرضا بمجاري الأحكام الإلهية (amor fati) وبين التوكل بمعناه المعروف ، وقال : إن الرضا من جملة الأحوال التي لا تكتسب وإنما هي نوازل تحلّ بالقلب[4] ؛ والمحاسبي هو أول من جعل للرضا الحظ الأوفر من عنايته ؛ ونستطيع أن نعتبر المحاسبي

---

(١) يقول القشيري (ص ٨٩) : « وقد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا : هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل ؛ ومعناه أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه ؛ وأما العراقيون فإنهم قالوا : الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال » .   (المترجم)

(٢) القشيري ص ٨٩ ــ ٩٠ (باب الرضا) .

(٣) كشف المحجوب ص ١٨٠ ، ٣٧٩ وما بعدها .

(٤) انظر نص القشيري المتقدم ، وكتاب كشف المحجوب ص ١٧٦ وما بعدها .

مؤسس مذهب الاستسلام Fatalismus الذي ينسب للمسلمين[1] .

على أن الصوفية لم يبنوا عقيدتهم في القدر كما أنهم لم يتشرّبوها على منهج المنطق ، بل هم اقتصروا في ذلك على الناحية العملية الدينية ؛ فمن ذلك أنهم مثلاً لم يقعوا في الجمود في التفاصيل ، ولم يتأدوا إلى رأي صارم صلب فيما ذهبوا إليه بين حين وآخر من القول بالقدر[2] .

أما النظرية الثانية الكبرى في مذهب الصوفية ، وهي مسألة الولاية ، فإنها مذهب نصراني غنوسطي ؛ والولي[3] هو من يواليه الله وينصره ، وهذه فكرة صوفية أدخلها الصوفية في الإسلام ، فلم ينفك عنها في كل عصوره ؛ وهذا هو أكبر نجاح ظاهر للصوفية ، وهو النجاح الذي بدأ يظهر في القرن الرابع الهجري . وينسب للمحاسبي (المتوفى عام ٢٤٣ هـ ـ ٨٥٨ م)[4] الذي تأثر بالمسيحية تأثراً قوياً أنه تكلم في

---

(١) على أن المحاسبي مع قوله بالتوكل يعتبر العمل واجباً كالجري على المعاش ؛ ويقول إن العمل في بعض الأحيان فضل ينال الانسان عليه الثواب . وهذا موجود في كتاب المكاسب للمحاسبي ، وفيه نقد لشقيق البلخي المتوفى عام ١٩٤ هـ وهو القائل بالتوكل من غير عمل ومؤسس مذهب الاستسلام . (المترجم)

(٢) قوت القلوب للمكي ج ٢ ص ٧ .

(٣) انظر المعاني الأولى لهذه الكلمة في كتاب جولدزيهر Goldziher المسمى Muhammedanische Studien, II 286 f. ، وانظر معنى الكلمة أيضاً في رسالة القشيري ص ١٦٠ . وكانت كلمة الولي في القرن الرابع تستعمل في معنى عادي غير ديني بمعنى القريب أو النصير . انظر رسائل الصابي (مخطوط ليدن رقم ٧٦٦ ص ٢١٥ ب ، ٢١٩ ا (أ) ، ٢٢٠ ا ، ٢٢٦ ب) . وفي رسالة القشيري ص ١٧٤ يوصف الجندي بأنه أحد أولياء السلطان : « وقد تقاتل اثنان أحدهما من أولياء السلطان والآخر من الرعية » ؛ وانظر أيضاً رسائل الخوارزمي ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) انظر ما تقدم من المحاسبي في أوائل هذا الفصل .

مسألة درجات الأولياء وفي مقدمات الحياة الصوفية[1] . ويقال إن الذي أدخل مسألة الولاية في مذهب الصوفية هو أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي (المتوفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م) ، والذي ينسب إليه أنه قال إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء[2] .

أما مؤرخو القرن الرابع وأصحاب التراجم فيهم فلا يعرفون من الأولياء إلا الطائفة المسمّين بالأبدال[3] ، ويذكر ابن دريد (المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م) ، أن الأبدال جمع بديل ، وهم فئة من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم أبداً وعددهم سبعون ، أربعون منهم في الشام وثلاثون في سائر البلاد[4] . أما الحجويري في القرن الخامس الهجري فهو يذكر طبقات أخرى من الأولياء : فهناك ثلاثمائة يسمون الأخيار ، وأربعون يسمون الأبدال ، وسبعة يسمون الأبرار ، وأربعة يسمون الأوتاد ، وهم يطوفون العالم بجملته في كل ليلة ، وثلاثة نقباء . وأخيراً يوجد القطب أو الغوث ، والأولياء هم ولاة العالم ، والحل والعقد منوط بهم ،

---

(١) Margoliouth, Verhandl. 3 Kong. f. Religionsgeschichte, Oxford, Bd. I, S. 292.

(٢) انظر أوائل هذا الفصل .

(٣) ربما كانت هذه الكلمة تعريباً للكلمة الفارسية التي تدل على الآباء وهي : بدَرْ ، وهي التي تدل على القائد الروحي منذ عهد الغنوسطيين إلى عهد فرقة اليزيديين (بير) . ويحكى عن أبي ثوبة (المتوفى عام ٢٤١ هـ) والذي ولد بحلب وعاش في طرسوس أنه كان من الأبدال (طبقات الحفاظ للذهبي طبعة فستنفلد ج ٢ ص ١٨ ؟) . وفي سنة ٢٤٢ هـ مات الطوسي أحد الأبدال (نفس المصدر ص ٣٢ ، ٣٣ ؟) . وفي عام ٢٦٥ مات إبراهيم بن هانيء النيسابوري ، وكان من الأبدال (تاريخ أبي الفدا تحت عام ٢٦٥ هـ ج ٢ ص ٢٥٦) . وكذلك كان خير بن عبد الله النساج الصوفي المتوفى عام ٣٢٢ هـ من الابدال (ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢٢) . وفي سنة ٣٢٧ هـ توفي أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي ، وكان زاهداً يُعد من الابدال (طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٣٧) . وقيل في حق أحد علماء الأندلس في القرن الرابع الهجري : « وإن كان أحد في عصره من الابدال فيوشك أن يكون هو منهم » (ابن بشكوال ج ١ ص ٩٢) .

(٤) مادة بدل في ملحق قاموس Lane (؟) .

وتدبير العالم موصول بهمّتهم[1] . ومن الجليّ أن القطب هو الذي يقوم مقام الإله (Demiurgos) عند الغنوسطيين ، وكانت صحراء تيه بني إسرائيل تعتبر في ذلك الوقت موضع لقاء الغوث[2] وكانت الأُبُلّة مقر الأبدال[3] .

ولم يكن يدفع عن نفسه تقديس الأولياء إلا أهلُ السُّنّة المتمسكون بالنزعة القديمة . وكان الصوفية يزدرونهم ويشنّعون عليهم بأنهم حشوية (مشبّهة) ، ولم يكن أولئك السنّيون يعترفون بالدرجة الرفيعة في القرب من الله إلا للأنبياء ، أما المعتزلة فكانوا ينكرون بالكلية أن يختص بعض المسلمين بالولاية دون البعض ، ويرون أن جميع المسلمين الذين يطيعون الله ويقومون بأحكام الدين هم أولياء الله[4] .

وكان من شأن انتظام الصوفية في جماعات أنه قوّى اعتقادهم بالأولياء ، حتى صار المتأخرون لا يعرفون ولا يذكرون إلا أولياء الصوفية ، ثم ألحقوا بهم الأولياء الأقدمين مثل معروف الكرخي ، وبشر الحافي . وقد وُضع على رأس هؤلاء الصوفية الحسن البصري[5] ، وهو الرجل الذي كان يستبشع تظاهر الصوفية بلباسهم الخاص ؛ فيحكى أنه تكلم عن كساء الصوف الذي كان يرتديه الصوفية ، والذي ادّعى عليه البعض أنه لبسه ، بعبارة قاسية ، فقد رأى على مالك بن

---

(١) كشف المحجوب ص ٢١٤ ، ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٩ من الترجمة ، ٢٨٩ — ٢٩٠ من النص الفارسي .

(٣) رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ص ٤٩ .

(٤) كشف المحجوب ص ٢١٣ ، ٢١٥ .

(٥) روضة الناظرين ص ٥ .

دينار كساء صوف فقال له : يعجبك هذا الطيلسان ؟ قال : نعم ، قال : إنه كان على شاةٍ قبلك[1] .

وقد اختص القرنان الأولان في حياة التصوف بوجود كثير من الصالحين الذين اجتمع لهم شرطا الولاية وهما : أن يكون الوليّ مُجاب الدعوة ، وأن تقع على يديه الكرامات[2] ، وأولئك هم أولياء الإسلام القدماء الذين تؤثر أخبارهم في جملة المأثورات القيمة ، فالقزويني مثلا لم يذكر في كلامه عن بغداد ــ عدا بشر الحافي ــ إلا الأولياء الذين عاشوا حوالي عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م[3] . وكان كتاب طبقات الصوفية للسلمي (المتوفى عام ٤١٢ هـ ــ ١٠٢٤ م) أول كتاب في تراجم الأولياء، ويُشعِر ما قاله أبو المحاسن الذي قرأ هذا الكتاب[4] بأن ظهور الأولياء إنما كان منذ القرن الثالث فما بعده ، وأنه امتلأ منهم القرن الرابع[5] .

وكرامات الأولياء كثيرة متنوعة ، « وقد تكون إجابةَ دعوة ، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقةٍ من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء في زمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة ، أو تخليصاً من

(١) لب اللباب (الآداب) في رد جوابات ذوي الألباب مخطوط برلين رقم ٨٣١٧ Ahlw. ص ١٩٥ .

(٢) وكذلك تستعمل كلمة كرامات استعمالا غير ديني أيضا ؛ فمن ذلك ما جاء في رسائل الصابي (مخطوط ليدن ص ٢٢٨ أ) : « ذلك ما أهلني له ورفعني إليه مولانا من تقليد ديوان الرسائل بحضرته وملازمة مجلسه وتوفيته إياي ضروب الكرامات بالخِلَع التامة والحُملان الرائع ... ... الخ » .

(٣) عجائب المخلوقات طبعة فستنفلد ص ٢١٥ وما بعدها .

(٤) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢١٨ .

(٥) قارن الارشاد لياقوت ج ٤ ص ٢٠٢ .

عدوّ ، أو سماعَ خطاب من هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة »[1] . ومنها أيضاً الأعاجيب التي تظهر عند موتهم .

فيحكى أنه وجد مكتوباً على جبهة ذي النون المصري بعد موته : « هذا حبيب الله ، مات في حب الله ، قتيل الله » ، وعندما سارت جنازته تجمعت طيور السماء فوقها وألقت أجنحتها على الجنازة لتظلّلها[2] .

ولما مات أبو محمد البربهاري في عام ٣٢٩ هـ ــ ٩٤١ م مستتراً من السلطان عند أخت توزون ــ لأنه كان يحارب أهل البدع ، فغيّروا قلب السلطان عليه ــ بحثتْ عمن يغسله ويصلي عليه ؛ فجاء رجل وغسله وصلى عليه وحده ، وكانت أخت توزون قد أغلقت الأبواب ، حتى لا يعلم أحد بذلك ، فاطّلعت فإذا الدار ممتلئة رجالا بثياب بيض وخضر[3] .

وكذلك أمر أحمد بن طولون بأن يُطرحَ بُنانٌ الصوفي المعروف بالحمّال (المتوفى عام ٣١٦ هـ ــ ٩٢٨ م) بين يدي سبع ، فطُرح وبقي ليلته مع السبع ، فكان السبع يشمّه ولا يضرّه ؛ فلما جاء الصباح وجدوه قاعداً مستقبلا القبلة ، والسبع بين يديه ، فأطلقه ابن طولون واعتذر إليه[4] . وقد سُمّي الشيخ أبو الخير العابد الأقطع الشامي صاحب الكرامات المتوفى عام ٣٤١ هـ بالبُناني ، وربما كان ذلك لأنه كان من كراماته أن الوحوش تأنس به[5] .

---

(١) القشيري ص ١٦٠ .

(٢) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٠٠ وص ١٢٥ من الأصل الفارسي .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ٦٨ ب من مخطوط برلين .

(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ٣٥ ب ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٥) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٣٥ .

وفي سنة ٢٦٢ هـ توفي عبد الله المروزي ، أحد الأبدال ، وكان يقيم بقزوين ، وكان يمشي على الماء ، ويقف له بحر جيحون[1] .

ويُحكى عن أحد الصوفية أنه كان يتناول الجواهر من الهواء ، وعن رجل أسود فقير يأوي إلى الخرابات أنه أشار بيده إلى الأرض ، فإذا الأرض كلها ذهبٌ تلمع ؛ وجاءه رجل يحمل إليه شيئاً ، فهاله الأمر وهرب ؛ وعن آخر أن حماره كلّمه ؛ وعن بعضهم أن حماره نفق في بعض الطريق ، فصلى ودعا الله أن يبعثه ، فقام الحمار ينفض أذنيه ؛ وعن رجل منهم أنه وقع فص له في دجلة ، فدعا بدعاء مجرَّب عنده ، فوجد الفص في أوراق كان يتصفحها ؛ وعن غيره أنه أوى إلى مسجد من المطر ، وكان سقفه يَكِف ، فأراد إصلاح السقف بخشبة كانت معه ، وكانت قصيرة ؛ فطالت ، حتى ركبت الحائط .

ويحكى عن صوفي أنه لما مات ضحك على المُغْتَسَل ؛ فلم يجسر أحد على غسله وقالوا إنه حيٌ ، حتى جاء واحد من أقرانه وغسله .

ورُوي عن آخر أنه انكسرت به السفينة ، وبقي هو وامرأته على لوح ، وولدت امرأته في تلك الحال صبيَّةً ، فصاحت به وقالت له : يقتلني العطش ! فقال : هو ذا يرى حالنا ؛ فرفع رأسه ، فإذا رجلٌ في الهواء جالس ، وفي يده سلسلة من ذهب ، وفيها كوزٌ من ياقوت أحمر ، وقال : هاكما ، اشربا ! فشربا منه شيئاً أطيب من المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ؛ فقال الرجل لصاحب الكوز : من أنت ، رحمك الله ؟ فقال له : عبدٌ لمولاك ، فقال له : بم وصلتَ إلى هذا ؟ فقال : تركتُ هواي لمرضاته ، فأجلسني في الهواء .

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٧ .

ويحكى عن شاب كان يكثر الصلاة عند الكعبة أنه سقطت عليه رقعة مكتوب فيها : من العزيز الغفور إلى عبدي الصادق ، انصرف مغفوراً لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ وكان قد سُئل هذا الشاب من قبل في كثرة صلاته ، فقال إنه ينتظر الإذن من ربه في الانصراف .

ويُذكر عن رجل أنه كان يتعبّد في غرفة ليس إليها سلم ولا درج ؛ فكان إذا أراد أن يتطهّر يجيء إلى باب الغرفة ، ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويمرّ في الهواء ، كأنه طير ، ثم يتطهّر ، فإذا فرغ ، يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويعود إلى غرفته .

ويُروى عن آخر أنه دخل الأتون ، وهو موقد ، وخرج من الباب الآخر ، لم يصبْه شيءٌ ، على نحو ما يحكى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ؛ وعن أحدهم أنه تزوج امرأة ، فلما كان ليلة الدخول بها وقعت عليه ندامة ؛ فلما أراد الدنوّ منها زُجر عنها ، فخرج ، فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج ؛ وعن ذي النون المصري أنه أراد أن يبين طاعة الأشياء للأولياء ، فأمر السرير أن يدور في أربع زوايا البيت ، فدار ، ثم رجع إلى مكانه ؛ وعن الفُضَيل أنه كان على جبل من جبال مِنىً فقال : لو أن ولياً من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يَميد لماد ، فتحرك الجبل ؛ فقال له أسكن ! لم أُرِدْكَ بهذا ؛ فسكن الجبل .

ويُحكى عن السريّ السقطي أن الدنيا كانت تأتي له على هيئة عجوز ، فتكنس بيته ، وتحمل إليه في كل يوم رغيفين ؛ وعن بعضهم أنه مات وهو في مركب ، فَجُهِّز ، وأريد إلقاؤه في البحر ، فجفّ البحر ، ونزلت السفينة ، فحفروا له القبر ودفنوه ؛ فلما فرغوا استوى الماء ، وارتفع المركب .

وكثيراً ما يذكر أن الخضر يظهر للأولياء ، ولا يزال الخضر إلى اليوم موئل الدراويش[1] .

ويحكي ابن حزم[2] عن بعض نوكى الصوفية أنهم زعموا « أن الخضر وإلياس ، عليهما السلام ، حيّان إلى اليوم ؛ وادّعى بعضهم أنه يلقى إلياس في الفلوات ، والخضر في المروج والرياض ، وأنه متى ذُكر حضر على ذاكره » .

وقد يفطن البعض إلى كرامات الوليّ بعد فوات عصره ؛ فيحكي القشيري مثلاً أن مما شاهده من أحوال أبي علي الدقّاق أنه كان به علّة حرقة البول ؛ وكان يقوم في الساعة غير مرة ، وربما كان يجدّد لركعتي فرض أكثر من مرة ؛ ولكنه كان إذا قعد على رأس الكرسي يتكلم لا يحتاج إلى الطهارة ، ولو امتدّ به المجلس زماناً طويلا ، ثم يقول القشيري : « ولم يقع لنا في حياته أن هذا شيء ناقض لعادته ، وإنما وقَع لي هذا وفُتح عليّ علمُه بعد وفاته » : وذلك لأن أحوال الولي تكون مستورة[3] .

على أننا لا نجد أنه قد وقع على أيدي المسلمين في ذلك العهد ما كان يقع على أيدي أصحاب الخوارق النصارى من إحياء الموتى[4] ؛ أما المسلمون فلم يصلوا إلا إلى قيام الحيوانات بعد موتها على أيديهم[5] .

ولم يكن يتعلّق بالخوارق والكرامات إلا عوامُّ الصوفية ؛ أما

(١) انظر باب الكرامات في رسالة القشيري . (المترجم)
(٢) الفصَل ج ٤ ص ١٨٠ .
(٣) القشيري ص ١٧٢ .
(٤) انظر مثلا Michael Syrus, S. 560 ff. .
(٥) القشيري ص ١٧٤ .

الخاصة الكاملون فكانوا لا يجعلون لها شأناً ، إذا قورنت بالقوى العجيبة في الحياة النفسية •

فيحكى أنه قيل لأبي محمد بن عبد الله بن محمد المرتعش (المتوفى عام ٣٢٨ هـ ـــ ٩٤٠ م) : إن فلاناً يمشي على الماء ، فقال : « عندي أن من مكّنه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشي في الهواء »[١] •

وحكي عن بعض الصوفية أنه قال : كان في نفسي شيء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين • ثم قلت : وعزتك لئن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسي ، قال : فخرجت لي سمكة فيها ثلاثة أرطال ؛ فبلغ ذلك الجنيد ، فقال : كان حكمه أن تخرج له أفعى تلدغه »[٢] •

ويحكى عن أبي يزيد البسطامي (المتوفى عام ٢٦١ هـ ـــ ٨٧٤ م) أنه قيل له : فلان يمشي في ليلة إلى مكة ، فقال : الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله ؛ وقيل له : فلان يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، فقال : الطير يطير في الهواء والسمك يمرّ على الماء •

وكان أبو سهل التستري (المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ ـــ ٨٨٦ م أو ٨٩٦ م) لا يعتدّ بإظهار الكرامات ؛ فكان جزاؤه أن أضيفت إليه كرامات • ويحكى عنه أنه قال : أكبر الكرامات أن تبدّل خلقاً مذموماً من أخلاقك[٣] • وجاء رجل إلى سهل ، وقال له : إن الناس يقولون إنك تمشي على الماء ؛ فقال : سل مؤذّن المحلّة ، فإنه رجل

(١) نفس المصدر ص ٢٦ •

(٢) نفس المصدر ص ١٦٣ •

(٣) نفس المصدر ص ١٦٣ •

صالح لا يكذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدري هذا ، ولكنه نزل الحوض في بعض الأيام ليتطهر ، فوقع في الماء ، فلو لم أكن أنا لبقي فيه ؛ يقول القشيري : « قال الأستاذ أبو علي الدقاق إن سهلاً كان بتلك الحالة التي وصف ، ولكنّ الله تعالى يريد أن يستر أولياءه ، فأجرى ما وقع من حديث المؤذن والحوض ستراً لحال سهل ، وكان سهل صاحب الكرامات »[1] .

وقد ذهب بعض العلماء الذين هم أئمة وحجة عند الصوفية إلى أن المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي ؛ وإلى أن الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعوة ؛ فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا . وذهب بعضهم إلى أن المعجزات دلالات الصدق لصاحبها ، فإن ادّعى النبوة دلّت على صدقه في مقالته ، وإن أشار إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه في حاله ، فتسمى كرامة ، ولا تسمى معجزة ، وإن كانت من جنس المعجزات للفرق ، وكان يقول : « من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها ، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يدّعي ذلك ويقطع القول به ؛ والولي لا يدعيها ولا يقطع بكرامته لجوز أن يكون ذلك مكراً »[2] .

وكذلك اختلفت الآراء في الوليّ : هل يجوز أن يعلم أنه وليّ أم لا ؟ فذهب البعض إلى أنه لا يجوز ذلك ؛ « لأنه يسلبه الخوفَ ، ويوجب له الأمنَ » ؛ وذهب غيره إلى جوازه عند بعض الأولياء دون بعض[3] . ويحكى عن السريّ السقطي ، شيخ التصوف ، أنه قال :

---

(1) نفس المصدر ص ١٧٢ .

(2) القشيري ص ١٥٨ – ١٦٠ ، ومن الفوارق الاخرى بين النبي والوليّ أن النبي يكون معصوماً على خلاف الولي (انظر كشف المحجوب ص ٢٥ والقشيري ص ١٦٠) .

(3) القشيري ص ١٥٩ .

لو أن واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا وليّ الله ؛ فلو لم يَخَفْ أنه مكرٌ لكان ممكوراً[1] .

والذي يدل على أن تعظيم الأولياء ، رغم كل ما يقال فيه ، كان إلى حد كبير شأن المتصوفة والعامة هي كتب العلماء والأدباء ، فلسنا نجد من علماء الجغرافية في القرن الرابع من يتكلم عن وليّ من الأولياء ، ولا نجد شاعراً يذكر أحداً منهم .

وأخيراً فإن المذهب الصوفي أنشأ اعتقاداً كانت له قوة جاذبة كبيرة جداً من الناحية الدينية ؛ لأنه كان يشبع حاجة للتقديس موجودة قبل عهد الإسلام : فقد رفع هذا الاعتقاد محمداً إلى درجة فوق درجة الإنسان ، حتى أوشك أن يرفعه إلى درجة الألوهية . أما المسلمون الأولون فقد كانوا معتدلين مقتصدين ؛ فيُحكى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه دخل على حبيبه وهاديه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مسجّى، فقبّله ؛ ثم بكى وقال : بأبي أنت وأمي يا نبيَّ الله ، لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متّها[2] .

أما الحلاّج ، فإنه — وإن كان يعظم قدر عيسى عليه السلام — يبدأ في الفصل الأول من كتاب الطواسين بما يشبه أنشودة حماسية عن النبي محمد عليه السلام : « طس سراج من نور الغيب بدا وعاد ، وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى من بين الأقمار ، برجُه في فلك الأسرار ، سمّاه الحق أُميّاً لجمع همته ، وحرمياً لعظم نعمته ، ومكياً لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهرَ بدره .

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٠ .

(٢) صحيح البخاري باب الجنائز .

طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من نحية تهامة ، وأضاء سراجه من معدن الكرامة ، ما أخبر إلا عن بصيرته ... «والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؛ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق ، وهم يعلمون » . أنوار النبوّة[1] من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، همّته سبقت الهمم ، ووجودُه سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم ... وهو سيد البريّة الذي اسمه أحمد ، ونعته أوحد ؛ كان مشهوراً قبل الحوادث والكواين والأكوان ، ولم يزل كان مذكوراً قبل القبل وبَعد البعد ، هو الذي جلا الصدأ عن الصدر المغلول ، هو الذي أتى بكلام قديم لا محدث ولا مقوّل ولا مفعول ... فوقه غمامة برقت ، وتحته برقة لمعت ، وأشرقت وأمطرت وأثمرت ، العلوم كلها قطرة من بحره ، الحِكَم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول في الوصلة ، هو الآخر في النبوّة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة ، خرج عن ميم محمد وما دخل في حايه أحد »[2] .

بهذه الأصول الثلاثة الكبرى ، وهي ما سمّي بالاستسلام ، ثم تعظيم الأولياء وتعظيم النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) رسم الصوفية في القرنين الثالث والرابع ، للهجـرة للحركات الإسلامية الاتجاهات الكبرى التي سارت عليها والتي بقيت إلى اليوم .

---

(١) يقول متز إن هذا التعبير تعبير غنوسطي .

(٢) كتاب الطواسين ص ٩ – ١٤ . وكذلك القول بالوجود السابق اصله من مذاهب الغنوسطيين . (وقد أصلحت هنا بعض الآراء لتطابق النصوص التي يرجع إليها المؤلف ، وفيما يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام ، انظر ما يلي – المترجم) .

ولكن التصوف لم يكن يضمن للناس اليقين بالفوز بالنجاة في الآخرة ، كما أنه لم يكن يحقق لهـم تبديد ما يساورهم من المخاوف والشكوك فيما يتعلق بحسن الخاتمة . فيحكى أن أبا طالب المكي ـ وكان من أكابر الزهاد المتعهدين وصاحب كتاب في التصوف ـ لما حضرته الوفاة عام ٣٨٦ هـ ـ ٩٦٦ م ـ قال لأحد أصحابه : إذا علمتَ أنه قد ختم لي بخير، فانثر عليّ سكراً ولوزاً، إذا خرجت جنازتي، وقل : هذا للحاذق ؛ فقال صاحبه : من أين أعلم ؟ فقال : خذ بيدي وقت وفاتي، فإذا أنا قبضت بيدي على يدك ، فأعلم أنه خَتم الله لي بالخير ، وإذا أنا لم أقبض على يدك ، وسيّبت يدك من يدي ، فاعلم أنه لم يُختَم لي بخير » . قال صاحبه : فقعدت عنده ، فلما كان عند وفاته قبض على يدي قبضاً شديداً ، فلما أُخرجت جنازته نثرت عليه سكراً ولوزاً ، وقلت : « هذا للحاذق » كما أمرني[1] .

ويحكى مثل هذا عن الإمام أبي الحسن الماوردي (المتوفى عام ٤٥٠ هـ ـ ١٠٥٨ م) ، فقد قيل « إنه لم يُظهر شيئاً من تصانيفه في حياته ، وجمعها في موضع ؛ فلما دنت وفاته قال لمن يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي ، وإنما لم أظهرها ، لأني لم أجد نيةً خالصة ؛ فإذا عاينت الموت ووقعت في النزع ، فاجعل يدك في يدي ، فإن قبضتُ عليها وعصرتها ، فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها ، فاعمد إلى الكتب وأَلقِها في دجلة ؛ وإن بسطتُ يدي ، ولم أقبض على يدك، فاعلم أنها قد قبلت وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية » . قال ذلك الشخص : « فلما قارب الموت وضعت يدي في يده ، فبسطها ولم يقبض على يدي ، فعلمت أنها علامة القبول ، فأظهرتُ كتبه من بعده وعليها خطه »[2] .

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٣٩ ب .
(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

ومما يقرؤه الإنسان مع التأثر أنه في أواخر التراجم الغريبة التي تكتب للأولياء يتذكر أن الوليّ يعرض في المنام لأحد أصحابه أو تلاميذه ، وعليه ملابس تدل على ما ناله من الرحمة والإلهية والفضل ، وأن أصحابه يسألونه متلهفين عن الشيء الذي نال به السعادة والقبول .

وكان أكبر شيء يضمن للإنسان الجنة عند المسلمين هو أن يستشهد الإنسان ، وهو يقاتل الكافرين . وقد فطن الإمبراطور نقفور — وهو أكبر عدوّ للإسلام في القرن الرابع الهجري — لقيمة هذه المسألة من الناحية الحربية ؛ فأراد أن يعلن أن كل من يموتون في الحرب مع المسلمين ، فهم شهداء ، ولكن الكنيسة كانت ساخطة على نقفور لأسباب مالية ، فلم تجبه إلى ذلك[1] .

على أن حركة التصوف قد خرجت كثيراً في بعض صورها الأخرى عن حدود المبادىء الإسلامية ، وهذا هو الذي يجعلها فرعاً غير أوروبي له مميزاته الشرقية الخاصة ، فلم يكتف المتصرفون بأن يجعلوا للإحساسات صبغة إلهية ، بل هم أرادوا فوق ذلك أن يجعلوا للارادة الانسانية هذه الصبغة ، وأن يدّعوا لهذه الإرادة الإلهية في زعمهم — بناء على ذلك — القدرةَ الإلهية على كل شيء ، وبهذه المذاهب عرّضوا هدوء الدولة وسكينتها لأكبر الأخطار ، وازدادت قائمة الزنادقة حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م زيادة كبيرة ملحوظة .

ففي عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م — قتل الحسين بن منصور الحلاج قتلةً شنيعة ، فضرب ألف سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وأُحرق بالنار[2] ؛ وقد سمع كثيراً من شيوخ التصوف المشهورين ، ومنهم

---

(١) Krumbacher, Geschichte der byz. Literatur, 2, S. 985.

(٢) انظر آخر ما كتب عن الحلاج عند Schreiner, ZDMG, 52, S. 468 ff. ؛ وعريب القرطبي طبعة دي غوي ص ٨٦ وما بعدها ؛ وأهم ما يرجع إليه كتاب الطواسين للحلاج (طبعة باريس ١٩١٣) ، ومقالة « أنا الحق » في مجلة Der Islam, III, 248 ff.

الجنيد . يقول البيروني[1] عن الحلاج إنه رجل متصوّف من أهل فارس ؛ ويقول صاحب الفهرست إنه كان يظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة[2]. ويحكى أنه كان يصلي في كل يوم أربعمائة ركعة[3] . ويذكر ابن النديم بعد وفاة الحلاج بست وستين سنة سبعة وأربعين من مصنفاته[4] . وقد نشر الأستاذ ماسينيون أحد هذه الكتب وعلق عليه .

وقد استطاع الحلاج أن يعبّر عن النقط الدقيقة في تفكيره ، وعما كان له من نزوع قوي إلى إفناء المخلوقات في الخالق تعبيراً أدبياً يتجلى فيه الحذق والمهارة المدهشة ، ولم تكن هذه القدرة بنت أمسها بل هي تنم عن نسبها وصلتها بمذاهب الغنوسطيين ، وهي تذكرنا أيضاً في كثير من الأحيان بأجمل القطع في أناشيد الغنوسطيين .

أما طريقة الحلاج فهي من كل وجوهها طريقة المعتزلة ، فقد أخذ عنهم فكرة تنزيه الذات الإلهية عن جميع الصفات الإنسانية وجميع صفات الحوادث ــ كما أخذ عنهم تسمية الذات الإلهية باسم الحق ــ وتلك الفكرة هي آخر ما يصل إليه الإنسان بطريق التنزيه .

---

(1) الآثار الباقية ص ٢١١ .

(2) كتاب الفهرست ص ١٩٠ .

(3) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٣٠٣ .

(4) كتاب الفهرست ص ١٩٢ ؛ وما ذكره الأستاذ ماسينيون في كتاب الطواسين . ويقول البيروني في الآثار الباقية (ص ٢١٢) إن الحلاج صنف كتباً في دعواه مثل كتاب نور الأصل وكتاب جم الأصغر وكتاب جم الأكبر . ويذكر السبكي في الطبقات (ج ٣ ص ٦١) انه كان بين كتب عبد الرحمن السلمي (مؤرخ الصوفية المتوفى عام ٤١٢ هـ ــ ١٠٢١ م) كتاب للحلاج يسمى الصيهور في نقص الدهور ، وكان هذا الكتاب « مجلة صغيرة مربعة ، فيها أشعاره » .

ولكننا إذا وجدنا الحلاج يميز بين اللاهوت والناسوت في الذات الإلهية ــ وهما كلمتان غريبتان عن الإسلام ، يرجع أصلهما إلى النزاع الذي قام بين النصارى السريان في الكنيسة الشرقية حول طبيعة المسيح ــ ، وإذا وجدنا عنده القول بأن الله سيحكم بين الناس يوم القيامة بصورة الناسوتية[1] ، وأنه قبل إيجاده للخلق ظهر أولا في صورة الإنسان[2] ، وهذه هي فكرة الإنسان القديم : وباليونانية proôn ànthrôpos في مذهب الغنوسطيين (انظر مثلا Hilgenfeld, Ketzergeschichte. S. 294) ، ثم إذا وجدنا أنه يقول إن الله بدا لخلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب ، حتى يعاينه خلقه « كلحظة الحاجب بالحاجب »[3] ، فإننا عند ذلك نجد أنفسنا وسط ذلك العالم الغريب ، عالم الغنوسطيين النصارى ، وهو الذي كان من ناحيته مجرد صورة باهتة للأساطير القديمة .

ونستطيع أن نلاحظ صلة النسب والشبه بين ما ذهب إليه الحلاج وبين مذهب الغنوسطيين ، حتى في التفاصيل . فمثلا نجد عند بازيليديس (Basilides) كما حكى مذهبه إيرينييوس (Irenaeus) أن الأب صدرت عنه الكلمة logos ثم الحكمة Phronesis ثم القدرة Dynamis ثم العلم Sophia [4]. وكذلك نجد الحلاج يتكلم في طاسين

---

(١) كتاب الطواسين ص ١٣١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٠ .

(٣) قال الحلاج (الطواسين ص ١٣٠) :

سبحان من أظهر ناسوته	سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً	في صور الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه	كلحظة الحاجب بالحاجب

(٤) Hilgenfeld, S. 199.

المشيئة عن أربع دوائر ؛ الأولى مشيئته، والثانية حكمته، والثالثة قدرته، والرابعة معلوماته وأزليته[1] . فطريقـة التمثيل بالدوائر وهي التي وجدها Celsus عند الغنوسطيين ، نجدها أيضاً عند الحلاج في كتابه الوحيد الذي نعرفه إلى اليوم ؛ ونجدها أيضاً في مصنفات الدروز كما هو معلوم جيداً ؛ ويمثل العقل عند الغنوسطيين بالشكل المعمّل[2] ، وفي كتاب الطواسين يمثل الفهم بالمستطيل (ص ٣١) . ولما كبست دار أحد أصحاب الحلاج وجدت فيها دفاتر كثيرة مكتوبة على ورق صيني ، وبعضها مكتوبة بماء الذهب ومبطنة بالديباج والحرير ومجلدة بالأدم الجيد[3] . وكانت هذه أيضاً من عادات الغنوسطين في العناية بكتبهم . وكان المنانية أيضاً يزينون كتبهم الدينية بالذهب والفضة[4] وكذلك نجد ما كان عند الغنوسطيين من تنسك الناس وتطهرهم مجتمعين ، ومن بيان مراتب التصفية من الطبيعة البشرية ؛ ويصرح الحلاج بأن عيسى (عليه السلام) هو المثل الأعلى الذي ينتهي إليه الإنسان بالتصفية ، وقد بيّن الأصطخري[5] ، أحد معاصري الحلاج المتأخرين ، مذهبه بقوله : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ؛ وكان رجلا حلاجاً ينتحل النسك ، فما زال يرتقي به طبقاً عن طبق ، حتى انتهى به الحال إلى زعم أن مَن هــذّب في الطاعة نفسه ، وأشغل بالأعمــال الصالحة قلبه ،وصبر على مفارقة اللذات، وملك نفسه في منع الشهوات، ارتقى بها إلى مقام المقربين ؛ ثم لا يزال يتنزّل في درج المصافاة ، حتى

(١) كتاب الطواسين ص ٥٦ .

(٢) Hilgenfeld, S. 278.

(٣) عريب ص ٩٠ نقلا عن مسكويه .

(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ٢٣ ب .

(٥) ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

يصفو عن البشرية طبعه ؛ فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حلّ فيه روح الله الذي كان منه عيسى بن مريم ، فيصيرُ مطاعاً ، فلا يريد شيئاً إلا كان ، من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله » .

ويقول الحلاّج نفسه :

مُزجت روحُك في روحي كما	تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسّك شيء مسّني	فإذا أنت أنا في كل حال[1]

ويقول :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا	نحن روحان حَلَلْنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا[2]

وقد مثّل الوصول إلى الحقيقة تمثيلا جميلا فريدا ؛ فهو يقول في طاسين الفهم[3] . « أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة ، والحقيقة لا تتعلق بالخليقة ؛ الخواطر علائق ، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق ؛ والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة ؛ الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق ؛ الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال ، فيخبرهم عن الحال بألطف المقال ، ثم يمرح بالدلال طمعاً في الوصول إلى الكمال ؛ صورة المصباح علم

(١) كتاب الطواسين ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ ، ومن العجيب أننا لا نجد هذه الصورة في كتاب الطواسين ، ولا بد أن يكون مذهب الحلاج قد نشأ أطواراً في أوقات متباينة .

(٣) كتاب الطواسين ص ١٦ — ١٧ .

الحقيقة ، وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول إليه حق الحقيقة ؛ لم يرض بضوئه وحرارته ، فيلقي جملته فيه ، والأشكال ينتظرون قدومه ، فيحذرهم عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشياً متصاغراً متطائراً فيبقى بلا رسم وجسم واسم ووسم ؛ فلأي معنى يعود إلى الأشكال ، وبأي حال بعد ما حاز ! صار من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر » .

أنت بين الشغاف والقلب تجري	مثلَ جري الدموع من أجفاني
وتحلّ الضمير جوف فؤادي	كحلول الأرواح في الأبدان

على أن الصولي في كلامه عن الحلاج مراراً يقول إنه رجل جاهل يتعاقل ؛ ولكن الأصطخري يقول إنه استمال جماعة من الوزراء وطبقات من حاشية السلطان وأمراء الأمصار وملوك العراق والجزيرة وما والاها[٢] . وقد اتهم نصر" الحاجب ، بوجه خاص ومع عظم شأنه ، بالميل إليه ؛ وكذلك استحضر الوزير بعض القضاة والفقهاء واستفتاهم في أمره ، فذكروا أنهم لا يفتون بقتله ؛ ومكث الحلاج محبوساً في دار الخلافة ثمانية أعوام موسَّعاً عليه . وتشعرنا أخباره بأن الدسائس هي التي كانت فيما بعد سبباً في قتله . وأغلب ما انتهى إلينا من أخبار الحلاج

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٣ ، (وقد ذكر عريب القرطبي (ص ٩٨) أبياتاً للحلاج :

كل بلاء عليّ منّي	فليتني قد اخذت مني
اردتَ مني اختبار سرّي	وقد علمتَ المراد مني
وليس لي في سواك حظ	فكيفما شئت فاختبرني ـ المترجم)

(٢) الاصطخري ص ١٣٩ ، ويقول ابن حوقل إنه كان في أول أمره داعياً من دعاة الفاطميين ؛ (ويقول صاحب الفهرست (ص ١٩٠) إنه كان في أول أمره يدعو إلى الرضا من آل محمد ـ المترجم) .

إنما ذكره خصومه ، ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح أن الحلاج قد أثر في كبراء أهل بغداد تأثيراً قوياً نادر المثال ، ويدل على عظم شأنه أن كلاً من الذهبي وابن الجوزي كتب عنه كتابا خاصا ، ولكن يظهر أن هذين الكتابين قد فقدا مع الأسف ، ولم ينل هذا الشرف ــ أعني تخصيص كتاب في حياة رجل ــ إلا القليلون بين رجال الإسلام .

وقد أثر الحلاج في علوم الدين عند المتصوفة أثراً كبيراً ! ورغم قتله فإن كثيرين من تلاميذه حملوا مذهبه من بعده ، وخصوصاً فرقة السالمية . ويحدثنا الحجويري في القرن الخامس الهجري أنه رأى بالعراق أربعة آلاف يسمون أنفسهم الحلاجية[1] . ويصرح الحجويري نفسه بعطفه على الحلاج ويقول إنه لم ينكر فضله وصفاء حاله وكثرة اجتهاده ورياضته إلا فئة قليلة من مشايخ الصوفية[2] ؛ وكان لا يزال في عصر أبي العلاء (المتوفى عام ٤٤٩ هـ ــ ١٠٥٧ م) قوم في بغداد ينتظرون خروجه ويقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقعون ظهوره[3] .

وكانت المذاهب النصرانية أيضاً هي الأصل التي أتت منه جميع الآراء الأخرى التي جاء بها زنادقة ذلك العصر ؛ فمثلا ذهب منصور العجلي الملقب بالكِسف لأنه كان يزعم أنه المقصود بقوله تعالى : وإن يَرَوْا كِسفاً مِنَ السماء ساقطاً ــ إلى أن أول من خلق الله عيسى بن مريم (عليهما السلام) ، ثم خلق بعده عليا[4] . وكذلك ادعى الشلمغاني

---

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٢٦٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ وما بعدها .

(٣) رسالة الغفران في مجلة الاسيوية الملكية .JRAS, 1902, S. 833 .

(٤) الفِصَل ج ٤ ص ١٨٥ .

المعروف بابن أبي العزاقر ، وهو من قرية من قرى واسط ، أن روح الله حلّ فيه[1] • وقد تقدّم أمير المؤمنين عام ٣٢٢ هـ إلى الوزير أبي علي بن مُقلة ليكشف أمر الشلمغاني وأمر صاحبيه ؛ فتجرّد لذلك ، وحقق أمرهم ، وطلب من الرجلين التبرؤَ من ابن ابي العزاقر ونَيْلَه بمهانة يَصْغُر بها قدره ؛ فأما أحدهما فصفعه مرة ، وأما الآخر فإنه أرعد وأظهر خوفا من ذلك ، واستعصى إلى أن لم يجد محيصاً ، فمدّ يده إلى لحيته على سبيل توقير وتكريموقال معلنا غير مخافت : مولاي مولاي ! فجُلدا وقتلا وصلبا ، وأُحرقت أجسامهما •

وكان الشلمغاني يقول إن الله يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل ، وإنه خلق الضدّ ليدل به على مضدوده ؛ فآدم وإبليس كلاهما يدل على صاحبه لمضادته إياه في معناه ؛ والدليل على الحق أفضل من الحق ؛ والضد أقرب إلى الشيء من شبيهه • وكان يقول إن اللاهوتية اجتمعت في آدم وإبليس ، وكذلك في ابراهيم وإبليسه نمرود ، وفي هارون وإبليسه فرعون ، وفي داود وإبليسه جالوت ، وكذلك في عيسى وإبليسه ، ثم في تلاميذه كلهم ، وكان المسعودي يعد الشلمغاني من الشيعة[2] •

على أن هذا الرجل ، وإن كان يقول إن اللاهوتية اجتمعت في عليّ وإبليسه قبل أن تجتمع في شخصه هو ، فهو لا ينسب الحسن والحسين رضي الله عنهما إلى علي رضي الله عنه ، وكان يقول : « من اجتمعت له

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ • وقد ذكر شرينر (Schreiner) المراجع في ذلك (ص ٤٧٢) • ولم يذكر ابن حوقل ص ٢١١ شيئاً ؛ ويقول ياقوت في كتابه المسمى إرشاد الاريب (ج ١ ص ٢٩٦) إنه قرأ بمدينة مرو رسالة كتبت ببغداد عن امير المؤمنين الراضي إلى أبي الحسين نصر بن احمد الساماني بقتل العزاقري ، وقد ذكر ياقوت قطعة من هذا الخطاب •

(٢) التنبيه للمسعودي ص ٣٩٦ — ٣٩٧ •

اللاهوتية لم يكن له والد ولا ولد » . وكان الشلمغاني يقول إنه قبل اجتماع اللاهوتية في علي وإبليسه اجتمعت في عيسى وإبليسه ثم في تلاميذه كلهم ؛ أما موسى ومحمد عليهما السلام فيسمّيان الخائنين ، لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى ، وعليا أرسل محمدا ، فخاناهما . وزعم الشلمغاني أن عليا رضي الله عنه أعطى محمداً عليه السلام مهلة قدرها المدة التي لبثها أهل الكهف في كهفهم ، أي ٣٥٠ سنة وبعدها تبطل الشريعة المحمدية ؛ وفي عصر الشلمغاني كانت هذه المدة قد قاربت نهايتها .

وكذلك أوّلَ الشلمغانية القرآن عن معانيه الظاهرة ، فقالوا إن معنى الجنة معرفتُهم وانتحالُ مذهبهم ، ومعنى النار الجهلُ بهم والصدودُ عن مذهبهم . وكانوا يغتفرون ترك الصلاة والصيام والاغتسال ؛ وكانوا لا يتناكحون على السنة ، بل يبيحون الفروج ، ولا ينكرون أن يطلب أحدُهم من صاحبه حرْمَتَه ، وكانوا يرون أنه لا بد للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النور فيه[1] .

على أن هذه الفرقة لم تكن فرقة عوام ؛ فقد كان ابن أبي العزاقر نفسه كاتبا ببغداد ، وكان للمحسّن بن الفرات عناية به ، فاستخلفه ببغداد لجماعة من العمال ، وكذلك كان صاحبه إبراهيم بن أبي عون شاعراً ، وصاحب تآليف كثيرة ، ومشتغلا بالأدب ؛ وكان من القواد[2] . ويقال إن الوزير الحسين بن القاسم بن عبد الله ، أحد وزراء أسرة بني وهب المشهورة ، كان يعتقد أن ابن أبي العزاقر إله[3] .

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ — ٣٠٧ . ويقول الحجويري (كشف المحجوب ص ٤١٦) إن الحلولية جعلوا حكايات الغلمان وصمة الحقوها بأولياء الله وبالمتصوفين .

(٢) الارشاد ج ١ ص ٢٩٦ .

(٣) كتاب العيون ص ١٨٥ ب .

أما الحركات التي منشؤها القول بظهور المهدي فكانت من نوع آخر يخالف ما تقدم كل المخالفة ؛ فالأشخاص الذين تكلمنا عنهم حتى الآن هم قوم كل منهم على حدته يبحث عن الله ، وقد ساروا في طريقهم على هدى علوم دين قديمة ؛ وأعجب ما في أمرهم أنهم — رغم غرابة مذاهبهم — وجدوا من يصدقهم • أما الحركات المتعلقة بالمهدي فكانت منذ أول أمرها حركات سياسية ، اتجهت إلى الجماهير ، فكانت لها نتائج أخرى •

فحوالي منتصف القرن الثالث الهجري ظهر حمدان قرمط[1] ، والتفّت عليه العناصر الثائرة في العراق ؛ ولكن الخليفة المعتضد أخمد هذه الفتنة ، ولم يصبح لدعوة حمدان شأن سياسي إلا بعد انتقال هذه الفتنة إلى جزيرة العرب ، وكانت الجزيرة أكبر مركز يحتشد إليه الثوار على اختلاف أصنافهم ، حيث يكونون على قدم الاستعداد دائماً لاتباع قائد يسير بهم إلى أراضي الفلاحين الخصبة ، يقتلون وينهبون •

وقد مات الخليفة المعتضد عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م وهو الخليفة القدير المحنّك ، وفي نفسه حسرة من القرامطة ؛ فكان في مرضه يتلهّف ويتمنى أن يبلغ منهم قبل موته ما يريد[2] • وقد أتاح القدر لهؤلاء القرامطة قائدين عظيمين ، عرفا كيف ينظمان ما في جزيرة العرب من

---

(١) يظهر لي ان اصح ما قيل في بيان الاصل الذي اشتق منه هذا الاسم هو ما رجحه فولرز (Vollers) من اتصال كلمة قرمط بكلمة Grammata اليونانية ، ومعناها الحرف ؛ وذلك لأن هذا الافتراض يجد ما يؤيده في لغة المكدّين بالعراق في القرن الرابع الهجري • وقد جاءت كلمة قرمط في قصيدة ابي دلف في الكدّية (يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٨٤) بمعنى الرجل الذي يكتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط •

(٢) الاتعاظ للمقريزي طبعة بونتز ص ١١١ •

قوى خشنة ، ويقودانها في أكبر ثورة شهدتها الجزيرة منـذ أيام الإسلام الأولى •

فحوالي أواخر القرن الثالث الهجري خرب القرامطة الشام تخريباً شديداً ؛ وفي أوائل القرن الرابع امتدت غاراتهم إلى العراق ، ففتحوا البصرة والكوفة ، وأعملوا فيهما النهب ، وألقوا الرعب في بغداد ، وقطعوا الطريق بين مكة والمشرق • وفي عام ٣١٦ هـ ٩٢٨ م شنوا غاراتهم متفرقة تقوم بها العصابات من صحراء الشام حتى بلغوا بها إلى جبال سنجار[١] • وفي عام ٣١٧ هـ ــ ٩٢٩ م بلغ الحجاجُ مكة من غير أن يصيبهم أذى ، ولكن وافاهم بعد ذلك في مكة يومَ التروية أبو طاهر القرمطي ، في عدد قليل يدهشنا لقلته ــ إذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل ــ فاقتحم مكة ، ونهب هو وأصحابه أموال الحجاج ، وقتلوهم في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وقلع باب البيت وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر وأخذ كسوة البيت ففرقها بين أصحابه ، ونهب دور أهل مكة • ولم ينهض لمقاومة هؤلاء المغيرين إلا البدوُ الذين لا يقيمون بمكة ، فأما أهل مكة فقد شاركوا المغيرين في نهب بلدهم الحرام •

على أن هذا الحادث لم يؤثر في أهل ذلك العصر ما كنا ننتظر له من أثر ، ولم ينظر إليه بعين السخط الشديد إلا أهلُ الأجيال التالية • أما ذلك العصر فكان فيه كثيرون لا يكترثون بالدين ويمنعهم الأدب من التظاهر به نفاقا ؛ ومن جهة أخرى فإن المتصوفة الذين صاروا يتجمعون حول التصوف الناهض كانوا يرون في ذلك شيئاً أعظم من الحجر الأسود ؛ بل يظهر أن المسلمين المتمسكين بأصول الإسلام كانوا يعظمون

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٢ ــ ١٣٣ ؛ وعريب ص ١٣٤ •

هذا الحجر من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك تمام الاطمئنان . وكان هذا الحادث منتهى ما وصلت إليه فتنة القرامطة وثورتهم .

وبعد ذلك أغاروا على المشرق ، ينهبون ، حتى بلغوا فارس ؛ وقد ألقوا الرعب في الصحراء حتى أشفق الناس من اجتيازها ؛ وكثيراً ما كان أهل بغداد يغلقون أسواقهم خوفاً منهم .

ولكن الخليفة استطاع بسياسته أن يشل حركتهم ، فدخل جنودُ القرامطة في خدمة الخلفاء ، وفي سنة ٣٢٧ هـ ــ ٩٣٨ م كاتب أبو علي عمر بن يحيى العلوي القرامطة ، وكانوا يخشونه لشجاعته وكرمه ، وسألهم أن يؤمنوا الحاجّ ، ويعطيهم عن كل حمل مكساً عيّنه لهم ، فرضوا بذلك . وفي سنة ٣٣٩ هـ ــ ٩٥٠ م رد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة ؛ وقد استطاع جمل نحيل أن يحمله ، وقد سمن بحمله له ؛ على حين أنه قبل ذلك باثنتي عشرة سنة وقع تحته ثلاثة جمال أقوياء .

ولم ينته ما أصاب الحجر الأسود عند هذا الحد ؛ ففي عام ٤١٣ هـ ــ ١٠٢٢ م عمد أحد الحجاج المصريين ــ وفي رأي بعض المؤرخين أنه من الجهال الذين استغواهم الحاكم بأمر الله ــ إلى الحجر الأسود ، فضربه بدبوس كان في يده ضربات متوالية فكسر قطعاً منه ؛ ولكن الناس عاجلوا الرجل ، وقتلوه . ثم "أخذت القطع التي سقطت من الحجر وعجنت بالمسك واللّك ، وحشيت بها المواضع التي تثقبت"[1] .

وفي سنة ٣٥٠ هـ سار القرامطة ، وهجموا على مصر والشام ، فساعدوا الفاطميين على قصد مصر ؛ ولكن أمرهم انتهى عام ٣٥٨ هـ ــ

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٦٠ ا ، ٨١ ب ، ١٧٠ ب ــ ١٧١ ا .

٩٦٨ م إلى مسالمة الخليفة العباسي ببغداد ، فخطبوا له على المنابر ، وأعطاهم مالا وسلاحاً[1] . ثم أغاروا على الشام ، كما أغاروا عليها في أول أمرهم ، ولكن كان عدوهم بها في ذلك العهد هو حليفهم من قبل ، وهم الفاطميون . وصار القرامطة يقيمون الدعوة للخليفة العباسي في كل بلد يفتحونه ، وسوّدوا أعلامهم ، ورجعوا عما كانوا عليه من المخرقة، وأظهروا أنهم كأمراء النواحي الذين من قبل الخليفة العباسي[2]؛ ولكنهم هُزموا في الشام آخر الأمر ، وارتدُّوا إلى جزيرة العرب ، على أن يدفعوا قدراً من المال في كل عام ، وبعد ذلك ببضع سنين أخرجهم بنو بويه نهائيا من العراق ، ولم يبق لهم في أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الشاطىء الشرقي للجزيرة العربية ، لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج ؛ ولكن كان لها على باب البصرة ديوان لأخذ الضرائب[3].

وحتى عام ٤٤٣ هـ وجد الرحالة الفارسي ناصر خسرو عندما زار الأحساء ــ عاصمتهم ــ أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذي فيه قبرُ مؤسسِ مذهبهم فرساً بسرج ولجام ، لا يغادر مكانه لا ليلا ولا نهاراً ؛ ويقولون إنه للمهدي يركبه متى ظهر[4] .

ويحكي أبو العلاء المعري عمن سافر إلى اليمن أن بها في عهده جماعة « كلهم يزعم أنه القائم المنتظر ، فلا يَعْدَمُ جِبايةً من مال يصل بها إلى خسيس الآمال »[5] .

---

(١) تاريخ أبي يعلي حمزة بن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق طبع بيروت عام ١٩٠٨ م ص ١ ــ ٢ نقلا عن الصابي .

(٢) الاتعاظ للمقريزي ص ١٣٣ .

(٣) المقدسي ص ١٣٣ .

(٤) ناصر خسرو ص ٢٢٩ من الترجمة ؛ وحكي هذا أيضاً لأبي العلاء (انظر مجلة JRAS 1902, S. 828) .

(٥) نفس المصدر عند أبي العلاء .

ولن نستطيع أن نتبيّن مقدار إيمان الناس بدعوى هؤلاء المدعين ، ولا مبلغ رغبة هؤلاء الناس في التكسب بهذا التصديق بدعواهم ، كما لن نستطيع معرفة مقدار ما في تلك الحركة بجملتها من إخلاص وتديُّن .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن اليمن كانت دائمة من أغرب الأقاليم في العالم من حيث الروحانية ، وأن روحها أبعد عن الروح الأوروبية من الروح المغولية ، مثلا . يقول أبو العلاء المعري : « وما زال اليمن ، منذ كان ، معدناً للمتكسّبين بالتديُّن ، والمحتالين على السحت بالتزيُّن[1] » . على أن مذهب القرامطة المتشبثين بفكرة المهدي لم يكن مذهباً حسن الإسلام ، فقد كان وراء عقائدهم دائماً القولُ بالحلول ، كما كان الحال في مذاهب الغنوسطيين من النصارى . يقول ابن حزم : « ثم زادت فرقة على ما ذكرنا ، فقالت بإلهيّة محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ، وهم القرامطة ؛ وفيهم من قال بإلهيّة أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنّابي وأبنائه بعده ، ومنهم من قال بإلهيّة أبي القاسم النجار القائم باليمن في بلاد همدان ، المسمى بالمنصور ؛ وقالت طائفة منهم بإلهيّة عبيد الله ، ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا ؛ وقالت طائفة منهم بإلهيّة أبي الخطاب ابن أبي زينب ، مولى بني أسد بالكوفة ، وكثر عددهم بها حتى تجاوزوا الألوف ، وقالوا : هو إله ، وجعفر بن محمد إله ، الا أن أبا الخطاب أكبر منه ؛ وكانوا يقولون : جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحباؤه ، وكانوا يقولون إنهم لا يموتون ، ولكنهم يرفعون إلى السماء . وأشبه على الناس بهذا الشيخ الذي ترون ؛ ثم قالت طائفة منهم بإلهيّة معمر ، بائع الحنطة بالكوفة ، وعبدوه ؛ وكان من أصحاب أبي الخطاب ، لعنهم

---

(١) نفس المصدر .

الله أجمعين »[1] . وكذلك نجد ابن أبي زكريا الطمّامي ، مهدي القرامطة ، قد ادّعى الربوبية وسنّ شريعة فسق ؛ وهذا بحسب رواية البيروني على الأقل[2] .

وقد استطاع الفاطميون ، وهم سادة القرامطة منذ عهد طويل ، أن يستغلّوا فكرة ظهور المهدي بمقدرة وتوفيق لم يتهيأ لهم من بعد . وما أشبه الفاطميين بالنسبة للقرامطة في تفوقهم عليهم وبلوغهم ما بلغوه من الانتفاع بهذه الفكرة ، بجبال الألب السوداء في وقوفها شامخة وراء مرتفعات « الجورا » الخضراء بسويسرة . وإن رجوع موجة سلطان العرب نحو المشرق ودخول الخليفة الفاطمي القاهرة ، ومعه توابيت أجداده ، لهو أغرب وقائع ذلك العصر المضطرب . وفي ذلك العهد كأنما « قد طلعت الشمس من مغربها » حقيقة ، كما قال الخليفة المعز لدين الله في خطاب له[3] .

وإن قيام دولة الفاطميين لهو أهم الحوادث السياسية في القرن الرابع الهجري ، ولم يكد يمضي قرن على ظهور أول مهدي لهم ، أعني أنه لم تكد تأتي سنة ٣٦٠ هـ ـــ ٩٧٠ م حتى امتد سلطان الفاطميين على إفريقية الشمالية كلها وعلى الشام ، وحتى بلغ نهر الفرات . وكان لهم « دعاة منبثون في كل صقع وناحية »[4] . ولقد قال الخليفة المعز لدين الله في كتاب كتبه لأحد قواد القرامطة عام ٣٦٢ هـ ـــ ٩٧٢ م : « وما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا ،

---

(١) الفصل ج ٤ ص ١٨٧ ، قارن ما ذكره دي غوي في هامش ص ١١١ من كتاب عريب القرطبي (؟) .

(٢) الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٣) الاتعاظ للمقريزي ص ١٤١ .

(٤) الفهرست ص ١٨٩ .

ويدلّون علينا ، ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن »[1] .

وكان القرامطة يطيعون أمرهم ، وكانت بلوخستان تعترف لهم بالسيادة . وأقل مظاهر هذا الاعتراف ما حدثنا به ابنُ حوقل من أن أهل هذه البلاد يصرحون بأنهم في دعوة الفاطميين ، وأنهم يجمعون ببلادهم أموالا وذخائر كثيرة تجلّ عن الوصف ، ويقولون إنها للإمام المعز لدين الله[2] . ولما قدم الهمذاني الأديب الشاعر حوالي عام ٣٨٠ هـ على جرجان في أقصى الشمال من فارس ــ وكان الهمذاني رجلا يعرف دائماً أين تكون القوة الكبرى والمال الأوفر ــ أقام هناك مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيّش في أكنافهم[3] .

على أن الفاطميين لم يأتوا بشيء جديد من الناحية الروحية ، وقد فاتهم أن الذي يحدد مدة أجل العروش هو الروح لا كثرة عدد الجنود ، فلم تكد تمضي عشرون سنة على بلوغ دعوتهم ذروتها في أيام المعزّ ، حتى « تناقص أمرُ المذهب ، وقلّ الدعاة له ، حتى إني لا أرى من الكتب المصنّفة فيه شيئا ... هذا ما أعلمه في هذه البلاد ، وقد يجوز أن يكون الأمر على حاله بنواحي الجبل وخراسان ، فأما ببلاد مصر فالأمر مشتبه ، وليس يظهر من صاحب الأمر المتملك على الموضع شيء

---

(١) الاتعاظ للمقريزي ص ١٣٩ ــ ١٤١ ، وكان حاكم المشرق من قبل المهدي يقيم في الريّ ، وكان يخضع له الدعاة حتى دعاة العراق مثل بني حمّاد في الموصل.(الفهرست ص ١٨٩) .

(٢) ابن حوقل ص ٢٢١ .

(٣) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٩٦ .

يدل على ما كان يُحكى من جهته وجهة آبائه[1] » .

أما مذهب الإسماعيلية في القرن الرابع الهجري فلا نعرف عنه إلا القليل ، وأكبر مصدر يرجع تاريخه إلى ذلك العهد ، هو ما حكاه أخو محسّن ، وحفظه لنا النويري والمقريزي ، وترجمه دي ساسي[2] ؛ وهو كتاب مطعون في مصدره ، لأنه مأخوذ من كتاب في الرد على الإسماعيلية لابن رزام ، وقد أوجس صاحب الفهرست خيفة من النقل عن هذا الكتاب ، فهو يروي عنه ويقول : وأنا أبرأ من العهدة في الصدق عنه والكذب فيه[3] . وكذلك يعتبر المقريزي أن هذا الكتاب مزيج من الحق والباطل . أما النصوص التي نشرها جويار (Guyard) فلا نعرف تاريخها حتى الآن ؛ ولا يكفي مجرد ذكر أسماء القدماء فيها لإثبات تاريخها ، لأن الانتحال في الكتب كان على أشده بين جميع هذه الفرق . وإن معظم الكتب المنسوبة لعبدان صاحب حمدان قرمط قد وضعت في القرن الرابع ؛ فيقول ابن النديم إن أكثرها منحولة إليه[4] .

على أن المهم هو ما نجده عند الشهرستاني من أن بين الإسماعيلية في القرن الرابع الهجري وبين متأخريهم في القرن الخامس الهجري بوناً بعيداً ، وأننا يجب أن نفرق بين اعتقاد الخليفة المعز وبين اعتقاد « شيخ الجبل » تفرقة تامة[5] . ومما يؤسف له أن ابن حزم يكاد يسكت عن الإسماعيلية سكوتا تاما يدعو إلى الاستغراب ، وهو يكتفي بأن يقول

---

(١) الفهرست ص ١٨٩ .

(٢) de Sacy : Exposè de la Religion des Druses, LXXIV ff. .

(٣) الفهرست ص ١٨٧ .

(٤) الفهرست ص ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٥) الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل لابن حزم ـ الكلام على الاسماعيلية في الجزء الثاني .

إنهم والقرامطة طائفتان خارجتان عن الإسلام جملة وقائلتان بالمجوسية المحضة[1] . وكذلك سكت عنهم أبو العلاء في رسالة الغفران ، فلم يقل إلا قليلا جداً ، ولعل وجوده على مقربة من سلطانهم هو الذي أمسك لسانه عنهم . فليس عندنا إذن معلومات نثق بصحتها فيما يتعلق بهم إلا عند صاحب الفهرست ، وهو يذكر أنه كان عندهم سبع درجات من الأتباع — خلافا لما ذكره أخو محسن من درجات تسع — ؛ ولكل طبقة كتاب" يتضمن ما تعرفه ويسمى بالبلاغ ، والبلاغ الأول للعامة ، والثاني لمن فوقهم قليلا ، أما الثالث فهو لمن دخل في المذهب سنة ، ثم يُعطى بعد ذلك بلاغا كلما طال بقاؤه سنة أخرى . ولكن ابن النديم لم يحدّد متى يبلغ الإنسان الدرجة السابعة ، ومتى يُعطى البلاغ السابع ، واكتفى بقوله عن هذا البلاغ إنه هو الذي فيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر ؛ وهو يقول إنه قرأه . فوجد فيه أمراً عظيما من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها[2] .

وكانت هذه الفرقة في ذلك العهد يستعملون التأويل ، حتى إن أحدهم ، وهو الحسين بن علي القرمطي ، كان يُجري رزقا على أبي زيد البلخي (المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م) ؛ فلما ألف أبو زيد كتابه المسمى البحث في التأويلات وأنكر فيه ما ليس بواضح مشهور من التأويل ، قطع الحسين عنه ما كان يُجريه عليه[3] .

---

(١) الفصل ج ٢ ص ١١٦ ؛ على اننا يجب الا ناخذ هذه التسمية على ظاهرها فقد كانت كلمة المجوسية تستعمل في ذلك العهد بمعنى الزندقة ، فيحكي القشيري (ص ٣٢) عن احد الصوفية انه وصف رايا لم يعجبه بقوله إنه « مجوسية محضة » .

(٢) الفهرست ص ١٨٩ .

(٣) الفهرست ص ١٣٨ والارشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٢ .

وإن ما نجده عند هذه الفرق من تصوُّر الدين بأنه معرفة الله معرفة عقلية ، ومن تقسيم الناس طبقات بحسب درجتهم في المعرفة ، ثم ما نجده في كتب من جاء بعدهم من عناية وتدقيق في بيان اثنينيّة العوالم وتوازيها ، كل هذا يشير مرة أخرى إلى مذاهب الغنوسطيين القدماء .

ويتّهم صاحب الفهرست ميموناً القداح وابنه عبد الله ، وهما مؤسسا مذهب الإسماعيلية ، بأنهما كانا على مذهب الديصانية[1] . ونستطيع أن نرد مذهب الإسماعيلية من حيث أجزاؤه إلى مذهب المعتزلة والشيعة ، وهذا بعينه هو الذي ساعدهم على أن يضيفوا إلى مذهبهم كل ما ليس عباسياً ولا سنّيّاً[2] .

على أن شيئاً جديداً أحدثه هؤلاء القوم ، وهو التزام الخطة المرسومة والاشتداد في اتباعها ؛ وللشرقي فهمٌ خاص في ذلك ، إذا كانت الخطة ذات ظاهر ديني ؛ وقد استخدمها الحسين الأهوازي الداعي الفاطمي في إدخال حمدان قرمط في المذهب ، على صورة تمثّل النموذج الذي احتذاه أولئك القوم في دعوة الناس إلى رأيهم . يقول المقريزي : « لما خرج الحسين الأهوازي داعية إلى العراق لقي حمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة ، ومعه ثورٌ ينقل عليه ، فتماشيا ساعة ، فقال حمدان للحسين : إني أراك جئت من سفر بعيد وأنت مُعْيِي ، فاركبْ ثوري هذا ؛ فقال الحسين : لم أومر بذلك ؛ فقال له حمدان : كأنك تعمل بأمر آمر لك ، قال : نعم ، قال : ومن يأمرك وينهاك ؟ قال : مالكي ومالكك ومن له الدنيا والآخرة ؛ فبُهت حمدان قرمط يفكر ؛ ثم قال :

---

(١) كتاب الفهرست ص ١٨٧ .

(٢) وكان أكبر نجاح للفرقة عام ٢٦٠ هـ – ٨٧٥ م مقارناً لموت الحسن بن علي الذي كان جمهور الشيعة يعتبرونه إماماً ، ويجلونه لذلك ، والذي مات من غير عقب ، فأحدث ذلك افتراقاً وفتنا بين الشيعة (ابن حزم ج ٤ ص ٩٣) .

يا هذا ! ما يملك ما ذكرته إلا الله ؛ قال : صدقت ، والله يهب ملكه لمن يشاء . ثم بدأ يدعوه ، ويقول له : دُفع إليّ جراب فيه علمٌ وسرٌّ من أسرار الله ؛ فقال له حمدان : يا هذا ! نشدتك الله إلا دَفعتَ إليّ من هـذا العلم الذي معك ، وأنقذتني ينقذك الله ... ثـم أخذ عليه العهد ... ... وصار الحسين معه إلى منزله ، وأقام به . وكان الحسين على غاية ما يكون من الخشوع ، صائماً نهاره ، قائماً ليله ؛ فكان المغبوط من أخذه إلى منزله ليلة ؛ وكان يخيط لهم الثياب ويكتسب بذلك ، فكانوا يتبركون به وبخياطته »[1] .

وهذه الفرقة ، التي أدمجت في مذهبها كثيراً من المذاهب القديمة التي كانت في العراق ، استعملت طريقة الكتابة على الطين ؛ فكان دعاة القرامطة يعطون أتباعهم خواتيم من طين أبيض مكتوب عليها مثلا : محمد بن إسماعيل الإمام المهدي وليّ الله[2] . ومما استُحدث أيضاً في دولة الفاطميين أنها أوجدت هيئة شبيهة بالكهنوت Klerus ، تعترف بهم رسمياً وتعطيهم أرزاقاً ، وهو ما لم يحدث قط في الإسلام ، وهم المسمون الدعاة الذين أصبحوا أشبه بالقسيسين pfarrer ؛ ورئيسهم الأعلى الذي يشرف عليهم يسمّى داعي الدعاة ، وهو أكبر أصحاب الدرجات بينهم[3] .

على أنه كلما زاد عدد من يدّعي المهدية والألوهية أصبح ادّعاء النبوّة شيئا قديماً لا يستهوي الأدعياء . ومنذ قرن ادعى بعض الجهال النبوة فكانوا موضعاً للتندّر والاستهزاء . وفي أخبار الخليفة المأمون

---

(١) الاتعاظ للمقريزي ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ٢٩ ب .

(٣) ناصر خسرو ص ١٦٠ من الترجمة .

أحاديث له مع كثير من المتنبّئين ؛ ولا تخلو هذه الأحاديث من طرافة وتشويق . أما في القرن الرابع فتجد بين حين وآخر من يظهر بدعوى النبوّة في إقليم من الأقاليم .

ففي عام ٣٢٢ هـ ــ ٩٣٤ م ، ظهر بباسند من أعمال الصغانيان ــ وهي من بلاد ما وراء النهر المشهورة بالتقى والصلاح ــ رجل ادّعى النبوة ؛ فقصده فوج" بعد فوج ، واتبعه خلق كثير ، وحارب من خالفه ... وكثر أتباعه من أهل الشاس ؛ كان صاحب حيل ومخاريق ، فكان يدخل يده في حوض ملآن بالماء ويخرجها مملوءة دنانير ، إلى نحو ذلك . ولما كثر جَمْعُه وخِيف شرُّه أنفذ إليه الحاكم جيشاً ، فحاربوه وضيقوا عليه وقتلوه[1] .

وتنبأ رجل بمدينة أصفهان حوالي عام ٣٢٥ هـ ، فسُئل عن آيته وحجّته ، فقال : من كان منكم له زوجة حسناء أو بنت جميلة أو أخت صبيحة ، فليحضرها إليّ ، أُحبلها بابن في ساعة واحدة[2] ؛ فقال والي الخراج أبو الحسين بن سعد : أما أنا فأشهدُ أنك رسول الله ، واعفِني من ذلك ! وقال له رجل : نساء ما عندنا ، ولكن عندي عنز حسناء ، فأحبلْها إليّ ، فقام يمضي فقيل له : إلى أين ؟ قال : أمضي الى جبريل ، وأُعرّفه أن هؤلاء يريدون تيْساً ، ولا حاجة بهم إلى نبي ، فضحكوا منه وأطلقوه[3] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٦ .

(٢) وحكي مثل هذا عن رجل تنبأ ايام المأمون ، فتوجه إلى الخليفة وقال للحاجب : ابلغ امير المؤمنين ان نبي الله بالباب ، فأذن له ؛ فقال له ثمامة : ما دليل نبوتك ؟ قال تحضر لي أمك ، فأواقعها ، فتحمل من ساعتها ، وتأتي بغلام مثلك ؛ فقال ثمامة : صلى الله عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، ذلك اهون عليّ من إحضارك أمي ومواقعتها ــ المحاسن والمساوىء للبيهقي ، ص ٣٤ من الطبعة الاوربية .

(٣) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٣٠ ــ ١٣١ .

وقد لقّب الشاعر أبا الطيب المتنبي (المتوفى عام ٣٥٤ هـ ـــ ٩٦٥ م) بالمتنبي ، لأنه ادّعى النبوة في بادية السماوة ونواحيها ، واجتمع إليه هناك قوم من قبائل العرب ؛ وكان ابن خالويه يعيِّره بهذا الاسم ، ويقول له : إن المتنبي معناه الكاذب ، ومن رضي أن يُدعى بالكاذب فهو جاهل • وسئل المتنبي عن تلقيبه بهذا اللقب ، فأجاب سائله بجواب مغالط وقال : هو شيء كان في الحداثة ، أوجبته الضرورة ، فاستحى سائله أن يستقصي معه الكلام ، وأمسك[1] •

على أن هذا القرن لم يَخْلُ من قوم تنكّبوا عن الدعوى العريضة ، وجاهدوا أنفسهم وقمعوها ، واكتفوا بأن يكونوا عابدين لله خاشعين ، يبتغون شيئا فوق العبودية له ، متّبعين سنن الرعيل الأول من المسلمين • وكان من العادات المحبوبة كثيراً عند كبار المتعبّدين في ذلك العصر أن الواحد منهم لا يخرج إلا يوم الجمعة للصلاة[2] •

ولقد آلى أبو العلاء المعري الشاعر (المتوفى عام ٤٤٩ هـ ـــ ١٠٥٧ م) على نفسه ألاّ يترك بيته أبداً ، مع أنه لم يكن من رجال الدين المتعبدين •

وكان كثير من عبّاد ذلك العصر مأواهم المسجد[3] •

ويحكى أن الخليفة القادر كان يقسم الطعام الذي يهيأ له ثلاثة أقسام ، فيترك قسما بين يديه ، ويأمر بحمل القسمين الآخرين ، ليُفرّقا على المجاورين في جامعيْن كبيرين ببغداد[4] •

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٩٦ ا ـــ ب •
(٢) المنتظم مثلا ص ١٥٨ ب وفي مواضع كثيرة مثل ص ١٦٩ ا •
(٣) نفس المصدر ص ١٥٨ ب •
(٤) نفس المصدر ص ١٣٢ ب •

وفي سنة ٣٨٤ هـ ـ ٩٩٤ م توفي أبو العباس عبد الله بن محمد البشتي الزاهد ، وكان من الصالحين ، وبقي سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى مخدّة[1] .

ويحكي الحجويري أنه لقي بخراسان رجلا من الصالحين ، يسمى الأديب الكُمندي ، مضت عليه عشرون سنة لم يجلس إلا للتشهد في الصلاة ، وسئل في ذلك فقال : ليست لي هذه الدرجة بعد ، حتى أجلس ، وأنا أشاهد الحق[2] .

ويحكي عن آخر من أصحاب التهجّد والعبادة أنه لم يُعرف له فراشٌ أربعين سنة[3] .

وكذلك بنى آخر قبراً لنفسه بجنب بشر الحافي ؛ وكان يمضي إلى ذلك الموضع ، فيختم فيه القرآن ، ويدعو ، ومضى على ذلك عدة سنين[4] .

ويحكى عن محمد بن عبد الله بن أحمد الصفار الأصبهاني المحدّث الصالح (المتوفى عام ٣٣٩ هـ ـ ٩٥٠ م) أنه كان مجاب الدعوة ، ولم يرفع رأسه إلى السماء نيفاً وأربعين سنة[5] .

وفي سنة ٣٣٦ هـ ـ ٩٤٧ م توفيت بمكة ابنةُ أحد الصالحين ، وكانت وَرِعة عابدة ، وكانت تقتات طول عامها من ثلاثين درهما ينفذها لها أبوها[6] .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٤ .
(٢) كشف المحجوب ص ٣٣٥ .
(٣) ذكر اخبار اصبهان لابي نعيم مخطوط ليدن رقم ٥٦٨ ص ١٩٨ .
(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧ .
(٥) المنتظم ص ٨٢ ١ وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٦٦ .
(٦) المنتظم ص ٨٠ ١ ـ ب .

وفي سنة ٣٤٨ هـ ــ ٩٥٩ م توفي أحد العلماء ، وكان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدّق بذلك الرغيف وأكل اللقم التي استفضلها[1] .

وفي سنة ٤٠٤ هـ ــ ١٠١٣ م توفي ابن البغدادي الزاهد العابد ، وكان يخرج إلى الناس ، وقد انشقت رأسه أو انفتحت جبهته ؛ لأنه كان لا ينام إلا عن غلبة ، وكان لا يخلو أن يكون بين يديه محبرة أو قدح أو شيء من الأشياء موضوع ، فإذا غلبه النوم سقط على ما يكون بين يديه ، فيؤثر في جبهته أثراً ؛ وكان لا يدخل الحمام ، ولا يحلق رأسه ، لكن يقص شعره إذا طال بالجلم . وكان يغسل ثيابه بالماء حَسْبُ من غير صابون ، وكان يأكل خبز الشعير ، فقيل له في ذلك ، فقال : الشعير والحنطة عندي سواء[2] .

وكان أبو بكر أحمد بن إسحاق (المتوفى عام ٣٤٢ هـ ــ ٩٣٥ م) يدعو بين الأذان والإقامة ، ثم يبكي ؛ وربما ضرب برأسه الحائط حتى تكاد تدمي رأسه[3] . ويحكى عن أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري (المتوفى عام ٤٥٨ هـ ــ ١٠٦٦ م) أنه كان يصوم الدهر قبل أن يموت بثلاثين سنة[4] .

وذُكر في عداد العُبّاد أيضاً جماعة من أشد المدقّقين في مراعاة أحكام الشريعة ؛ فيحكى عن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني (المتوفى عام ٤٣٨ هـ ــ ١٠٤٦ م) ــ وهو والد إمام الحرمين ــ أنه كان وَرِعاً زاهداً متحرّياً في العبادات ، ومن ورعه أنه ما كان يستند

---

(١) نفس المصدر ص ٨٨ ا .
(٢) نفس المصدر ص ١٦٠ ب .
(٣) طبقات السبكي ج ٢ ص ٨١ .
(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٤ .

في داره المملوكة إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ، ولا يدقّ فيه وتداً ، وأنه كان يحتاط في أداء الزكاة ، حتى كان يؤدي الزكاة في سنة واحدة مرتين حذراً من نسيان النية ، أو من دفع الزكاة إلى غير المستحق[1] .

وتوفي في عام ٤٩٤ هـ – ١١٠١ م أحد الزهاد بمرو ، وكان لا يأكل الأرز لأنه يحتاج – إذا زرع – إلى ماء كثير ، وصاحبه قلّ ألاّ يظلم غيره في سقي الماء[2] .

ويحكى عن والد إمام الحرمين الجويني أنه كان حريصاً على ألاّ يطعمه ما فيه شبهة ، وقد بكى مرة ، وأمّه مشتغلة بطعام ؛ وكانت عندهم جارية مرضعة للجيران ، فأرضعته مَصّة أو مَصّتين ، فأنكر أبوه ذلك ، وقال : هذه الجارية ليست لنا ، وليس لها أن تتصرف في لبنها ، وأصحابها لم يأذنوا بذلك ؛ وقلبَ ابنه وفوّعه ، حتى لم يَدَعْ في باطنه شيئاً إلا أخرجه[3] .

وكذلك جلس على عرش الخلافة بمصر خليفة أراد حيناً من دهره أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح الدنيا وشؤونها بعيداً ، وهو الحاكم بأمر الله ؛ ففي حوالي عام ٤٠٠ هـ – ١٠٠٩ م اقتصر في مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتماسك الجسم دون الزيادة والمغالاة في ذلك ؛ وأغلق مطبخ دار الخلافة ، واكتفى بأكل ما ترسله له أمّه ؛ ومنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ، ومن بوس اليد والارتماء بالسجود له ، ومن مخاطبته بمولانا ؛ وربّى

---

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٠٨ .
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٢ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٥١ .

شعره ، وترك ركوبَ الخيل ، وصار يركب الحمير بسرج ولجام حديدي ، مختلطاً بالناس بلا مظلّة وبلا طرّاد بين يديه ؛ وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والمكوس المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان أُخذ من أملاكهم وعقارهم في عهده أو عهد جدّه بمصادرة أو بغير حق . وفي المحرم من عام ٤٠٠ هـ أعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور ، وحرّرهم جميعاً لوجه الله تعالى ، وملّكهم أمر نفوسهم . وكان قبل ذلك قد أخرج من قصره جماعة من حظاياه وأمهات أولاده ، مع ما كان من كثرة شغفه بالجماع ؛ بل غرّق بعضهن في صناديق سُمِّرت عليهن ، وأُثقلت بالحجارة وأُلقيت في النيل ، وذلك رفضاً منه للذة الجسدية . وكان ولي عهده يركب بمراكب الخلافة المرصعة ، وعليه لباسها ، والحاكم يركب على حمار بسرج ولجام من حديد ، وعليه ثياب صوف بيض ثم سود ، وفوطة زرقاء ، وعمامة سوداء[1] .

وكثيراً ما يُحكى لنا خبرُ قوم غيَّروا مجرى حياتهم رأساً على عقب ، فآثروا الإعراض عن الدنيا ومشاغلها .

فيُروى عن أبي محمد إسماعيل بن محمد الدّهان الذي برع في العلم والأدب وعلوم اللسان وأخذ عن الجوهري ، واختص بالأمير أبي الفضل الميكالي ، ومدحه وأباه بشعر كثير — أنه آثر الإعراض عن الدنيا ، وأحب الزهد ، وأزمع الحج والزيارة ، وقال أشعاراً في ذلك ، وقد سأل الثعالبي ألا يورد في كتابه شيئاً من شعره في الغزل والمدح ، فعمل بما سأله[2] .

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي مخطوط باريس رقم ٢٩١ ص ١٢٢ ا ــ ١٢٩ ا ويحكى عن الامبراطور نقفور (Nikephoros Thokas) (٩٦٣ ــ ٩٦٩ م) القائد العظيم أنه كان في الليل يلبس ثوباً من الشعر وحزام التوبة الخشن لايلام نفسه .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣١٠ .

ويُحكى من خبر أبي جعفر البحاث محمد بن الحسين بن سليمان ، من إحدى كور نيسابور ، وكان له محلٌ من الشعر والعلم والأدب ، وتصرفٌ بالقضاء في بلاد خراسان ، أنه قال قصيدة في الشباب والمشيب، والحياة والموت ، ومنها :

شبابٌ كلامع برق رحل وشيبٌ كمثل غريم نزل
. . . .
مضت وانقضت غفلات الشبا ب وجاء المشيب ، وبئس البدل
كأني رأيت الصبا في المنا م خيالا تمثّل ثم اضمحل

ثم يذكر حال الميت مع أهله فيقول :

فهذا يجاذب ما قد حوا ه وهذا يخالسه ما فضل
إذا وضعوه على نعشه أشاعوا البكا، وأسرُّوا الجذل
وإن دفنوه نسوه معا وكلٌ بميراثه مشتغل

ويختم قصيدته بالتوجّع لما مضى مسلّماً مرات كثيرة على عادة شعراء هذا الطراز :

أقول وللدمع في مقلتي سوابق قطر له مستهل :
سلام على طيب عيش مضى وأنسٍ بإخوان صدق نبل
سلام على مَنْ قوّني للقيا م إلى الفرض في وقته والنفل
سلام على الختم في ليلة بقلب كئيب جليف الوجل
سلام على الكتب ألّفتها ووشّحتها بصحاح العلل
سلام على مدَحٍ صغتها وحبّرتها في الليالي الطول
سلام امريء ما اشتهى لم يجد وما رام ، مجتهداً ، لم ينَلْ

أناب إلى ربه تائباً ومستغفراً للخطا والزلل[1]

وكثيراً ما كان انقلاب الناس فجأة سببه سماعهم آيات من القرآن لا يظهر لها في رأينا نحن الأوروبيين هذا الأثر الكبير .

فيحكى عن جعفر بن حرب (المتوفى عام ٣٤٩ هـ) ، وكان يتقلد كبار الأعمال للسلطان ، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة ، أنه اجتاز يوما راكبا في مركب عظيم له ، ونعمته على غاية الوفور والجلال ، فسمع رجلا يقرأ قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » (سورة الحديد آية ١٦) فصاح : اللهم بلى ! وكررها دفعات ، وبكى ، ثم نزل عن دابته ، ونزع ثيابه ، ودخل إلى دجلة ، واستتر بالماء ، ولم يخرج منه ، حتى فرّق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه ، وردها وتصدق بالباقي ، فاجتاز رجل ، فرآه في الماء قائما ، وسمع بخبره ، فوهب له قميصا ومئزراً ، فاستتر بهما وخرج ، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات[2] .

ولكنا نجد ، خلافا لذلك ، آخرين لا يلتفتون إلى التأهب لاتقاء شدائد يوم المعاد إلا في آخر عمرهم .

فيحكى عن نصر بن أحمد الساماني (المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٤٢ م) أنه في مرضه الطويل الذي مات فيه بنى لنفسه بيتاً أمام باب القصر ، وسماه « بيت العبادة » ، وكان فيه يصلي ويدعو ويتضرّع ، وهو في لباس التوبة[3]

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٢) المنتظم ص ٨٩ ا .

(٣) Mirehond, Hist. Som. S. 50. وابن الأثير ج ٨ ص ٣٠١ .

ويحكى أيضاً عن السلطان معز الدولة (المتوفى عام ٣٥٦ هـ ــ ٩٦٦ م) أنه لما اشتدت به العلة وأحس بالموت ، أظهر التوبة ، وأحضر وجوه المتكلمين والفقهاء ، وسألهم عن حقيقة التوبة ، وهل تصح له ؟ فأفتوه بصحتها ، ولقّنوه ما يجب أن يقول ويفعل ؛ فتصدق بأكثر ماله، وأعتق مماليكه،ورد شيئاً كثيراً من المظالم ، وبكى حتى غُشي عليه[1].

وكان الحج في تلك العصور ، بسبب ما كان في الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً ، أو معرّضاً صاحبه للموت أحياناً أخرى . فمنذ خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحج وإيقاعهم حتى بقافلة السلطان[2] صار الحاج يدفعون مكساً للأعراب ليسمحوا لهم بالمرور آمنين . وفي سنة ٣٨٥ هـ أُرسل إلى الأصيفر أمير العرب تسعة آلاف درهم عوضاً عما كان يأخذه من الحاج ، وصار ذلك رسماً له[3] . وكان بعض الأمراء يدفعون أيضاً مالا من عندهم لتأمين طريق الحاج ، إلى جانب ما كانت تدفعه حكومة بغداد ؛ فكان أمير الجبل حوالي عام ٣٨٦ هـ ــ ٩٩٦ م يبعث إلى الأصيفر أيضاً خمسة آلاف دينار في كل عام وجعل ذلك رسماً له ، وكان يزيده في كل سنة ، حتى بلغ تسعة آلاف ومائتي دينار[4] . وفي سنة ٣٨٤ هـ ــ ٩٩٤ م خرج الحاج إلى مكة ، فاعترضهم الأصيفر الأعرابي ، ومنعهم من الجواز ، وذكر أن الدنانير التي أرسلها السلطان عام أول كانت دراهم مطليّة ، وأنه لا يفرج لهم عن الطريق إلا بعد أن يعطوه رسمه لسنتين ؛ وطالت

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٥ ؛ والمنتظم لابن الجوزي ص ١٠٠ ا .
(٢) التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣٧٥ .
(٣) المنتظم ص ١٣٦ ب .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٩ ب .

المخاطبة والمراسلة حتى ضاق الوقت على الحجاج ، فرجعوا[1] . وفي سنة ٤٢١ هـ ـــ ١٠٣٠ م تأخر الحاج من خراسان ، ولم يخرج من العراق إلا قوم ركبوا من الكوفة على جمال البادية ، وتخفَّروا من قبيلة إلى قبيلة ، وبلغت أجرة الراكب إلى أربعة دنانير[2] .

وكان الحاج في أوقات السلام والأمن يعانون الشدائد المخيفة بسبب قلة الماء في الصحراء حتى بالنسبة لمن كان يجاور جزيرة العرب ؛ ويشبّه ابن المعتز صاحب السوء الذي لا بد منه ، بماء طريق الحج ، فيقول[3] :

وصاحب سوء ، وجهُه لي أوجه	وفي فمه طبـــلٌ بسرّي يضرب
إذا مـــا قلا الإخوان كان مرارة	يعرض في حلقي مـــراراً وينشب
ولا بد لي منه ، فحيناً يعصّني ،	وينساغ لي حيناً ، ووجهي مقطب
كماء طريق الحج في كل منهـــل	يـذَمُّ على ما كان منه ، ويشرب

وكثيراً ما نقرأ في تراجم المسلمين هذه العبارة المؤلمة ، وهي أن يقال : « ومات في طريق الحج » .

وفي عام ٢٩٥ هـ ـــ ٩٠٧ م أصاب الحجاج في منصرفهم ببعض الطريق عطشٌ ، حتى مات منهم جماعة ، قال الطبري : سمعت بعض من يحكي أن الرجل كان يبول في كفه ثم يشرب[4] .

وفي سنة ٤٠٢ هـ ـــ ١٠١١ م هاجت ريح سوداء على الحجاج ،

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٣ ب ؛ وتاريخ ابن الاثير ج ٩ ص ٧٤ .
(٢) المنتظم ص ١٨١ ا .
(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٥ .
(٤) عريب ص ٢٤ .

وهم في بعض الطريق ، ففقدوا الماء ، وهلك منهم خلق كثير ، وبلغ ثمن القربة من الماء مائة درهم[1] .

وفي عام ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م سبق بعض الأعرابُ الحجاجَ إلى مواضع الماء ، فنزحوها ، وغوّروها ، وطرحوا الحنظل في الآبار ، وترصدوا الحجاج ، ومنعوهم من الاجتياز ، وطالبوهم بمال كثير ، وبلغ منهم العطش مبلغاً كبيراً ؛ وقيل إنه هلك منهم خمسة عشر ألفاً ، ولم يفلت إلا عدد يسير ؛ وكوتب عامل الكوفة ــ وكان عليه أن يحفظ طريق الحاج[2] ــ بأن ينهض لطلب الأعراب الذين فعلوا هذا الفعل ، ويوقع بهم بما يشفي الصدر منهم ؛ فلحق بهم في البرّية وأوقع بهم وقتل كثيراً منهم ، وأسر خمسة عشر من وجوههم ، وأرسلهم إلى بغداد ، فشهروا هناك ، وأودعوا الحبس ، وأُجيع منهم جماعة وأُطعموا المالح، وتركوا على دجلة ، حتى شاهدوا الماء حسرة ، وماتوا عطشاً .

وتم الظفر بعد سنتين ببني خفاجة الذين كانوا أضرّ الناس بالحجاج في ذلك العهد ، فأفلت من في أسرهم من الحجاج ، وكانوا قد جعلوهم رعاة لأغنامهم ، فعادوا ، وقد قسّمت تركاتهم وتزوجت نساؤهم[3] .

وفي سنة ٤٠٥ هـ ــ ١٠١٤ م هلك من الحاج كثيرون ، وكانوا عشرين ألفاً ، فسلم ستة آلاف ، وقد اشتد الأمر بهم ، حتى شربوا أبوال الجمال ، وأكلوا لحومها[4] .

---

(١) المنتظم ص ١٥٨ ا .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٧ .
(٣) المنتظم ص ١٥٩ ا .
(٤) نفس المصدر ص ١٦٢ ب .

وكانت سيول الأنهار الصغيرة التي تنشأ عـن المطر في الصحراء تصيب الحجـاج أيضـاً ببعض الأذى ، ففي سنة ٣٤٩ هـ ــ ٩٦٠ م « انصرف حاج مصر بعد أن قضوا حجّهم ، فنزلوا في وادٍ بمكة ، فلما كان بالليل حملهم الوادي ، وهم لا يشعرون ، فغرق أهل مصر ، وكانوا عدداً كبيراً ، وكنسهم الماء مع أمتعتهم إلى البحر »[١] .

وكان المفرطون في الصلاح والعبادة يحجّون سيراً على أقدامهم ، ويُحكى عن أحد العبّاد أنه كان في طريق الحج يصلي عند كل ميـل ركعتين[٢] .

وكان من عادة الصوفية أن يخرجوا في هذا السفر الطويل متوكلين بلا زاد ولا مال[٣] .

وعلى عكس هؤلاء كان هنـاك قوم يأخذون أجراً نظير قيامهم بالحج بَدَلَ من يأْجرهم على ذلك ، وفي هؤلاء يقول المقدسي : « ورأيتُ من حج بأجرة انتكس قلبه ؛ فإن عاد ازداد نكوساً ، وقلّ ورعه ، حتى ربما أخذ الحجتين والثلاث، ولم أرَ لهم بركة ، ولا جمعوا منه مالاً قط »[٤] .

وكانت عودة الحجاج عيداً كبيراً ، فكان الحجاج يبيتون بالياسرية، إحدى ضواحي بغداد ، ثم يبكّرون لدخول بغداد[٥] .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٠ .
(٢) ذكر أخبار أصفهان لأبي نعيم مخطوط ليدن ص ٧١ ب .
(٣) انظر رسالة القشيري في باب التوكل ؛ والارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٧ (حيث يقول أحد الصالحين :
فلو كان بالامكان سعيٌ بمقلتي إليك رسول الله افنيتُها سعيا ــ المترجم)
(٤) المقدسي ص ١٢٧ .
(٥) مصارع العشاق للسراج طبعة القسطنطينية ص ١٠٩ .

وكان الخليفة يستقبل الحجاج العائدين الذين يمرون ببغداد في طريقهم إلى المشرق ، ففي عام ٣٩١ هـ ــ ١٠٠٠ م جلس الخليفة القادر بالله إلى أهل خراسان العائدين من الحج ، وقرىء في هذا الحفل العظيم على رءوس الملأ كتابُ تقليد ولي العهد[١] .

وكانت ثم أماكن مقدسة في كثير من الجهات من شأنها أن تأخذ نصيباً من مجموع الحجاج الذين يقصدون مكة ؛ ومما له دلالته أن البعض كان يزعم أن سبع زورات لمسجد يونس قرب نينوى القديمة ــ وهو المسجد الذي بنته جميلة بنت ناصر الدولة ــ يعدلن حجّةً ؛ ولا شك في أن المشاهد التي هي أهم من مسجد يونس تكون زياراتها التي تعادل حجة أقل من ذلك[٢] . ونجد مدينة بيت المقدس بوجه خاص قد استفادت في هذه الظروف الجديدة مما كان لها منذ عهد طويل من مزايا تجذب الناس إليها . ويحدثنا ناصر خسرو ، في القرن الخامس الهجري ، أنه في وقت الحج كان الناس ، الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مكة من سكان الشام وأطرافها ، يقصدون بيت المقدس في موسم الحج ، ويضحّون ضحيّة العيد كما هي العادة ؛ وكان يجتمع بها أكثر من عشرين ألف إنسان في بعض السنين ، وكانوا يحملون أبناءهم ويؤدّون السنّة[٣] .

ويُحكى لنا أيضاً إنشاء نماذج للأماكن المقدسة ، على نحو يشبه تمثيل جبل الجلجلة عندنا ، فقد رُوي عن الخليفة المتوكل في القرن

(١) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ ؛ والمنتظم ص ١٤٦ ا .

(٢) المقدسي ص ١٣٦ .

(٣) ناصر خسرو ، ترجمة شيفر ص ٦٦ (ويبين متز أن هذه السنة هي الختان للأبناء ــ المترجم)

الثالث الهجري أنه بنى بمدينة سامرا كعبة ، وجعل هناك طوافاً ، واتخذ منى وعرفات ليغر بذلك أمراء كانوا معه ، لما طلبوا الحج ، خشية أن يفارقوه[1] .

وكان في ذلك العصر بين بعض الصوفيـة معارضـة قوية للحج بالجملة .

ويحكى عن أحد الصوفية الأولين أنه أمر أحد الحجاج بالرجوع عن الحج والقيام بحقوق أمه[2] .

ويؤثر عن صوفي توفي عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م أنه قال[3] : « عجبت لمن يقطع البوادي والقفار ليصل إلى بيت الله وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه ، حتى يصل إلى قلبه ، لأن فيه آثار مولاه ! » .

ويذكر لأبي حيان التوحيدي ، وكان صوفي السمت والهيئة ، متفننا في الكلام على مذهب المعتزلة ، أنه ألف حوالي عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م « كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي »[4] .

ويحكى أن الوزير نظام الملك في القرن الخامس الهجري استأذن السلطان ملكشاه في الحج ، فأذن له ، فخرج ؛ فلما عبر دجلة ، وضرب خيامه ، جاء فقير تلوح عليه سيما القوم (الصوفية) إلى الخيمة التي فيها الوزير ، وأعطاه رقعة مطوية كان فيها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : اذهب إلى الحسن ، وقل له : أين تذهب إلى مكة ؟ حجك ها هنا ، أما قلت لك : أقم بين يدي هذا التركي ، وأعن أصحاب الحوائج من أمتي ؟ فرجع نظام الملك[5] .

---

(١) المقدسي ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٢) كشف المحجوب ص ٩١ .
(٣) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٤) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٢ .
(٥) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٤٠ .

ويقول الحجويري نفسه في القرن الخامس الهجري وهو مثال الصوفية المتساهلين المعتدلين : « الحج نوعان : الأول في الغيبة ، والثاني في الحضور ، فمن كان غائباً عن الله في مكة فهو كمن كان غائباً عنه في بيته ؛ ومن كان حاضراً مع الله في بيته فهو كمن كان حاضراً معه في مكة ؛ فالحج مجاهدة لكشف المشاهدة ، والمجاهدة ليست علة للمشاهدة ، ولكنها وسيلة لها ... فليس المقصود من الحج رؤية البيت بل المقصود الحقيقي مشاهدة الله »[١] .

ويخيل للإنسان أن طوائف المثقفين صاروا يجعلون لزيارة المدينة شأناً أكبر ، وذلك تمشيًا مع التبجيل المتزايد للنبي (عليه السلام) .

ويحكى أن البخاري صنف كتابه في التاريخ عند قبر الرسول عليه السلام[٢] . ويقول أبو محمد النيسابوري الذي أخذ عن الجوهري ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، وذلك عند ما أزمع الحج والزيارة[٣] :

أتيتك راجلا ، ووددت أني ملكت سواد عيني أمتطيه
ومالي لا أسير على المآقي إلى قبر رسول الله فيه !

ويحكى عن جعفر بن الفضل بن الفرات (المتوفى عام ٣٩١ هـ) وهو الذي استجلب الدارقطني المحدث من بغداد ، وبرّ إليه ، وأنفق عليه نفقة واسعة ، وكان وزيراً لكافور الأخشيدي ، أنه اشترى داراً بالمدينة إلى جانب المسجد من أقرب الدور إليه وأوصى أن يُدفن فيها[٤] .

---

(١) كشف المحجوب ص ٣٢٩ .

(٢) تاريخ أبي الفدا عام ٣٥٦ هـ (ج ٢ ص ٢٣٦ من الطبعة الاوروبية) .

(٣) الارشاد ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٠٨ .

ويحكى عن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسن (المتوفى عام ٤٨٨ هـ ــ ١٠٩٥ م) أنه « مات ، وهو أحدُ خُدّام روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكان يكنس المسجد ، ويفرش الحصر ، ويشعل المصابيح »[١] .

وكذلك لم يهمل الناس واجب الجهاد ، واعتنوا به جادين على عادتهم دائما ، وقد أراد كثير من المؤمنين الصالحين أن يدخلوا الجنة من باب الجهاد في سبيل الله ، فكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفّقون كالسيل إلى مدينة طرسوس ؛ وكانت قاعدة حربية وثغراً من ثغور مملكة الإسلام مما يلي حدود الروم ، وهم أعداء الإسلام الذين ورثوا عداوته جيلا عن جيل ؛ كما كانت تَرِد على تلك المدينة صلاتُ أهل البر وأرباب النعم من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم ، يقول ابن حوقل : « ليس من مدينة عظيمة من حدّ سجستان وكرمان ... إلى مصر والمغرب إلا وبها (طرسوس) لأهلها دار ينزل بها غزاةُ تلك البلدة ،ويرابطون بها إذا وردوها،وتكثر لديهم الصّلاتُ، وتَرِدُ عليهم الأموالُ والصدقات العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه وأربابُ النعم يعانونه وينفذونه متطوّعين متبرّعين؛ ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيسٌ ولا نفيس إلا ولم عليها وقفٌ من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقّف من فنادق »[٢] .

وكان أهل الثغور يُكرَمون في بغداد ؛ ويحكى عن أبي علي القالي اللغوي المشهور (المتوفى عام ٣٥٦ هـ ــ ٩٦٧ م) أنه سُمّي القالي ، لأنه لما انحدر إلى بغداد كان في رفقةٍ فيها أهلُ قالي قلا ، وهي

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ٥٨ .

(٢) ابن حوقل ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .

قرية من قرى منازجرد (بأرمينية) ، وكانوا يتكرمون لمكانهم من الثغر ، فنسب إليهم لكونه معهم ، وثبت على ذلك[1] . وكثيراً ما كان من الحيل التي يلجأ إليها بعض المكدّين والتي يجنون منها المال الوفير أن يسيروا مخادعين للناس بدعوى جمع المال للجهاد أو لفك الأسرى ؛ وكثير من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون دوابّ كالغزاة ، ويطوفون البلاد ليوهموا الناس بصدق حيلتهم[2] .

وكانت ثغور مصر المسماة بالمواحيز يعمرها أهل الديوان والمطوّعة ؛ وكانت أحباس السبيل التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة ، فإذا كان شهر أبيب بعث القاضي ما اجتمع من أموال السبيل ، ففرّقت على مواحيز مصر من العريش إلى لوبية ، وأعطيت للمطوّعة ومن كان فقيراً من أهل الديوان[3] . وكانت بلاد ما وراء النهر ثانيةَ ناحيةٍ تلي طرسوس من حيث وقوف أهلها للجهاد ، وذلك لما اشتهر به أهل ما وراء النهر من الشوكة وشدة البأس ، ومن أنهم أكبر أهل الإسلام نصيباً في التضحية وأعظمهم حظا في الجهاد ؛ يقول الاصطخري: « لا تجد في بلدان الإسلام أهلَ الثروة إلا والغالبُ على أكثرهم صرفُ نفقاتهم إلى خاصّ أنفسهم في الملاهي وما لا يرضاه الله ، وإلى المنافسات فيما بينهم في الأشياء المذمومة، إلا القليل منهم ؛وترى الغالبَ على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير إلا القليل منهم » . وكان في مدينة بيكند بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من ألف رباط للغزاة المجاهدين[4] ؛ ويقال إنه كان بمدينة اسبيجاب ، وهي ثغر جليل

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٢) انظر القصيدة الساسانية لابي دلف في يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٣) القضاة والولاة للكندي طبعة جست (Guest) ص ٤١٨ — ٤١٩ .

(٤) الاصطخري ص ١٩٠ ، ٣١٤ .

ودار جهاد ، ألف وسبعمائة رباط يجد فيها أصحاب الحاجة طعاما لهم وعلفاً لدوابهم[1] .

وكانت رغبة الخراسانيين في الجهاد وحميتهم له سبباً في سيرهم إلى الجبهة الغربية في مملكة الإسلام ، وذلك عندما توالى نجاحُ الروم في مهاجمة بلاد الإسلام ؛ ففي عام ٣٥٥ هـ خرج من خراسان قومٌ يُظهرون أنهم غزاة ، وكان عددهم نحواً من عشرين ألفاً ؛ وساروا حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بني بويه ، ولكن سيرتَهم لم تكن سيرة الغزاة ، فلم يكن لهم رئيسٌ واحد ، بل كان لأهل كل بلد من بلادهم رئيس ، فاستراب بهم صاحب الحدّ ، وأرسل بصورتهم ؛ وخالف ركنُ الدولة وزيرَه ابن العميد في أمرهم ، وكاتب صاحب الحدّ بأن يأذن لهم في الدخول ؛ فسار القوم بأجمعهم ، ومعهم فيل عظيم من بين الفيلة ؛ واجتمع رؤساؤهم إلى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه أن يسأل الأمير ركن الدولة أن يطلق لهم مالاً يستعينون به على أمرهم ؛ وظن أن القليل يكفيهم على رسم الغزاة ، فإذا هم يطمعون في شيء كثير ، وقالوا : « نحتاج إلى مال خراج هذه البلاد كلها التي في أيديكم ، فإنكم إنما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبة أن تأتيهم ، ولا نائبةَ أعظمُ من طمع الروم والأرمن فينا ، واستيلائهم على ثغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم » ؛ وسألوا مع ذلك أن يخرج معهم جيش ينضم إليهم؛وأخذوا في هذا النحو من الكلام ، وتبسطوا في الاقتراح ورفع الأصوات ؛ فلما لم تُجبْ مطالبُهم شغبوا ، وعدلوا إلى مسافهة الديلم ، فكانوا يكفّرونهم ويلعنونهم ؛ وكان ذلك في شهر رمضان ، فكانوا يخرجون ليلا ، ومعهم آلاتهم من السيوف والحراب والقسيّ والسهام ، ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف ، فيسلبون العامة مناديلهم وعمائمهم ، وإذا

---

(١) المقدسي ص ٢٧٣ .

تمكنوا من تفتيشهم وأخذ جميع ما معهم لم يقصروا في ذلك ؛ وأدى شغبهم إلى وقوع القتال بينهم وبين أهل البلاد ؛ ثم حجز بينهم الليل ، فرجع الخراسانية إلى معسكرهم،يضربون بطبولهم الليل كله ويتواعدون القتال ؛ فلما أصبحوا باكروا الحرب ، وهجموا على دار الأستاذ ابن العميد ، فكسرهم ؛ ثم كثروا عليه ، حتى مضى كل من معه ، ولم يولِّ عنهم ، حتى طعنه أحدهم طعنة دخلت في كم درعه وأفضت إلى ساعده فجرحته ،واضطر أخيراً إلى أن يرجع إلى دار الإمارة؛واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه إلى أن أتى الليل ، ثم انصرفوا ؛ فلما رجع الوزير إلى منزله ليلا لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه . ثم استفحل أمر هؤلاء الخراسانية وقويت نفوسهم ، ولكن الوزير وركن الدولة تمكنا من هزيمتهم ، حتى انصرفوا على سمت قزوين هائمين على وجوههم لا يلوي بعضهم على بعض ، « ولو أنهم خرجوا بالمال الذي كان لهم لبلغوا من الروم كل مبلغ ، ولكنَّ غزاة المسلمين معهم ، ولله أمر هو بالغه »[1] .

* * *

قيل لعبد الملك بن مروان : أسرع إليك الشيب ، فقال : كيف لا ، وأنا أعرض عقلي في كل جمعة على الناس، وقيل : نِعْمَ الشيءُ الإمارة، لولا قعقعة البريد وصعوبة المنبر[2] . وكان ارتقاء المنبر في كل أسبوع للخطبة في الناس واجباً شاقاً حتى على كبار الأمراء أيضاً ، وكان فيه مزلة للأقدام بالنسبة للقواد ، لأنه يخرج بهم عما اعتادوا من صناعة السيف دون صناعة اللسان والكتب، ويحكى عن أحد الولاة أنه خطب،

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٣ – ٢٩١ ؛ الأصطخري ص ٣١٤ ، ٢٢٠ (أ) ؛ Amedroz, Der Islam, III, 331 ff. ؛ والمقدسي ٢٧٣ (أ) .

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٣ .

فذكر أبياتاً للشعراء في الوعظ ، وقدم لها بقوله : قال الله عز وجل في كتابه[1] .

وكان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام غيره ؛ فيُحكى أنه استدعى الأصمعي اللغوي لتأديب ولده محمد ، وقال : أريد أن يصلي بالناس إماماً في يوم جمعة ، فاخترْ له خطبة وحفّظْه إياها ؛ فحفّظَه عشراً ، فخرج وصلى بالناس ، فأُعجب الرشيد به[2] .

وفيما يتعلق بهذه الناحية القليلة الشأن من نواحي الحياة الدينية نجد أنه في القرن الثالث الهجري قد انقطعت العادة الإسلامية التي جرى عليها الإسلام في عهده الأول ؛ فترك الخلفاءُ والولاةُ الخطبةَ في الجمعة ، وعهدوا بذلك إلى خطباء ندبوا لذلك واختصوا به[3] ، حتى إنه يحكى عن الخليفة المهتدي (٢٥٥ ــ ٢٥٦ هـ = ٨٦٦ ــ ٨٦٧ م) ، وكان شديد الورع ، أنه كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، فيخطب الناس ويؤمّ بهم[4] ؛ وذلك يُذكر ، كأنه شيء قد اختص به المهتدي . وفي عام ٢٧٩هـ صلى الخليفة المعتضد بالناس صلاة الأضحى، ولم يُسمع منه خطبة[5] . ولم يكن الخليفة يخطب إلا في الأعياد . ويحكى عن الخليفة الراضي بالله (٣٣٤ ــ ٣٦٣ هـ = ٩٤٥ ــ ٩٧٤ م) أنه لما عزم على الصلاة بالناس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله إذا انتهى

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٤ .

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ٢٠ ــ ٢١ .

(٣) وكان جهل كثير من الولاة باللغة العربية سببا في تخليهم عن هذا الواجب الديني ؛ ويحكى أن عنبسة بن إسحاق الضبي الذي ولي حكم مصر عام ٢٣٨ هـ كان آخر من وليها من العرب ،وآخر أمير صلى بالناس في المسجد الجامع (الولاة للكندي ص ٣٠٢) .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٢ .

(٥) تاريخ أبي المحاسن (طبعة ليدن) ج ٢ ص ٩٧ .

في الخطبة إلى الدعاء لنفسه،فأرسل في ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك، فاختار له دعاء[1] . وقد رُويت لنا الخطبة التي قالها الخليفة الطائع بعده في عيد الأضحى سنة ٣٦٢ هـ ؛ وكانت خطبة قصيرة أشار فيهـا بكلمة أو بكلمتين إلى مسألة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وكانت:

« الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، متقـربا اليـه ، ومعتمداً عليه ، ومتوسّلا بأكرم الخلائق لديه ، والذي صيَّرني إماماً منصوصاً عليه ، ووهب لي أحسن الطاعة فيما فوّضه إليّ من الخلافة على الأمة ؛ الله أكبر الله أكبر ، مـقـرًا بجميل آلائه فيما أسنده إليّ من حفظ الأمم وأموالها وذراريها وقمع بي الأعداء في حضرها وبواديها، وجعلني خير مستخلَف على الأرض ومن فيها ؛ الله أكبر ، الله أكبر ، تقرباً بنحر البدن التي جعلها من شعائره ، وذكرها في محكم كتابه ، واتباعاً لسنّة نبيه وخليله صلى الله عليه في (. . .)[2] أبينا إسماعيل؛ وقد أمر بذبحه ، فاستسلم لإهراق دمه وسفحه ، غير جَزِع فيما نابه ولا نَكِل عما أمر به ، فتقربوا إلى الله في هذا اليوم العظيم بالذبائح ، فإنها من تقوى القلوب ! الله أكبر الله أكبر ، وصلى الله على محمد خيرته من خليقته ، وعلى أهل بيته وعترته ، وعلى آبائي الخلفاء النجباء .... وأيدني بالتوفيق فيما أتولى ، وسدّدني من الخلافة فيما أعطى . وأنا أُخَوّفكم معشر المسلمين غرور الدنيا ، فلا تركنوا إلى ما يبيد ويَفنى، ويزول ويَبلى ، وإني أخاف عليكم يوم الوقوف بين يدي الله غداً ، وصحفكم تُقرأ عليكم ، فمن أوتي كتابه بيمينه فلا يخاف ظلمـاً ولا

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ـص ٣٤٩ .
(٢) كلمة غير واضحة في الأصل .

هضما ، أعاذنا الله وإياكم من الردى ، واستعملنا وإياكم بأعمال أهل التقوى ، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين[١] .

أما الخلفاء الفاطميون فكانوا يعنون عناية كبرى بالمظهر الديني خاصة ، وكانوا يخطبون في كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء[٢] . وكان الخليفة الحاكم بأمر الله مثلا قبل بناء الجامع الحاكمي يخطب في جامع عمرو جمعة ، وفي جامع ابن طولون جمعة ، وفي الجامع الأزهر جمعة ، ويستريح جمعة ؛ فلما بني الجامع الحاكمي انتقلت الخطبة إليه[٣] .

ولم تكن خطبة الجمعة عند المسلمين عظة بالمعنى الأوربي (Predigt) بل كانت أشبه بطقس كنسي (لثرجيا) (Liturgie) [٤] ، فيها للخطيب من حرية التصرف ما لا يكون له في بقية مراسيم صلاة الجمعة . ولذلك كان لا ينتظر من الخطيب أن يأتي في كل جمعة بشيء جديد . على أنه يحكى عن أبي سعيد عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن (المتوفى عام ٤٩٤ هـ ـ ١١٠١ م) خطيب الجامع المنبعي بنيسابور ، أنه لبث يخطب خمس عشر سنة ينشيء في كل جمعة خطبة جديدة «جامعة للفوائد معدودة من الفرائد »[٥] .

وكان أشهر خطباء القرن الرابع ابن نباتة (المتوفى عام ٣٧٤ هـ ـ

---

(١) المنتظم ص ١٠٦ ب ؛ وختام الخطبة يشبه الختام في خطب ابن نباتة كما سيأتي بعد قليل .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٨١ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٣٨ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

(٤) (الليثرجيا عبارة عن قطعة من الكتاب المقدس تقرأ وتفسر قليلا ، وما يقوله المؤلف رايه الخاص ، وهو قد لا ينطبق على الخطبة في الاسلام ـ المترجم) .

(٥) طبقات السبكي ج ٢٨٤٣ .

٩٨٤ م) ، خطيب سيف الدولة بحلب ؛ وديوان خطبه أعظم مظهر تجلى فيه فن الخطابة في ذلك العهد . وإذا كان في مأثور الروايات الإسلامية أن النبي محمداً (عليه السلام) كانت خطبه قصيرة ، ولم يكن كخطباء العرب ، فأقل مزايا ذلك أنه حفظ الإسلام من شيء بغيض ممجوج ، وهو أن يكون دين ثرثرة للمتشدّقين . ويحكى عن عمار بن ياسر أنه تكلم يوماً فأوجز ، فقيل له : لو زِدْتَنا ! فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة وقصر الخطبة[١] . ولذلك كانت الخطبة الكبرى عند ابن نباتة لا تزيد عن الخمس دقائق[٢] . وتبدأ الخطبة بحمد الله والصلاة على النبي في إيجاز ، وبعدها يجلس الخطيب لحظة قصيرة ، ثم يقف لإلقاء الخطبة الثانية ؛ وقصر البرهة بين هاتين الخطبتين مضرب المثل . قال ابن حمديس الشاعر في ذلك العصر يشكو قصر زمان لقاء الحبيب :

زارت على الخوف من رقيب ... كظبيــة رُوِّعت بذيب

إلى أن قال :

كــان زمــان اللقــاء منهــا ... أقصر مــن جلسة الخطيب[٣]

ويختم ابن نباتة خطبه دائماً بآيات من القرآن ، ثم يقول في آخر كل خطبة عبارات ثابتة وهي : بارك الله العظيم لنا ولكم ولسائر المسلمين[٤] . وكان الدعاء في الخطبة الثانية أقصر قليلا مما هو عليه

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١١٧ ، ويقول الجاحظ (ج ١ ص ٤٢) إن البلاغة الايجاز ، والايجاز أن تجيب فلا تبطيء ، وأن تقول فلا تخطيء .

(٢) على أني سمعت خطبة بطريرك الأرثوذوكس في أحد الشعانين عام ١٩٠٢ ، فلم تزد من عشر دقائق .

(٣) ديوان ابن حمديس طبعة رومة سنة ١٨٩٧ ص ٨ — ٩ .

(٤) ديوان خطب ابن نباتة طبع بيروت ١٣١١ هـ ص ٦ .

اليوم[1] . وفي الخطبة الثانية كان من عادة الخطيب أن يحوّل وجهه إلى اليمين وإلى الشمال عند الصلاة على النبي[2] . وكان هذا الجزء من الخطبة موضع احتفاء وشعور خاص . وكان للصلاة على النبي شأن كبير حتى نجد عند ابن نباتة صوراً مختلفة للصلاة يستطيع الخطيب أن يختار منها ما شاء[3] .

وفي وقت الحرب كان الخطيب يدعو للأمير بالنصر بمثل هذا الدعاء : اللهم انصر الأمير فلاناً على أعدائك الكفرة البغاة ، الفجرة الطغاة ، الذين صدّوا عن سبيلك ، وكذّبوا بتنزيلك ، وآثروا خلاف رسولك ، حتى لا يدع منهم فيلقاً إلا أهلكه ، ولا سملقاً إلا سلكه ، ولا دماً إلا سفكه ، ولا هارباً إلا أدركه ، ولا مغلقاً الا فتحه ودكدكه ، ولا حريماً إلا أباحه وهتكه ، ولا عظيما إلا أهانه وتملكه ! اللهم انصره على أعدائك ، ومكّنه من نواصيهم حتى يذلّهم وينزلهم من صياصيهم ، ويؤدي إليه الجزية بالصغار دانيهم وقاصيهم[4] .

وكان قصر زمان الخطبة لا يمكّن الخطيب من تثقيف سامعيه بشرح النصوص ،كما هو الحال عند النصارى فيما يسمى بال Homilie . وكان للخطبة منذ أول الأمر موضوع واحد لم تَحِدْ عنه ، وهو الكلام في قرب زوال هذا العالم ، وفي ترهيب الناس بالموت والقبر

---

(1) تجد خطبتين من الهند ومصر مترجمتين في قاموس هيوز : Hughes, Dictionary of Islam تحت كلمة خطبة ؛ وانظر كتاب لين Lane, Manners. P. 73 . وتجد خطبة من خطب بلاط الموحدين في كتاب المراكشي في تاريخ الموحدين (ص ٢٩٥ وما بعدها من ترجمة فاجنان Fagnan ، طبعة الجزائر سنة ١٨٩٣ م) .

(2) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

(3) نفس المصدر ص ٢٨٧ وما بعدها .

(4) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

وانقضاء الدنيا بمجيء يوم القيامة ، وهكذا تسير الخطبة على نمط سريع مثير للشعور . ولم يكن الخطباء يعنون بالكلام في شيء من لذات الدنيا وآلامها التافهة ، ومن كانت النار لها وراءه زفير وشهيق فإنه لا يلتفت للأزهار التي يراها في طريقه ، ويروى عن علي ابن أبي طالب أنه قال في إحدى خطبه الحماسية : « الفرار الفرار ؟ النجاة النجاة ؟ العدوّ وراءكم جادّ في طلبكم ، يسعى حثيثاً ليدرككم »[1] . فأما وصف نعيم الجنة وعذاب النار فكان قليلا بالنسبة لما كان الخطباء فيه . وإنما تركزت بلاغتهم الملتهبة في وصف يوم الصاخّة التي تجيء مروّعة، فيزلزل بمجيئها هذا العالم وتنتهي الحياة الدنيا . وكان جديراً بقوم كانوا يعيشون في هذا العصر أقرب إلى الحس السليم وإلى السذاجة والفهم المستقيم أن ينبّهوا الناس إلى التفكير في نهاينهم .

جاء في خطبة من خطب ابن نباتة . « أيها الناس قلقلوا القلوب عن مراقدها ، واعدلوا بالنفوس عن موارد شهواتها ، وذلّلوا جوامحها بذكر هجوم مماتها ، وتخيّلوا فضائحها يوم تعرف بسماتها ، وترقّبوا داعياً من جو السماء تنتشر به الرمم ، وتحشر له الأمم . وتزول معه التهم ، ويطول عنده الأسقام والندم ! يا له داعياً أسمع العظام البالية ، ومنادياً جمع الأجسام المتلاشية . من حواصل الطيور ، وبطون السباع ، وقرار البحور ، ومتون اليفاع ، حتى استقام كل عضو في موضعه ، وقام كل شلو من مصرعه ! فنهضتم أيها الناس لميقات الكرّة ، بوجوه من هبوات الثرى مغبرّة ، وألوان من هول ما ترى مصفرّة ، حفاة عراة ، كما بدأكم أول مرة ؛ يسمعكم الداعي وينفذكم (؟) البصر ؛ قد ألجمكم العرق وغشيكم القتر ، ومادت الأرض ، فهي بما عليها ترتجف ، وبسّت الجبال ، فهي برياح القيامة تنسف ، وشخصت الأبصار فما ترى عين

---

(١) هذه ترجمة لكلام المؤلف ، وهو لم يشر إلى النص العربي . (المترجم)

تطرف ، وغض بأهل السماء والأرض الموقف ، فبينا الخلائق يتوكمون حقيقة أنبائها وقوفا ، والملك على أرجائهـا صفوفا ، إذ أحاطت بهـم ظلمات ذات شعب ، وغشيهم منها شواظ نحاس ولهب ، وسمعوا لهـا جرجرة زفير مصطخب ، يفصح عن شدة تغيّظ وغضب ، فعند ذلك جثا القائمون على الركب ، وأيقن المجرمون بالعطب ، وأشفق البرآء مـن سوء المنقلب ، وأطرق النبّاء لسلطان الرهب ، ونودي أين عبد الله وأين أمَته ؟ أين المسوف نفسه بخديعتـه ؟ أين المختطف بالموت عـلى حين غرته ؟ فعرف مـن بين الخلائق بسمته ، وأحضر لتصفح صحيفته ، والموافقة على ما أسلف في مدّته ، مطالباً بإقامة حجته ، مروّعاً بين يدي عالم خفيته ، بوقع خطاب كالصواعق ، ولذع عتاب كالمقامع ، وشهادة كتاب للفضائح جامع ، وصحة حساب للمعاذين قاطع ، فخاب ، والله ، من كان على نفسه مسرفاً ولم يجد من خلطائه مثنيلا ولا مسعفاً ، بل وجد المحاكم له وعليه عدلا منصفاً ، « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً » . عدل الله بنا وبكم إلى سبيل السلامة ، وحمل عنا وعنكم أعباء الظلامة ، وجعل الإخلاص بتوحيده نوراً لنا في ظلمات القيامة . إن أغزر ينابيع الحكم ، وأنور مصابيح الظلم ، كلام باريء النسم : « فإذا نُفخ في الصور نفخة" واحدة ، وحُملت الأرض والجبـال ، فدُكّتا دكة واحدة ، فيومئذٍ وقعت الواقعة وانشقت السماء ، فهي يومئذ واهية،والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانيـة ، يومئذ تُعرضون لا تخفى منـكم خافية[1] . »

وقليلا ما كان الخطباء يتعرضون للكلام في الجنة أو في موضوع كثيراً ما يتكلم فيه النصارى ، وهو اللقاء بعد الموت ؛ ولعل الخوف من

(1) ابن نباتة ص ٦٩ – ٧٢ .

يوم النشور ،ومن أهوال يوم الحساب كان أقوى من أن يسمح بالكلام في ذلك . ويحكى عن إحـدى شهيرات نساء العرب أنهـا قالت : إني أشتاق ليوم البعث لأرى وجه زوجي ؛ فكان قولها مثلا مدهشا يضرب لبيان قوة الحب الذي لا يرهب أشد الأهوال[1] .

وقد ألف ابن نباتة كل خطبه سجعا ، وكان ثم في الخطبة نقطـة أساسية تدور حولها كما تدور الأنغام في مقطوعة موسيقية حول أساس النغم .

وهذا السجع في الخطب هو أيضاً مـن المستحدثات التي ظهرت حوالي منتصف القرن الثالث الهجري ، وبلغت منتهى ازدهارها في القرن الرابع[2] . ويحكي ابن خلكان من مناقب أحد الخطباء المتأخرين ،وهو شيخ الإسلام العزّ بن عبد السلام ، أنه ترك السجع في خطبه حين ولي الخطابة رجوعا إلى طريقة السلف[3] .

على أنه فيما يتعلق بالخطبة وُضعت في القرن الرابع صورة الخطبة وقوانينها[4] ، وإذا كانت « خطب النصارى البلاغية التي تلقى في أيام

---

(١) تحفة العروس مثلا ص ١٦٢ .

(٢) انظر باب الأدب من الجزء الأول .

(٣) مقدمة كتاب ديوان الخطب لابن نباتة ص ١٩ .

(٤) وقد حفظ لنا أبو العلاء المعري في كتابه سيف الخطبة بقية من طريقة القدماء في تأليف الخطب . يشتمل هذا الكتاب على خطب السنة : فيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ؛ وهي مؤلفة على حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء وعلى الدال وعلى الراء وعلى اللام والميم والنون ، وتركت الجيم والحاء وما يجري مجراهما ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سهلا ، (الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٨٢) .

الأعياد الكبرى ليست إلا أناشيد منثورة[1] » ، فهذا ينطبق أيضاً على الخطب الإسلامية في القرن الرابع تمام الانطباق ؛ وإن بين هذه الخطب المسجوعة وبين الخطب التي كتبها القدماء في أواخر العهد القديم شبها كبيراً جداً ، بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر تأثير خطب القدماء في طريقة المسلمين ، وربما كان في طريقة القرآن شيء من ذلك .

ويحتوي ديوان ابن نباتة من خطب الأعياد على خطب تُقال في رأس السنة ، وفي يوم وفاة النبي عليه السلام ، وفي شهري رجب ورمضان ، وفي عيد الفطر . وكانت الخطب الجهادية ثمرة من ثمرات أيام سيف الدولة بما كان فيها من حروب ، وهي لا تقل روعة عن أجود الخطب الحربية التي أُثرت عن القدماء[2] .

فمن ذلك خطبة ابن نباتة :

أيها الناس ! إلى كَم تسمعون الذكرَ فلا تَعُون ، وإلى كَم تُقرَعُون بالزجر ، فلا تُقلعون ! كأنّ أسماعَكم تمجُّ ودائعَ الوعظ ، أو كأنّ قلوبَكم بها استكبارٌ عن الحفظ ! وعدُوُّكم يعمل في دياركم عملَه ، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أملَه ، صرخ بهم الشيطانُ إلى باطله ، فأجابوه ؛ وندبكم الرحمنُ إلى حَقّه ، فخالفتموه . هذه البهائم تناضل عن ذمارها ، وهذه الطير تموت حميةً دون أوكارها ، بلا كتاب أُنزل عليها ، ولا رسول أُرسل إليهـا ؛ وأنتم أولو العقول والأفهام ، وأهل الشرائع والأحكام ، تَنِدُّون من عدوكم نَديدَ الإبل

---

(1) Norden Die Antike Kunstprosa, II. S. 844.

(2) يقول ابو المحاسن (ج ٢ ص ٣٤٩) إن ابن نباتة عمل الخطب الجهادية لما وصل الروم إلى طرسوس وكروا إلى ديار بكر ، ووصلوا ميافارقين ، وقتلوا وخربوا ، وذلك عام ٣٤٨ هـ .

وتدّرعون له مدارع العجز والفشل ؛ وأنتم والله أولى بالغَزْو إليهم ، وأحرى بالمُغار عليهم ؛ لأنكم أُمناء الله على كتابه ، والمصدّقون بثوابه وعقابه ؛ خصَّكم الله بالنجدة والباس ، وجعلكم خير أمة أُخرجت للناس ؛ فأين حميةُ الإيمان ، وأين بصيرةُ الإيقان ، وأين الاشفاق من لهب النيران ، وأين الثقة بضمان الرحمن ؛ فقد قال عز وجلَّ في الفرقان: « بَلى . إنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقوا ، ويَأتوكُمْ مِن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الملائِكَةِ مُسَوِّمين. وما جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لكمْ ولِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وما النَّصْر إلاّ مِن عِنْدِ الله العَزيزِ الحَكيمِ » (آل عمران آية ١٢٤ ، ١٢٥) . فقد اشترط عليكم التقوى والصبر ، وضَمِن لكم المعونة والنصر ؛ أفتَتَّهمونه في ضمانه، أم تشكّون في عدله وإحسانه!؟ فسابقوا ، رَحِمَكُم الله ، إلى الجهاد بقلوب نقيَّة ، ونفوس أبيَّة ، وأعمال رضيَّة ، ووجوه مُضِيَّة ؛ وخذوا بعزائم التشمير ، واكشفوا عن رءوسكم عارَ التقصير وهَبُوا أنفسكم لمن هو أَمْلَكُ بها منكم؛ ولا تركنوا إلى الجزَع ، فإنه لا يدفع الموتَ عنكم ، « لا تكُونُوا كالَّذِينَ كَفَروا ، وقالوا لإخوانِهم ، إذا ضرَبوا في الأرضِ أو كانوا غُزًّا : لو كانوا عِنْدَنا ما ماتُوا وما قُتِلوا ! لِيجْعلَ اللهُ ذلكَ حَسرَةً في قُلوبهِمْ ، واللهُ يُحيي ويُميت ، واللهُ بما تَعملُون بصير » . (آل عمران آية ١٥٥) .

فالجهادَ الجهادَ ، أيها الموقنون ! والظفرَ الظفرَ ،أيها الصابرون! والجنةَ الجنةَ ، أيها الراغبون ! والنارَ النارَ ، أيها الهاربون ! فإن الجهادَ أثبَتُ قواعد الإيمان ، وأوسعُ أبواب الرضوان ، وأرفعُ درجات الجنان ؛ وإنّ مَنْ ناصَحَ اللهَ فيه لبيْن منزلتيْن مرغوبٍ فيهما ، مُجْمَعٍ على تفضيلهما : إما السعادةُ بالظفرَ في العاجل ، وإما

الفوز بالشهادة في الآجل ،وأكرمُ المنزلتين إليكم أعظمها نعمةً عليكم؛ فانصروا الله ! فإن نصر الله حِرْزٌ من الهلكات حريز ، «ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصرُهُ ، إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » • (الحجّ آية ٤٠)•

إن أحسن ما نطقتْ به بلغاءُ الخطاب ، وأنور ما أضاءت به ظلماءُ الألباب كلامُ العزيز الوهاب : « يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمْ : انفِروا في سَبِيلِ الله ، إثّاقَلْتُم الى الأرْضِ ! أرَضِيتُمْ بالحَيَاةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرَةِ !؟ فَما مَتاع الحياةِ الدُّنيا في الآخِرَةِ إلاّ قَليلٌ ! إلاّ تَنْفِروا يُعَذِّبْكُم عَذَاباً أليماً، ويَستَبْدِلْ قَوْماً غَيرَكُمْ ، ولا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ، واللهُ علَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (التوبة آية ٣٨ ــ ٣٩) ديوان خطب ابن نباتة • ط • بيروت ، ١٣١١ هـ ص ١٨٨ ــ ١٩٠ •

أما فيما يتعلق بملابس الخطباء فلم تكن الحكومة تُعنى إلا بتعيين اللون الذي عليهم أن يتخذوه : فحيث كان يُخطب لبني العباس كان الخطباء يتخذون السواد الذي هو اللون الرسمي للعباسيين ؛ وحيث كان يُخطب للفاطميين كان الخطباء يتخذون اللون الأبيض •

ونظراً لعدم وجود هيئة من الكهنوت وعدم وجود لباس ديني خاص فقد كان الخطباء ، فيما عدا ما تقدم ، يتبعون عرف الناحية التي هم فيها ، ففي العراق وفي خوزستان كان الخطباء يظهرون باللباس الحربي ، فيلبسون الأقبية والمناطق[1] ؛ على حين أنهم في خراسان كانوا لا يتردّون ولا يتقبّون ، وإنما يكتفون بلبس درّاعة[2] • وفي عام

---

(١) المقدسي ص ١٢٩ ، ٤١٦ •

(٢) نفس المصدر ص ٣٢٧

٤٠١ هـ ــ ١٠١٠ م خطب بالموصل للحاكم بأمر الله ، فظهر ، وعليه قباء ديبقي أبيض ــ واعتبر هذا كافياً من الناحية الرسمية ــ وعمامة" صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفّان أحمران ، وقد تقلد سيفاً[١] .

وفي البصرة وحدها ، وهي مدينة الصالحين ومدّعي الصلاح في العراق ،كان الخطيب الرسمي يخطب في كل صباح ؛ وقيل إن هذه كانت عادة ابن عباس . وفيما عدا البصرة كان الخطيب الرسمي يخطب يوم الجمعة فقط ، ويترك الوعظ الأسبوعي للخطباء المتطوعين الذين كانوا منذ العصور الأولى يتزاحمون على ذلك ، وكانوا يسمّون القصّاص . وقد كتب جولدزيهر تاريخاً لهم[٢] . وأجاد المقريزي[٣] في جمع الكثير من أخبارهم باختصار ؛ وهو يقول إن القصص لم يكن في أيام الرسول ولا في زمن الخلفاء الراشدين ، وإنما حدث في زمن معاوية ، وقيل في خلافة عثمان .

ويحكي المقريزي عن الليث بن سعد أن القصص قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة ؛ فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه النفر من الناس للقاصٍ يَعِظهم ويذكّرهم ، وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ؛ وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية ، إذ ولّى رجلا على القصص ، فكان إذا سلّم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي طبعة كليفورنيا ص ١٠٧ .

(٢) Muham. Studien. II. 161 ff. ؛ ومن أمثلة التندّر بطريقة هؤلاء القصاص ما جاء في كتاب الأغاني (ج ٣ ص ٣٠) من أن بشار بن برد الشاعر الأعمى الذي عاش في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس مر بقاص بالمدينة ، فسمعه يقول في قصصه : من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوّه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها . (قال) : فالتفت بشار إلى قائده فقال : بئست والله الدار هذه في كانون الثاني .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ .

وحمده ومَجَّده ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة[1] .

وكان القاصّ بعد صلاة الجمعة يقرأ القرآن ويفسّره ، وكان القاضي هو الذي يتولى القصص في أول الأمر ؛ ولا يُذكر وجود هذا المنصب إلا في مصر ؛ ولعله كان من قبل من أنظمة الكنيسة المصرية[2] . على أنه ولي قضاء مصر في عام ٢٠٤ هـ إبراهيم بن إسحاق القاريّ ، وجُمع له القضاء والقصص[3] . وبعد ذلك بطل نظام الجمع بين المنصبين ، وارتفع شأن منصب القضاء ، وانحطّ منصب القاص . وفي عام ٣٠١ هـ أراد أبو بكر الملطي الذي تولى القصص في هذه السنة أن يقرأ القرآن ويقص في كل يوم ، فمنع القاضي من ذلك ، فرجع القاص إلى القراءة في ثلاثة أيام[4] .

أما في المشرق في عصر المأمون فقد ذكر طيفور أن قصص القصّاص وإيواءهم ، إلى جانب بناء المساجد وجمع اليتامى والإنفاق على الجهاد ، من أعمال البرّ التي اتخذها البعض على سبيل الرياء[5] .

أما المغرب فيحدثنا المقدسي أنه كان قليل القصاص[6] . ويُروى

---

(١) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) نفس المصدر ؛ وفي عام ٧٠ هـ ولي قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة ، وكان له إلى جانب القضاء القصص وبيت المال ، وكان رزقه من كل هذه المناصب الثلاثة مائتي دينار (الكندي ص ٣١٧) .

(٣) الكندي ص ٤٢٧ .

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٥) كتاب بغداد لطيفور كلر Keller ص ١٠٠ . ويقول الجاحظ (البيان ج ١ ص ٤١) إن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت .

(٦) المقدسي ص ٢٣٦ .

عن مالك بن أنس صاحب المذهب السائد في المغرب أنه كان يكره القصص[1] .

وفي القرن الرابع نزل القصّاص إلى غمار العامة ، وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر في المساجد والطرق ، وينالون منهم مالاً كثيراً . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء ، فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم[2] .

وكان العامة يحبون القصاص حبا شديداً ؛ ويحكى عن الطبري أنه أنكر على قاص ببغداد ، فرمى العامةُ باب داره بالحجارة ، حتى سدّوه وصعب الخروج منه[3] . وكان القصاص في أواخر القرن الرابع أكثر مثيري الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة[4] ؛ ويضع الهمذاني في المقامة الساسانية القُصّاص بين طبقة المشعوذين المخرقين من بني ساسان .

وحوالي ذلك العصر فقد القصاصُ كلَّ ثقة من جانب أهل التقى والصلاح ، وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم ، وهي طائفة المذكّرين ، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر[5] . وقد نشأ مجلس الذكر

---

(١) المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ٢١ وما بعدها .

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ١٤٩ ؛ ويحكى عن احد القصاص انه كان يقص على الناس بطرسوس ، فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وبأسه وسطوته ، فخرّ مغشيا عليه ومات عام ٣٣٥ هـ ــ ٩٤٦ م (طبقات السبكي ج ٢ ص ١٠٣) .

(٣) Goldziher, Muh. Studien, II, S. 168.

(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ١٥٢ ب .

(٥) المقدسي ص ١٨٢ . واقدم نص وجدته ورد فيه لفظ المذكر هو قصيدة حصار ــ

من قعود بعض الصالحين للتسبيح مُتَنَفِّلين بعد انقضاء الصلاة[1] • وكان الصوفية يسمون خطباءهم بهذا الاسم ـ اسم المذكرين[2] ـ ويرجع إلى عصر التنافس بين المذكرين والقصاص ما قاله أبو طالب المكي من أن حضور الرجل مجالس الذكر أفضل من صلاته ، وصلاته أفضل من حضور مجالس القصاص[3] •

وقد فرّق البعض بين طوائف المتكلمين ؛ فيحكي أبو طالب المكي: « وقد قسّم بعضُ العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام ، فوصفهم بأماكنهم فقال : المتكلمون ثلاثة : أصحاب الكراسي وهم القصاص ؛ وأصحاب الأساطين ، وهم المفتون ؛ وأصحاب الزوايا ، وهم أهل المعرفة ؛ فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هي مجالس الذكر »[4] •

وقد أجهد المذكّر نفسه في أن يظهر بمظهر يكسبه من التقدير ما يزيد على سلفه القاصّ ؛ وأكبر مظهر لذلك أنه كان لا يتكلم ارتجالا ومن غير تقيُّد ، بل كان يقرأ من دفتر[5] • وفي أيامنا هذه نجد القاص في بغداد يروي قصصَ الأبطال بأن يقرأها من كتاب صغير معه ، على حين أن الأخباري اليهودي يروي حكاياته من غير دفتر ؛ وكان الأول ينظر إلى الثاني نظرة الاحتقار •

وقد بين السمرقندي (المتوفى عام ٣٧٥ هـ) ما ينبغي أن يكون عليه المذكّر ومن يستمع إلى حديثه ؛ فأول ما يحتاج إليــه أن يكون

= بغداد في عهد الأمين (١٩٨ هـ ـ ٨١٣ م) للشاعر الأعمى المعروف بعلي بن أبي طالب ـ مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٤٤٨ •

(١) المقدسي ص ١٨٢ •

(٢) كشف المحجوب ص ٢٣٥ •

(٣) المدخل لابن الحاج، ج ٢ ص ٢٣؛ ولم أستطيع أن أجد هذه الكلمة في قوت القلوب•

(٤) قوت القلوب (للمكي المتوفى عام ٣٨٦ هـ ـ ٩٦٦ م) ج ١ ص ١٥٢ •

(٥) المقدسي ص ١٨٢ ، ٣٢٧ •

صالحا في نفسه وَرِعاً ، وأن يكون متواضعاً ، ولا يكون متكبراً ولا فظاً غليظاً ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأخبار وأقاويل الفقهاء ، لا يحدث الناس إلا بما صح عنده ؛ وينبغي ألا يكون طماعاً ؛ ولو أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس أن يقبل هديته ، وينبغي أن يكون في مجلسه الخوف والرجاء ، ولا يجعله كله خوفاً ولا كله رجاء ، فإن كان المذكر يحتاج إلى تطويل المجلس ، فيستحب له أن يجعل في خلال مجلسه كلاماً يستظرفه السامعون ، ويتبسمون له ، فإن ذلك يزيدهم نشاطاً وإقبالا على السماع ؛ ومن آداب المستمعين أن يقولوا للمذكّر عند فصل كل حديث : صَدَقْتَ أو أحْسَنْتَ ! حتى يكون المذكر راغباً في الحديث ، ويصلّوا عند سماع اسم محمد صلى الله عليه وسلم كلما ذُكر ، وأن ينزعوا وسواس الشيطان عن قلوبهم ، ولا يناموا في حال المجلس[1] ، وكان المجلس ينتهي بأن يأمر المذكر سامعيه بالقيام ، فيقوموا ، وهو معهم ، ويأخذون في الدعاء[2] .

وكان أصحاب المجموعات الفقهية التي أُلّفت في القرن الثالث الهجري لا يجهلون ما كان يُقال من أنواع الذكر الذي هو عبارة عن تكرير لفظ من ألفاظ الدعاء ؛ ولكنهم لم يعلقوا على ذلك أية قيمة . ويُروى عن النبي (عليه السلام) أنه أوصى بأن يسبِّحَ المصلّي بعد الصلاة ثلاثاً وثلاثين ، ويحمّدَ ثلاثاً وثلاثين ، ويكبّرَ ثلاثاً وثلاثين[3] .

وفي القرن الثاني الهجري قال الأصمعي لخلف الأحمر : أما ترى ما جاء به ابن دأب من الحجاز والشوكري من الكوفة ؛ فأجاب بما يحط

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ٨٩ ب .

(٣) البخاري : باب الذكر .

من قدر علمهما ، بأن قال : إنما يروى لهؤلاء من يقول : قالت ستي ، ويدعو ربه من دفتر ، ويسبّح بالحصى ، ويحلف بحياة المصحف ؛ ويَدَعُ « حدّثنا » و « أخبرنا » ، ويقول : أكلنا وشربنا[1] .

وقد وصف الدارمي (المتوفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م) في سُنَنِه قوماً كانوا يقعدون في المسجد على هيئة حلقات ، ينتظرون صلاة الصبح، وفي أيديهم حصى صغير ، وكان لكل حلقة إمام يقول لهم : قولوا : الله أكبر ، مائة مرة ، ثم سبحان الله مائة مرة ، وكانوا يعدون ذلك بالحصى الذي في أيديهم ، فمر بهم شيخ ، فقال لهم : أولى بكم أن تعدّوا ذنوبكم[2] .

وقد بقي الذكر في أثناء القرن الثالث الهجري كله يعتبر قليل القيمة ؛ ويندر أن نجد له ذكراً في كتاب العلماء في ذلك القرن ، فلما جاء القرن الرابع انفصل الذكر عن الدعاء غير الإجباري ، الذي يقال لغرض معين ، وصار يقصد به الدعاء القصير المتكرر على هيئة المناجاة لله ، والتحية ، وما يقال عند الطعام وفي الصباح والمساء ، وما اعتاده المسلمون من كثرة ذكر الله في أثناء عملهم اليومي[3] ، وجُعل لهذا العمل الديني شأن كبير ، ورُوي عن النبي عليه السلام أنه قال : « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ،وهوحي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير،

(١) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٩ .

(٢) سنن الدارمي طبعة كونبور ١٢٩٣ هـ ص ٣٨ ، كما نقل ذلك جولدزيهر في مجلة تاريخ الاديان (RHR) عام ١٨٦٠ ص ٢٦٩ .

(٣) يضع صاحب العقد الفريد - وهو يمثل آراء القرن الثالث الهجري - امثال هذه العادات الدينية الصغيرة في باب الدعاء (العقد ج ١ ص ٣٢٢) ، على حين ان السمرقندي يعقد بابا خاصا للذكر .

كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة[1] . »

ويحكى عن أبي زرعة محمد بن عثمان الدمشقي قاضي مصر (المتوفى عام ٣٠٢ هـ ــ ٩١٤ م) أنه أهدى إلى خمارويه رغيفاً ختم عليه عشر ختمات وعشرة آلاف قل هو الله أحد ، فقبله خمارويه وتبرّك به [2] . ويحكى عن عالم كان نزيل مكة وتوفي عام ٤٢٥ هـ ــ ١٠٣٤ م أنه كان يقرأ في كل أسبوع ستة آلاف قل هو الله أحد[3] .

وكان أبو الحسن البوشنجي (المتوفى عام ٤٦٧ هـ ــ ١٠٧٤ م) فقيهاً زاهداً ورعاً صوفيا ؛ ويحكى أنه كانت لا تسكن شفتاه من ذكر الله عز وجل ، وجاءه مزيّن مرة ليقص شاربه فقال له : أيها الإمام ! يجب أن تسكّن شفتيك ، فقال : قل للزمان حتى يسكن[4] .

ويحكى عن أحد العلماء الصالحين أنه بعد أن مات رآه رجل في المنام ، وهو واقف في المحراب ، وعليه حلة ، وعلى رأسه تاج مكلل ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وأكرمني وتوّجني ، وأدخلني الجنة ، فقال له الرجل : بماذا ؟ قال : بكثرة صلاتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] .

وذكر القشيري في رسالته[6] باسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي ص ٢٥١ ، ٢٥٥ .
(٢) ملحق الكندي ص ٥١٩ ، نقلا من ابن زولاق (المتوفى عام ٣٨٦ هـ ــ ٩٩٦ م) .
(٣) طبقات السبكي ج ٣ ص ٨٥ .
(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٨ .
(٥) ابن بشكوال ج ١ ص ١٣٤ .
(٦) الرسالة ص ١٠١ باب الذكر .

أنه قال : « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله » . أو أنه قال : « لا تقوم الساعة ، حتى لا يقال في الأرض الله الله . »

وكان لعبد الله بن عباس خمسمائة أصل زيتون يصلي في كل يوم إلى كل أصل ركعتين ، فكان يدعى ذا الثفنات[1] .

على أنه حل محل الحصى أو حب الزيتون في إحصاء العبادات شيء جاء من المشرق ، وهو السبحة ، وأول إشارة تدل على استعمالها من حيث التاريخ ما جاء في قصيدة لأبي نواس ، وهو في السجن في عهد الخليفة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ = ٨٠٨ ـ ٨١٣ م) ، وفي هذه القصيدة يخاطب أبو نواس الوزير ابن الربيع بقوله :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعوّدتنيه ، والخير عاده
فارعوى باطلي ، وأقصر حبلي وتبدّلت عفةً وزهاده
المسابيح في ذراعي والمصحف في لبّتي مكان القلاده[2]

وكان حظ السبحة من قلة التقدير من جانب العلماء والمثقفين في القرن الثالث الهجري أقلّ من حظ الذكر نفسه ، فكانت لا ترى إلا في أيدي النساء أو مدّعي الصلاح ؛ وقد رأى أحد الصوفية في يد الجنيد سيد الصوفية (المتوفى عام ٢٩٧ هـ ـ ٩٠٩ م) سبحة ، فقال له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة[3] ؛ على أن السبحة تذكر باعتبارها من

(١) الكامل للمبرد طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ص ٣٦٧ من الجزء الأول .

(٢) ديوان أبي نواس طبعة مصر ١٨٩٨ م ص ١٠٨ .

(٣) رسالة القشيري ص ١٩ ، ومقال جولدزيهر في مجلة تاريخ الأديان ، ومجلة جمعية المستشرقين الألمان Goldziher, RHR, 1890, S. 295 ff; ZDMG, 50, S. 488. ، ومطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٦٦ (٢) .

أخص أهبة النساء الصوفيات في القرن الخامس الهجري[1] .

وكان من أشد الخطب الدينية قوة وتأثيراً بين المسلمين المواعظ التي كان يتطوع للقيام بها أهل الفصاحة واللسن ، علماء كانوا أو غير علماء ، مقبلين على ذلك إقبالا شديداً ؛ وكانت عادة هؤلاء أن يجلسوا لوعظ الناس في أيام الصوم من رمضان وفي أيام الجمع بعد تأدية الصلاة . وهذه هي العادة الجارية اليوم في مصر على الأقل[2] . وكان من عادة الكثيرين أن يستدعي أحدهم واعظا مشهوراً ، ويقول له : عِظني أو خوّفني[3] . وكثيراً ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبون ولا يتوقعون من غليظ القول .

أما عامة المدن بما كان لهم من تذوّق للفن البلاغي ، فقد كان للواعظ بينهم قدرة" على جذبهم لدرجة تخرج عن مألوف العادة ؛ وكان مجلسه في درجة الاحتفالات الحربية والدينية واحتفالات الأعياد ؛ وكان الوعاظ يشاطرون المكدّين والمخرّقين والشعراء في العمل على تغذية خيال العامة المتعطش . وكثيراً ما لحقتهم أخطار هذه المهمة ، فلقوا فيها حتفهم ؛ وقد اتخذوا منها وسيلة للكسب ، وإن كان العصر الذي تتكلم عنه لم ينطبق عليه بعد ما قاله الحجويري عن الوعاظ من أن صناعتهم « أغلى مرتبة بني ساسان »[4] .

---

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ٩١ ، ويقول مرجليوث (في تعليقه على الترجمة الانجليزية) إن السبحة ذكرت في بيت لبشار ، (الكامل ج ٢ ص ٨٠) .

(٢) حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة القاهرة عام ١٢٢٠ ص ١٠٣ .

(٣) يجد القارىء بعض هذه الحكايات في الجزء الأول من العقد الفريد طبعة مصر ١٣٠٢ هـ ص ٣٥٦ .

(٤) كشف الأسرار مخطوط فيينا رقم ١٥٤ ص ١٧ ب .

على أنه كان في القرن الرابع مـن العلمـاء الصالحين من يكره الجلوس للعظة[1] ، وكانوا مُحقّين في ذلك ؛ فإن كبار الوعاظ كانوا بطبعهم أصحاب فن ، ولما كانوا خطباء مفوّهين فقد كانوا أيضاً يحبون أبهى عادات عصرهم والظهور بأحسن مظاهره .

وكان أشهر واعظ ببغـداد في القرن الرابع هو أبو الحسن بن سمعون (٣٠٠ — ٣٨٧ هـ = ٩١٢ — ٩٩٧ م) ؛ وكان من عادته أن يلبس أحسن الثياب، ويأكل أطيب الطعام ، فقال له رجل : كيف هذا ، وأنت تدعو الناس إلى الزهد في الدنيا والترك لها ؟ فأجابه : كلُّ مـا يُصلِحُك لله فافعله ؛ إذا صلح حالك مع الله فالبس ليِّن الثياب ، وكل أطيب الطعام ، فلا يضرك[2] . ويحكي الصاحب بن عباد في كتاب الروزنامجة أنه رآه وسمعه ببغداد ، « وقد لبس فوطة قصب ، وقعد على كرسي ساج ، بوجه حسن ولفظ عذب »[3] .

ولما دخل عضد الدولة بغداد ، وكان أهلها قد هلكوا قتلا وحرقاً وجوعاً ، نظراً للفتن التي اتصلت فيها بين الشيعة والسنة ، أمر بمنع القصاص من القصص ، لأنهم كانوا يحرضون الناس على القتال والنهب: ولكن ابن سمعون لم يخضع لهذا الأمر، فجلس على كرسيه يوم الجمعة، وتكلم في الناس ، فأمر عضد الدولة بإحضاره بين يديه ، فأحضره شكر المعتضدي ، وخشي عليه من مكروه يحلّ به من عضد الدولة ، وأوصاه أن يقبّل التراب ويتلطّف في الجواب ، وأن يسلّم بخشوع وخضوع ، ودخل ليستأذن له من عضد الدولة ، فإذا هو إلى جانبه أمام الملك ، وقد

---

(١) بستان العارفين للسمرقندي ص ٢٢ .

(٢) حكى ابن سمعون نفسه أن جده إسماعيل سماه سمعون بكسر السين ، انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ٨٥ ا وما بعدها .

(٣) الارشادات لياقوت ج ٢ ص ٣١٩ .

حوّل وجهه نحو دار بختيار ، واستفتح فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ ، إذا أَخَذَ القُرى ، وهيَ ظالمةٌ ، إن أخذهُ أليمٌ شَدِيد . ثم حوّل وجهه نحو الملك وقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم جَعَلْناكُم خلائِفَ في الأرضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون . وأخذ في وعظه ، فأتى بالعجب ، حتى دمعتْ عينُ الملك ، على شدة تجبُّره وسطوته ؛ وما رؤي منه ذلك قط ؛ ثم أراد الملكُ أن يمتحنه ، فأرسل إليه مالا وثيابا ؛ وعزم ، إن أخذها ليَقْتُلَنَّهُ ، فردّها ، ولم يَرْضَ أن يأخذها ، حتى لأصحابه ، وقال : أصحاب السلطان أفقرُ إلى هذا من أصحابي . وعرف السلطانُ الخبر فقال : الحمد لله الذي سلّمه منا وسلّمنا منه[1] .

وكانت تقع له الكرامات ، فشفى بنتاً عرجاء بأن مشى على رجلها . وكان يكشف له عن أحوال الجالسين ؛ ويحكى أن رجلا نام ، وهو في مجلس الوعظ ، فأمسك ابن سمعون عن الكلام ساعة حتى استيقظ الرجل ، ورفع رأسه ، فقال له ابن سمعون : « رأيتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في نومك ، قال : نعم ، فقال أبو الحسين : لذلك أمسكتُ عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتنقطع عما كنتَ فيه[2] . » وبلغ الخليفةَ الطائع أن ابن سمعون ينتقص عليّاً بن أبي طالب ؛ فأحب أن يتيقّن ، وأرسل إليه ، وهو على صفة من الغضب ، وكان يُتّقى في تلك الحال ، لأنه كان ذا حدّة ؛ فلما مثل ابن سمعون بين يديه كان أول ما افتتح به كلامه أن ذكر علي بن أبي طالب وروي عنه أخباراً وأحاديث،وأعاد وبدأ في ذلك ، ولم يزل يجري في ميدان الوعظ ، حتى بكى الخليفة الطائع وسُمع شهيقه ، وابتلّ منديلٌ بين يديه بالدموع ؛ فأمسك ابن

(١) المنتظم ص ١١٢ ب .
(٢) نفس المصدر ص ١٤١ ا (٤) ؛ وتاريخ بغداد ، مخطوط باريس ص ٨٥ ب .

سمعون ، فعلم الخليفة أن الواعظ وُفِّق إلى ما تزول به عنه الظِّنَّة ، وخطر له أنه كوشف بما أرسل إليه من أجله ، وأعطاه درجاً فيه طيب وغيره[1] .

وكان أكبر واعظ قبل ابن سمعون بنصف قرن أبا الحسن علي بن محمد الواعظ الملقب بالمصري ، لأنه أقام بمصر مدة طويلة ، (والمتوفى عام ٣٣٨ هـ ــ ٩٤٩ م) ، وكان يحضر مجلس وعظه رجال ونساء ؛ فكان يجعل على وجهه برقعاً خوفاً من أن يفتتن به النساء لحسن وجهه[2] .

وكان من الوعاظ أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد الواعظ الشيرازي (المتوفى عام ٤٣٩ هـ ــ ١٠٤٧ م) قدم بغداد ، يتكلم بلسان الوعظ والزهد ، ويلبس المرقعة ؛ فافتتن الناس به لما رأوا من حسن طريقته ؛ وعمر مسجداً كان خراباً فسكنه ، ومعه جماعة من الفقراء . ثم نزع المرقعة ، ولبس الثياب الناعمة الفاخرة ، بعد أن حصل له المال الكثير . وكثر أتباعه ، فأظهر أنه يريد الغزو ، فحشد الناس إليه ، وصار له من الأتباع عسكر كثير ، وصار إلى ناحية أذربيجان ، فاجتمع له بها جمع ، حتى ضاهى أمير تلك الناحية[3] .

بل يذكر لنا من أخبار القرن الرابع ظهور واعظة ، وهي ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية (المتوفاة عام ٣٩٣ هـ ــ ١٠٠٢ م) ؛ « وكان لها لسان حلو في الوعظ » ، وكانت زاهدة ، ويُحكى عنها أنها

---

(١) تاريخ بغداد ص ٨٥ ب ــ ٨٦ ا .

(٢) المنتظم ص ٨١ ا . وحضر مجلسه أحد العلماء مستخفياً ، فلما اعجبه شهر نفسه ، وقال له : ايها الشيخ ! القصص بعدك حرام .

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١١ ا ــ ١١٢ ب من مخطوط باريس .

قالت : « هذا قميصي له اليوم سبع وأربعون سنة ، ألبَسُهُ ، وما تَخَرَّقَ ، غَزَلَتْه لي أمي ، الثوب إذا لم يَعْصَ الله فيه لا يتخرَّق »(١) .

ولم يكن لهؤلاء القوم في ذلك العصر أية صيغة رسمية ، فلا نجد مثلا ذكراً لعلماء معترف بهم في ذلك القرن يخرجون لوعظ الناس ؛ ويحكى عن ابن الجوزي بعد ذلك بقرنين أنه حضر للاستماع لمجلس وعظه مائة ألف إنسان(٢) . ولم يكن للإسلام في الواقع أية صيغة كهنوتية ، بحيث كان يُسمح لهؤلاء الخطباء المتطوعين المغامرين الذين يتكسبون بالوعظ أن يرتقوا المنابر في المساجد ، دون أن يتعرض لهم أحد ، ولم يكن بينهم وبين خطباء الجمعة الرسميين فرقٌ سوى أنهم كانوا لا يعظون ، وهم وقوف ، بل كانوا يجلسون على الكراسي .

ويُحكى عن ابي زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ المشهور (المتوفى عام ٢٥٨ هـ — ٨٧٢ م) أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع الناس ، فأولُ ما بدأ به أن قال شعراً :

مواعظ الواعظ لن تُقبلا	حتى يعيها قلبُه أوّلا
يا قوم ! من أظلم من واعظ ؟	خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه	وبارز الرحمن لما خلا

ثم وقع من على الكرسي ، ولم يتكلم في ذلك اليوم(٣) . وكذلك

(١) تاريخ ابي المحاسن طبعة كليفورنيا ص ٩٣ .

(٢) الزرقاوي ج ١ ص ٦٣ .

(٣) زبدة الفكرة ، مخطوط باريس ص ١٩ ب — ٢٠ ا . وهذا معنى ما قاله جولدزيهر في مجلة المستشرقين الألمان . انظر ZDMG, 55. S. 507 Anm I.

كان من عادة القاصّ مـن قبل ـ في مصر على الأقـل ـ أن يقرأ في المصحف واقفاً ؛ ثم يقص وهو جالس[1] . ولا بد أن يكون أصل هذه العادة أيضاً راجعاً إلى ما كان عند النصارى الأولين ، لأنه حتى عصرنا هذا لا يتكلم الخطيب في أيام الصوم الكبير عند الرومان الكاثوليك مـن على منبر ، بل على منصـة في وسط الكنيسة ؛ ويجلس في بعض الأحيـان على كرسي . ونستطيع أن نلاحظ أنه منـذ القرن السادس الهجري فما بعده كانت ترسل إلى الخطيب رقاع ليجيب عنها[2] .

أما عند الفاطميين ـ بما كان للدين عندهم من صبغة كهنوتية ـ فقد كان للخليفة جليسٌ يذاكره بما يحتاج إليه من كتاب الله وأخبار الأنبياء والخلفاء ، ويكرر عليه ذكرَ مكارم الأخلاق ؛ وله بذلك رتبة عظيمة تلي رتبة صاحب ديوان المكاتبات . وهو يجتمع بالخليفة في أكثر الأيام ، ومعه دواةٌ مُحلاّةٌ ، فإذا فرغ من المجالسة أُلقي في الدواة كاغد فيه عشرة دنانير وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل نَدٌّ ، ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثاني مرة[3] .

وكانت المساجد تظل مفتوحة ليلا ونهاراً في أحوال قليلة[4] . وهي بحكم الشرع يجوز أن تكون مأوى لمن لا يجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبّدين ؛ وكان في هذا ما يخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها ؛ ومما

---

(١) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ ؛ وعجائب المخلوقات للقزويني ص ٢١٤ ؛ وكتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٩٥ .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٠٢ .

(٤) وكان المسجد الجامع في مصر على عهد الطولونيين يغلق بعد صلاة العشاء ، لأن بيت المال كان فيه (ابن رستة ص ١١٦) . وفي عام ٢٩٤ هـ أمر والي مصر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات ؛ فكان يفتح في أوقات الصلوات فقط ؛ فضج الناس من ذلك ، حتى فتح لهم (الكندي ص ٢٦٦ من كتاب الولاة) .

يحكى أنه كان يجتمع في أحد المساجد بمصر جماعة من الرؤساء للنوم وللحديث في صحنه في الليالي المقمرة،فلما كانوا ليلة ، وأكلوا وتحدثوا، انضم إليهم أحد الحواة ، فلما ناموا انفتحت سلة الحاوي ، وانطلق ما كان فيها من الأفاعي الغريبة فأيقظ القوم ، وكان معهم أطفال وصبيان ، فمنهم من طلع على المنبر ، ومنهم من تسلق العمد ، ثم طلعوا المئذنة وناموا إلى بكرة . وكان قيّم المسجد يعلم أخبار هذه الاجتماعات التي تفرق شملها بعد تلك الليلة[١] .

على أنه كان يندر أن تكون « بيوت الله » خالية أثناء النهار[٢] ، وذلك في المدن على الأقل ، وكانت أشبه بنوادٍ أو مجتمعات للناس ، وخصوصاً المسجد الجامع ، حيث كان القاضي يجلس في النهار للحكم بين الناس[٣] ، وحيث كان العلماء يعقدون حلقات التدريس ؛ وكان موضع العالم يُعرف بالسجادة التي يصلي عليها ؛ وكان من علامة سخط الحكومة على حلقة عالم من العلماء ومنعه من عقد مجلس علمه في المسجد أن ترمى سجادته خارج المسجد . وكان يبلغ النشاطُ في المسجد أقصاه في المساء ، وهو وقت النشاط الديني عند الشرقيين ، وحوالي هذا العصر الذي نتكلم عنه يحكي لنا المقدسي ما شاهده في الفسطاط فيقول : « وبين العشاءين (بالفسطاط) جامعٌ مغتصٌ بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة . ودخلتُها مع جماعة من

---

(١) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣١٩ .

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٨٣ (؟) .

(٣) على أن حركة أهل السنة في القرن الثالث بما كان لها من ردّ فعل قوي اعتبرت ذلك امتهاناً لحرمة المسجد ؛ فأمر المعتضد عام ٢٧٩ هـ ألا يجلس في الجامع قاض ، وحلف باعة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل ونحو ذلك ـ النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٧ طبعة ليدن (والأصح أن كلمة قاض هنا هي تحريف لكلمة قاصّ ، لأن القصص هو الذي كان مكروهاً في المساجد ، انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ ـ المترجم) .

المقادسة ، فربما جلسنا نتحدث ، فنسمع النداء من الوجهين : دَوِّروا وجوهكم إلى المجلس ، فننظر فإذا نحن بين مجلسين ؛ على هذا جميع المساجد ، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس »[1] .

وكان الناس بمصر يجعلون لأنفسهم كثيرا من الحرية في المساجد ؛ وقد اندهش ابن حوقل ، لأنه من أهل المشرق ، حينما رأى الناس يأكلون في المسجد وحينما رأى باعة الخبز والماء يباشرون حرفتهم هناك[2] . ويحكي لنا المقدسي ، وهو شاميّ ، أن المصريين يكثرون النخع والمخاط في المساجد ، ويجعلونه تحت الحصر[3] .

وكانت المساجد الصغيرة بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون على مقربة منها بمثابة بيوت أخرى لهم ، وكانوا يستخدمونها في منافع كثيرة؛ فكان التاجر مثلا يودع في المسجد درَّابات دكانه التي يغلقه بها[4] .

وفي فارس كان الناس يجلسون في المساجد ثلاثة أيام للتعزية[5] . فقد ظل المسجد محتفظاً بصبغته الأولى ، وهي أن يكون « بيت النداء » الذي لا بد للجماعة منه ، بحسب ما نعرف من علم أحوال الشعوب ؛ فكان يجلس فيه الناس للحديث[6] ، ويقصّون في نهارهم حوادث ليلهم[7] . وفيه كانت تقال القصائد الشعرية ، كما كان ملتقى أصحاب المغامرات الغرامية وعشاق الغلمان[8] ، وكان من أكبر مراكز المحتالين

---

(١) المقدسي ص ٢٠٥ .
(٢) ابن حوقل ص ٣٤١ (٤) .
(٣) المقدسي ص ٢٠٥ .
(٤) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ١١٠ .
(٥) المقدسي ص ٤٤٠ .
(٦) مقامات الهمداني طبعة بيروت ١٨٨٩ م ص ١٥٧ .
(٧) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١٤ .
(٨) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٣٠ ، وانظر فصل الأخلاق والعادات ؛ والمنتظم ص ١٤٨ .

واللصوص ، كما تدل على ذلك مجموعتا المقامات المشهورتان[1] .

وقد وصلت لنا هذه الحكاية التالية عن بعض المتأخرين : « رأيت بحرّان سنة ثلاثة عشر وستمائة رجلا من بني ساسان ، قد أخذ قرداً علّمه السلام على الناس ، والتسبيح ، والسواك ، والبكاء ؛ ثم رأيت لهذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليه أحد ؛ فإذا كان يوم الجمعة أرسل الرجل عبداً هندياً حسن الوجه نظيف الملبوس إلى الجامع ، فيبسط عند المحراب سجادة حسنة ، فإذا كان في الساعة الرابعة لبّس القرد ملبوساً خاصاً من ملابس أولاد الملوك ، وجعل في وسطه حياصة لها قيمة ، ثم طيّبه بأنواع الطيب . ثم أركبه بغلة بمركوب مذهب محلّى ، ثم مشى في ركابه ثلاثة عبيد هنود بأفخر ملبوس ، الواحد يحمل الوَطا ، والآخر يحمل الشرموذة . والآخر يطرق قدامه ، وهو يسلم على الناس ، وكل من سأل عنه يقول : هذا ابن الملك الفلاني من أكبر ملوك الهند ، وهو مسحور ؛ فلا يزال حتى يدخل الجامع ، فيفرش له الوَطا فوق السجادة ، ويحط له سبحة ومسواكا ، فيقلع القرد منديله من الحياصة ، ويضعه بين يديه ، ويستاك بالمسواك ، ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يأخذ السبحة ويسبّح ، فإذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه ، فسلم على الناس ، وقال يا أصحابنا ؟ من أصبح مُعافىً فإن الله عليه نعمةً لا تحصى ، واعلموا أن هذا القرد الذي ترونه بينكم ، والله ، لم يكن في زمانه أحسن شباباً منه ، ولا أطوع لله تعالى منه ؛ ولكن المؤمن مُلقىً لقضاء الله ، وكان من القضاء المدبّر أنْ زوّجه والده ابنةَ الملك الفلاني ، فأقام معها مدة ، ثم قالوا لها إنه قد

---

(1) حكى الحريري انه انشأ المقامة الحرامية ، وبنى عليها سائر المقامات ، بعد ان شهد في مسجد البصرة أبا زيد السروجي ، وكان شيخاً شحاذا بليغاً ومكديا فصيحاً حسن صياغة الكلام ؛ وكان أبو زيد يتنقل بين المساجد ، ويغير في كل مسجد زيه وشكله ، ويظهر ما عنده من فنون الحيلة وبلاغة الكلام . انظر الارشاد لياقوت ج ٦ ص ١٦٨ .

عشق مملوكا له ، فأدركتها الغيرة وطلبت دستوراً لها في زيارة أهلها ، فأذن لها في ذلك ، وجهّزها بما تحتاج إليه ؛ فلما حصلت عند أهلها سحرته ، كما ترون ؛ فلما رأى والده ذلك قال : هذا اختلف به عن الملوك ؛ فأمر بإخراجه من ذلك الإقليم ، فأُخرج ؛ وقد سألناها بجميع الملوك ، فادّعت أنها خلفت عنده أثاثا ، قيمته مائة ألف دينار ؛ وقد تخلّف عليه عشرة آلاف ؛ من يساعده بشيء من ذلك ؟ فارحموا هذا الشاب الذي عدم الأهل والملك والوطن ، فأُخرج من صورته إلى هذه الصورة ؛ فعند ذلك يجعل القرد المنديل على وجهه ، ويبكي ، فترقّ قلوب الناس لذلك ، ويرفده كل أحد بما يسّره الله ؛ فما يخرج من الجامع إلا بشيء كثير ، وهو يدور به البلاد على هذه الصفة »[1] .

ولا نجد فيما قبل ازدياد الشعور الديني في القرن الثالث الهجري عناية بتزيين المسجد وإعداده بالأدوات اللائقة به وإضفاء ثوب من الجمال الفني على الشعائر الدينية ؛ فمثلا أمر الخليفة المأمون بالكتابة إلى الآفاق في الاستكثار من المصابيح في المساجد[2] . وقد امتازت الشام بنوع خاص بإضاءة المساجد على الدوام ، وربما كان ذلك تقليداً للنصارى . وكانوا يضيئونها بالقناديل ، « ويعلقونها بالسلاسل مثل مكة »[3] .

ويظهر أنه في أواخر القرن الرابع حدثت بمصر عادة إضاءة المساجد بمصباح كبير يشبه التنور ، ويسمى لذلك بالتنور ؛ وكان فيه مجال لأصحاب الفن الزخرفي لكي يظهروا روائع مبتكراتهم . وفي عام

---

(١) كشف الأسرار للجويري مخطوط فيينا ص ٢٥ ا ــ ب .

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٧٣ .

(٣) المقدسي ص ١٨٢ .

٣٨٧ هـ عُمل في جامع عمرو تَنُّور يوقد كل ليلة جمعة ؛ وفي عـام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م أُنزل إليه من قصر الخليفة الحاكم بأمر الله تَنُّور كبير من فضة ، فيه مائة ألف درهم فضة ، وعُلّق بالجامع بعد أن قُلعت عتبتاه حتى أدخل فيه[1] .

وقد ذُكر من أثاث الجامع الأزهر ، الذي أُنشيء بالقاهرة عام ٣٦١ هـ ، وجدَّدَه الحاكم بأمر الله ، ووقف عليه أوقافاً ، هذه الأشياء ، كما جاء في كتاب الوقف :

الحصر العبادانية .

الحصر المضفورة .

عود هندي ومسك وكافور للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع .

شمع ومشاقة لسرج القناديل وفحم للبخور .

أربعة أحبل وستة دلاء أدم وعشر قفاف ومائتا مكنسة .

أزيار فخار وأجهزة حملها .

زيت للوقود .

تنوران فضة وسبعة وعشرين قنديلا فضة[2] .

وكانت المساجد تحت إشراف القاضي . وكانت عادته في القاهرة على عهد الفاطميين ، إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام طاف يوماً على المساجد لينظر حصرها وقناديلها وعماراتها وما تشعَّث منها[3] .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٣٥ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .
(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٧٤ ؛ وانظر حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٥
(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٩٥ .

ولم تكن صيانة المساجد كثيرة النفقات ، فذُكر مثلا أن نفقات المسجد بمصر في ذلك العهد بلغت اثني عشر درهما في الشهر ؛ ومع هذا قُدِّر في عام ٣٠٣ هـ ـ ١٠١٢ م عدد المساجد التي لا دخل لها في مصر بنحو من ثمانمائة وثلاثين مسجداً . وفي عام ٤٠٥ هـ ـ ١٠١٤ م وقف الخليفة عدداً من الضياع للإنفاق منها على المساجد الجامعة التي يُخطب فيها وعلى قرائها ومؤذنيها[1] .

أما فيما يتعلق بالتفاصيل في تنظيم بيوت الله وإعدادها فليس عندي في ذلك مع الأسف إلا معلومات قليلة : ففي البـلاد الآرامية لم يمكن القضاء على المعابد البعلية القديمة بما كان فيها من تقديس الأشجار . وكان في طبرية بفلسطين مسجد يسمى مسجد الياسمين ، لأن ساحته كانت مملوءة بشجر الياسمين[2] ؛وكان بجامع الرقة شجرتا كرم وشجرة توت . وكانت عادة أهـل مصر أنهم يضربون على جوامعهم شراعات وقت الخطبة[3] ؛ وهذا شبيه بما كان جاريا في عصر الحضارة اليونانية في الشرق عند عقد حلقات الألعاب ؛ على أنه يحكى مثل ذلك عن شيراز والبصرة[4] ؛ وكان في جامع دار السلطان ببغداد منبران[5] . وكان في جوامع خراسان قدور كبار من نحاس على كراسي يطرح فيها الجمد مع الماء يوم الجمعـة[6] . وكان في جامع ابن طولون بمصر فوّارة على الصورة المألوفة حتى ذلك العهد : كان في وسط صحنه قبّة مشبكة من

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٢) ناصر خسرو ص ٥٦ .

(٣) المقدسي ص ٢٠٥ .

(٤) المقدسي ص ٢٠٥ ، ٤٣٠ .

(٥) المنتظم لابن الجوزي ص ٦٧ ب .

(٦) المقدسي ص ٣٢٧ .

جميع جوانبها ، وهي مذهبة على عشرة عمد من رخام ؛ مفروشة كلها بالرخام ، وتحت القبة قصعة رخام ، سعتها أربعة أذرع ، في وسطها فوارة تفور بالماء[1] ؛ وهذه الفوارة ذات القبة حلت محل القبة التي كانت تحمل بيت المال في المساجد الأخرى . وبعد ذلك بمائة عام عملت أول فوارة تحت قبة بيت المال في جامع عمرو[2] . ويحكي لنا ناصر خسرو بعد ذلك بمائة عام أنه رأى مثل هذه الفوارة وفيها أنبوبة من نحاس في بلدتي آمد وطرابلس الشام[3] .

وكذلك كانت تجمع النفقات لبناء الجوامع أو إضافة البقاع والدور إليها ؛ ففي سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤١ م كان لأحد الذين نصبوا أنفسهم لذلك أثر كبير في توسيع جامع بأصفهان ، فكان يكلم الرجل بعد الرجل ، حتى اجتمعت له الجمل الكثيرة ، وكان لا يستحقر خاتماً أو قيمته أو كبة غزل أو قيمتها[4] .

وقد اتخذت العبادة صور تختلف باختلاف البلاد ، ولم تحتفظ في أي مركز من المراكز الكبرى في بلاد الإسلام بالصبغة الإسلامية الأولى في بساطتها ونقائها . وقد دخلت على العبادة الإسلامية في كل ناحية المظاهر الدينية القديمة ، وأهم ما نجده في القرن الرابع ظهور التطريب في الطقوس من القراءة والأذان من مؤذنين مجتمعين ، في جميع البلاد . ويحكي ابن رسته أنه كان بمسجد صنعاء اثنان وعشرون مؤذناً يؤذنون

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٣٧ ؛ ومما يدل على أنها شيء مستحدث ما وجه لها من النقد . وابن طولون لم يعمل الميضأة في المسجد ، بل بناها خلفه في مؤخره — نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٥ من طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

(٣) ناصر خسرو ص ٢٨ ، ٤١ من الترجمة .

(٤) ذكر اخبار أصبهان مخطوط ليدن ص ١١ ب .

جميعاً في كل صلاة ، أحدهم في إثر الآخر إلا في صلاة المغرب خاصة ، ثم يأخذون جميعاً في الإقامة بصوت واحد ، وهم يمشون من المنارة إلى الصف ، فإذا انتهوا إلى الصف يكونون قد فرغوا من الإقامة[1] . ومن هـذه العـادة نشأت هيئة المؤذنين الرسمية . وفي خراسان كان للمؤذنين سرير" قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان[2] .

وقراءة القرآن بالتلحين ــ وربمـا كانت تقليداً لمـا جرى عليه النصارى في كنائسهم ــ أنكرها مالك رضي الله عنه ، وأجازها الشافعي، وهي القراءة الذائعة في البلاد الإسلامية[3] .

وفي عام ٢٣٧ هـ ــ ٨٥١ م ولي قضاء مصر الحارثُ بن مسكين ، بعد رجوع سلطان مذهب أهل السنة ،فمنع القراء الذين يقرءون القرآن بالألحان في بعض المساجد الصغيرة لا في المسجد الجامع ، من القراءة بالألحان ، وهو أول قاض فعل ذلك[4] .

وكان أبو بكر الآدمي القاضي (المتوفى عام ٣٤٨ هـ ــ ٩٥٩ م) من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، حتى كان يسمى « صاحب الألحان » ، وقد حجَّ مرة مع بعض العلماء ، فلما صاروا بمدينة الرسول ، عليـه الصلاة والسلام ، وجد أحدُ أصحابه رجلا ضريراً قد جمع حلقة في مسجد رسول الله ،وقعد يقصُّ ،ويروي الكذب من الأحاديث الموضوعة والأخبار المفتعلة ، وعرفوا أن النكير عليه لا يؤثر ، فأشار أحدهم على أبي بكر أن يستعيذ ويقرأ ، فما هو إلا أن ابتدأ حتى انحلت الحلقة من

---

(١) الاعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١١ .

(٢) المقدسي ص ٣٢٧ .

(٣) حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ١٠٦ .

(٤) القضاة للكندي ٤٦٩ .

حول الضرير ، وانفضّ الناس جميعاً من حوله ، وأحاطوا بأبي بكر يسمعون قراءته ، تاركين الضرير وحده[1] .

وفي سنة ٣٩٤ هـ ـ ١٠٠٣ م خرج الأصيفر المنتفيقي على الحاجّ ، وحصرهم وعزم على أخذهم ؛ وكان فيهم أبو الحسن الرفاء ، وأبو عبد الله الدجاجي ، وكانا يقرآن القرآن بأصوات لم يُسمع مثلُهما ؛ فحضرا عند الأصيفر ، وقرآ القرآن ، فترك الحاجّ ، وعاد ، وقال لهما : قد تركت لكما ألف ألف دينار[2] . وهكذا أحرز هذان القارئان انتصاراً غريباً لم يكن يُتَوَقَّع . وإن قصة أريون (Arion) ليصغر قدرها إذا قورنت بقصة هذين القارئين[3] .

وقد اتخذ الوعاظ المتطوّعين من هؤلاء القراء ما يشبه هيئة المغنّين ؛ فكانوا يجلسون على كراسي موضوعة أمام المنبر ، فيتوّقون ، ويشوّقون ، ويأتون بتلاحين معجبة ؛ ونغمات مطربة[4] . وكان من الوعاظ الماهرين قومٌ يرتبون القراء ، حتى يقرءوا ما يقع من آيات في الخطبة[5] .

حكى ابن طيفور (المتوفى عام ٢٧٨ هـ ـ ٨٩١ م) عن الخليفة

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٨٨ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩ .

(٣) كان أريون شاعراً وموسيقيا يونانيا عاش في القرن السابع قبل الميلاد ؛ وفي الأساطير أن القرصان رموه في البحر ، فنجاه من الموت نوع من السمك يسمى الدوفين Dauphin ، وذلك لأنه ضرب على آلته الموسيقية ، فسحر السمك بحسن صوتها . (المترجم)

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ . وكذلك كان يسمى باسم القراء من كان يقوم بالقراءة على المذبح في الكنيسة النصرانية . يقول أبو نواس (في ملحق الديوان طبعة القاهرة ١٣١٦ هـ ص ٨٠) :

بداود وما يتلون منه ... بترجيع يردد في الحلوق

(٥) كشف الأسرار مخطوط فيينا ص ١٧ ب .

المأمون أنه قال : « وإن الرجل ليأتيني بالقُطيعة من العود ، أو بالخشبة، أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه ، فيقول إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه أو مسّه ؛ وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أني بفرط النيّة والمحبة أقبَلُ ذلك ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهي وعيني ، وأتبرك بالنظر إليه وبمسّه ، فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به ، فأصونه كصياتتي نفسي ؛ وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ، ولا فضيلة له تستوجب المحبة ، إلا ما ذُكر من مسِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] .

وفي القرن الرابع الهجري كان تقديس المخلّفات عند أهل السنة مقصوراً فقط على ما خلفه النبي محمد عليه السلام ومن سبقه من الأنبياء ؛ وهذا دليل على أن تقديس الأولياء كان في ذلك العصر في دوره الأول[2] . ويحكى عن أبي العباس اليساري ، وهو شيخ من شيوخ الصوفية بمرو ، توفي عام ٣٤٢ هـ[3] أنه اشترى شعرتين من شعر رسول الله بمال كثير ورثه عن أبيه ، وأوصى أن توضعا في فمه عند الممات[4] .

---

(١) كتاب بغداد ص ٧٦ .

(٢) واستطيع ان اضيف إلى الآثار التي ذكرها جولدزيهر Goldziher, Muh. Studien, II, 356 ff. ما يأتي : سرير النبي ، وقد اشتراه معاوية بواسطة أحد أصحابه ، بعد وفاة عائشة ، بمبلغ أربعة آلاف درهم (كتاب الف با ج ١ ص ١٣١ نقلا عن ابن قتيبة) ؛ والبردة ، والعهد النبوي ، وهو مكتوب في اديم ، وكانا محفوظين بمدينة اذرح ، وهي مدينة متطرفة حجازية شامية ، كما يقول المقدسي (ص ١٧٨) .

(٣) رسالة القشيري ص ٢٨ .

(٤) كشف المحجوب ص ١٥٨ ←

وفي ذلك العصر تفاقم خطب التزوير ؛ ففي أوائل القرن الرابع رُفع إلى أبي الحسن بن الفرات أن رجلا من اليهود ادعى أن معه كتاباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، فأمر بإخراج الكتاب ، فلما قرأه . قال : هذا مزوَّر ؛ لأن خيبر افتتحت بعد تاريخ كتابك بسبعة وستين يوماً ، ولكنا نحتمل عنك جزيتك إعظاماً لحقٍّ من لجأت إلى الاعتصام به[1] .

والأثر الوحيد الذي كان له حق لا نزاع فيه في المساجد ، وشأن لا جدال فيه ، وخصوصاً بالنسبة لدين أساسه كتاب منزَّل هو مخطوطات القرآن ، ولا سيما المصاحف التي يرجع أصلُها إلى عثمان ، والتي تُعتبر لذلك أصح المصاحف . وكان يوجد من أمثال هذه المصاحف خمسة : المصحف الذي كان عند أسماء ، والذي كان محفوظا بجامع عمرو بمصر ، وكان يُقرأ منه ثلاث مرات في الأسبوع ؛ وكان الخليفة الفاطمي يقبِّله ويتبرك به[2] . وكذلك كان في الجامع الكبير بدمشق ، كما حكى ابن جبير في القرن السادس الهجري — خزانة كبيرة، فيها مصحف من مصاحف عثمان ، وهو المصحف الذي وجَّهه إلى الشام؛ وكانت تفتتح الخزانةُ كل يوم بعد الصلاة ، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ؛ ويكثر الازدحام عليه[3] ؛ وهذا هو الأثر الوحيد الذي وجده ابن جبير .

---

(١) كتاب الوزراء ص ٦٧ — ٦٨ ؛ ويحكى ايضاً انه في عصر الخطيب البغدادي اظهر بعض اليهود كتاباً ، وادعى انه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية من اهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، وفيه خط علي بن ابي طالب ، فعرض على ابي بكر الخطيب ، فقال إنه مزور ؛ لان فيه شهادة معاوية ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت في سنة سبع ؛ وفيه شهادة سعد بن معاذ ؛ وكان قد مات يوم الخندق في سنة خمس ، انظر الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٢ ص ٤٧٢ طبعة ليدن .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ .

ولما ولي قضاءَ مصر الحارثُ بن مسكين عام ٢٣٧ هـ ـ ٨٥١ م كشف أمر المصاحف التي في المسجد ، وولي عليها أميناً من قبله ، وهو أول من فعل ذلك من القضاة[١] .

وفي القرن الرابع زادت المصاحف التي تنسب لعثمان زيادة غريبة مما يدل على خفة الناس في الاعتقاد بصحة نسبها . ويحكي لنا المقريزي أن رجلا من أهل العراق جاء إلى مصر ، وأحضر مصحفاً ، ذكر أنه مصحف عثمان رضي الله عنه ، وأنه الذي كان بين يديه يوم الدار ؛ وكان فيه أثر الدم ؛ وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر ؛ فدُفع المصحف إلى القاضي ، فأخذه ، وجعله في الجامع ، وشهره ، وجعل عليه خشباً منقوشاً ؛ وكان الإمام يقرأ فيه يوماً وفي مصحف أسماء يوماً ، ولم يزل على ذلك إلى أن رُفع واقتصر على القراءة في مصحف أسماء أيام العزيز بالله عام ٣٧٨ هـ ـ ٩٨٨ م[٢] .

وفي عام ٣٦٩ هـ ـ ٩٧٩ م كان عند الخليفة ببغداد مصحفٌ يُنسب لعثمان ، وضعه بين يديه ، وعلى كتفيه البردة وبيده القضيب ، وذلك عند تتويج عضد الدولة[٣] .

وحكى الشريف الإدريسي أنه كان في مخزن جامع قرطبة « مصحف يرفعه رجلان لثقله ؛ فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه ، وفيه نقط من دمه ؛ وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من

---

(١) القضاة للكندي ص ٤٦٩ .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٣) المنتظم ص ١١٥ ب .

قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة ؛ وللمصحف غطـاء بديع منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يُرَدّ إلى موضعه »[1] . وكانت ثم مخلّفات أخرى متواضعة محفوظة لقلة شأنها في بعض الجوامع الإقليمية ؛ ولم يكن علماء الدين يقرّون حفظ مثل هذه الأشياء لما فيها من تقليد للنصارى . فكان في مسجد مدينة الخليل (هبرون) نعالُ الرسول[2] . وكان في محراب الجامع بمدينة قَرْح المشهورة بتجارتها في جزيرة العرب عظم" ، قالوا هو الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تأكلني ، فأنا مسموم[3] .

وكان يقابل النزعةَ الدينيةَ القوية من الجانب الآخر نزعة أخرى عند فريق يحتقرون كل ما هو ديني ، ويجرءون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظير في عصر من العصور ؛ فكان أبو العلاء المَعَرّي الشاعر بالشام (ولد عام ٣٦٣ هـ ــ ٩٧٤ م وتوفي عـام ٤٤٩ هـ ــ ١٥٠٧ م) يهاجم كل ما هو ديني ، مستنداً في ذلك إلى وجهة نظر عقلية ؛ وهو من أسرةمن القضاة الفضلاء[4] ، وقد اعتل علة الجدري وهو ابن أربع سنين ، وذهب فيها بصره[5] . ثم درس اللغة ، وألّف في علومها بعض التصانيف . وفي السابعة والثلاثين من عمره رجع من بغداد إلى المعرّة ، بلدته ، وهو يقول :

---

(١) وصف إفريقية والأندلس للادريسي ، طبعة دوزي ودي غوي ص ٢١٠ .
(٢) Goldziher, Muh. Stud. II. S. 362.
(٣) المقدسي ص ٨٤ .
(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .
(٥) نفس المصدر ؛ و JRAS, 1902, S. 296 .

رحلت فلا دنيـا ولا دين نلتـه وما أوبتي إلا السفاهة والخرق[1]

وأزمع على ثلاثة أشياء : « نبذة كنبذة فنيق النجوم ، وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من القاب ، وثباتاً في البلدان ، إن حال أهله من خوف الروم »[2] ولما بلغ ثلاثين عاماً سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا في العيدين[3] ، وكان له في السنة نيف وعشرون ديناراً يصير إلى خادمه معظمها ، ويبقى له أيسرها ؛ ومع ذلك فقد رفض عطية أرسلها إليه الخليفة من مصر ، وذلك من غير غرض خفي وراء الإرسال ، فيما نعلم[4] .

وقد أدرك أبا العلاء في كبره العجزُ ، حتى كان يصلي قاعداً[5] . ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى الفني لهـذه الكلمة ؛ فلا نجـد عنده مناحي اليونان في تفكيرهم ، كما أنه لم يكن ينزع عـن حاجة إلى التعمق في التفكير ؛ فقد كان أديباً صاحب فلسفة في تشكيل الحياة وتوجيهها ، وهو شبيه بتولوستوي . هو ينادي بالرجوع إلى العقل وإلى حيـاة

---

(١) بعض اشعار ابي العلاء نشرها كريمر ، انظر مجلة جمعية المستشرقين الالمان ZDMG, 38, S. 503 .

(٢) رسائل أبي العلاء طبعة مرجليوث ص ٣٤ .

(٣) JRAS. 1902, 298 .

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٢ ؛ وفي هذا الوقت الذي حدث فيه ذلك ، وكانت فيه ثروة ابي العلاء قليلة ، مر الرحالة الفارسي ناصر خسرو بمدينة المعرة ، ولم يلبث فيها إلا يوماً واحداً ، ولم ير ابا العلاء ، ولكنه يقول : « هو رئيس البلدة ، وله ثروة كبيرة ، وعبيد وخدم ؛ وأهل البلدة كلهم خدم له ؛ وهو قد تزهد ، فلبس بسيطاً ، ولزم بيته ، وقوته نصف منّ من خبز الشعير ، وبابه مفتوح دائماً للزائرين ، ونوابه واصحابه يديرون امر البلدة ، ولا يرجعون لرأيه إلا في الكليات ، وهو لا يرد طالباً لنعمته ، ويصوم الدهر ، ويقوم الليل كله ، ولا يشغل نفسه بأمور الدنيا » . ويقول ابو العلاء نفسه (فون كريمر ص ١٠١ ، وطبعة بمباي ص ٢٠٢) .

واتهامي بالمال كلف ان يطلب ما يقتضي التمويل

(٥) JRAS. 1902, 304 .

البساطة ؛ وهو نباتي مدقّق جداً في مبدئه ، ولم يقتصر على ترك أكل اللحم ، بل ترك أكل اللبن والبيض والشهد[1] . وهو يحارب الخرافات والتنجيم ، ويحارب كل ما هو ديني بنوع خاص ، فهو يقول[2] :

أفيقوا أفيقوا يا غُواة فإنما ... دياناتكم مكرٌ من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام،فأدركوا ... وبادوا ، وماتت سنةُ اللؤماء

ويقول[3] :

يرتجي الناس أن يقوم إمامٌ ... ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

ويقول :

إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعةٌ لا يرقو ... ن لدمع الشمّاء والخنساء

ويقول :

قد ترامت إلى الفساد البرايا ... واستوت في الضلالة الأديان

ويقول[4] :

في القدس قامت ضجةٌ ... ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدقّ ... وذا بآذان يصيح

(١) نفس المصدر .
(٢) Kremer, ZDMG, 30, S. 40 .
(٣) نفس المصدر ص ٤٣ .
(٤) ZDMG, 29, 637-638 .

كـل يشيّـد دينـه ياليتَ شعري!ما الصحيح!

ويقول :

إن شر سكان الأرض هم العلماء .

ويقول[1] :

أقيمي ! لا أعـدّ الحج فرضاً على عُجُز النساء ولا العذارى
ففي بطحـاء مكة شرُّ قـوم وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجـال شيبة سادنيهـا إذا راحت لكعبتهـا الجمارا
قيـام يدفعون الوفـد شفعاً إلى البيت الحرام، وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائف أولجوهم ولو كانوا اليهود أو النصارى

وقد راسل أبا العلاء أحدُ أهل مصر ، وكان قد قام في نفسه أن عند أبي العلاء « من حقائن دين الله سرّاً قـد أسبل عليه من التَقِيَّة سترا »[2] ، فسأله ، فلم يظفر بما أراد . ولم يكن عند أبي العلاء مـا يعلّمه للناس سوى الأخلاق والتسليم والرضا مع الفرح ، والدعوة إلى حياة الزهد والبساطة .

ويتجلى هذا في رسالته المسماة رسالة الغفران التي كتبها ردّاً على رسالة مشهورة بعثهـا له ابن القارح[3] . وفي رسالة الغفران تتجلى الطرافة على أتمّها ، وإن كانت رديئة التأليف ، وفيها تكلم عن أشياء

---

(1) ZDMG, 30, S. 45.

(2) JRAS. 1902, S. 308.

(3) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٢٤ .

كثيرة ، وتناول الكلام عن الجنة والنار والزندقة والعقل[1] . ولهـذا فإن تعاليم أبي العلاء ، رغم كثرة تلاميذه ، ذهبت كلها أدراج الرياح .

وعلى حين كان علماء الدين يتجادلون ويتشاجرون فيما إذا كان القرآن مخلوقاً أو قديماً ، وعلى حين كان أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك (المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م لا ينام قط في بيت فيه مصحف، حتى كان إذا أراد النوم انتقل عن المكان الذي فيه ، إعظاماً لكتاب الله عز وجل[2] ، كان ابن الراوندي (المتوفى عام ٢٩٣ هـ — ٩٠٦م) ، وهو من أكبر من لحقتهم اللعنة بين الملحدين في الإسلام ، يقول : إنا نجد في كلام أكثم بن صيفي ما هو أحسن مـن بعض القرآن ، وقال : « إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبيُّ ، فلم يقدر العرب على معارضته ، فيـقال لهـم : لو ادعى مـدَّعٍ لمن تقدم مـن الفلاسفة مثلَ دعواكم في القرآن ، فقال : الدليل على صدق بطليموس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ، لكانت نبوته تثبت ! »[3] .

وحكي عن أبي الحسن بن أبي البغل ، أحد كبـار العمال ، أن الوزير الخاقاني اتهمه بالإلحاد والاستهزاء بالقرآن ، وطلب من الخليفة المقتدر أن يمكّنه منه ، ويطلق يده فيه ، ففعل[4] .

ويُروى عن أبي العلاء المعرّي أنه عارض القرآن بكتاب عنونه

---

(١) JRAS, 1900 ff. .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٥٣ .

(٣) تاريخ ابي الفدا تحت عام ٢٩٣ هـ (ج ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٨) .

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٧٠ .

بالفصول والغايات في محاذاة السور والآيات ؛ وقد حفظ لنا الباخرزي مؤرخ الأدب قطعة من كتاب أبي العلاء هذا ، وهي جيدة في صنعها ، بحيث لا تُدرك السخرية فيها إلا بمشقة . وقد قيل لأبي العلاء : ما هذا إلا جيد ، إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن ، فقال : حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون[1] .

وكان في القرن الرابع أيضاً فريقٌ من الأغنياء المترفين الذين يحبون الحياة الجميلة واللهو ولا يعبأون بالدين ؛ وفريقٌ آخر من المتهكمين ؛ يقول قاضي البقر الشاعر :

يا رب دعني بلا صلاح ! يا رب ذرني بلا فلاح !
يدي مدى الدهر فوق رِدْف وراحتي تحت كأس راح

ويقول أبو هريرة أحمد بن عصام أحد الشعراء المصريين في النصف الأول من القرن الرابع ، وكان من أصحاب النوادر والمجون والإدمان على شرب الخمر :

مجلس لا يَرى الإله به غيرَ مصلٍّ بلا وضوء وطهر
سُجَّد للكؤوس من دون تسبيـ ـح سوى نغمة لعود وزمر[2]
أنا أشهو الأنام في مثل ذا المجـ ـلس لا مجلس لنهي وأمر

ويقول السلامي الشاعر :

في جوار الصبا نحل بيوتاً عمرت بالغصون والأقمار

---

(1) انظر مجلة جمعية المستشرقين الالمان ZDMG 29, S. 640 . وقد طبع الجزء الاول من هذا الكتاب وليس فيه ما يدل على ذلك . (المترجم)

(2) المغرب لابن سعيد ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

ونصلي على أذان الطنابـ ير ونصغي لنغمة الأوتار
بين قوم إمامهـم ساجد للـ كأس أو راكع على المزمار[1]

وكان ابن الحجـاج أكبر المتزندقين في خمرياته ، فهو يقـول في خمرية له :

يا خليلي قـد عطشت وفي الخمـ رة ريٌّ للحـائم العطشان
فاسقياني محض التي نطق الوحـ يُ بتحريمهـا من القـرآن
والتي ليس للتـأوّل فيهـا مذنبٌ غير طاعـة الشيطان

. . . .

فاسقياني بين الدنان إلى أن ترياني كبعض تلك الدنـان
اسقياني في المهـرجان ولو كـا ن لخمس بقين من رمضان
اسقيـاني ، فقـد رأيت بعيني في قرار الجحيم أين مكاني

ومن خمرية أخرى له :

أمسلمٌ أنت ؟قلت:نعم ،ظاهري وباطني في الخمر نسطوري

. . . .

واستحضرْ العود ووجّه به حتى نصـلي بالطنـابير
الركعـة الأولـى سريجيـة وركعـة التسليـم ماخـوري

ومن أخرى :

افضض الدنّ واسقني يا نديمي اسقني من رحيقـه المختوم

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧١ ؛ وتوفي السلامي عام ٣٩٤ هـ .

اسقني الخمـرة التي نزلت فيهـا عـلى القـوم آيـة التحريم
اسقني ، فإنني أنا والقسـ ـسُ جميعا نبولها في الجحيم[1]

أما تديُّن العامة وَوَرَعهم فلا نعرف عنه للأسف إلا القليل ؛ كان لهم عقائد بسيطة ثابتة ؛ وكان عند بعضهم استعداد شديد للأراجيف والخوض في الفتن الدينية والتنازع فيها ؛ ففي عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قـتل ببغداد أحدُ القرامطة ، وهو المعروف بابن أبي الفوارس ، وعلق جسده على خشبة . يقول المسعودي : « وقد كان لأهل بغداد في قتل ابن أبي الفوارس هذا أراجيف كثيرة ؛ وذلك أنه لما قدّم لتضرب عنقه أشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العوام : هذه عمامتي تكون قِبَلك ، فإني أرجع بعد أربعين يوماً ؛ فكان يجتمع في كل يوم خلائق من العوامّ تحت خشبته ، ويحصون الأيام ، ويقتتلون ، ويتناظرون في الطرق في ذلك ؛ فلما تمت الأربعون يوماً ، وقـد كان كَثُر لغَطُهم واجتمعوا ، فكان بعضهم يقول : هذا جسده ، ويقول آخر : قد مرّ ، وإنما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه ، كي لا تفتتن النـاس ؛ وكثر تنـازع الناس حتى نودي بتفريقهم ، فترك التنازع والخوض فيه »[2] .

على أننا نجد أبا محمد الفرغاني (المتوفى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢م)، وكان مقرّباً عند أمير مصر ، يعتبر هذه الحكاية التالية أهلا لأن يذكرها في تاريخه ؛ فهو يقول نقلاً عن أبي سهل الصدفي (المتوفى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ،) — وهو الزاهد الورع الذي كان الأخشيد محمد بن طغج

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ . اما بمناسبة ما يقوله في مكانه في الجحيم ، فقد ورد في الاسلام ان الميت يرى ، وهو في قبره ، المكان الذي سيكون له بعد القيامة ، في الجنة او في النار .
(٢) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٠٤ .

يجلّه ويتبرك بدعائه من غير أن يشاهده ، بل بالمراسلة : ـ « حدثني أبو سهل بن يونس في مسجده سنة ٣٣٠ هـ قال : قَدِم علينا شيخٌ كبير راهب ، كان بميافارقين ؛ فحدثنا أنه كان مترهِّباً في شبابه في صومعة بميافارقين ، وأنه أشرف في يوم كثير الضباب ، فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه ، وفي فمه قطعة لحم ، فتركها ، ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى ، إلى أن أتى بعدة قطع ؛ ثم إن قطع اللحم اجتمعت ، حتى صارت شخص رجل ؛ ثم أقبل الطائر عليه ، ينقره ويقطعه ويأكله ، وهو يستغيث ؛ قال الراهب : فلما نظرتُ إليه صحتُ به وقلتُ له : ما قصتك يا إنسان ؟ وما الذي أرى بك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم ، قاتل علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليه ؛ وقد وكل الله بي هذا الطائر ، يفعل بي ما ترى ، وينقلني من موضع إلى موضع ؛ قال الفرغاني : قال أبو سهل . قال لنا الراهب : فلما نظرتُ منه ما رأيت انحدرت من الصومعة ، فأسلمتُ »[1] .

وقد صرّح أحمد بن محمد الأفريقي الشاعر المعروف بالمتيّم ، وكان في بخارى في أواخر القرن الرابع الهجري ، بأن الدين إنما هو شأن الطبقة الأرستقراطية ، وهم اليوم سادة المسلمين في كل بلاد الشرق؛ وجاهر بأن الفقراء ليس عليهم أن يصلّوا ، حتى يغتنوا ، وأن الذي يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة هم الأغنياء والأمراء وأصحاب الضياع والأموال ، فقال :

تلوم على ترك الصلاة حليلتي ... فقلت: اغربي عن ناظري! أنت طالق
فوالله ! لا صليت لله مفلساً ... يصلي له الشيخُ الجليل وفائق
وتاش وبكتاش وكنباش بعده ... ونصر بن مالك والشيوخ البطارق

(١) كتاب العيون مخطوط برلين ص ٢٠٨ ا ـ ٢٠٩ ا .

وصاحب جيش المشرقين الذي له سراديبُ مالٍ حشوها متضايق
ولا عجب إن كان نوح مصلياً لأن لـه قصراً تَدينُ المشارق
لماذا أصلي ؟ أين باعي ومنزلي ؟ وأين خيولي والحلي والمناطق ؟
وأين عبيد كالبدور وجوههم ؟ وأين جواريّ الحسان العوانق ؟
أصلي،ولا فتر من الأرض يحتوي عليه يميني ! إني لمنافق !
تركتُ صلاتي للذين ذكرتهم فمن عاب فِعلي فهو أحمق مائق
بلى،إن عَلَيّ اللهُ وسّع لم أزَلْ أصلي له ما لاح في الجو بارق
فإن صلاة السَّيِّىءِ الحال كلها مخارق ليست تحتهن حقائق[1]

ولما خان المسلمين الحظ في حروبهم مع الروم في الغرب ابتُلوا في دينهم وامتُحنوا في إيمانهم بمطالباتٍ لم يُسمع بها من قبل . فلما أخذ الدمُستُق ملطية عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م ، بعد أن حاصرها مدة طويلة ، حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ضرب خيمتين ، على إحداهما صليب ، وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ، ليُرَدّ عليه أهله وماله ؛ ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى ، وله الأمان على نفسه ويُبَلّغُ مأمنه ، فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم ، وسيَّر مع الباقين بطريقاً يبلّغهم مأمنهم[2] .

ولما عادت بلاد اللاذقية إلى قبضة الروم هاجر منها كثير من المسلمين ، ولكن بقي في الإقليم كثير من أهله ، ودفعوا الجزية بدورهم

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١ (ويتيمة الدهر ج ٢ ص ١٢ — المترجم) .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢١ .

للروم . ويقول ابن حوقل : « وأظنهم صائرين إلى النصرانية أنَفَةً من ذلة الجزية ، ورغبةً ، مع حذف المؤنة ، في العز والراحة »[1] .

ولكن انتصارات الروم لم يكن لها إلا صدى ضعيف في داخل المملكة الإسلامية ؛ وقد تقبّلها المسلمون بإيمان قوي ، وفسّروا أمر هذا البلاء بالتفسير المألوف ،وهو أنه دليل على صحة دين الإسلام ، وجزاء لأهله الذين أَهملوا أوامره[2] .



---

(1) ابن حوقل ص ١٢٧ .

(٢) (أرسل نقفور للمسلمين بعد أن فتح الثغور قصيدة ساءتهم ، فيها تثريب وتعبير وضروب من الوعيد ؛ وقد ردوا عليها ردوداً شيقة بينوا فيها الحقيقة والفرق بين المسلمين وغيرهم في الانتصار والمعاملة . ولمحمد بن علي بن إسماعيل القفال المتوفى (عام ٣٣٦ هـ) قصيدة في ذلك منها :

ونرجو وشيكا أن يسهل ربنا	دخول خوافي الريش تحت القوادم
وقلتم : ملكناكم بجور قضاتكم	وبيعهمو أحكامهم بالدراهم
وفي ذاك إقرار بصحة ديننا	وأنا ظلمنا فابتلينا بظالم

وثم قصيدة لابن حزم ؛ وفي هذه القصائد إقرار بأن الهزيمة ناشئة عن إهمال المسلمين لدينهم ، وعدم الاتحاد ، وكثرة الشقاق ، وضعف الخلفاء ، وانشغالهم بفتن الترك والديلم — المترجم) .

انظر طبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٩ .

تعليق

علق مترجمُ هذا الكتاب إلى الإنجليزية المرحوم الأستاذ خدابخش الهندي على الفصل المتقدم بأن ترجم ما كتبه الأستاذ جولدزيهر في كتابه المسمى دراسات إسلامية Goldziher. Muhammedanische Studien عن القُصَّاص في الجزء الثاني من ص ١٦١ ــ ١٧٠ . وهاك ما كتبه جولدزيهر :

القاصّ أو القَصَّاص (والجمع قُصَّاص) وهو الرجل الذي كان يجمع الناس حوله في الطرق أو في المساجد ــ من غير أن تكون له صفة رسمية ــ فيعظهم حيناً بذكر الأحاديث والأخبار المأثورة ، ويسلّيهم بالقصص والحكايات حيناً آخر . وإن الصبغة الدينية لحديثهم هي التي كانت تميزهم عن القصاص غير الدينيين الذين كانوا يجمعون الناس إليهم في الطرق ليسلّوهم بالنوادر والمضاحك[1] . ويقومون مقام الصحف الهزلية في أيامنا هذه . ومن هؤلاء المضحكين من كان مقرَّباً من الخلفاء .

ولم يكن يقترن باسم القاص في عهد الإسلام الأولما التصق به في أثناء تطور القصص من الإنكار والمذمّة . وقد سمي ما جاء به النبي عليه السلام قصصاً ، فقال تعالى : « فاقْصُصْ القَصَصَ ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ » (سورة الاعراف ، آية ١٧٦) وقال جل شأنه :

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، والكامل للمبرد ص ٣٥٦ ؛ ونجد من هؤلاء من هم أهل الذكاء والنوادر ، الأغاني ج ٢١ ص ٩٠ سطر ٧ .

«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القُرآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » (سورة يوسف ، آية ٣) • ويروى عن النبي عليه السلام أنه امتدح الخطباء الصالحين الذين يسمّون القصاص[١] •

وفي الأخبار ما يدل على أن القصص قديم في الإسلام ؛ فيحكى عن عمر ابن الخطاب أنه أجاز لتميم الداري ، أو لعُبيد بن عمير في رواية أخرى ، أن « يقصّ على الناس[٢] » • وفي عهد معاوية نُدِب رجال من الصالحين لوعظ الناس ، وتقوية دينهم برواية القصص الدينية؛ ورضي عن ذلك علماء الدين • ونجد القُصَّاص أحياناً في صفوف المقاتلين ، يحرضونهم على القتال ، ويحمّسونهم ، كما كان الحال في الجاهلية[٣] • وأقدم ما وصلنا من أخبار هذا الفريق أمرُ القُصَّاص الثلاثة الذين ساروا حوالي عام ٧٠ هـ ، في عهد مروان بن الحكم ، تحت قيادة سليمان بن صُرد للانتقام لمقتل الحسين رضي الله عنه ؛ فكان أحدهم مع الميمنة ، والثاني مع الميسرة ، وكان الثالث يدور الليل كلّه في الجند يحمسهم بكلمات من نار ، ويقول : أبشروا عبادَ الله بكرامة الله ورضوانه ، فحقّ ، والله ، لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبَّة • ودخول الجنة ، والراحة من آلام الدنيا وأذاها إلا فراقُ هذه النفس الأمارة بالسوء ــ أَنْ يكون بفراقها سخياً وبلقاء ربه مسروراً[٤] • ويحكى لنا مثل هذا النشاط في القرن الثالث الهجري ؛ فيُذكر أن رجلا يسمى

---

(١) كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي مخطوط ليدن رقم ٩٩٨ ص ١٩ •

(٢) نفس المصدر ص ١٦ ــ ١٧ •

(٣) انظر .Goldziher, Muh. St. I, 44 ؛ وقد ذكر ابو حنيفة الدينوري (ص ١٢٨) ان سعداً قبل لقاء القادسية جعل عمرو بن معد يكرب وقيس بن هبيرة وشرحبيل بن السمط يثيرون عزائم العرب بقصائدهم ويحرضونهم على القتال •

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٥٩ •

أبا العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري المعروف بالقاص ، سمي بذلك ، لأنه كان مع جيوش المسلمين في حروبهم للديلم والروم يحرضهم ويقص لهم[1] .

وقد اشتهر بعضُ القصاص أيضا بتفسير القرآن ؛ ومن هؤلاء في القرن الثالث الهجري موسى الأسواري وعمرو بن قائد الأسواري . وكان أولهما من أعاجيب الدنيا ؛ فكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور ، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، ثم يقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها بالعربية للعرب ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرى بأي اللسانين هو أبْيَن ، يقول الجاحظ : « واللغتان إذا التقيا في اللسان الواحد أدخلتْ كلٌّ واحدة منهما الضيمَ على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيَّار الأسواري[2] » . أما عمرو بن قائد الأسواري فكان يفصل في التفسير ، حتى إنه قص ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ بتفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات ؛ فربما كان يفسر الآية الواحدة في عدة أسابيع[3] .

حتى الآن نجد القُصَّاص يخدمون غاية دينية هامة كوُعَّاظ أو قُصَّاص أخبار دينية ؛ ولم يتعرّض لهم أحدٌ في ذلك ، ورضي العلماء بهذه الطائفة من الوعاظ المتطوّعين الذين يثقّفون العامة ؛ لأنهم سواء في خطبهم بالمساجد أو بجمعهم الناس في الطرقات كانوا ينزلون إلى مستوى العامة ، ويبثون فيهم روح الزهد ، وهو ما لا يشتغل به علماء الشريعة

---

(١) العقد المذهّب لابن الملقن مخطوط ليدن رقم ٥٣٢ ص ١١ ا ؛ وكتاب التهذيب ص ٧٤١ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ طبعة القاهرة ١٣٣٢ هـ ج ١ ص ١٩٦ .

(٣) نفس المصدر .

المهتمون بالأحكام . والحق أن الزهد أصاب من القصاص دُعاةً له وناشرين ؛ وقد ذكر لنا الجاحظ قطعاً من قصص هؤلاء القوم[1] . ولم يذكر لنا أن أحداً منع القصاص أو تعرض لهم بمضايقة في أدائهم لهذه المهمة التي هي عنصر مكمل في الحياة الدينية الإسلامية .

ولم يكن المنع موجّهاً إلا للقصاص الذين أساءوا استعمال القصص، وخرجوا به عن غايته ؛ وليست الإجراءات التي ذكرها المؤرخون فيما يتعلق بالقُصَّاص إلا موجهة إلى المحتالين على الكسب منهم ، وهم الذين لم يكن قصدهم الدين بل تسلية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم ، أو الذين كانوا يشوّهون القصص الدينية ويتخذونها أساطير ؛ وقد انصبَّ غضب العلماء المحافظين على أصحاب هذا الصنيع وحدهم .

وعندنا بعض الأخبار الخاصة بالعصر الأول للقصاص ؛ وأقدم خبر هو خبر نوف بن فضالة ، وكان يقصّ بالكوفة ؛ وقد ذكر البخاري[2] أن سعيد بن جُبَيْر سأل ابن عباس فيما زعمه نوف هذا من أن موسى صاحبَ الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدوُّ الله[3] . وبمجرد تفطّن الناس للخطر الذي استهدف له الحديث بسبب القصاص حاول العلماء أن يطعنوا في أصلهم وينسبوهم إلى الخوارج[4] . ولم يشتد اضطهادهم إلا بعد أن كثروا بالعراق ،

---

(١) انظر كلام عبد العزيز الغزالي القاص في البيان والتبيين ؛ ويشير المؤلف إلى ص ١٢٧ ب من مخطوط لهذا الكتاب .

(٢) البخاري ، كتاب التفسير ؛ سورة الكهف .

(٣) ويذكر أن الحسن رضي الله عنه مرَّ يوما ، وقاصّ يقصُّ على باب مسجد رسول الله ؛ فقال له الحسن : ما انت ؟ قال : أنا قاصّ يا ابن رسول الله ؛ قال : كذبت ! محمد القاص ، قال الله عز وجل : فاقصص القصص ؛ قال : فأنا مذكر ؛ قال : كذبت ! محمد المذكر ، قال الله عز وجل : فذكر إنما انت مذكر ؛ قال فما أنا ؟ قال له الحسن : المتكلف من الرجال . (تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٠) .

(٤) كتاب القصاص لابن الجوزي ص ١٨ .

حتى حكى ابن عوف (المتوفى عام ١٥١ هـ) أنه في مساجد البصرة كان لعلماء الفقه حلقة واحدة ، على حين كان للقصّاص حلقاتٌ لا تحصى ، حتى كانت المساجد مملوءة بهم[١] .

ومما يدل على خفّة العامة في تصديق القصاص وعبث هؤلاء بهم ما حكي من أن كلثوم بن عمرو العتّابي الشاعر ، الذي عاش في أيام الرشيد والمأمون ، كان يأكل خبزاً على الطريق ببغداد ، فرآه عثمان الورّاق ، فقال له ، ويحك ! أما تستحي ! فقال له كلثوم : أرأيتَ لو كنا في دار فيها بقر ، كنتَ تستحي وتحتشم أن تأكل ، وهي تراك ؟ فقال : لا ؛ قال : فاصبر ، حتى أعلمك أنهم بقر ؛ فقام فوعظ وقصّ ، حتى كثر الزحام عليه ؛ ثم قال للناس : روى لنا غير واحد أن من بلغ لسانهُ أرنبةَ أنفه لم يدخل النار ؛ فكأنما كان ذلك إشارة منه للناس ، فلم يبق أحدٌ منهم إلا وأخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ، ليرى إن كان يبلغها أم لا[٢] .

وليس من العسير علينا أن ندرك أن حكايات القصّاص السهلة المسلية كانت أشد استهواء للعامة من كلام العلماء العويص ، خصوصاً وأن القصاص كانوا لا يتحرجون من اتخاذ أية وسيلة لجذب العامة إليهم . وقد ذكر الجاحظ بعض ما حكي من عبث القاص المسمى أبا كعب[٣] . وسرعان ما نرى بعد ذلك إجراءات تتّخذ ضد القصاص ، ففي عام ٢٧٩ هـ أمر الخليفة بالنداء في مدينة السلام ألا يقعد في الطريق ولا في المسجد قاصّ ولا منجّم ولا عرّاف . وجدّد هذا الأمر في عام

(١) نفس المصدر ص ١١ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٥ .

(٣) يشير جولدزيهر إلى ص ١٢١ ب من نسخة خطية لكتاب الحيوان .

٢٨٤ هـ[١] . وإن الجمع بين القاص والمنجم والعرّاف في أمر واحد ليدل على رأي الدوائر الرسمية في مسألة القصص .

وبعد ذلك بقليل يذكر المسعودي وصفاً شيّقاً للعامة في ذلك العصر فيقول : « وتفقّد العامةَ في احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهرَ إلا مُرْقِلين إلى قائد دُبّ ، وضارب بدفّ على سياسة قرد ، أو متشوّقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى متعبّد مُتَنَمّس ممخرق ، أو مستمعين إلى قاصّ كذّاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاً عند مصلوب ، يُنْعق بهم ، فيتبعون ؛ ويُصاح بهم ، فلا يرتدعون ، لا ينكرون منكراً ، ولا يعرفون معروفاً[٢] » .

ومما هو أكثر بياناً للأسباب التي حدت بالحكومة إلى الالتجاء إلى هذه الإجراءات مما حكاه المسعودي وثيقة" ترجع إلى القرن الرّابع الهجري ، وهي من قلم أبي دُلَف الخزرجي شاعر الملح والطرف ؛ فقد ألف قصيدةً مشهورة تسمى القصيدة الساسانية ، ذكر فيها المُكدّين ونبّه على فنون حرفهم ، وأنواع رسومهم ؛ وهي وشَرْحُها ذخيرة كبيرة تُستقى منها معلومات كثيرة متنوعة عن أحوال ذلك العصر الاجتماعية[٣] . وقد عرفنا بني ساسان من المقامة الساسانية للحريري ، وفيها يوصي أبو زيد السروجي ابنه بلزوم حرفة بني ساسان[٤] . وقد

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ . وتاريخ أبي المحاسن ج ٢ ص ٦٧ حيث ذكرت كلمة قاض بدل كلمة قاص خطأ . وفي هذا الأمر حلّف المتضد باعة الكتب الا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل .

(٢) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٦ .

(٣) كذلك أثرتْ بها المعاجم ، والف الاحنف العكبري المسمى شاعر المُكَدّين قصيدة اخرى .

(٤) فيما يتعلق بأصل هذه التسمية ارجع إلى ما كتبه دي ساسي في الجزء الأول ص ٢٣ وما بعدها من نشرته لمقامات الحريري .

بيّن أبو دلف في قصيدته أصناف المُكَدّين والممخرقين والمحتالين من أسوأ طراز، ونجد فيهم القاص إلى جانب سائر المحتالين، يقول أبو دلف :

ومـــن قصّ لإسرائيل أو شبراً على شبر

(هو الذي يروي الحديث عن الأنبيـــاء والحكايات القصـــار ، ويُقال لها الشِّبر ّيات) .

ومن يروي الأسانيد وحشو كل قمطـــر

(هؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطرق)

ومـــن ضرب في حبّ علـــيّ وأبي بكر

وهم قوم يحضرون الأسواق ؛ فيقف واحـــد" جانباً ، ويروي فضائل عليّ ، رضي الله عنه ؛ ويقف الآخر جانباً ، ويروي فضائل أبي بكر رضي الله عنه ؛ فلا يفوتهما درهم الناصبي والشيعي ، ثم يتقاسمان الدراهم[1] .

وقد استمرت هذه الحال ؛ وفي القرن السادس الهجري نجد ابن الأثير يجمع بين القصاص والمشعبذين في عبارة واحدة[2] . وليس الجمع بينهما غريباً ، إذ عرفنا ما ذكره ابن الجوزي (ص ١٠١ ــ ١٠٦) مـــن حيلهم حوالي ذلك العصر ؛ فمنهم من كانوا يدهنون وجوههم بما يجعلها صفراء تشبُّهـــاً بالنساك الصائمين ؛ وكان آخرون يتخذون ما يسيل دموعهم ، متى أرادوا ؛ ومنهم من كان يوقع نفسه من على المنابر أو يضربها برجله ، إيهاماً للناس بشدة انفعاله ؛ وكان فريق يخدعون النساء باتخاذ اللباس الحسن .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٢ ــ ١٨٣ .
(٢) المثل السائر ص ٣٥ .

وعلى حين كان القصاص القدماء موضع تقدير العلماء وإعجابهم ، لما كان في تعاليمهم من روح دينية وخلقية ، نجد القصاص المتأخرين قد شوّهوا الدين طلباً لتسلية العامة ، وكانوا يوهمون الناس بعلمهم من طريق التكلف أحياناً في بيان أصول الكلمات[1] . وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم ،وقد عملوا على نشرها، وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم ، لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم ، فزعم بعضهم أنه يعرف اسم العجل الذي عبده القوم[2] . وذكر آخر اسم الذئب الذي زعم أنه أكل سيدنا يوسف ، فلما قيل له إن يوسف لم يأكله الذئب ، قال هو اسم هذا الذئب الذي لم يأكله[3] .وكانوا يجبهون العلماء الذين يكشفون عن جهلهم وخداعهم بكل جراءة ، وكان العلماء أشد خصومهم ، وكان العامة يقدّرون القصاص أكثر من تقديرهم العلماء . ويحكى عن أم أبي حنيفة أنها احتاجت مرة إلى معرفة مسألة من مسائل الشريعة ، فسألت ابنها ، فأجابها ؛ ولكنها لم تقتنع ، فذهبت معه إلى زرعة القاص ؛ فلما أقر رأي أبي حنيفة اقتنعت الأم[4] .

ولكن القصاص لم يكونوا جميعاً مع العلماء في أدب زرعة وتواضعه ، فكانوا في الغالب يعارضون العلماء بثبات وجراءة غريبين ، وكان العامة دائماً إلى جانبهم ؛ فيحكى عن الشعبي المحدّث (المتوفى عام ١٠٣ هـ) أنه نزل تدمُر ، فوافاها يوم جمعة ، ودخل يصلي في

---

(١) سئل بعض القصاص لماذا سمي العصفور عصفورا فقال لانه عصي وفر (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٩٣) .

(٢) المبرد ص ٣٥٦ ، والعقد ج ٢ ص ١٥١ ؛ وقارن مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣ ، ٢٦ .

(٣) كتاب القصاص لابن الجوزي ص ١٢٩ .

(٤) نفس المصدر ص ١٢٤ .

المسجد ، فإذا إلى جانبه شيخ عظيم اللحية ، قد أطاف به قوم ، فحدثهم وقال : حدثني فلان عن فلان يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى خلق صورين ، له في كل صور نفختان ، نفخةُ الصعق ونفخة القيامة ؛ قال الشعبي : فلم أضبط نفسي أن خففت صلاتي ، ثم انصرفت، فقلت : يا شيخ ! اتق الله ولا تحدثن بالخطأ ، إن الله لم يخلق إلا صوراً واحداً ، وإنما هي نفختان : نفخة الصعق ونفخة القيامة ؛ فقال لي : يا فاجر ! إنما حدثني فلان عن فلان وتردُّ عليَّ ؛ ثم رفع نعله وضربني بها ، وتتابع القوم عليَّ ضرباً معه ؛ فوالله ما أقلعوا عني ، حتى حلفت لهم أن الله خلق ثلاثين صوراً في كل صور نفخة[1] . على أن هذه القصة إن لم تكن صحيحة من الناحية التاريخية فهي تدل على الأقل على إنكار العلماء على القصاص فيما يروونه من الأباطيل وقيام العامة على العلماء ؛ ويحكى عن ابن جرير الطبري أنه سمع أحد القصاص يفسر قوله تعالى : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مقاماً مَحْمُوداً » (سورة الإسراء آية ٧٩) بأن الله جعل لمحمد عليه السلام مكاناً على العرش إلى جانبه ؛ فأنكر ذلك بأن كتب على باب داره ما نزه به اللهَ عن ذلك ؛ وفهم العامة قصده ، فرموا باب داره بالحجارة حتى سدّوه[2] .

يستطيع القارىء أن يتصور مقدار الخطر الذي كان يتهدد الحديث وصحة روايته من هذه الطائفة ، ومقدار نصيبهم في اختراع الأحاديث الموضوعة ونشرها . ويظهر أنهم كانوا في العصور الأولى منتشرين في العراق انتشاراً عظيما ، وبعد ذلك في آسيا الوسطى ، أما في الحجاز فكانوا نادرين . ويحكى عن مالك ابن أنس أنه منعهم من دخول مسجد

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ، وتحذير الخواص من اكاذيب القصاص للسيوطي مخطوط ليدن رقم ٤٧٤ ص ٤٦ ا ـ ٤٩ ب ، وانظر الفصل التاسع من هذا المخطوط ايضا .

(٢) نفس المصدر .

الرسول بالمدينة . وكانوا أيضاً قليلين في المغرب ، حيث كان يغلب على الناس العناية بالحديث والأمانة في روايته ، حتى يقول المقدسي : إن أهل المغرب لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ مالك[1] .

ويجب أن نفرق بين اختراع القصاص للأحاديث وبين اختراع غيرهم لها ، ذلك أنه لم تكن لهم صفة سياسية أو مذهبية أو حزبية ، وإنما كانوا يقصون لتسلية سامعيهم ، ورغبة منهم في الكسب من العامة . ولما كان الكسب غرضهم فقد نشأ بينهم الحقد والبغضاء ، حتى صار من الأمثال الجارية أن القاص لا يحب القاص[2] ؛ وفي الأثر أن عمران ابن الحصين مرّ على قاصّ يقرأ ، ثم سأل ؛ فاسترجع ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ القرآن فليسأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام يقرأون القرآن يسألون به الناس[3] . والذي يقوم في مجلس القصص ليجمع الصدقة يسمى المكوِّز (فعله كوّز) ؛ فكان القاص يأمر الحاضرين بإعطائه ، وإذا تفرق الجمع تقاسما ما اجتمع من المال[4] . وكان العامة يعتقدون الخير في القصاص ، حتى كانوا يلجأون إليهم في الدعاء لهم ، ومن المُلَح أن رجلا أعطى قاصا يسمى أبا سليمان فَلْساً ، وقال : ادع الله لابني يردّه علي ، فقال : وأين ابنك ؟ فقال : بالصين ، قال : أيرده الله من الصين بفلس ؟ هذا مما لا يكون ، إنما لو كان بجنّابة أو بسيراف كان نعم[5] .

(1) المقدسي ص ٢٣٦ .

(2) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣ .

(3) صحيح الترمذي ج ٢ ص ١٥١ ؛ وكتاب القصاص لابن الجوزي

(4) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٨ .

(5) معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٣ .

بل نحن نجد هؤلاء القصاص غير المسؤولين في المدن الإسلامية[1] في هذه الأيام • ويقول شاك Schaek في روزنامجته عام ١٨٧٠ م عندما كان بدمشق : « وكان أكبر منظر شاقني منظر" له دلالته ، شاهدته في الجامع الأموي ، ذلك أن شيخاً وقف إلى جانب أسطوانة في المسجد ، وحوله جمع عظيم ، فألقى درساً كان يشير فيه بإشارات مؤثرة ؛ وقد أخبرني دليلي أنه ليس من العلماء الرسميين ، بل هو رجل يعظ طلباً للمال » ، هذا المنظر ذكّر شاك بأبي زيد السروجي بطل مقامات الحريري • والحق أن المقامة الحادية والأربعين تصف مثل هذا المنظر •

*

(١) فيما يتعلق ببخارى مثلا انظر كتاب بيترمان (Peterman) ، واسمه (Geog. Mitteilungen, 1889 S. 269) .

ويقول المرحوم خدابخش إن الهند بنوع خاص مملوءة بالقصّاص ، وإنهم أكبر عقبة في سبيل التقدم ، ولهم تأثير قوي في الجماهير ؛ أما بضاعتهم فقليل من القرآن والحديث ، قد حفظوه ، فهم يذكرونه في مقامه وفي غير مقامه ؛ وهم يخترعون الأحاديث ويقلبون الحقائق ويشوهونها ، وسامعوهم يصغون إليهم أيّما إصغاء ، وكلمتهم كالقانون . وقد رأيتهم يتأوهون ويتنهدون ويبكون في مجالسهم . وطريقتهم هي طريقة قدماء القصاص . وكثيراً ما أدهشني جهلهم وجراءتهم ؛ ولكن قومي يصغون إليهم من غير مناقشة ، ويطيعونهم بلا تردد في توجيههم لهم ، وفي تفسير أمور الدين والشرع . ولا يمكن أن يتحقق إصلاح ما دام العامة تحت تأثير هؤلاء القصاص غير المسئولين . والأمل الوحيد هو المعقود على انتشار التعليم ، والتعليم هو الذي يعيد للعقل مكانته . وإن خطباء المسلمين الظاهرين اليوم في كل مدينة وقرية بالهند هم فيما يلوح خلفاءُ أولئك القصاص الذين ظهروا في أواخر عهد الخلافة .

الفصل العشرون

الأخلاق والعادات

استلزمت العادةُ في بيوت السادة والكبراء عند الدول الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية البوزنطية أن تهَيّأ هذه البيوت بالخصيان[1] ؛ وقد حرّم الإسلامُ ذلك وشدّد القرآن وشددت السنة في تحريم خصاء الإنسان أو البهائم ، ووُكِل لوالي الحِسبة أن يمنع ذلك ويؤدب عليه[2] ، وهذا أيضاً — كما في نواحٍ أخرى — دخل على الإسلام حوالي عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م ، بسبب تقلّص ظل الروح العربية ، عاداتٌ شرقية قديمة ، رغم ما جاء به النبي عليه السلام في شأنها من الإنكار والمنع الصريح . وذلك أن الخليفة الأمين ، وهو ابن هارون الرشيد ، لما ملك ، بلغ من كَلَفه بالخصيان أنه « طلبهم ، وابتاعهم ، وغالى بهم ،وصيَّرهم لخلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء ، حتى رُمي بهن »[3] وحتى قال أبو نواس ساخراً[4] :

---

(١) وأصل ذلك ديني ، وقد نشأ هذا « الجنس الثالث » قديما إرضاءً للآلهة ؛ وقد انكر محمد عليه السلام هذه القيمة الدينية التي ادعيت له ، كما انكرها الفصل الاول من قرارات مؤتمر نيقية . انظر مقالة سخاو : Sachau, MSOS, 2, S. 83 f. .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٤٣١ من طبعة إنجر (Enger) .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٩٥٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٩٦٥ .

احمــدوا الله جميعــاً يــا جميــع المسلمينا !
ثــم قولوا ، لا تملوا : ربنــا أبنق الأمينــا !
صيَّر الخصيان ، حتى صيـَّــر التعنــين دينــا
فاقتــدى الناس جميعاً بأمــير المؤمنينــا

وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود[1] والنصارى إثم هذا العمل الشنيع . وقد جاء في خبر يرجع إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، أن مدينة هَدْية بالحبشة النصرانية هي التي كان يتَدَاوَى بها الخصيان دون غيرها من بلاد الحبشة[2]. على أنه في أوائل القرن التاسع عشر كان « في الصعيد بمصر ديران قبطيان دخلـُهما الأساسي مصدره الخصاء ، وكان هذا يـُعمل بنسبة كبيرة ، حتى كان يكفي لتموين مصر كلها وجزء من تركيا بالخصيان »[3] . وكان بعض القبط بمدينة أسيوط يتـّجرون بشراءِ صغار العبيد السود وخصائهم ، وكان كثير منهم يموت من هذا العمل ، أما الباقون فكانوا يـُباعون بما يبلغ عشرين ضعفاً مــن ثمن شرائهم »[4] .

ويقسم المسعودي الخدم إلى أربعة أنواع : السودان ، والصقالبة ،

---

(١) على انه من الغريب في هذا الباب ان اليهود كانت شريعتهم تحرم عليهم خصاء الخيل والثيران ، حتى كانوا يضطرون إلى ابتياع الثيران المخصية من النصارى . انظر : Krauss, Talmudische Archäologie, II, S. 116.

(٢) ابن فضل الله العمري ، كما حكى ذلك ماركفارت . Marquart, Die Beninsammlung, S. CCCVI.

(٣) Fürst Pückler, Aus Mehemed Alis Reich, III, S. 159.

(٤) V. Maltzan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865, 1, 48.

والروم ، والصين[1] ؛ ويذكر المقدسي[2] أن الخدم البيض صنفان : (١) الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يُحملون إلى الأندلس، فيُخصون ثم يخرجون إلى مصر[3] . (٢) الروم ، وهم يقعون إلى الشام وأقور ، وقد انقطعوا بخراب الثغور . « وسألت جماعة منهم كيف يُخصون ، فتحصّل لي أن الروم يسلّون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس ، لئلا يشغلوا بالنساء ، وتؤذيهم الشهوة » ، وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائسهم وأخرجوا الصبيان منها[4] .

أما الخدم الصقالبة فكانوا يُجلبون إلى مدينةٍ خلف بجّانة (هي بشينا Pechina ، العاصمة القديمة لإقليم البيرة Almeria) ، أهلها يهود ، وكانوا يقومون بخصائهم[5] . وقد اختلف في الخصاء نفسه ؛ فقال البعض : يُمسح القضيبُ والمزودان في مرة واحدة ؛ وقال

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ١٤٨ .

(٢) المقدسي ص ٢٤٢ .

(٣) ويحكي ابن حوقل أيضاً (ص ٧٥) أن جميع ما يُسبى إلى خراسان من الصقالبة فهو يبقى على حاله من غير خصاء . وكان يجلب من الأندلس إلى جانب الغلمان والجواري الذين يسبون من إفرنجة وجليقية الصقالبةُ الخصيان أيضاً . ويقول الجاحظ (الحيوان ج ١ ص ٥١) إن الخصي يعرض له عند قطع ذلك العضو تغيّر الصوت ، حتى لا يخفى على من سمعه أنه خصي .

(٤) لم يكن الخصيان في الكنيسة الاورثوذوكسية يقومون بمهمة الغناء فقط ، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة ، خلافا لما كان عليه الحال في الكنيسة اللاتينية . وفي أوائل القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي تولى بطريركان خصيّان منصبَ بطريرك على القسطنطينية ذاتها، أحدهما بعد الآخر (انظر تاريخ يحيى بن سعيد مخطوط باريس رقم ٢٩١ ص ٨٢ ا) وكذلك حوالي عام ٣٧٠هـ ـ ٩٨٠م (انظر Barhebraeus, Chron. ecclesiast. (I, 414. ، وعام ٤١٠ هـ ـ ١٠١٩ م (يحيى بن سعيد ص ١٣١ ا) .

(٥) وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء ، وكان يهود فردان بنوع خاص مشهورين بذلك . انظر تاريخ البربر في أسبانيا لدوزي : Dozy, Gesch. der Mauren in Spanien, II, 38.

بعضهم : يُشَق المزودان وتخرج البيضتان ، ثم تجعل تحت القضيب خشبةٌ ، ويُقطَع من أصله . « وسألت عريباً الخادم ، وكان من أهل العلم والصدق ، فقلت : أيها المعلم ! أخبرني عن أمر الخدم ، فإن العلماء قد اختلفوا فيهم ؛ وأبو حنيفة يجعل لهم فراشاً ، ويُلحق بهم ما تلد نساؤهم[1] ، وهذا علم لا يستفاد إلا منكم ؛ قال : صدق أبو حنيفة رحمه الله ، وسأخبرك بحالهم : اعلم أنهم إذا قربوا للاختصاء شُقّت الخصيتان ، فأُخرجت البيضتان ؛ فربما فزع الصبي ، فصعدت إحدى البيضتين ، وطُلبت فلم توجد في الوقت ، ثم تنزل بعدما التحم الشق فإن كانت اليسرى كانت له شهوة ومنيّ ، وإن كانت اليمنى خرجت له لحية مثل فلان وفلان ؛ فأبو حنيفة رحمه الله ، أخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش ، وجاز أن يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم . وذكرتُ قوله لأبي سعيد الجوزي بنيسابور ، قال : قد يجوز هذا لأن إحدى بيضتيّ صغيرة ، وكانت لحيته نزراً خفيفة . وإذا خصوهم جعلوا في منفذ البول مرود رصاص ، يخرجونه أوقات البول إلى أن يبرءوا كي لا تلتحم[2] .

وكانت هذه العملية الشنيعة تقلل عدد الخصيان وتزيد أثمانهم ؛ فكان ثمن الخصيّ في بوزنطة مثلا في ذلك العصر يساوي أربعة أمثال الخادم العادي[3] . وحوالي عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م أُطلق على هؤلاء

(١) ذكر ابن الأثير خادما يسمى صندلا ، وقال إن له زوجة ــ ج ٨ ص ١٩١ . ويقال إن مسائل غرامية بين جواري خمارويه وبين الخصيان كانت سببا في قتل هذا الأمير ؛ وكان لعضد الدولة خادم يسمى شكراً تزوج جارية حبشية ، ولكن قلبها علق بغيره ، فاخبرت خصومه بمكانه الخ ــ ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

(٢) المقدسي ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ .

(٣) Vogt, Basile, I, 383.

التعساء أسماء أقرب إلى الاحترام ، فسُمِّي الواحد منهم بالخادم[1] ، أو المعلم ، أو الشيخ ، أو الأستاذ[2] ، على حين كانوا في العصور الأولى يسمون بالخصيان ، مع ما في ذلك من تشهير .

وكان الخصيان دائما يلقون من العوام كثيرا من السخرية ؛ ويحكي المسعودي أن العوام كانوا يستهزئون بالخدم السودان في الشوارع ، ويصيحون بهم ويقولون : « يا عقيق ، صب ماء واطرح دقيق ؛ يا عاق ، يا طويل الساق »[3] . وحدث في عام ٢٨٤ هـ ـ ٨٩٧ م أن وجّه الخليفة المعتضد خادما أسود عشية الجمعة برقعة إلى ابن حمدون النديم ؛ فلما بلغ الخادم رأس الجسر من الجانب الشرقي صاح به صائح من العامة : يا عقيق ؛ فشتم الخادمُ الصائحَ ، فاجتمع قوم من العامة ، وضربوا الخادم ، فضاعت الرقعة التي كانت معه ؛ فرجع إلى الخليفة وأخبره بالقصة ، فأمر رجلا بالركوب والقبض على كل من تولّع بالخدم وضرْبه بالسياط[4] . وكانت قصص الخدم موضوعاً دائماً للقُصّاص وأصحاب النوادر والمضاحك في الطرق ، وكان تقليد أصواتهم وحركاتهم مما يجذب الناس إليهم[5] .

وقد اشتهر الخصيان بالصبر على طول الركوب ، حتى قالوا في

---

(١) على ان الجوهري ـ وهو الذي دوّن الاصطلاح اللغوي القديم ـ لا يذكر لهذه الكلمة معنى الخصيّ ولكنه يقول إنهم يسمون الخدم رجال ونساء . أما إلياس النصيبيني (ولد عام ٣٦٤ هـ ـ ٩٧٤ م) فهو يترجم دائما بكلمة شاريشا ، ومعناها الخصي بالسريانية .

(٢) المقدسي ص ٣١ .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٨٠ .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٢١٦٤ .

(٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦٢ ، ١٦٤ .

ذلك فرسان الترك[1] . وكذلك تذكر لهم إجادة الرمي بالنشاب[2] . وبالجملة ظهر من بينهم قواد" شجعان ؛ وإذا كان عند الروم منهم في القرن الرابع الهجري نارسيس Narses وسلمون Salomon ، فقد كان عند المسلمين مؤنس القائد ؛ وكذلك فائق قائد السامانيين ، فقد كان أيضاً خصياً[3] ؛ وكان ثمل الخادم هو الأميرال (القائد البحري) صاحب الانتصارات بطرسوس[4]،كما كان عند الروم الأميرال نيكيتاس Niketas الذي هزم صقلية ، فقد كان خصيا أيضاً . وفي الحرب البحرية التي وقعت بين أسطول الفاطميين وأسطول الخليفة عام ٣٠٧ هـ ــ ٩١٩ م كان الأميرالان اللذان توليا القيادة خصيَّين[5] .

ولما وقعت الفتنة في مصر أيام الحاكم بأمر الله لميله إلى المذهب الدرزي ــ مما كان سبباً في استهزاء الناس به ، وتأليفهم على لسانه أشعاراً وكتباً تـحَبِّب الناس في هذا المذهب حتى غضب وفرَّق عبيدَه السودان على المدينة يحرقونها ويسبون أهلها وينهبون أموالهم ، وتفاقم الأمر ــ كان الذي وجه نظرَ الحاكم إلى هذه الحالة المنكرة خادماً صقلبيا له : ذلك أن الحاكم بعثه لتهدئة الفتنة ، فلما شاهد فظاعةَ الأمر قتلَ بعض العبيد ، وعاد إلى الحاكم حَنِقاً مما شاهد ، وشرح له قبح النازلة ، وكان مما قال له : لو أن باسيل ملك الروم دخل مصر لما استجاز أن يفعل بها مثل هذا ؛ فنقم عليه الحاكم ، وقتله بسبب هذه الصراحة والجرأة[6] .

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٦١٠ .
(٢) كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ .
(٣) رسائل الهمذاني ص ١٩ .
(٤) كتاب العيون والحدائق ص ١٠٠ ا من الجزء الرابع .
(٥) الولاة للكندي ص ٢٧٦ .
(٦) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٠ ا ــ ب .

ولم يكن يتمتع بثقة عضد الدولة ، مع قلة ثقته وشـدة تجبُّره وقسوته على رعيته ، إلا غلام" خصي أسود يسمى شكراً ؛ فقد كان مستولياً على جميـع أموره ، ولم يكن أحـد" من أولاده يجرؤ على الدخول إليه في علته مع تطاولها . وقد استشعر ابنهُ الأكبر شرفُ الدولة أن أباه قد مات ، وأن شكراً يكتم ذلك، فهجم ودخل إلى الموضع الذي فيه أبوه ، وكان حياً ؛ فاستوحش عضد الدولة من ولده ، ونفاه إلى كرمان[1] .

وكان الوصي على الخليفة الحاكم بأمر الله في صغره خصياً أبيض يدير شؤون الدولة الفاطمية .

ولم يكن الخصيان يُمنعون إلا من الوظائف الدينية ، إلى أن كان العصر الأخير من الحروب الصليبية ، فعُيِّن أحدهم قاضياً بدمياط[2] .

وقد عُرفوا في الشرق بأن الواحد منهم لا يصلع ، ولم يُسمع قط بأن أحداً منهم كان مخنثاً ، مع أن ذلك كان ينبغي أن يكون فيهم[3] . ومن صفاتهم التي يختصون بها ولوعهم بالعبث واللعب بالطير والفخ ؛ وهم أكثر من يرتاد أسواق الطيور[4] . والخصي مـن صباه يحسن صنعة الدبوق ، ويجيد دعاء الحمام الضواري[5] . أما خصالهم القبيحة فثَبَتُها طويل جداً ؛ فمنها خُبْث العَرَق وصِنانه ؛ ونَتَنُ الرائحة ،

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ا ، وابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

(٢) الاوائل للسيوطي .

(٣) البيهقي ص ٦٠٩ ، والحيوان للجاحظ ج ١ ص ٤٩ ، ٦٢ .

(٤) البيهقي ص ٦١٠ ـ ٦١١ ، والخطط للمقريزي ج ٢ ص ٩٦ .

(٥) الحيوان ج ١ ص ٥٣ ، والمؤلف يقرأ النص هكذا : صنعة الدبور .

خلافاً لما يُخصى من الحيوان ، فإنه ينقص نتَنُه ، ويذهب صنانه[1] ؛ وطولُ العظم وعرضه ، خلافاً للحيوان ، فإنه متى خُصي دق عظمُه ، وعاد رخصاً رطباً ، بعد أن كان عَضِلا صلباً ؛ وطولُ القدم واعوجاج الأصابع ؛ ويعرض لهم سرعة التغير والتبدُّل ،والانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته والتقبض إلى الهزال ؛ وسرعةُ الرضى والغضب وحب النميمة ، وضيق الصدر ، وسرعةالدمعة كالصبيان والنساء ؛ والبول في الفراش ، وحب الشراب والإفراط فيه ، والشره عند الطعام والبخل عليه[2] ؛ وقد اتهموا خاصة بحبهم لخدمة الملوك وامتلاكهم لهم وبشدة استخفافهم بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض[3] ؛ وكان أبو الفتوح برجوان خادماً أبيض خصيا رُبّي في دار الخليفة العزيز بالله ، وولاه أمر القصور ؛ فلما حضرته الوفاةُ وصّاه على ابنه الحاكم بأمر الله ، وقام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمار الكتاني ، فدبر الأمور وبرجوان يناكده ، حتى أفسد عليه أمره بتدخله في التدبير ؛ وترقت أحواله ، حتى بلغ النهاية ، وصار هو الواسطة بين الحاكم وبين الناس . ثم قصّر عن الخدمة وتشاغل باللذات وكثر استبداده ، حتى نقم عليه الحاكم أموراً ، منها تجرؤه عليه ومعاملته له بالإذلال . ومن ذلك أنه استدعاه يوماً ، وهو راكب معه ، فصار إليه ، وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه قبالة وجه الحاكم . وكان آخر أمره أنه قتله أحد الخدم ، فضربه بسكين في عنقه ، وهو في بستان ، وأثخنه آخرون بالخناجر[4] .

(١) يقول المسعودي ص ١٤٩ إن آباطهم ليست نتنة .

(٢) انظر بقية خصالهم عند الجاحظ والبيهقي .

(٣) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ ، ٧٢ .

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣ — ٤ .

وقد ظهرت مع اتخاذ هؤلاء الخصيان عادة جديدة تستلفت النظر وهي إلباس الخادمات ثوب الخدم .

يحكي المسعودي أنه لما أفضى الأمر إلى الأمين قدّم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ، فلما رأت أم جعفر شدةَ شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعمّمت رؤوسهن ، وألبستهن الأقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إليه ، فاختلفن بين يديه، فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ؛ فاتخذ الناس الجواري المطمومات ، وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات[1] . وكانت عريب المغنية المشهورة ، وهي في سن سبع عشرة ، وصيفة للأمين الذي كان « أحسن خلق الله ، ولم يُرَ ذكر ولا أنثى مثله جمالا وحسناً » ، وهي تقول : « فكنت ألبس قباء ومنطقة ، وأقوم على رأسه ؛ وربما سقيته[2] » . ونجد في قصور الخلفاء بعد ذلك بقرن جواري يلبسن ملابس الغلمان[3] ، وكذلك امتدت هذه العادة أيضاً إلى ساقيات الشراب[4] .

ولم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأنٌ طوال العصور التي كانت السيادة فيها للروح العربية ؛ ولم يكن ثم ما يدعو الفقهاء الأولين إلى الكلام في ذلك . أما في القرن الرابع فقد اختلفت آراء الفقهاء في اللواط بالغلمان اختلافاً بيّناً ؛ فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا ، وأن يجعلوا عقابه القتل والرجم[5] ؛ وأراد آخرون أن يفرّقوا بين اللواط بالغلام

---

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٩٩ .

(٢) كتاب الديارات للشابشتي ص ٧٠ ب من مخطوط برلين .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٠٠ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٣٤ ، ٢٤٠ ؛ وحينما يتكلم هذا الشاعر (ص ٣٧٠) عن الجارية بضمير المذكر أحيانا (هو) فهو يشير إلى هذه العادة .

(٥) كتاب الخراج لقدامة مخطوط رقم ٥٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٢٩ ب .

المملوك وغير المملوك ، وقالوا إن الحدّ لا يلزم الأول بخلاف الثاني ؛ والأكثرون على أنه لا حدّ فيه ، وهو يوجب التعزير من القاضي[1] .

وفي الأخبار المأثورة بين المسلمين أن هذا اللواط أتى من المشرق مع جيوش العباسيين الذين جاءوا من خراسان[2] . على أن بلاد الأفغان كانت مشهورة بذلك في القرن الثالث أو الرابع للهجرة[3] ثم شاع واستقر في القرن الرابع .

والغزل الذي قيل في التوجّع من هوى الذكران يعادل ما قيل في النساء على الأقل ؛ أما الشعراء الذين كان تشبيبهم مقصوراً على الغلمان دون غيرهم ، وكانوا مجاهرين في الاستهتار بالغلمان ، فقد كانوا قليلين ، مثل مصعب[4] والسلامي (المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣ م)[5] . على أن الشعراء الآخرين الذين اقتصروا على التشبيب بالنساء ليسوا هم أيضاً بالكثيرين . بل نجد للشاعر أبي فراس ، مع

---

(١) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٨ .

(٢) حكى الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٨ م) في كتاب المعلمين سبب حدوث هذه الفاحشة في الخراسانيين ، وهو خروج الأجناد في البعوث مع الغلمان ؛ وذلك حين سنّ أبو مسلم الا يخرج النساء مع الجند ، خلافا لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر . فلما طال مكث الغلام مع صاحبه في الليل والنهار وعند اللباس والتستر — وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد كخد المراة وردف كردفها وساق كساقها — تولدت هذه الفاحشة . انظر حمزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس مخطوط برلين رقم ٧٥٣٢ ص ١٩٣ ب — ١٩٤ ا — وانظر Mittwoch, MSOS, 1910, S. 138.

(٣) المضاف والمنسوب للثعالبي (ZDMG, VIII, S. 56) .

(٤) كتاب الديارات ص ٨٣ ا .

(٥) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٦٣ وما بعدها .

شرفه ونبله واتزانه ، قصائد في التشبيب بالغلمان[١] • وحوالي عــام ٣٣٠ هـ كان بالبصرة نصرُ بن أحمــد الخبز أرزي الشاعر ، وكانت حرفته خبز الأرز في دكانه بمربد البصرة ؛ فكان يخبز وينشد أشعاره في الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، وكان أحداثُ البصرة يتنافسون في ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لسهولته وقرب مأخذه ومن ذلك قوله :

وددتُ أني بكفــه قــلم	أو أنني مــدة على قلمــه
يأخذني مرة ويلثمني	إن علقت منه شعرة بفمه[٢]

وكان الانهماك في الولع بالغلمان شأن العامة والخاصة ، ولكننا لم نسمع أن أحد الخلفاء استهتر بغلام •

على أنه يحكى عن الأمير بختيار البويهي أنه أُسِر له في إحدى المواقع غلام تركي ؛ فجن عليه جنوناً ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع بمثله ، « وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة » وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم[٣] • ولكن بختيار هذا كان سيىء الحكم مذموماً •

---

(١) Dvorak, S. 165 ff. (قال أبو فراس :

سكرت من لحظه لا من مدامته	ومال بالنوم عــن عيني تمايله
فما السلاف دهتني بل سوالفه	ولا الشمول ازدهتني بل شمائله
ألوَى بعزمي أصدغٌ لوين له	وغال صبري ما تحوي غلائله

ـ المترجم) •

(٢) يتيمة ج ٢ ص ١٣٣ ، ومروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ •

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٦٩ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٥ •

بل يحكى أن سيف الدولة صاحب حلب المشهور بحروبه وغزواته كان له غلام يسمى باسم مؤنث وهو « ثمل » ، وكان عزيزاً عليه[1] .

وكان من ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام الذي يُستَهتَر به أغن الصوت ، غنّاجاً ، ألثغ السين[2] .

على أنه كان على شاطيء دجلة مكان للهو فيه إلى جانب الخمار والخمر « ظبي" غرير » أو « ظبية غريرة » ، وقاصده لا يدفع لهذا كله في الليلة إلا درهمين[3] .

ويحكى عن الخليفة الحاكم بأمر الله بمصر أنه عنّ له في أثناء ركوبه بالليل رأي" سخيف ، فكان يأمر أحد رجاله بأن يأتي شيخاً خليعاً بمشهد منه ومن الجمع الحاضر ، ويضحك من هذا المنظر القبيح ويطرب له[4] .

وقد كان التولع بالغلمان سبباً في قصص غرامية شيقة ، فيُحكى عن أبي عبد الله بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣ هـ ـــ ٩٣٥ م) ، وكان عالما بالعربية واللغة والحديث ، أنه كان بينه وبين محمد بن داود الأصفهاني الفقيه صاحب المذهب المسمى باسمه مودة" أكيدة وتصافٍ تام . وكان ابن داود يهوى أبا الحسين محمد بن جامع الصيدلاني[5] هوى أفضى به إلى التلف ، فدخل عليه رجل" في مرضه الذي مات فيه ،

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٨١ .

(٢) كتاب الديارات للشابشتي ص ١٢٧ ا ، والارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٤٠ :

(وشادن قلت له : ما اسمكا ؟   فقال لي بالغنج : عبّاث
فصرت من لثغته ألثغا   فقلت : أين الكاث والطاث ـ المترجم).

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٨٣ .

(٤) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٢٧ ا ـ ب من مخطوط باريس .

(٥) كان نفطويه غير مكترث بإصلاح نفسه ، وكان يتأذى الناس بكثرة صنانه .

فقال له : يا سيدي ما بك ؟ فقال : حب من تعلم أورثني ما ترى .. ؛ ثم قال : حدثني سُوَيْد بن سعيد الحدثاني عن أبي يحيى القتّات عن مجاهد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من حب فعفّ وكتم ، ثم مات ، مات شهيدا .. ؛ ثم مات من ليلته في عام ٢٩٧ هـ ؛ فيقال إن نفطويه تفجّع عليه ، وجزع جزعاً عظيما ، ولم يجلس للناس سنة كاملة[1] .

ويحكى عن أحمد بن كليب النحوي (المتوفى عام ٤٢٦ هـ — ١٠٣٥ م) أنه كان يحضر مجلس أحد النحاة في جماعة ، وكان معهم ولدٌ لأحد القضاة يسمى أسلم ، وكان من أجمل من رأت العيون ؛ فاشتد كلَفُه بأسلم ، وصرّف فيه القول ، إلى أن فَشَت أشعارُه فيه ، وجرت على الألسنة ، وتُنوشدت في المحافل ، فلما بلغ الأمر هذا المبلغ اقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ، ولزم بيته والجلوس على بابه ؛ فكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا المرور على باب أسلم سائراً ومقبلا نهارَه كله ؛ فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهاراً ، وكان إذا صلى المغرب ، واختلط الظلامُ خرج مُسْتَتَرِوِحاً ، وجلس على باب داره ؛ فعيل صبرُ أحمد بن كليب ، فاحتال في بعض الليالي ، وتَزَيّا بزيّ أهل البادية ، وأخذ بإحدى يديه دجاجاً وبالأخرى قفصاً فيه بيض ، وتحيّن جلوس أسلم عند اختلاط الظلام ، فتقدّم إليه وقبّل يده مدّعياً أنه أحد أصحابه في الضياع التي يملكها يقدّم له هدية ؛ فأمر أسلم بأخذ ذلك منه ، ثم جعل يسأله عن الضيعة ، فلما أجابه أنكر الكلام ؛ ثم تأمله ، فعرفه ، فقال له : يا أخي ، وهنا بَلَغْتَ بنفسك ! أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطلب وعن الخروج جملة ؟ ... وأقسم ألا يقعد على باب داره ليلا ولا نهاراً : فلما يئس أحمد من رؤيته

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

ألبتّةَ نهكَتْهُ العلة وأضجعه المرض ؛ وزاره أحد أصحابه ، فوجده بأسوإ حال ، وقال له : إنّ دوائي نظرةٌ من أسلم ، فلو سعيت في أن يزورني لأعظم الله أجرَكَ ، وكان هو والله أيضاً يُؤْجَر ؛ فذهب الصاحب إلى أسلم ، وما زال به حتى وعده الزيارة بعد تأبٍّ وتأجيل ؛ حكى هذا الصاحب : « فأخذ رداءَه ونهض معي راجلا إلى منزل أحمد ابن كليب ، وكان يسكن في آخر درب طويل ، فلما توسَّط الدرب ، وقف ، واحمرَّ ، وخجل ، وقال لي : الساعةَ والله أموت ، وما أستطيع أن أنقل قدمي ، ولا أن أعرّض لهذا نفسي ، فقلت : لا تفعل بعد أن بلغت المنزل أن تنصرف ؛ قال : لا سبيل والله إلى ذلك ألبتَّةَ ، ورجع مُسرعاً فاتَّبَعتُه ، وأخذتُ بردائه فتمادى ، وتمزّق الرداء ، وبقيَتْ قطعة منه في يدي ... فرجعتُ ودخلتُ الدار على أحمد بن كليب ؛ وقد كان غلامه دخل إليه ، إذ رآنا من أول الدرب مُبشّراً ؛ فلما رآني دونه تغير لونه ، وقال : أين أبو الحسن (أسلم) ؟ ، فأخبرتُه بالقصة ، فاستحال من وقته ، واختلط ، وجعل يتكلم بكلام لا يُعقل منه أكثر من التوجُّع ... فخرجتُ عنه ، فوالله ما توسَّطتُ الدرب ، حتى سمعت الصراخ عليه ، وقد فارق الدنيا » . ثم رُؤي أسلم في يوم شديد المطر ، لا يكاد أحد يمشي في طريق ، وهو قاعد على قبر أحمد بن كليب زائراً له ، وقد تحيَّن غفلة الناس في مثل ذلك الوقت . وكان أحمد بن كليب قد أهدى إلى أسلم في أول أمره كتاب الفصيح وكتب عليه :

هذا كتاب الفصيح ... بكل لفظ مليح
وهبتُه لكَ طوعاً ... كما وهبتك روحي[1]

---

(1) كتاب المنتظم لابن الجوزي ص ١٨٩ ب – ١٩٠ ب ؛ والارشاد لياقوت ج ٢ ص ١٩ – ٢٣ .

وثم قصة أخرى حكاها أبو بكر الصنوبري الشاعر الشامي (المتوفى عام ٣٣٤ هـ ـ ٩٤٥ م) ، قال : « كان بالرُّها ورَّاق" يقال له سعد ،وكان في دكانه مجلس كل أديب ، وكان حسن الأدب ، يعمل شعراً رقيقاً ، وما كنا نفارق دكانه أنا والمعوج الشامي الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر ؛ وكان لتاجر بالرُّها ـ نصراني من كبار تجارها ـ ابن" ، اسمه عيسى ، من أحسن الناس وجهاً ، وأحلاهم قداً ، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً ؛ وكان يجلس إلينا ويكتب عنا أشعارنا ، وجميعنا يحبُّه ويميل إليه ، وهو يومئذ صبي في الكتّاب ؛ فعشقه سعد" الورَّاق عشقاً مبرِّحاً ، وعمل فيه الأشعار ... ثم شاع بعشق الغلام في الرُّها خبرُه ؛ فلما كبر وشارف الأشلاف أحب الرهبنة ، وخاطب أباه وأمه في ذلك ، وألحَّ عليهما ، حتى أجاباه ، وخرجا به إلى دير زكّي بنواحي الرقّة ، وهو في نهاية حُسنه ؛ فابتاعا له قلاَّية ، ورفعا إلى رأس الدير جملة من المال عنها ،فأقام الغلام فيها . وضاقت على سعد الورَّاق الدنيا بما رحُبت ، وأغلق دكانه ، وهجر إخوانه ، ولزم الدير مع الغلام ؛ وسعد في خلال ذلك يعمل فيه الأشعار ... ثم إن الرهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به ، ونهوه عنه ، وحرَّموه إن أدخله ، وتوعدوه بإخراجه من الدير ، إن لم يفعل ؛ فأجابهم إلى ما سألوا من ذلك . فلما رأى سعد امتناعه منه شق عليه ، وخضع للرهبان ، ورفق بهم ، فلم يجيبوه ، وقالوا : في هذا علينا إثم" وعار" ، ونخاف السلطان ؛ فكان إذا وافى الدير أغلقوا الباب في وجهه، ولم يَدَعوا الغلام يكلمه ؛ فاشتد وَجْدُه ، وزاد عشقه ، حتى صار إلى الجنون ، فخرق ثيابه ، وانصرف إلى داره ، فضرب جميع ما فيها بالنار ، ولزم صحراء الدير ، وهو عريان يهيم ، ويعمل الأشعار ويبكي ؛ قال أبو بكر الصنوبري : ثم عبرتُ يوماً أنا والمعوج من بستان ٍ بِتنا فيه ، فرأيناه جالساً في ظل الدير ، وهو

عريان ، وقد طال شَعره وتغيرت خلقته ،فسلمنا عليه ،وعذلناه وعاتبناه ، فقال : دَعَاني من هذا الوسواس ، أترَيان ذلك الطائر على هيكل ؟ وأومأ بيده إلى طائر هناك ، فقلنا : نعم ، فقال : أنا ، وحقكما يا أخويَّ! أناشده منذ الغداة أن يسقط ، فأُحَمِّله رسالةً إلى عيسى ، ثم التفت إلي وقال : يا صنوبري معك ألواحُك ؟ قلت : نعم ، قال : اكتب :

بدينـك يا حمامةَ ديـر زكّي ... وبالإنجيل عنـدك والصليب

قفـي ، وتحمّلي عني سلامـاً ... إلى قمرٍ على غصن رطيب

حمـاه جماعـة الرهبـان عنّي ... فقلبي مـا يقـرّ مـن الوجيب

وقالوا : رابنـا إلمام سعد ... ولا والله ! ما أنا بالمريب

وقولي : سعدُك المسكين يشكو ... لهيب جوى أحـر مـن اللهيب

فَصِلْهُ بنظرة لك مـن بعيـد ... إذا مـا كنت تمنـع مـن قريب

وإن أنا متّ فاكتب حول قبري ... محب مات مـن هجـر الحبيب

رقيـبٌ واحـد تنغيص عيش ... فكيف بمن له مائتا رقيب !

ثم تركَنا ،وقام يعدو إلى باب الدير ،وهو مغلق دونه ، وانصرفنا. وما زال كذلك زماناً ، ثم وُجد في بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير . وكان أمير البلد يومئذ العباس بن كيغلغ ، فلما اتصل ذلك به وبأهل الرُّها خرجوا إلى الدير ، وقالوا ما قتله غير الرهبان ، وقال لهم ابن كيغلغ : لا بد من ضرب رقبة الغلام ، وإحراقه بالنار ، ولا بد من تعزير جميع الرهبان بالسياط ، وتصعّب في ذلك فافتدى النصارى نفوسهم بمائة ألف درهم . فكان الغلام بعد ذلك إذا دخل الرُّها لزيارة أهـله صاح به الصبيان : يا قاتل سعد الورّاق ، وشدُّوا عليه بالحجارة ،

يرجمونه ؛ وزاد عليه الأمر في ذلك ، حتى امتنع من دخول المدينة ؛ ثم انتقل إلى دير سمعان ، وما أدري ما كان منه »[1] .

وكان بعض العلماء يمنعون الشبان غير الملتحين من حضور دروسهم ؛ ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية ، وكان بعض الصبيان الشديدي الإقبال على التعلم يتخذون لحىً مصطنعة ، ليتمكنوا من التسرب إلى مجالس أولئك العلماء[2] .

أما البغاء فليس هو بالشيء الذي يستعيض به العزاب عن الزواج، كما يرى المفكرون العقليون من علماء الاجتماع اليوم ، بل هو من حيث أصله ، نظام" ديني غريب في بابه[3] ، شأنه شأن نظام الخصيان . وقد انتشر البغاء في الإسلام على الرغم من أنه أباح الزواج بأكثر من واحدة ومن أن العرف كان ينكر البغاء ، بحيث كان الرجل الأعزب أو الفتاة بدون زوج ، بعد هذا كله ، يبدو أمراً شاذاً جداً ، وأيضاً على الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزاني المتزوج قاسياً ، فقضت أن يُرْجَمَ حتى يموت . على أن الشارع شدّد واحتاط في إثبات تهمة الزنا إلى حد لم يمكن معه الحكم بهذه العقوبة[4] . وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالي عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م حال البغاء في الصين وتكلم عن الزواني ؛ وهن يُثْبَتْنَ في ديوان خاص بهن يسمى ديوان الزواني ، وعليهن في

---

(١) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣ ــ ٢٦ .

(٢) Wüstenfeld AGGW, 37, Nr. 88 .

(٣) لا ادري ماذا يقصد المؤلف ، ولعله يشير إلى نظم دينية قديمة فاسدة (المترجم) .

(٤) محاضرات الادباء ج ١ ص ١٢٩ .

كل سنة ضريبة" يؤدّونها لبيت المال ، ثم قال : ونحن نحمد الله على ما طهّرنا به من هذه الفتن »[1] .

ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من مخالفة عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ ـ ٩٨٢ م) ، للشريعة أنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ، وكان يضمّن هذه الضريبة . يقول البيروني بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والراقصات ، طلباً للمال : « وهكذا كان عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية من عزّاب الجند»[2] .وقد أخذ الفاطميون بهذا النظام أيضاً ، ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش[3] .

وفي حكاية اختُرعت حوالي القرن الرابع الهجري أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية ، فامتنعت عليه ؛ فلما أسرها استولى على جميع أموالها ، وقيل إنه فرض عليها مالاً ، وألزمها إما أن تؤديه أو تختلف إلى دار القحاب ، لتكتسب ما تؤديه ؛ حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة المتوكّلين بها ، وغرّقت نفسها في دجلة[4] .

ومما اختصّت به مدينة اللاذقيّة أن المحتسب فيها كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهن ، ويتزايد الفَسَقَةُ فيهن لليلة ؛ ثم يؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً يسمى خاتم المطران ، ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها . وإن وُجد خاطيء مع

---

(١) سلسلة التواريخ طبعة Reinaud ص ٧٠ ، عن ابي زيد السيرافي ؛ قارن المسعودي (مروج الذهب) ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) كتاب الهند للبيروني ص ٢٧٩ ، والمقدسي ص ٤٤١ .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٨٩ .

(٤) انظر الكلام عن عضد الدولة في فصل الأمراء من الجزء الأول لهذا الكتاب .

خاطئة من غير خاتم المطران عوقب . على أن هذا النظام لم يذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم[1] . غير أن المقدسي يحكي لنا أنه في مدينة السوس ، قصبة خوزستان ، ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة[2] ؛ هذا على حين أن ابن حوقل يقول إنه ليس في بلدان المغرب من الفواحش الظاهرة وتعاطي الأمور المنكرة والفسق الشنيع مثل ما في المشرق[3] .

وفي عام ٣٢٣ هـ ـــ ٩٣٤ م قام الحنابلة ، وهم المسلمون المتطرفون، لمطاردة المنكر في بغداد ؛ وعظم أمرهم ، وقويت شوكتهم ، حتى صاروا يكبسون دور القواد والعامة ؛ فإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مُغنِّية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، وصاروا يعترضون في البيع والشراء ، وفي مَشْي الرجال مع النساء والصبيان ؛ فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو ، فأخبرهم ، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ، حتى أرهجوا بغداد[4] .

على أن الماوردي يقول إن المحتسب « إذا رأى وقْفَةَ رجل مع امرأة في طريق سابل ، لم يظهر منهما أمارات الريب ، لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار ، فما يجد الناس بُدّاً من هذا ؛ وإن كانت الوقفة في طريق خالٍ ، فخلوُّ المكان ريبة ، فينكرها ولا يعجّل بالتأديب عليها ، حذراً من أن تكون ذات محرم ، وليقل : إن كانت ذات محرَم فَصُنْها عن مواقف الريب ، وإن كانت أجنبية فَخَفْ الله تعالى من خلوة

---

(١) اخبار الحكماء للقفطي ص ٢٩٨ من الطبعة الاوربية .

(٢) المقدسي ص ٤٠٧ ، ٤٤١ .

(٣) ابن حوقل ص ٧٠ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ ـــ ٢٣٠ .

تؤدّيك إلى معصية الله تعالى »[1] .

على أن العادة المستحسنة في نظر الشرع هي أن يَقِرّ النساء في بيوتهن ، ولا تـُحمَد لهن كثرة الخروج . وقد عنّ للحاكم بأمر الله في مصر أن يَغلوَ في مراعاة آداب الشريعة ، فمنع النساء من المشي في الطرقات ، ومنع الأساكفة من عمل خفاف لهن ؛ وإذا دعت الضرورة إلى حضور غاسلة أو قابلة استؤذن في ذلك برُقعة تـُرفع إليه ، فيوقّع عليها إلى متولي الشرطة ليسمح بذلك[2] . وبعد أن كانت عادة استقرار النساء في البيوت أدباً شرعياً صارت عادة بين الأشراف والكبراء ، حتى في أسبانيا ، « وبتأثير الأسبان كانت لا تـُرى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي[3] » .

حكى صاحب العقد الفريد أن « أحق الناس بثلاث لطمات من دُعي إلى طعام ، فقال لصاحب المنزل : ادْعُ ربّة البيت تأكل معنا »[4] . وكان يَحُلُّ محلَّ ربّة البيت على موائد الدعوات ضربٌ من الحظايا ، كما كان الحال عند اليونان القدماء ؛ وكُنَّ نساءً متثقفات لأرقى الآداب الاجتماعية مدرّبات عليها ، حائزاتٍ كل مظاهر الجمال والثقافة والفن ، قديرات على أن يتحدثن مع الرجال حديثاً حرّاً من غير وجل . ويُخيَّلُ للإنسان أن هذا الفصل بين الأسرة والأجانب عنها كان فيـــه

---

(١) الاحكام السلطانية طبعة إنجر Enger ص ٤١٨ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٢٤ ا ؛ والخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٨٩ ؛ وملحق اخبار القضاة والولاة للكندي ص ٦٠٦ . ويقول فستنفلد Wustenfeld, Statthalter Aegyptens, II, S. 58.) إن هذا المنع حدث في مصر عام ٢٥٣ هـ – ٨٦٧ م ؛ وقد حكى الكندي ذلك على صورة أخرى (الولاة للكندي ص ٢١٠) ؛ وقد توفي الكندي عام ٣٥٠ هـ – ٩٦١ م .

(٣) Stendhal Promenades, II. S. 358.

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٢٨٥ من طبعة مصرية .

راحة للبيت وللجماعة . وكان أغلب أولئك النساء جواري مملوكات ، ولكن كان منهن من تعمل بأجر ، ومعظم هؤلاء مُعْتَقَات ؛ ومما يذكر أن مغنية مشهورة كانت تشتغل في النهار بدينارين وفي الليل بدينار[1] . ويحكى أن غلاما وقع في هوى جارية مغنية ، فأخذ في استعطافها بالمراسلات والمكاتبات ، والجارية بغدادية لا تعرف إلا الدنيا والدينار ؛ وجعل يصف في رقاعه عشقَه وسهرَه في الليالي وتقلّبَه على حرّ المقالي وامتناعَه من الطعام والشراب، وما يشاكل هذا من الهذيان الفارغ الذي لا طائل فيه ؛ فلما أعياه أمرُها ويَئِس من تعطّفِها عليه ، كتب إليها في رقعة : وإذ قد مَنَعْتِني زيارتك واستزارتك ، فَمُري بالله خيالك أن يطرقني ويبرّد حرارة قلبي ؛ أرشديني إلى خيالك ، حتى أتقاضاه موعداً لي عليه ، فقالت لرسولته : قولي لهذا الرقيع : يا مُدْبِر ! أنا أعمل بك ما هو خير لك من أن يطرقك خيالي ؛ احمِل دينارين في قرطاس ، حتى أجيئك بنفسي[2] .

على أنه في هذه الناحية كان عرف البلاد ظاهراً إلى جانب النظريات الشرعية ؛ وقد لاحظ العرب تلك الحرية الكبيرة التي تركها رجال القبط لنسائهم ، وعلل بعضهم ذلك بأنه لما غرق فرعونُ وقومُه لم يبق من الرجال إلا العبيد والأجَراء ؛ ولم يصبر النساء على الرجال ، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوّجه ، وتتزوج الأخرى أَجيرها ، وشَرَطْنَ على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ، فأجابوهن إلى ذلك ، فكان أمر النساء ينفذ على الرجال . قال يزيد ابن أبي حبيب إن نساء القبط على ذلك إلى اليوم ، اتباعاً لمن مضى منهم ، لا يبيع أحد منهم ولا يشتري إلا

(١) الاغاني ج ١٩ ص ١٣٦ .

(٢) حكاية ابي القاسم طبعة متز ص ٧٣ .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣٩ .

قال أستأمر زوجتي[٣] . وقد احتفظ النساء بمصر بعد الإسلام بشيء من ذلك ، فيقول المقدسي إن النساء بمصر لا يتورّعن عن الفجور ، وللمرأة زوجان[١] ؛ وهو يقول عن أهل شيراز : « وحُدِّثْتُ عن نسائهم بشيء قبيح » ، ويحكي أن نساء هراة « يغتلمن إذا ازدهرت أشجار الغبيراء كما تغتلم السنانير »[٢] .

ويظهر أنه في تلك العصور ظهر صوت" يطالب للنساء بالحق في المهامّ الكبيرة حوالي عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م ؛ لأن ابن بسام الشاعر يقول[٣] :

ما للنســاء وللكتــا ... بة والعِمالة والخطــابه
هــذا لنــا ، ولهنّ منّــا ... أن يَبِتْنَ على جنــابه

وكان من النساء عالمات بالدين ، يُقبل الناس على دروسهن مثل ستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبيّ المحاملي ؛ وكان ابنها أيضاً قاضياً ، وتُكنى أم الواحد ، كانت فاضلة عالمة ، ومن أحفظ الناس للفقه على مذهب الشافعي ، وكانت تفتي مع العلماء ؛ وحَدّثَتْ وكُتب عنها الحديث ، وتوفيت عام ٣٧٧ هـ ؛ ومثل أم الفتح بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التي توفيت عام ٣٩٠ هـ ، وأخذ عنها كثير من العلماء ؛ وكانت موصوفة بالديانة والعقل والفضل[٤] .

---

(١) المقدسي ص ٢٠٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٧ ، ٤٣٦ .
(٣) صبح الأعشى للقلقشندي ص ٦٤ من الجزء الأول طبعة القاهرة عام ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م .
(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ١٢٦ ا ، ١٤٦ ا . وقد اشتهرت بين النساء بعلم الحديث كريمة بنت أحمد المروزي بمكة وقد قرأ عليها الخطيبُ البغدادي صحيح البخاري في خمسة أيام (الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧) .

ومن الفقهاء من جوّز للمرأة أن تتولى القضاء ، فتقضي فيما تصح شهادتها فيه ، وهو أبو حنيفة ؛ وجوّز ابن جرير الطبري قضاءها في جميع الأحكام[1] .

وتدل جميع الأخبار والحكايات على أن أهل الطبقة الوسطى كانوا يكتفون بزوجة واحدة ؛ ففي مقامة من مقامات الهمذاني مثلا أن أحد التجار يدعو رجلا إلى وليمة ، ويصف له نشاط زوجته ، فيقول : « يا مولاي ؟ لو رأيتها ، والخرقة في وسطها ، وهي تدور من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيدها الأبزار ؛ ولو رأيت الدخان ، وقد غبر في ذلك الوجه الجميل ، وأثّر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ؛ وأنا أعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من خليلته ، وأن يسعد بظعينته »[2] .

ويحكى عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أنه خاطب جماعة من شيوخ كتامة قائلا لهم : « وأقبلوا بعد الأعمال على نسائكم ، والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثّر منهن والرغبة فيهن ، فيتنغّص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ؛ فحسب الرجل الواحد الواحدة »[3] . وكذلك يستحسن أبو العلاء ألا يشرك الإنسان مع المرأة سواها ويقول[4] :

متى تشرك مع المرأة سواها   فقد أخطأت في الرأي للتريك

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) مقامات الهمذاني ص ١٠٣ من طبعة بيروت .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣٥٢ .

(٤) Kremer. ZDMG, 38, S. 509.

فلو يُرجى ! مع الشركاء خيرٌ   لما كان الإله بلا شريك

أما الكبراء فلم يكن عندهم تعدُّدُ الزوجات إلا من طريق اتخاذ الجواري للاستمتاع بهن ؛ وخلفاء القرن الرابع كلهم أُمهاتُهم جوارٍ صقلبيات ، ولذلك فإنهم لم يكونوا يتزوجون غير المملوكات إلا نادراً ؛ ونظراً لغلبة المملوكات على الخلفاء سميت زوجة أحدهم بالحرّة[1] .

وقد بين الجاحظ العلة التي من أجلها صار أكثرُ الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المُهَيَرات بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء فيها وعرفه ، ما خلا حظوة الخلوة ؛ فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها في نفسه ؛ أما الحرة فإنما يُستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا و لاكثيراً ؛ والرجال بالنساء أبصر ؛ وإنما تعرف المرأةُ من المرأة ظاهر الصفة ، فأما الخصائص التي تقع من نفوس الرجال فلا تعرفها[2] .

أما زواج الأرامل فقد أجازته الشريعة ؛ ولكن العرف كان يسخطه سخطاً شديداً ، ويحكى أنه في عهد الخليفة المعتصم في أوائل القرن الثالث الهجري ،امتحن رجلٌ كاتباً ، فسأله عن صديق تزوجت أُمُّه هل تكتب إليه تهنئة أم تعزية ؟ فقال : هو إلى التعزية أقرب ؛ فقيل له كيف تعزيه ؟ فقال : لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وأخيراً قال : يُكتب له : « إن الأقدار تجري بخلاف محابِّ المخلوقين ، وسِترٌ في عافية خير من شماتة في أهلها ؛ والله يختار للعباد ، فخار لك الله في قبضها إليه ، فإن القبور أكرم الأكفاء ! »[3] . وكذلك كتب الخوارزمي (المتوفى عام

(١) المنتظم ص ١٢١ ا .

(٢) كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطاني بلندن ص ٦١ ا .

(٣) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٤٩ ؛ وجمهرة الاسلام للشيزري مخطوط ليدن رقم ٢٧٧ ص ٢٠٠ ب .

٣٩٣ هـ ــ ١٠٠٣ م) إلى ابن مسكويه المؤرخ ، بعد أن تزوجت أمّه :
« قد كنتُ أسأل الله أن يبارك لك في حياتها ، والآن أسأله أن يعجّل بوفاتها ؛ فإن القبر أكرم صهر ، وإن الموت أستر ستر ، ولا تذهب نفسك حسراتٍ على ما سبقك عليه الدهر ••• والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها ، ووقوع الجفاء من جنبتها ؛ فإنك بَرَرْتَها صغيراً ، وبلغت مرادها كبيراً ، فاجتمع لك بِرّان ، ووقع لك على الله أجران[1] » •

وكان ميلاد البنت على العموم مناسبة للتهنئة الحقيقية ، وقد كتب الشريف الرضي إلى أخيه مهنئاً بمولودة :

الآن جاءت خيول السعد راكضة	تجري بيوم مضيء الوجه مجدود
بمولد صقل الآباء حليته	فطوّق المجدُ أعناق المواليد
مولودةٌ تهب الراءون بهجتَها	لثما،وعانَقتَها في ثوب محسود[2]

على أن الخوارزمي كتب معزّياً لرجل عن فقد ابنته ؛ وهو يختم كتابه داعياً لأبيها أن يعوضه الله عنها « أخاً سويّ الخلق والخلق شريف الفعل والعرق[3] » •

ولم يكن انفصال النساء عن الرجال في الحياة الاجتماعية هو وحده السبب فيما يُلاحظ في كلام أمم الجنوب من فحش تنفر منه ؛ فإننا لو قارنا قِصصَ العرب في عصرهم الأول ونوادرهم وكلامهم وشعرهم بما في القرنين الثالث والرابع للهجرة لأدهشنا ما نجده في هذين القرنين من ميل شديد إلى الإفحاش في القول • وليس هذا أيضاً ــ شأنه شأن غيره ــ إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل

(١) رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ص ١٧٣ •
(٢) ديوان الشريف الرضي ج ١ ص ٢٤٥ •
(٣) رسائل الخوارزمي ص ٦١ •

الإسلام ، سيطرة عادت لها من جديد ؛ ولا يزال البدوي إلى اليوم أعف وأطهر من غيره[1] . وقد تسيطرت على شعر الهجاء بنوع خاص الألفاظ البذيئة المستمدة من المجون المتصل بالمسائل الجنسية ؛ ولو نظرنا إلى الأشعار القديمة التي جمعها أبو تمام في ديوان الحماسة وقارناها بشعر البحتري ــ الذي كان يعتبر من أتباع طريقة القدماء ــ لوجدناها أشد عفة وطهارة . أما ابن المعتز ، وهو الأمير العباسي الشاعر ، (المتوفى عام ٢٦٩ هـ ــ ٩٠٩ م) فإنه أجاب على حبيب له في ظهر كتابه ، وهو يبين سبب ذلك فيقول :

وأجبت في ظهـر الكتاب إذا أتى ليلوط خطي في الكتاب بخطه[2]

وفي القرن التالي زاد الفحش ، حتى يحكى عن الوزير سليمان بن الحسن حوالي عام ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م أنه أظهر « مـن سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجل الوزراء عنه ؛ فاستنقصه الخلق ، وهجاه الشعراء ، واستعظموا الوزارة لمثله[3] » . ولكن في أواخر هذا القرن نجد ابن عبـاد الوزير الجليل المشهور بالصاحب يستعمل في شعره أفحش الأوصاف[4] ؛ وهو يبيّن رأيه في أحد شعراء أهل عصره في ثوب من الفحش[5] ، ولما ورد بغدادَ قصد دار الوزير المهلبي ، فلم يستطع استقباله لوقته بسبب شغل كان

---

(١) Landberg, Proverbes arabes, XVI. ، وانظر الفصل الخاص بالأدب في الجزء الأول من هذا الكتاب (عند الكلام عن الشعراء الماجنين) .

(٢) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٨٧ .

(٣) عريب بن سعيد القرطبي ص ١٦١ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٢ وما يليها .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١٢٩ ــ ١٣٠ ، حيث يقول ابن عباد في أبي سعيد الرستمي مداعبـا :

أبـو سعيـد فتـى ظـريف يبذل في الظرف فوق وسعه

ينيـك بالشعـر كـل ظبـي فإيـره في عيـال طبعـه

فيه ، فلما طال انتظار الصاحب كتب لأبي إسحق الصابي رقعة فيها :

وأُترك محجوبا على الباب كالخصي ويدخل غيري كالأيور ويخرج[1]

بل نجد أن الصابي هذا ، مع أنه مفخرة النثر العربي ، إذا هجا أتى بألفاظ فاحشة مقذعة من ألفاظ المقاذر والمجون[2] . ونستطيع أن نصور لأنفسنا بعد هذا كيف يكون السخف والفحش في كلام المجان الحقيقيين كابن الحجاج .

ويحكي أحد الشعراء كيف كان يغوي الصبيان في الجامع الكبير بالبصرة ، وهو يبين كيف يمكن أن يستغوي من كان منهم مستعصياً فيقول[3] :

ألا يا جامع البصرة لا خرَّبك الله
وسقى صحنَك الغيثُ من المزن فرواه
فكم من عاشق فيك يرى ما يتمناه
وكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلم له فيك فصدناه
. . . .
وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه
فما زالت يد الأيام حتى لان متناه
. . . .

(1) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٣٨ .
(2) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٣ – ٦٥ .
(3) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٠ ؛ والارشاد ج ٦ ص ٣١٧ – ٣١٨ .

ولـو كـان مـن البعـض بريا[1] حين تلقـاه
فرح بالدرهم الضرب إليـه يتلقـاه
فبـالدرهم يستنزل مـا بالجو مـأواه
وبالدرهـم يستخرج ما في القفـر مثواه

ويقول الهمذاني هاجياً :

لو كانت النيراتُ أَخمصكمـا أو كنت ممـن يسايـر الفلكـا
مـا كنت إلا مؤاجـراً حَلِقـاً إذا رأى وجـه دانـق بركـا[2]

وهذا ينطبق على كثيرين من معاصريه .

ثم عادت إلى الظهور الأوضاع القديمة لعالم قديم ، وأصبحت فيها للمال قوة عظيمة ، حتى سحقت طاحونته الكبيرة كل قيمة أخرى ؛ وكل شيء صار يعرض من أجـل المال ، وبلغت وصمةُ حب المـال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة .

ويحكى أنه في عام ٣٢١ هـ ــ ٩٣٣ م أمر الخليفة القاهر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة ، وأمر ببيع الجواري المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ؛ ثم وضع من يشتري له كل حاذقة في صنعة الغناء ، فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان . وكان القاهر مولعـاً بالغناء والسماع ، فجعل ذلك طريقاً إلى تحصيل غرضه رخيصاً[3] .

---

(١) لهذا البيت قراءة أخرى عند ياقوت .

(٢) ديوان الهمذاني مخطوط باريس رقم ٢١٤٧ ص ٥٩ ا وطبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ ــ ١٩٠٣ م ص ٦٥ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٤ .

وكذلك يحكى عن أمير مصر في ذلك العهد حكايات طريفة ، فقد كان يأخذ أشياء الناس أخذ طماع لا يستحي ؛ حكى مزاحم بن رائق قال : استعمل لي فَرْو" ؛ قام عليّ بستمائة درهم ؛ فمن حسنه وفرحي به لبسته بدمشق ، وركبت إلى الأخشيد ؛ فلما رآه قلبه واستحسنه وقال : ما رأيت مثله قط ؛ فلم تسمح نفسي بأن أنزعه للوقت ، فلما انصرفت اعترضني فاتك ، وقال لي : اجلس فإن الأخشيد يريد أن يخلع عليك . وجاءوا برزمة ثياب ، وقالوا : اخلع الفرو ! وطووه ،ومضوا به؛ وبقيت جالساً . ثم قالوا : قد نام ، تعود إليه العشيّة ، فانصرفت إلى داري ، وقلت : هاتوا الفروَ ، فقالوا : أيما فرو ؟ ما جاءنا شيء . فلما كان عشية دخلت على الأخشيد ، فإذا الفرو عليه ، فلما رآني ضحك ، وقال : كيفَ رأيتَ، ما أصفق وجهك! ولكنك ابنُ أبيك ؛ وكم عرّضت لك ، وأنت لا تستحي ؛ فلم تفعل ، حتى أخذناه بلا شكر ولا منّة[1] .

ويحكى أن محمد بن علي المادرائي نزّه الأخشيد في بستانه ببني وائل ، وفرش له ، وأكثر من الطعام والفواكه والطيب والفرش ، وقام بجميع العسكر ؛ فأكل ، ثم نام فلما استيقظ فُرش له عند البركة ، ونُصبت بين يديه التماثيل من الذهب والفضة والكافور والعنبر ، وجمع بين يديه المغنون من الرجال والنساء ، فطابت بذلك نفسه ، ثم جُعل بين يديه صينيتان من الفضة ، إحداهما مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم للنثار ؛ فأخذ صينية الدنانير وجعلها خلفه ، ونثر الدراهم ؛ فلما انصرف حمل جميع ما كان جالساً عليه وما كان بين يديه وما شرب

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٤ .

وما أكل فيه ، فأرسل خلفه ، وحمل على فرسين بسرج ولجام من ذهب[1] .

وقد نشأ عن قلة شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه قلة تقديره لكرامة الغير ؛ وفي سنة ٢٦٨ هـ ــ ٨٨٤ م خالف العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وخرج عليه ، وهو بالشام ، وسار إلى برقة ؛ فسيَّر إليه أبوه جيشاً هزمه ،وقبض عليه وعلى من كان معه ؛ وأراد أن يعاقبهم، فنصب دكة عظيمة رفيعة السمك ، وجلس في علو يوازيها ، وشرع من ذلك العلو إليها طريقا ، ووقف العباس بين يدي أبيه في خفتان ملحم وعمامة وخف ، وبيده سيف مشهور ، وكان أعوان العباس في الثورة ومن حسّن له الخروج على أبيه جالسين على الدكة ، فكان الواحد منهم يُضرب بالسوط ، ثم يُؤمر العباس بأن يقطع يديه ورجليه من خلاف ، ثم يلقى من الدكة إلى الأرض[2] .

ولما خُلع الوزير حامد بن العباس لم يزل ابن الفرات ــ وهو الذي خلفه على الوزارة ــ بالخليفة حتى سلّمه إليه ، فكان يُصفع ويُضرب . وكان المحسّن ، ابن الوزير الجديد ، يُخرجه إذا شرب ، « فيُلبسه جلد قرد ، له ذنب ، ويقيم من يُرقّصه ويصفعه ، ويشرب على ذلك ؛ وأجرى على حامد أفاعيل قبيحة ليست من أفاعيل الناس ، ولا يستجيزها ذو دين ولا عقل[3] » .

على أنه تروى عن النبي عليه السلام حكاية تصور لنا مقدار شعور العربي بكرامته ؛ حكى ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه

(١) نفس المصدر ص ٢٩ .
(٢) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٤١٥ ــ ٤١٦ ؛ والكندي ص ٢٢٤ .
(٣) عريب ص ١١٢ .

وسلم عدّل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قِدْح يعدّل به القوم؛ فمرّ بسواد بن غزيّة ، حليف ابن عديّ بن النجام ، وهو مُسْتَنْتِل « مستنصل » من الصفّ ، فطَعن في بطنه بالقدح ، وقال : استَوِ يا سواد ! فقال : يا رسول الله أوجعتني ! وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقِدني ! قال : فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه ، فقال: استَقِدْ ، فاعتنقه سواد ، وقبّل بطنه[1] . هذا مثال لشعور العربي الأول بكرامته ؛ أما في القرن الرابع فقد كانت العقوبة البدنية لا تكاد تعتبر مزرية بالكرامة . ويحكى عن الأمير معز الدولة أنه في سنة ٣٤١ هـ ضرب وزيره أبا محمد المهلبي بالمقارع مائة وخمسين مقرعة ، يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب ، حتى يوبّخه ويبكّته ، ثم يعيد عليه الضرب ؛ ولكن هذا الوزير قَبِل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع إلى الوزارة[2] ، ولم يجد الأمير ذلك بعجيب . وقد تولى الوزارة بمصر في القرن الخامس رجل كانت يداه قد قطعتا بسبب الخيانة[3] . وبلغ الحال إلى ما يشبه ما عند الزنوج ، حيث لا يتولى أحدٌ قيادة القوافل إلا بعد أن تُمْتَحَنَ مقدرته على احتمال الضرب بالسياط[4] .

وكان الثوار الذين يُؤسَرون ، وسلاحهمُ في أيديهم ، يعاملون بحسب جُرمهم وعلى قدر ما أثاروه من سخط ورُعب . وكان الأسرى الأجانب يُعاملون بغير معاملة الخوارج من أهل البلاد . ويحكى أن الأعراب الذين سبقوا الحجاج إلى مواضع الماء ، فنزحوها وألقوا فيها الحنظل ، حتى بلغ العطش من الحجاج مبلغاً كبيراً ، وهلك منهم خمسة

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٤٤٤ من طبعة جوتنجن سنة ١٨٥٨ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .

(٣) Becker Beiträge zur Gesch. Aegyptens 1, 34 عن المسبحي (المتوفى عام ٤٢٠ هـ) .

(٤) . Vierkandt, Naturvölker, S. 264.

عشر ألفاً ، عوقبوا بأن أُشهروا وحُبسوا ؛ وأُجيع منهم جماعة ، وأُطعموا المالح ، ثم تُركوا على دجلة ، حتى ماتوا عطشاً وحسرة ، وهم يشاهدون الماء[1] .

وفي عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قُبض على ابن أبي الفوارس القرمطي ، فقُلعت أضراسه أولا ، ثم خُلع بمدّ إحدى يديه ببكرة وتعليق صخرة في الأخرى ، وتُرك على هذه الحالة من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قُطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم ، وضُربت عنقه ، وصُلب[2] .

وفي عام ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م قبض على « صاحب الشامة » ، وهو أحد قواد القرامطة القُساة ، وكان يذبح المسلمين كما تُذبح الأنعام ؛ وأُدخل هو وأصحابه بغداد . وقد عزم الخليفة على أن يُشْهره ، حتى يراه الناس جميعاً ؛ فأمر أن يُصلب على دقل ، والدقل على ظهر فيل ، وأمر بهدم طاقات الأبواب التي يجتاز بها الفيل ، ثم استسمج ذلك فأمر بعمل كرسيّ ، وركبه على ظهر الفيل في ارتفاع ذراعين ونصف ، واقعد فيه القرمطي ، وسار بين يديه الأسرى مقيدين على جمال ، وعليهم دراريع وبرانس من حرير ؛ وكان بينهم المطوق أحد أصحاب القرمطي ، وهو غلام لم تنبت لحيته ، وقد جُعلت في فمه خشبة مخروطة ، وأُلجم بها فمه ؛ ثم شدّت إلى قفاه كاللجام ؛ وذلك أنه لما دخل الرقّة كان يشتم الناس إذا دعوا عليه ، ويبزق في وجوههم ، فجعل ذلك في فمه ، لئلا يتكلم . ثم أمر المكتفي ببناء دكة ارتفاعها عشرة أذرع لقتل القرامطة . وذُكر عن « صاحب الشامة » أنه أخذ ، وهو في حبس المكتفي ، سكرجة من المائدة التي كانت تدخل عليه ، فكسرها ، وقطع

---

(١) المنتظم ص ١٥٩ ١ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢٠٦ .

بشظية منها عروقه ، فسال منه دم كثير ، فتُرك أياماً بعد أن شُدّت يده إلى أن رجعت إليه قوته ؛ ثم قُدّم قوادُ القرامطة ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضُربت أعناقهم واحداً بعد واحد ، وكانت تُرمى جثثهم وأعضاؤهم من أعلى الدكة إلى الأرض ، ثم قُدِّم « صاحب الشامة » فقطعت يداه ورجلاه ، وأُضرمت نار عظيمة وأُدخل فيها خشب صليب، وكانت توضع الخشبة الموقدة في خواصره وبطنه ، وهو يفتح عينيه ويغمضهما ، حتى خُشي عليه أن يموت ؛ فضربت عنقه ، ورُفع رأسه في خشبة ، وكبَّر من كان على الدكة ، وكبر سائر الناس في أسفلها ، ثم ضُربت أعناق الأسرى ، فلما كان الغد حُملت الرءوس إلى الجسر ، وصلب بدنُ القرمطي على الجسر الأعلى ببغداد[1] .

وبعد ذلك بقرن أي في عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٧ م قبض الخليفةُ الحاكم بأمر الله على أبي ركوة ؛ وهو ثائر خرج على الحاكم ، واستفحل أمره ، حتى استولى على برقة وغيرها ، وكسر عسكر الحاكم وزعزع دولته ؛ فأُركب جملا بسنامين وأُلبس طرطوراً ، جُعِلَ خَلْفَه قِردٌ يصفعه ، معلماً بذلك ، والعساكر حوله ... ، وأمر به الحاكم أن يخرج إلى ظاهر القاهرة ، وتضرب عنقه ... فلما حمل إلى هناك أُنزل فإذا به ميت »[2] .

وقد حكى المؤرخ النصراني يحيى بن سعيد الذي كان يعيش بمصر في ذلك العهد ، بدلا من هذه القصة الطريفة ، أن أبا ركوة أحضر إلى مصر أسيراً ، فأُشهر بها ؛ ثم قُتل في موضع يعرف بمسجد تبْر ، وصلب فيه ، وأحرق بالنار[3] .

---

(١) عريب ص ٢ — ٥ .
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٤ ، وابن تغري بردى طبعة (W. Popper) ص ٩٨ — ١٠٠ .
(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٧ ب .

هذه هي ، كما في الأخبار ، أقسى وأفظع العقوبات الرادعة التي كانت الحكومة تعاقب بها أشدَّ الثوار غلظة وأكبرهم أذى ، وهم الذين كانوا يحملون أوزاراً من سفك دماء الآلاف من الأبرياء . وإذا عرفنا أن قطع اليد والرجل عقوبة" قضت بها الشريعة الإسلامية من قبل ، ولا تزال إلى اليوم تستعمل مع الثوار في مراكش ، ثم نظرنا بعد هذا في قائمة العقوبات المروّعة التي كانت في متناول الحكام في مثل هذه الأحوال في أواخر العصور الوسطى الأوروبية ، لوجدنا ، مع شيء من الراحة ، أن القاهرة وبغداد لم تبلغا مبلغ أوروبا من حيث قسوة الحاكم المتسلّط وغلظته بمن يقع في يده .

وكان الثوار الذين يؤخذون في الأسر بين المسلمين يُشَنهرون عادة في المدن على بغـال[1] أو أفيال[2] أو على جمـل ذي سنامين ، وهو الأحب[3] .وكان الخوارج يُلْبَسون على أشكال متنوعة ؛ فأحياناً يُلبسون ثياباً خشنة ، كما حدث للحسين بن حمدان وابنه ، حينما عاد بهما مؤنس إلى بغداد ؛ فقد أُلبسا برانس طوالا من اللبود ، وقمصاناً من الشعر الأحمر[4] ؛ وأحياناً أخرى يُلْبسون درّاعة ديباج وبرنس خزّ طويل[5] أو برنساً طويلا بشفاشج وجلاجل[6] ، أو برنساً بأذناب

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ب .

(٢) نفس المصدر ص ٩٤ ا؛ وابن الاثير ج ٨ ص ٤٩ (أ)، ومروج الذهب ج ٨ ص ١٦٩ .

(٣) عريب ص ٧٧ ، ٥٧ والمروج ، ج ٨ ص ١٦٩ ، ١٩٨ .

(٤) زبدة الفكرة مخطوط باريس ص ١٧٩ ب .

(٤) كما فُعِل بالقرمطي الخارج (مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٦٩) ؛ وبوصيف الخادم (المروج ، ج ٨ ص ١٩٨) ، والحسين بن حمدان (عريب ص ٥٧) ، ويوسف بن أبي الساج . (عريب ص ٧٧) .

(٦) عريب ص ٧٧ .

الثعالب[1] ، أو برنساً طويلا ملوناً كما يلبس النساء[2] .

وفي القرن الرابع كان يجمع بين الإشهار والصلب ، فكان الثائر يُشْهر على جمل عليه نِقْنِق وهو مصلوب[3] . ولما أُشهر الحسين بن حمدان ببغداد عام ٣٠٣ هـ ـ ٩١٥ م صُيِّر مصلوباً على نِقْنِق ، وتحته كرسي فوق جمل ، ويدير النِقْنِقَ رجل" ، فيدور الحسينُ من موقفه يميناً وشمالا ، وعليه دراعة ديباج سابغة ، قد غطت الرجل الذي يدير النقنق حتى لا يراه أحد من الناس[4] .

ولما ضعفت سلطة الخليفة وصار يشق عصا الطاعة عليه أمراء الأقاليم كان إذا هزمهم لم يُعتبروا خارجين ، بل محاربين في دار الإسلام ، فأصبحت هذه العقوبات لا تستعمل مع الأسرى المحاربين . ففي عام ٣٠٧ هـ ـ ٩١٩ م هُزم يوسف بن أبي الساج ، وكان قد خرج على الخليفة وأسس لنفسه مملكة في شمال غربي إيران ؛ فلما أُدخل بغداد ، وأُلبس برنساً طويلا بشفاشج وجلاجل وحمل على الفالج ، ساءَ الناسَ ذلك ، لأنه لم تكن له فعلة ذميمة في كل من أسره أو ظفر به[5] . ولما خرج ياقوتُ لمحاربة عماد الدولة بن بويه أخذ معه برانس لبود ، وعليها أذناب الثعالب ، وقيوداً وأغلالا ، وذلك ليجعلها على ابن بويه وأصحابه ، ويشهرهم بها في البلاد ؛ ولكن ياقوتاً هُزم ، ووُجد ذلك معه ، فأشار أصحابُ ابن بويه عليه أن يفعل بياقوت وأصحابه مثلَ ذلك ، فامتنع ، وقال إنه بَغْي" ولؤم ظفر ، ولقد لقي ياقوت بَغْيَه ؛ ثم أحسن ابن بويه إلى الأسارى[6] .

---

(١) زبدة الفكرة ص ١٨٢ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٥٠١ (؟) .
(٣) مسكويه ج ٦ ص ١٧ .
(٤) عريب ص ٥٧ .
(٥) نفس المصدر ص ٧٧ .
(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

وأما القسوة وإلحاق الأذى مـن جانب القاضي الذي يحقق في مسألة ــ ولهذه القسوة في تاريخنا صحائف طويلة مملوءة بالفظائع ــ فقد منعتها الشريعة الإسلامية ، وذلك بأن اعتبرت الإقرار الذي يُكرَه عليه الإنسان بالأذى والتعذيب أو بمجرد صياح القاضي به ، إقراراً باطلا غير قانوني • أمـا صاحب الحرس فكان له أن يسأل مـن يحقق أمره ويؤذيه « ويضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرّة على ظهره وقفاه ورأسه وأسفل من رجليه وكعابه وعضله »[1] • وكانت المقرعة تعتبر أقل إيذاءً من السوط[2] •

وثَمّ ضروبٌ أخرى من التعذيب كان لا يأتيها إلا الذين يتولون مسائل الإدارة والخراج ، ليكرهوا الناس على إخراج المال • وكـان التعذيب الذي اختصوا به أن يعلقوا من يُبتَلى بهم من يده أو رجله ، ويتركوه معلقاً حتى تنحل قوّته[3] • وأقسى عقوبة عند القاضي المسلم هي الرجم للشخص المُحصَن ، إذا زنى ؛ وهي عقوبة كأنها لم تُفرض، لأن الشريعة تُحتِّم في الإثبات شروطا يكاد توفرها يكون مستحيلا • وكذلك جعلت الشريعة عقوبةَ مـن أخذ وقطـع الطريق وحارب أن تُقطَع يده ورجله ، فإن قَتَل قُتِل[4] • وعقاب السارق قطعُ اليد• ولما كان الاعتقاد أن الروح تعود للاتصال بالبدن بعد الموت فإن إشهار بدن المعاقب كان يُعتبر ضرباً من تشديد العقوبة ، فكان يُصلب في كثير من الأحيان مع مد الذراعين ، وكان يُحرس بالليل وتوقد

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٥٤ •

(٢) كتاب الوزراء ص ١٠٢ •

(٣) انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وراجع كتاب الوزراء ص ٣٨١ ، وعريب ص ١٨٤ •

(٤) كتاب الخراج لابي يوسف ص ١٠٨ •

أمامه النيران[1] . ولم يحدث قط في ذلك العصر أن صُلب أحدٌ ، وهو حي إلى أن مات ؛ ويحكى في بعض الكتب أن الحلاج ، الذي قُتل عام ٣٠٩ هـ ــ ٩٢١ م لانتحاله مذهباً اعتبره البعض خروجاً عن الدين، صلب حيا إلى أن مات[2] . ولكن الصحيح هو أنــه عُلّق وأُشهر في أول دعوته ، ثم اعتقل ؛ ولكن ذلك وقع قبل قتله بثمان سنين ، حين ضرب بالسياط حتى مات .

وقد ذكر ابن المعتز[3] من الفظائع المنكرة التي فعلها السودان في القتل ببغداد « الصلب قبل الموت » . وكانت أشد عقوبة هي إحراق الجثة ، وهذه الدرجة العليا في إتلاف المعاقَب إنما ظهرتْ ، لأنه لا تدفع بعد ذلك للمحروق دِية[4] .

وفي سنة ٣١٢ هـ ــ ٩٢٤ م قُبض على أعجمي وُجــد في دار الخلافة ؛ وظُنّ به أنه كان يريد أن يفتك بالمقتدر ، «فضُرب وعُنّف»، فلم يُقِرّ بخبره ، وعوقب حتى تلف ، ثم صُلب ، ولُفّ عليه حبل من قنّب ومشاقة ، ولُطّخ بالنفط ، وضرب بالنار »[5] .

---

(١) وقع هذا لابن بقيّة الوزير لما قتل وصلب عام ٣٦٧ هـ كما تدل على ذلك قصيدة الانباري في نديم الاديب لاحمد سعيد البغدادي نقلا عن كتاب عيون السير للهمداني .

(٢) الأصطخري ص ١٤٩ ، ٢١٠ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٢٩ .

(٤) هذا هو الحال اليوم ، وكذلك كان قديما . انظر مثلا ما اشترطه أبو بكر على وفد المرتدّين لما قَدِم عليه ، وهو أنه « خيّرهم بين الحرب المجلية ، أو السلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المجلية ، فما السلم المخزية ؟ قال : أن ننزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا منكم ، وتدُوا قتلانا ، ويكون قتلاكم في النار » . وكان قواد المسلمين في ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة (انظر فتوح البلدان للبلاذري طبعة ليدن ١٨٦٦ ص ٩٤، ٩٨). وكذلك كان إلغاء الدية عند اليونان مرتبطا بظهور عادة إحراق الأجساد عندهم . (على أني لم أحقق هذه العلاقة بين الاحراق وسقوط الدية ـ المترجم) .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٢٠٨ .

وفي سنة ٣٩٢ هـ ــ ١٠٠١ م سُمل أحد العمال المكروهين ، فمات؛ فبعد أن دُفن نبشه أهلُ البلد وأحرقوه لسوء معاملته لهم ولِما قدّم من القبيح إليهم[1] . ولا أعلم أن أحداً من المسلمين في ذلك العصر أُحرق وهو حيٌّ قط[2] .

ولا نسمع عن السلخ إلا عند الفاطميين ، بإفريقية ؛ ففي سنة ٣٤١ هـ ــ ٩٥٢ م أسر أحد الثوار ، بعد أن كان قد أفسد المغرب وقطع في بسكرة وحدها ثلاثمائة ألف نخلة ؛ فسُلخ من جلده ، وهو حيٌّ ، وحُشِيَ بالتبن وصُلب[3] . وأُسر أحد الثوار ، فجرح نفسه وهو في سجنه ، فمرض حتى مات ؛ وكان قد أتعب جوهراً فاتح مصر ، فسُلخ بعد موته وحُشي جلدُه تبناً وصُلب بين مصر والقاهرة[4] .

ويحكى عن أبي بكر النابلسي الزاهد أنه قال في حق الفاطميين : إذا كان مع الرجل المسلم عشرةُ أسهم وجب عليه أن يرمي في الروم سهماً واحداً وفي الفاطميين تسعة ؛ فأحضره المعز لدين الله ، وقال له : بلغنا عنك كيت وكيت، فقال : ما قلت هذا ؛ فظن المعز أنه رجع عن قوله، وسأله عما قال ، فأجاب : قلتُ : إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة ،ويرمي العاشر فيكم أيضاً ؛ فإنكم غيَّرتم الملّة وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية ؛ وكان المعزّ بطاشاً ، فشهره وضربه بالسياط . ثم أمر بسلخه ، فتولى ذلك رجلٌ يهودي ؛ وكان أبو بكر يقرأ القرآن ولا يتأوّه ، فداخلت اليهودي رحمةٌ له ؛ فطعنه بالسكين في فؤاده ليموت

---

(١) كتاب الوزراء ص ٤٧١ .

(٢) على انه يذكر حكاية واحدة فيها أن الخليفة المعتضد حرق شيلمة الكاتب حيًا ــ الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٤ وما بعدها .

(٣) كتاب العيون ج ٤ ص ٢٥٣ ب ــ ٢٥٤ ا .

(٤) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ا ، والمقريزي ج ٢ ص ٤١٣ .

عاجلا[١] • وهذه حكاية تخالف ما نعرفه من خصال المعز •

وكذلك يحكي المقريزي عن مصر حكاية كالسابقة لا نكاد نصدقها ، وهي أنه في عهد الملك الناصر كان يُعَذِّب البعض بأن توضع الجعارين على رأسه ، وتغطى بقماش أحمر ، فلا تمضي ساعة ، حتى تخرق رأسه وتصل إلى دماغه فيموت[٢] • ويحكى عن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له إظهارُ الزهد غرّق بعض حظاياه وأمهات أولاده ، وذلك بأن وُضِعن في صناديق وسمِّرت عليهن وثُقِّلَت بالحجارة وأُلقيت في النيل[٣] •

على أن مؤرخي النصارى بنوع خاص اخترعوا كثيراً من الحكايات القاسية ونسبوها للحاكم لتقوية إيمان النصارى ، فاتهموه مثلا بأنه عذّب أورستيس بطريرك بيت المقدس تعذيباً شديداً وقتله ، والكنيسة تحتفل باستشهاد أورستيس في شهر مايو ؛ ولكن يحيي بن سعيد المؤرخ النصراني الذي كان معاصراً لهذا البطريرك يؤكد ثلاث مرات أنه مات في القسطنطينية[٤] •

ولم تكن المنازعات التي تقوم عند تنصيب الخليفة تنتهي من غير ارتكاب بعض الفظائع ، وربما كان الباعث الأكبر على الفظائع ، دون القتل ، تهيب الناس بدافع الدين من إراقة دم الخليفة[٥] • ولكن هذه

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١١١ ا •

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٢٦ (أ) (ولم أجد ما يقابل هذا الكلام — المترجم) •

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ب •

(٤) Schlumberger, Epopèe byzantine, II, 208.

(٥) هذا التهيب كان سببا في فظائع ليس لها ضرورة فيما نرى • ويحكي الرحالة ماركوبولو (Marco Polo II, 5) أن خان الاكبر لفّ نيان في بساط ، وما زال يُحمل ويُرمى حتى مات ؛ وإنما فعل ذلك ، « لأن نيان كان من دمه ، فلم يُرِدْ أن يريقه على الأرض أو في أشعة الشمس » •

الفظائع قليلة متفرقة ، هذا إلى أن خيال العامة أضاف كثيراً إلى الأخبار القديمة .

وفي عام ٢٥٥ هـ ــ ٨٦٩ م خلع الخليفة المعتز ؛ ويقول المسعودي الذي ولد بعد هذا التاريخ بقليل إن أصحاب السير والتواريخ تباينوا في مقتله ، فمنهم من ذكر أن المعتز مات في خلافة المهتدي بالله حتف أنفه ؛ ومنهم من ذكر أنه منع في حبسه من الطعام والشراب ، فمات عند قطع الغذاء عنه ؛ ومنهم من رأى أنه حقن بالماء الحار المغلي ، فمن أجل ذلك وجد جوفه وارماً حين أخرج للناس . والأشهر بين من عني بأخبار العباسيين أنه أكره على دخول حمام محمى ومنع الخروج منه ؛ ثم تنازع هؤلاء ، فمنهم من قال أنه ترك في الحمام ، حتى فاضت نفسه ، ومنهم من قال إنه أخرج ، بعد أن كاد يتلف ، وسقي ماء مقروراً بالثلج ، فنثر كبده وأمعاءه ، فخمد من فوره[1] . أما أبو الفداء، وهو مؤرخ متأخر ، فيقول إنهم أدخلوه سرداباً جصصوه عليه ، فمات[2] .

وقد اختلف أيضاً في قتل المهتدي الذي ولي الخلافة بعد المعتز : فقيل إنه قتل خنقاً ؛ وقيل كبس عليه بالبساط والوسائد حتى مات . ومن المؤرخين من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين ، وشد بالحبال إلى أن مات ؛ وقيل إنه أعصرت مذاكيره إلى أن مات ؛ والأشهر عند المسعودي أنه قتل بالخناجر[3] . وكذلك يحكي ابن الأثير ، وهو مؤرخ متأخر ، أن ابن المعتز ، وهو الخليفة الذي قتل عام ٢٩٦ هـ ــ ٩٠٩ م عصرت خصيتاه حتى مات[4] . أما المصادر القديمة فلا تعرف شيئاً عن قتله .

---

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٣ ــ ٤ .
(٢) تاريخ أبي الفدا تحت عام ٢٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٢٤ من الطبعة الأوروبية .
(٣) المسعودي ج ٨ ص ١١ .
(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ .

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت عادةُ سَمل الخلفاء للحيلولة دون توّليهم منصب الخلافة وذلك احتذاء لعادة الروم البوزنطيين من قبل . وكان أول من ذاق هذا العذاب بين خلفاء الإسلام الخليفة القاهر ، حينما أُرسل إليه القضاة والشهود ، ليقرّ على نفسه بالخلع ، فأبى أن يُحل الناس من بيعته ، وذلك في عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م[١] . واستُدعي أحمد بن أبي الحسن الصابي ، فكحله بمسمار مُحمى دفعتين[٢] . وكان المتقي ثاني من سُمل عام ٣٣٣ هـ ٩٤٤ م ، وذلك بأمر توزون رئيس الحرس التركي ؛ فلما صاح المتقي صاح معه النساء والخدم ، فأراد توزون أن يخفي الصراخ ، فأمر بضرب الدبادب[٣] . ثم صار هذا الصنيع محبوبا جداً عند البويهيين حوالي عام ٤٠٠ هـ ، وهو يُذكر في تاريخهم .

على أن الخليفة قبض في عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ م على ثائر خطر من بني العباس ، فاكتفى بأن جدع أنفه . وكذلك فعل السلطان عضد الدولة ابن بويه عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م بأبي الفتح بن العميد ، وزير أبيه[٤] ؛ وهذا تعلمه المسلمون أيضاً من الرومان البوزنطيين .

وأما القتل شنقاً فلم يكن متبعاً ، ولا أعلم إلا مثالا واحداً يشبه ذلك ؛ وهو أن أحد الوزراء عُلّق بأن عُمل في قلبه كلاّبين ، فلم يزل يضطرب ، حتى مات[٥] .

---

(١) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ا؛ مسكويه ج٥ ص ٤٥٥ — ٤٥٦، وابن الأثير ج٨ ص ٢١١ .

(٢) كتاب العيون ص ١٤٣ ا .

(٣) المسعودي ج ٨ ص ٣٥١ و **Elias Nisib. 212.** ، نقلا عن ثابت بن سنان .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ ، ٤٩٧ ؛ والارشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٥) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٩٥ .

وأما القتل بالسم فلم يكن له الدور الذي ننتظره لهذه الطريقة التي استعملت آلاف السنين ؛ ولم يصلنا من ذلك إلا أمثلة قليلة ؛والذي يعرف ما للخيال من حظ في مثل ذلك في الشرق اليوم ، يجب عليه أن يُسقط نِصْفَهَا • ومن أمثلة ذلك القتل بالبيض المسموم ، كما يقول المؤرخون القدماء المعاصرون للوزير حامد بن العباس ـ وكان قد جاوز الثمانين ـ وذلك بحسب تخمين الوزير نفسه[1] • أما المؤرخون المتأخرون فذكروا أنه سمّ في بيض مشويّ أحدث له إسهالا أماته ، معتبرين ذلك حقيقة واقعة[2] ؛ هذا على حين أن صاحب كتاب العيون والحدائق ، وهو يعتمد على أقدم المصادر ، يقرر أنه مات من ذرب لحقه[3] • بل يذكر في حكاية من أقدم حكايات السم • وقعت في عهد الخليفة الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ = ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م) : « وقيل غير ذلك »[4] • وقد ذكر المسعودي ، وهو من مؤرخي ذلك العهد ، ما قيل في وفاة المعتضد : « وقيل مات بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله ، فكان يسري في جسده ؛ ومنهم من ذكر أن جسمه تحلّل في مسيره في طلب وصيف الخادم•••ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا »[5] •

على أن طريقة السم كان أكثر استعمالها في تاريخ البيوت الحاكمة ببخارى ، إذا قورنوا بغيرهم ، كما بين ذلك ميرخَنْد ، وهو من الكتاب المتأخرين• على أننا لو قارنا ما حكاه بما عندنا من الأخبار القديمة مقارنة

---

(١) أمدروز (Amedroz) في كتاب الوزراء للصابي ص ١٩ •

(٢) زبدة الفكرة ص ١٩٣ ب •

(٣) كتاب العيون ص ١٠٨ ا •

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٢٦٦ •

(٥) نفس المصدر ج ٨ ص ٢١١ •

دقيقة لتبين لنا أن حوادث القتل بالسم أنقص بكثير مما يُقال .

وكان من بين الحكام القساة القلوب في ذلك العصر المعتضد والقاهر ، ويحكى من تعذيب الأول منهما أنه كان يأخذ الرجل ، فيأمر بتكتيفه وتقييده ، ثم يأمر بأن تحشى أذناه وخيشومه وفمه بالقطن ، وتوضع المنافخ في دُبُره ؛ فإذا صار كالزِّق المنفوخ وورم سائر أعضائه وبرزت عيناه ، سُد دبره ، وضُرب في عرقين فوق الحاجبين ؛ فعند ذلك يخرج منهما الريح والدم ، ولهما صوت وصفير ، حتى يخمد ويتلف[1] .

أما فظائع القاهر فكانت أكثر مناسبة لطبيعته السيئة ؛ فيُحكى عنه أنه أمر بطرح إسحاق بن إسماعيل وأبي السرايا نصر بن أحمد في بئر ، حَيَّيْن مُقَيَّدَيْن ؛ وتضرع أحدُهما وسأله العفو ، فلم يلتفت إليه ، وتعلق بسعف نخلة كانت قريبة من البئر ، فأمر القاهر بضرب يديه ، ودَفْعه في البئر إلى جانب صاحبه . ثم أمر بطمّ البئر بالتراب ، حتى امتلأ ، وهو واقف[2] .

ولما ظفر بمؤنس اعتقله هو وعلي بن يلبق وابنه ؛ ثم ذُبح عليٌّ بحضرته ، وحُمل رأسه إلى أبيه ، ثم ذُبح يلبق ، وحُمل رأسه ورأس ابنه إلى مؤنس ؛ فلما رآهما ، لعن قاتلهما ؛ فأمر القاهر به ، فجُرَّ برجله إلى البالوعة ، وذبح كما تذبح الشاة ، والقاهر يراه . ثم أخرجت الرؤوس الثلاثة في ثلاث أطسات إلى الميدان ، حتى شاهدها الناس ؛ وطيف برأس علي بن يلبق في جانبي بغداد ، ثم رُدّ إلى دار السلطان، وجعل مع سائر الرءوس في خزانة الرءوس[3] . ويحكي ابن الأثير

(١) نفس المصدر ج ٨ ص ١١٦ ، ١٦٠ .
(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٦ ــ ٤٤٧ .
(٣) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٢٣ نقلا عن ثابت بن سنان .

وحده ، وهو مؤرخ متأخر ، أن الجند ندموا على مساعدة القاهر في هذه الفعلة الشنيعة[1] .

وكان القاهر أيضاً هو الخليفة الوحيد الذي قتل رجلا ــ وهو أمير عباسي كان طامعاً في الملك ــ بأن أمر به أن يُقام في فتح باب ويُسد عليه بالجص والآجر ، وهو حي[2] .

وكذلك قتل السلطانُ عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ ــ ٩٨٢ م) أحد الوزراء مع صاحب له ، لأنهما عملا ضدّه ؛ فأمر بطرحهما إلى الفيلة ، وأُضربت عليهما فقتلتهما شر قتلة[3] . وهذا هو المثال الوحيد من نوعه في ذلك العصر .

أما الانتحار فلم يبلغنا منه إلا مثالان في ذلك العصر ، إذا صرفنا النظر عن الحالات التي كان من يحاول الانتحار فيها ينتظر القتل الشنيع .

فيُحكى عن أبي أحمد بن أبي بكر الكاتب ، وكان ابن أحد وزراء بني سامان وشاعراً هجّاءً ، أنه فقد الرياسة والمال ، حتى قاسى من ذلك قذاة عينه وغُصّة صدره ؛ فانتهى أمره بأن شرب السم فمات[4] . والثاني هو ابن غسان الطبيب ، وكان فتى مليحاً ظريفاً حسن

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٤ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٢١ ؛ والمنتظم لابن الجوزي ص ٤٥ ا ؛ وزبدة الفكرة ص ٢٢٥ ب، وابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٤٨١ ، ٥١٧ ؛ وكان عضد الدولة أول من استعمل الفيول في القتال (مسكويه ج ٦ ص ٤٦٤) .

(٤) يتيمة ج ٤ ص ٢ ــ ٧ ، (وكان يكثر من إنشاد بيتي المنصور الفقيه :

قد قلت ، إذ مدحوا الحياة فأسرفوا : في الموت ألفُ فضيلة لا تُعرفُ =

الأدب ، غرّق نفسه في كلواذي ، لأسباب اجتمعت عليه ، منهـا عشق حرَق قلبه على غلام الآمدي الحلاوي ، وكان نصرانياً[1] •

ويحكى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عماله حوالي عام ١٠٠ هـ ـــ ٧٠٠ م بألا يُغَل مسجون[2] •

وفي عهد هارون الرشيد رأى الفقهاءُ أن أهـل الدعارة والفسق والتلصُّص ، إذا أُخذوا في شيء مـن الجنايات وحبسوا ، فلا بد أن يُجرى عليهم من الصدقات أو من بيت المال ما يقوتهم ،ويَجري على كل منهم عشرة دراهم في الشهر ، تُعطى له في يده ، دَفعاً لظلم السجان لهم أو حرمانه إياهم من طعامهم وشرابهم ؛ ولا بـد أن يكسوا في الشتاء قميصاً وكساءً وفي الصيف قميصاً وإزاراً ومقنعة ، وذلك إغناء لهم عن الخروج في السلاسل لطلب الصدقة[3] •

وقد جُعـل في ميزانيـة المعتضد (٢٧٩ ـــ ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ ـــ ٩٠٢ م) ألفٌ وخمسمائة دينار لنفقات السجون وثمن أقوات المحبوسين ومائهم وسائر مؤَنهم[4] •

= منهـا امـانُ لقـائـه بلقـائـه   وفـراقُ كـل مُعـاشر لا ينصـفُ

وقال في معناهما :

مـن كـان يرجو ان يعيش ، فإنني   اصبحتُ ارجو ان اموت ، فأُعتَقا

في الموت الـف فضيلة ، لـو انهـا   عُرِفت ، لكان سبيله ان يُعشَقا

ـــ المترجم)

(١) حكاية ابي القاسم طبعة متز ص ٨٣ •

(٢) كتاب العيون والحدائق ج ٣ طبعة دي غوي سنة ١٨٦٩ ص ٦٣ •

(٣) كتاب الخراج لابي يوسف ص ٨٨ •

(٤) كتاب الوزراء ص ٢١ •

وكثيراً ما نجد الأخبار بأن المسجونين كانوا يشتغلون بعمل التكك وهي لا تزال إلى اليوم أجمل ما يُصنع ببغداد ، يقول ابن المعتز[1] :

تَعلمتُ في السجن نسج التِكك   وكنتُ امرأً قبل حبسي ملك
وقُيِّدتُ بعد ركوب الجياد   وما ذاك إلا بدور الفلك

وفي أوائل القرن الرابع الهجري عيّن الوزير لمن في السجون أطباء أُفردوا لذلك ، فكانوا يدخلون إليهم ويحملون معهم الأدوية والأشربة[2] .

أما في مصر على عهد الفاطميين فكانت السجون تُضمَّن ، وكانت أحب شيء إلى من يضمن أمور الحكومة ، وكانوا يتزايدون في ضمانها لكثرة ما يتحصل منها . وكان يؤخذ من كل من يسجن ستة دراهم بمجرد دخوله السجن ، ولو لم يُقِمْ به إلا لحظة[3] .

أما الزكاة عند المسلمين فقد جعلت لها الشريعة حداً أدنى ، وهو نصف العشر من الثروة لا من الدخل ، وذلك في كل سنة[4] . وقد نُقل من أخبار المتديِّنين الأتقياء وغير الاتقياء حكايات كثيرة تدل على سمو شعورهم في الصدقات .

ويحكى عن أبي عبد الله بن أبي ذهل الضبيّ الهروي (المتوفى عام ٣٧٨ هـ ــ ٩٨٨ م) أنه كانت تُضرب له الدنانير ، وزن الدينار منها مثقالٌ ونصف أو أكثر ، فيتصدق بها ، ويقول : « إني لأفرح ، إذا

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٥٧١ من الطبعة الأوروبية . وهذان البيتان ليسا في ديوان ابن المعتز .
(٢) اخبار الحكماء للقفطي ص ١٩٣ من الطبعة الأوروبية .
(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٨٩ .
(٤) كشف المحجوب للحجويري ص ٤٠٦ من الأصل الفارسي ، ٣١٥ من الترجمة الانجليزية .

ناولتْ فقيراً كاغداً ، فيتوهم أنه فضة ؛ فإذا فتحه ورأى صُفرتَهُ فَرِحَ ؛ ثم إذا وزنه ، فزاد على المثقال ، فرح أيضاً » . وكانت لهذا الرجل غلّة كثيرة لا يدخل داره إلا دون عُشْرِها ، والباقي يفرقه على المستورين وسائر المستحقين[1] .

ويحكى عن دعلج بن أحمد بن دعلج أبي محمد السجزي ، وكان تاجراً غنياً وعالما (توفي عام ٣٥١ هـ ــ ٩٦٢ م) ، أنه بعث بالمسند إلى ابن عقدة لينظر فيه ، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً[2] .

ويحكى عن أحد التجار المشهورين بكثرة المال ببغداد أنه أرسل لابن سمعون الواعظ خمسمائة خشكنانكة ، في كل منها دينار[3] .

ويحكى عن جَحْظَة الشاعر (المتوفى عام ٣٢٤ هـ ــ ٩٣٦ م) أنه وقع في ضيق شديد ، حتى صار بيته أفرغ من فؤاد أم موسى ، فعرف حالَه أحدُ العمال المتقاعدين ، فزاره ، وأحضر له من بيته فرشاً وقماشاً وكل ما يحتاج إليه البيت من آلات ومؤونة ، وجلس عنده طول يومه . (وفي اليوم التالي أرسل إليه كيساً فيه ألفا درهم ورزمة ثياب من فاخر الثياب . ولما أراد الخروج قام جحظة ليخرج معه ، فقال له : احفظ بابك ! فكل ما في دارك لك)[4] .

وكان لأحد الكتاب أمٌ صالحة ، فعوّدته منذ وُلد أن تجعل تحت رأسه عند نومه في كل ليلة رغيفاً ، فيه رطل ؛ فإذا كان الصباح تصدقت به ؛ فظل ابنها يفعل ذلك طول حياته[5] .

---

(١) المنتظم ص ١٢٨ ا ، وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٦٥ .
(٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٣) المنتظم ص ١٤٢ ب .
(٤) نفس المصدر ص ٥٦ ب .
(٥) كتاب الوزراء ص ٦٤ .

وكان في بلاد كرمان نخيل كثير ، وكان لأهلها سنة حسنة ، فكانوا « لا يرفعون من تمورهم ما أسقطته الريح ، فيأخذه غير أربابه ، وربما كثرت الرياح ، فيصير إلى الضعفاء والمساكين من التمور في التقاطهم أكثر مما يصير إلى أربابه[1] » .

وكان لا بدّ في تهادي العشاق بالهدايا الصغيرة من مراعاة دقة الذوق الشاقة ، فمثلا كان لا يستحبّ إهداءُ ليمونة للحبيب ، لأنها طيبة في ظاهرها ولكن باطنها حامض ، وفي ذلك صفة غير محمودة ، وفي كثير من الأحيان ترْسِلُ المحبوبةُ تفاحةً ، عليها أثرُ عضّتها لها ، يقول ابن المعتز :

وآثارُ وصل في هواك حفظتُها	تحياتُ ريحان وعضّات تفاح
وكتبٌ لِطاف تربها المسك أدرِجت	على وصف أحزان وتعذيب أرواح

ويقول :

جاء الرسول مبشراً بزيارة	من بعد طول تهجُّر وتغضّب
وبكفه تفاحةٌ قد مسّكت	آثارُ عضّتها ، كقَرْني عقرب[2]

وكان ذلك من عادات الرومان أيضاً[3] .

وكان الشاعر أحياناً يطرّز منديلا غالي الثمن بأبيات شعرية ويرسلها لحبيبته[4] .

---

(١) ابن حوقل ص ٢٢٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٦٨ ، ٧٣ .

(٣) v. Gleichen-Russwurm, Elegantiae, S. 277.

(٤) كتاب الديارات ص ١١٧ ا .

ونظراً لأن النبي ، عليه السلام ، كان يتيما ، فقد صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفاً خاصاً ، وإن لم يُجْمَعوا في بيوت أُعِدَّتْ لهم ؛ ففي أصفهان مثلا كان أحد الصالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله ، ويدهن رءوسهم[1] .

أما بناء المستشفيات فكان مسألة دنيوية بحتة ، ولم يكن الصالحون يحبّون معالجات الأطباء . واسم دور المرضى بيمارستانات ، وهو فارسي معرب ، لا أصل له في لغة القرآن .

وأول من بنى داراً للمرضى في الإسلام الوليد بن عبد الملك[2] ، وهو أقل الخلفاء تديّنا .

ثم جاء البرامكة ، وكانوا بعيدين عن الإيمان كل البعد ، فأسسوا بيمارستانا أسندوا رياسته لطبيب هندي[3] .

ويحكى عن طاهر بن الحسين أنه كتب إلى ابنه عبد الله : « وانصب لمرضى المسلمين دوراً توقيهم ، وقُوَّاما يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم[4] » .

وبنى أحمد بن طولون عام ٢٥٩ هـ ــ ٨٧٣ م أول مارستان كبير بمصر ، وكان به حمّامان ، أحدُهما للرجال ، والثاني للنساء ، وشَرَطَ في هذا المارستان ألا يُعالج فيه جندي ولا مملوك ، وإذا جاء العليل ، أن تُنْزَعَ ثيابُه ونفقتُه ، وتوضع عند أمين المارستان ؛ ثم يُلبس ثياباً ويُفرش له ، ويعالج ، حتى يبرأ ؛ فإذا أكل فرّوجاً ورغيفاً أُمر

---

(١) ذكر اخبار اصفهان مخطوط ليدن ص ١٦١ ا .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٣) الفهرست ص ٢٥٤ .

(٤) كتاب بغداد لطيفور ص ٥٠ .

بالانصراف ، وأعطي ماله وثيابه . وقد أنفق ابن طولون على هذا المارستان ستين ألف دينار ، وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ليتفقد المارستان والمرضى[1] . وكذا جعل في المسجد خزانة شراب فيها جميع الأدوية والأشربة وطبيب يجلس يوم الجمعة للعلاج[2] . وكان في المارستان قسم للمجانين ، على حين أنه كان ببغداد مارستان" كبير خاص بالمجانين ، وهو دير هِزقل القديم الذي كان يقع على مرحلة إلى الجنوب في طريق واسط[3] . وكان أهم ما يلزم لمثل هذا المارستان السلاسل والسياط ، كما كان الحال عندنا منذ بضع عشرات من السنين[4] .

وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ ــ ٩٠٢ م) ببغداد كانت نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق المتطبّبين والمآنين(؟) والكحالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين والخبازين وعيرهم ، وأثمان الطعام والأدوية والأشربة ، أربعمائة وخمسين ديناراً في الشهر[5] .

ثم زادت المارستانات في بغداد زيادة كبيرة ؛ وفي سنة ٣٠٤ هـ كانت خمسةٌ تقلّدها طبيب" غيرُ مسلم ، وهو سنان بن ثابت[6] ، وبفضل هذا الطبيب الكبير وإشارته فُتح ببغداد عام ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م

---

(١) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤٠٥ ، وقد سخر أحد الشعراء بمارستان ابن طولون بقوله (الكندي ص ٢١٧) :

فيا ليت مارستانه نيط باسته　　　وما فيه من علج عتل مقلّل

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٣٢١ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٣٠ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢١ .

(٦) المنتظم ص ١٤ ا ؛ وهذا مصدر جيد لأنه يعتمد على تاريخ ثابت بن سنان نفسه ، وأقدم مارستان ببغداد هو الصاعدي عند باب المحوّل (المنتظم ص ٦٦ ا) .

مارستانان آخران كبيران ، أحدهما اتخــذه الخليفة نفسه ، وسُمّي المارستان المقتدري ، وكان يقــع في باب الشام ، والثــاني بيمارستان السيدة أم المقتدر ، اتخذه لها سنان بسوق يحيى على نهر دجلة ، ورتب له المتطببين • وكانت النفقة على بيمارستان الخليفة من ماله الخاص ، وبلغت مائتي دينــار في كل شهر • أمــا نفقة مارستان السيدة فكانت ستمائة دينار في كل شهر[1] •

وفي عام ٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م أسس الوزير ابن الفرات أيضاً مارستاناً ببغداد ، وأنفق عليه من ماله مائتي دينار في كل شهر[2] •

ولما استولى بجكم على بغداد أكرم سنانا وعظّمه غاية التعظيم ، فأشار سنان عليه أن يتخذ في عام ٣٢٩ هـ ـ ٩٤١ م مارستاناً ثالثاً[3] ، فوق ربوة جميلة على الشاطيء الغربي لدجلة ، كانت تحمل قصر هارون الرشيد من قبل ؛ وظل هذا المارستان زماناً طويلا ، حتى جدده عضُد الدولة عام ٣٦٨ هـ ـ ٩٧٨ م ، وافتتحه عام ٣٧١ هـ ـ ٩٨١ م ،وزوّده بالأطباء والمعالجين والخزّان والبوابين والوكلاء والناطورين[4] •

وكذلك أسس معز الدولة في عام ٣٥٥ هـ ٩٦٦ م مارستاناً آخر عند الجسر الذي على دجلة ، ووقف عليــه أوقافاً وضياعاً يرتفع منهــا خمسة آلاف دينار[5] •

---

(١) اخبار الحكماء للقفطي ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، وعيون الأنباء لابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢٠ وما بعدها ، والمنتظم ص ١٦ ا ، وتاريخ أبي المحاسن ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٢) المنتظم ص ٢٣ ب .

(٣) اخبار الحكماء للقفطي ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٤) المنتظم ص ٦٨ ا ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٥ .

(٥) المنتظم ص ٩٨ ب .

هذا إلى أنه كان بالمدن الكبرى في الولايات مثل شيراز وأصفهان وواسط مستشفياتها الخاصة[1] .

ويحكى أنه في عام ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م اتصل بالمقتدر أن رجلا من الأطباء غلط في معالجة رجل ، فمات ، فأمر مُحْتَسِبَه أبا بطيحة بمنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه سنانُ بن ثابت ، وكتب له رقعة بما يُطْلَق له التَصَرُّف فيه من صناعة الطب ، وأمر سناناً بامتحان الأطباء . وأحصى الأطباء في جانبي بغداد لامتحانهم ، فكانوا ثمانمائة ونيفاً وستين رجلا سوى من استغنى عن امتحانه ، لاشتهاره بالتقدم في الصناعة ، وسوى من كان في خدمة السلطان . وكان إذا جاء الرجل إلى سنان ليمتحنه بدأ بإجلاسه ، ثم قال له : « قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً ، أحفظه عنه ، وأن يذكر شيخه في الصناعة[2] » .

ولم يصلنا قط في أخبار هذا القرن أن أحد الأطباء كان يعتبر مسئولا عن حياة مريضه ، بحيث يُقتل ، إن مات بين يديه . وفي عام ٣٢٤ هـ ــ ٩٣٥ م توفي هارون بن المقتدر أخو الخليفة المطيع لله ، فحزن عليه ، واغتم ، واكتفى بنفي الطبيب بختيشوع بن يحيى ، لأنه اتهم بتعمد الخطأ في علاجه[3] .

*

(١) المقدسي ص ٤٣٠ ، والمنتظم ص ٦٩ ا ويحكى عن بجكم انه بنى في واسط وقت المجاعة دار ضيافة للضعفاء والمساكين (المنتظم ص ٦٨ ا ، ب ، والقفطي ص ١٩٣) ، ولم يصبح بمدينة واسط مستشفى حقيقي إلا في عام ٤١٣ هـ (المنتظم ص ١٧٠ ب) .

(٢) اخبار الحكماء للقفطي ص ١٩١ .

(٣) تاريخ ابي المحاسن ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة ليدن .

الفصل الحادي والعشرون

أحوال المعيشة

كان يكفي الرجل من عامة الناس هو وزوجته في عصر الرشيد ثلاثمائة درهم في السنة(1) .

وكانت الثروة التي تبلغ سبعمائة دينار تعتبر ثروة غير قليلة(2) .

ويحكى عن أحد أبناء العمال (الولاة) أنه أضاع ثروته على بعض المغنيات ، ثم مات خادمٌ كان مولى لأبيه وابنُ عم في يوم واحد ، فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار ؛ فعمر داراً بألف دينار ، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعة آلاف دينار ، وسلم لتاجر ألفيْ دينار يتّجر له فيها ، وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد ، وابتاع ضيعة تغِلُّ في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته(3) .

وقد كشفت لنا حفائر سامرّا عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق في القرن الثالث الهجري ، « فقد كانت الدور بسامرّا تبنى على مثال واحد : يصل بينها وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف ، يفضي إلى صحن واسع قائم الزوايا ، يبلغ عرضه ثلثي طوله في العادة ، ويتصل

---

(1) مصارع العشاق ص ١٥٩ .

(2) نفس المصدر ص ٥ .

(3) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ١٧ .

به من جانب العرض القاعة الكبرى ، وصورتها هكذا [ـ ، وفي أركانها غرف صغيرة ؛ ويحيط بالصحن أيضاً غرف متجاورات مربعة للسكنى وللمرافق المنزلية ؛ وفي معظم الدور أفنية صغرى ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً • ولا تخلو الدور قط من حمامات ومجارٍ تحت الأرض ، وكثيراً ما يكون فيها آبار ••• وتشتمل أحياناً على صحون ذات أساطين (طارمات) وعلى سراديب للسكنى مهيّأة بوسائل التهوية • والدور كلها من طابق واحد ، وإذا كانت الأرض المحيطة بها غير مستوية اتخذ منها أصحاب الدور مسطحات مرتفعة بمهارة لهم في ذلك • وقد يبلغ عدد الغرف في الدار الواحدة ستين غرفة ، وبهـا شبابيك تقفل بألواح من الزجاج المتنوع الألوان ، ويتراوح عرض اللوح بين العشرين والخمسين سنتيمترا »[1] •

ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع بالعراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى في فصل الصيف ، ولا تشير لذلك أيةُ حكاية من الحكايات الكثيرة التي ترجع إلى ذلك العصر[2] • ويرجع أصل هذه العادة ــ عادة اتقاء الحر الشديد بالنزول في السراديب ــ إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكي لنا الرحالة وانـجْ يِـن تي Wang yen te في عام ٩٨١ م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون في الصيف مساكن تحت الأرض[3] • أما في بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة

---

(١) Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Sämarra, Berlin, 1912, S. 14.

(٢) كان السرداب في ذلك العصر عبارة عن مكان تحت الأرض ، فيحكى مثلا ان الخليفة المقتدر امر بحفر سرداب لمؤنس ، وان مؤنسا وقع فيه ومات (كتاب العيون ص ١١٤ ب) ؛ وكان عند رجل في داره سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد (عريب ص ١٠) • بل يحكى انه في عهد المنصور سُيِّرَ جماعةٌ من ابناء علي إلى الكوفة ؛ « وحُبِسوا في سرداب تحت الأرض ، لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل » (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٠) •

(٣) JRAS, 1898, p. 819.

زَرَنج ، أكبر مدن سجستان ، ومدينة أرَّجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلهما في الصيف سراديب تحت الأرض يجري فيها الماء[1] . وفي القرن الخامس الهجري يذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن من خصائص مدينة أرجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها ، وأن الماء يجري تحت الأرض وفي السراديب ، وفي أشهر الصيف يستروح الناس فيها[2] .

ويذكر المقريزي بعد ذلك بقرون أن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون في حرّ الصيف الدخول في جوف الأرض ، كما يعانيه أهل بغداد[3] .

وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش . وكانت عادة الأكاسرة أن يُطَيَّن سقفُ بيت في كل يوم صائف ، فتكون قيلولة الملك فيه ، وكان يؤتى بأطباق الخلاف طوالا ، فتوضع حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج الكبار ، فتوضع ما بين أضعافها ، وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً .

ولكن في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة أخرى للتبريد ، فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ، ولا يزالون يبلّونه بالماء ، فيبرِّد الجو[4] . وكان الخيش ينصب على قبة ، ثم اتخذت بعدها الشرائح ، فاتخذها الناس[5] .

---

(1) ابن حوقل ص ٣٠٠ .
(2) سفر نامه ص ١٣٦ من طبعة برلين .
(3) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٨ .
(4) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤١٨ ؛ وكتاب الارشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٩ في أبيات الشاعر في عهد عبد الله بن طاهر .
(5) لطائف المعارف للثعالبي ص ١٤ من طبعة ليدن .

ويحكي المقدسي أنه رأى في دار عضد الدولة بشيراز بيوت الخيش يُبَلِّلُها الماء على الدوام بواسطة قنى حولها من فوق[1] ؛ ويظهر أن هذه الطريقة في التبريد كانت شائعة جداً في بغداد ، حتى يُحكى عن أحد القواد في القرن الرابع أنه لما جاءت فرقة من الجند من بغداد للقيام بغزوة هامة لم يجدهم أهلا لذلك ؛ لأنهم ، في رأيه ، قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلّل وسماع القيان[2] .

وكان يستعمل في هذه البيوت الصيفية مروحة تشبه شراع السفينة ، تعلّق في سقف البيت ويُشَدّ بها حبل يديرها ، وهي تُبَلّ بالماء وتُرَشّ بماء الورد ، فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بحبلها ، فتذهب بطول البيت وتجيء ويهب منها نسيم بارد طيب[3] .

وكانت حرّاقات دجلة التي يستعملها رجال الدولة في غدوّهم ورواحهم يُعَدّ فيها الثلج ، ويعلّق عليها الخيش المبلّل بالماء ، وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس[4] .

وكان أهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت[5] .

---

(١) المقدسي ص ٤٤٩ .

(٢) De Goeje, Carmathes, p. 218. ، نقلا عن ابن مسكويه .

(٣) مطالع البدور للغزولي ج ١ ص ٦٥ ؛ ويدل على استعمالها في القرن الرابع ما ذكر عن السري .

(٤) جمهرة الاسلام للشيزري ص ١٩٩ ا من مخطوط ليدن ؛ والمحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٤٧ .

(٥) يدل على هذا ما حكاه معظم المؤرخين من ظهور حيوان يسمى الزبزب في عام ٣٩٤ هـ ، كان بحسب زعم الناس يأكل الأطفال بالليل من على السطوح ؛ وما كان حيوانا بل وهما نشأ من وجود اللصوص . ويقول ابن الجوزي (المنتظم ص ١٨ ا ـ ب) إنه في تموز من عام ٣٠٨ هـ « برد الجو حتى نزل الناس من السطوح وتدثروا باللحف » .

أما في مدينة آمل فكانت السطوح مسنّمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاء[1].

أما في اليمن فكان الغالب على صنعاء البرد ، حتى كان إذا اشتد بها الصيف ، ودخل الرجل ليقيل على فراشه ، لم يكن له بدٌ من أن يتدثر ، لأن البيوت باردة بسبب القصة التي تسيغ بها بواطن البيوت ، وربما دخل الرجل في المخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل السترين والسجف فلا يتغير ضياء البيت لما في الجدران والسقف من الرخام ، بل إذا كان في السقف رخامة صافية نظر عوم الطائر بظلّه عليها إذا حاذاها ، وتؤدي الرخامة لمعان الشمس إلى القصة فتقبلها بجوهرها وبريقها[2] .

وحوالي منتصف القرن الثالث الهجري أحدث المتوكل بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيري يعني أن أصله يوناني شرقي ، وصار متبعاً في القصور الكبيرة ، فصار يُبنى لها مُقَدَّم أو ثلاثة أجزاء أوسطها الباب الأكبر ، وإلى جانبيه البابان الصغيران (ويسميان عند العرب الكُمَّيْن) . وكان المتوكل يجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ، وقد اتبع الناس المتوكل ائتماماً بفعله ، حتى اشتهر هذا البناء[3] .

وقد جاء في التقرير المتقدم عن حفائر سامراء أن الباب الأوسط كان يزيد على البابين الجانبين في الارتفاع والاتساع ، فهو منقول عن

(١) الاصطخري ص ٢١١ .

(٢) كتاب صفة جزيرة العرب لابي محمد الحسن بن أحمد الهمداني طبعة ليدن ج ١ ص ١٩٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٢٦٦ ، ومروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

طريقة الهيلينيين (المتأثرين بالحضارة اليونانية في الشرق) في بناء أبواب الشوارع وأقواس النصر[١] .

وكان قصرُ التاج الذي بُني في بغداد بعد ذلك بأربعين سنة صورةً مكبرة للطراز الحيري ، فكان وجهه مبنياً على خمسة عقود ، كل واحد منها على عشرة أساطين والأسطوانة على خمسة أذرع[٢] .

وكذلك كان وجه قصر ابن طولون بمصر ثلاثة أبواب كأكبر ما تكون الأبواب ، وكانت متصلة بعضها ببعض ، وكانت تفتح كلها في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة ، وفيما عدا ذلك لم تكن تفتح إلا بترتيب معلوم في أوقات معروفة[٣] . وقد نقل ابن طولون هذه الصورة في البناء ، كما نقل صورة مئذنة مسجده ، عن بغداد .

وكانت دار الخلافة وما يتصل بها كأنها لِكبرها مدينة قائمة بذاتها ؛ ويحكي الاصطخري أن قصور الخلافة وبساتينها تفترش مساحة كبيرة ، وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة[٤] .

وكانت دور الكبراء تتألف من قصور كثيرة ؛ ويحكى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أنه أنفق على الدار التي كان ينزلها في وزارته

---

(١) انظر ص ٣٤ من التقرير المقدم ؛ وانظر أول الفصل ؛ وقد سميت الضاحية الشرقية من ضواحي بغداد ، وهي التي يخرج منها طريق الجيوش نحو فارس ، بالأبواب الثلاثة لمثل هذا النوع من البناء .

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٠٩ من الطبعة الأوروبية .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣١٥ .

(٤) الاصطخري ص ٨٣ ؛ وقد حكى رجل طاف دار الخلافة عامرها وخرابها وما يجاورها ويتاخمها حوالي آخر القرن الرابع ، فقال إنها مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩) .

الثانية ثلاثمائة ألف دينار ، واشتهى في وزارته هذه أن يجمع حُرَمَه وبنات إخوته وأصاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان من الدار الكبرى ، فأمر بإصلاحها وتنظيفها وإنفاق ما يحتاج اليه في إعدادها ، فبلغت النفقة خمسين ألف دينار[1] . وكان يلي الأبواب من داخل القصر البَهْو[2] ، وهو مُقدّم الدار وأعلاها بناء ، ويقف شامخا تزينه الشرفات ، ويقول ابن المعتز في وصف قصر الثريا[3] :

حَللتَ الثريّا خيرَ دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
وبنيان قصر قد عَلَتْ شرفاته كصفّ نساء قد تربّعن في الأزر

وكان قصر الخلافة يشتمل على دور وبساتين ومسطّحات مظلّلة بالأشجار ، وعلى قباب وأروقة ، وكانت تزيد في جماله البرك والأنهار الجارية ، ويُحكى عن الخليفة القادر أنه كان يجلس في البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجري فيه الماء إلى دجلة[4] . وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو التسعيني بحسب الغلمان أو الحرس الذين يجتمعون فيها[5] . وكان من بين القباب قبة الأترجّة[6] ، وقبة الحمار[7] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٧٩ .
(٢) انظر هذه الكلمة عند الجوهري ، وحكاية ابي القاسم طبعة متز ص ٣٦ .
(٣) الديوان ج ١ ص ١٥ .
(٤) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ .
(٥) وكان الغلمان يسمون بذلك بحسب طول شهر راتبهم الذي كان احيانا اربعين او ستين أو تسعين .
(٦) ابن مسكويه ج ٥ ص ٣٢٤ ؛ وتاريخ سني ملوك الأرض لحمزة الأصفهاني ج ١ ص ٢٠٤ ؛ وديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ سطر ٦ ، وهو قوله . والقبة العليا والأترجة.
(٧) المنتظم لابن الجوزي ص ١٦٠ ب ؛ وهي التي يقصدها ابن المعتز بقوله : والقبة العليا ؛ ويقال إنها سميت بذلك لان الخليفة كان يستطيع ان يصعد إلى اعلاها راكباً على حمار، ولكن هذا لم يرد إلا عند ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٨٠٦ من الطبعة الاوروبية)، =

وكان الأمراء إذا جاءوا دار الخلافة دخلوها راكبين ، حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذي ينزلون فيه ترجّلوا ودخلوا ، والحجاب بين أيديهم[١] .

ويذكر الكتاب المتأخرون أنه كان هناك سراديب تصل القصور بعضها ببعض ؛ فيحكي ناصر خسرو أن قصور الفاطميين كانت مؤلّفة من بيوت كبرى وصغرى تصل بينها سراديب تحت الأرض[٢] . ولكننا لا نجد في الحكايات الكثيرة المفصلة التي ذُكرت عن القصور ذكراً لهذه السراديب التي يدخل منها الناس أو يخرجون بحيث لا تراهم الأعين ؛ فأمرها لا يخلو من مبالغة .

وقد رأى المقدسي قصر عضد الدولة بشيراز بعد موت هذا السلطان بقليل ، وحكى رئيس الفراشين للمقدسي أن في القصر ثلاثمائة وستين حجرة ، كان السلطان يجلس كل يوم في واحدة إلى الحول[٣] . وكان يقال إن بمنارة الإسكندرية ثلاثمائة وستة وستين بيتاً دائرة بها[٤] . وكان بقصر Eldenburg بمدينة مارك برندنبرج Mark Brandenburg من الحُجَر بقدر عدد أيام السنة[٥] .

وقرب أواخر القرن الثالث الهجري نجد ضروباً من التفنّن في إعداد القصور تنتقل من بلاط إلى آخر ؛ وكأنما كان ذلك مؤذناً بابتداء

= ويظهر انها حكاية موضوعة ، وهي تشبه ما حكي عن منارة الاسكندرية من أنه كانت معلقة بها مرآة يجلس الرجل تحتها فيرى من بالقسطنطينية ، وبينهما عرض البحر ، وأن الفارس والفارسين يركبان إلى اعلاها بغير درج (ابن خرداذبة ص ١١٤) .

(١) المنتظم ص ١٦٠ ا .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٩ ، ١٥٨ ، وذكر ذلك المقريزي (الخطط ج ١ ص ٤٤٧) .

(٣) المقدسي ص ٤٤٩ .

(٤) ابن خرداذبة ص ١١٤ .

(٥) Fontane, Fünf Schlösser, S. 96.

التكلّف والصناعة في الأدب ، فكان في قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق ، طولها خمسون ذراعا وعرضها خمسون ، وكان في أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة ؛ وعُمِل لخمارويه فرش من أدم يحشى بالريح ، حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة ، وتشدّ زنانير الحرير في حلق الفضة بالأساطين ، ثم ينام الأمير على ذلك الفرش ، « وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع بهمن الهمم الملوكية ، فكان يُرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب ، وإذا تألّف نور القمر بنور الزئبق »[1] .

ويحكى أن الخليفة المقتدر بالله لما وفد عليه رسل ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ — ٩١٧ م زيّن قصره ورتب آلته فيه ، ثم أدخلهم إليه ، فرأى الرسل فيه العجب ، ثم أُخرجوا إلى « الجوْسَق المحدَث » ، وكان داراً بين بستانين ، في وسطها بركة رصاص ، حولها نهر رصاص « أحسن من الفضة المجلوّة » ، وطول البركة ثلاثون ذراعاً ، وكان فيها أربع طيارات لطاف مذهبة مزينة بالديبقي المطرّز،وأغشيتها ديبقي مذهب[2].

« وقد ظهرت بمدينة رومة في عصر أوغسطوس Augustus عادةُ إنشاء البساتين على الطريقة المسماة بالمصرية ؛ وهي في العصر القديم تشبه على وجه التقريب ما صار يعرف فيما بعد بالبساتين الإنجليزية . وكان في ذلك رد فعل ضد نظام إنشاء البساتين على نحو يجعل البيوت كأنها جزء من الحدائق المحيطة بها أو جزء من الطبيعة الخضراء ، بما كان في ذلك النظام من صلابة في مراعاة طريقة العمارة »[3] .

---

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ .

(٣) v. Gleichen-Russwurm, Elegantine ,S. 387. .

ولما أسس أمير الأندلس الناصر لدين الله الأموي مدينة الزهراء التي قال بعض المؤرخين إنه لم يُبْنَ في الإسلام أحسنُ منها ، عمل فيها أيضاً بحيرة ملأها بالزئبق[1] .

وقد أولع خمارويه فوق ما تقدم بالأزهار ، وهذا الولوع من صفات الترك، فصار خمارويه بذلك كله أكبر مُنْشِئي البساتين بين أمراء الإسلام ؛ ذلك أنه أقبل على بستان أبيه فزاد فيه ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه ، فجعله كله بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، ونقل إليه النخل اللطيف الذي ينال ثمرَه القائمُ ، ومنه ما يتناوله الجالسُ ، من أصناف خيار النخل ؛ وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعّم العجيب وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستاني بالمقراض ، حتى لا تزيد ورقة على ورقة ؛ وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوي العجيب ؛ وأهدي إليه من خراسان كل أصل عجيب ؛ وطعّموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك مما يستظرف ويستحسن ؛ وكسا أجسام النخل نحاساً مذهّباً حسن الصنعة[2] ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء وتنحدر إلى مساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجارٍ تسقي سائر البستان ، وبنى فيه برجاً من خشب الساج[3] ؛ فكانت هذه الفوّارات والبرك والعيون المائية الصناعية — على طريقة المصريين القدماء في عمل البساتين — إلى جانب أبراج الخشب ، مما يزيد البستان جمالا .

---

(١) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٨١ (عام ٣٢٥ هـ) .

(٢) هذا ضرب من الذوق الشرقي القديم ، وكان ملوك الفرس من قبل يجلسون إلى الناس تحت أشجار قد كسيت أجسامها بالفضة .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣١٦ .

وكانت فكرة إنشاء بستان على الطريقة الإنجليزية بعيدة ، كما كانت بعيدة عن أهل العصر القديم ، بحيث أن أحد حكام مصر ــ وكان من أكبر المولعين بإنشاء البساتين ــ جعل جميع دهاليز بستانه مغطاة بالحصر العبّادانيّة[1] . وكذلك كان بالجوسق المحدث في قصر المقتدر بركة رصاص حولها بستان بميادين ، فيه نخل ، قيل إن عدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمّارة بحلق من شبه مذهبة[2] .

وكانت لذة الخليفة القاهر من الدنيا بستانه الكبير الذي غرّس فيه النارنج ، وحمل إليه مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره ، وكان فيه أنواع الأطيار ؛ وكان الخليفة كثير الجلوس والشراب فيه ، وهو يقول عنه : وكان لذتي من الدنيا[3] .

وحوالي ذلك العصر كان بالشام الصنوبري وكشاجم شاعرين من شعراء الطبيعة تَغَنَّيا في شعرهما بجمال البساتين والأشجار والأزهار .

ولكن الأزهار لم تكن كثيرة جداً : كان هناك الورد ، والنرجس ، والشقيق ، والباقلاء ، والكافور ، والبهار ، والأقحوان ، والسوسن ، والبنفسج ، والياسمين ، والخيريّ ، والنوّار ؛ ولم يكن الخيري البري قد جُلب من سهول آسيا .

وكانت زراعة الورد متقدمة جداً ، فقد حكى صاحب نشوار المحاضرة (المتوفى عام ٣٨٤ هـ ــ ٩٩٤ م) أنه رأى ورداً أسود حالك السواد له رائحة زكية ، وأنه رأى بالبصرة وردةً نِصفها أحمر قاني

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٧ .
(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ ــ ٥٤ .
(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٣٣٦ ــ ٣٣٨ .

الحمرة ، ونصفها الآخر أبيض ناصع البياض ، والورقة التي وقع الخط فيها كأنها مقسومة بقلم[1] . وكان النخل والسرو هما الشجرتين اللتين تزرعان في البساتين .

وكان ابتداء هذا الميل الشديد إلى البساتين والولوع بها ، في مصر ؛ وفيها استمر على أقوى ما يكون طوال ذلك العصر ، فيحدثنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو أنه رأى بمصر ناساً يتجرون بالأشجار ، وأن عندهم أشجاراً في أُصُص يضعونها على سطوح بيوتهم ، حتى تصير السطوح كأنها حدائق ، فإذا اشترى أحد هذه الأشجار حُملت إليه ثم حفر لها في الأرض ، ونقلت من أصصها دون أن يصيبها شيء ؛ ويقول ناصر خسرو إنه لم ير مثل هذا في مكان آخر ولم يسمع به . ويحكى أنه كان بمصر يهودي كثير المال قد وضع على سقف داره ثلاثمائة جرّة من الفضة ، في كل منها شجرة مزروعة ، وكل هذه الأشجار مثمرة محمّلة كأنها بستان[2] .

وكان في دار الشجرة من قصر المقتدر بالله شجرة" من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ؛ وهي تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء ؛ وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهّب ، وهي تتمايل في أوقات لها ؛ وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك ، كما تحرك الريحُ ورقَ الشجر ؛ وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ؛ وقد أدخل الخليفة رسل الروم إلى هذه الدار ، فكان تعجبهم منها أكثر من تعجبهم من جميع ما شاهدوه[3] . وقد ذكر ابن المعتز الشاعر الأمير هذه الشجرة في شعره[4] .

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٢٣٧ .
(٢) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ ، ٨٨ من النص الفارسي .
(٣) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢ وما بعدها .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ .

على أنه كان بقصر الإمبراطور بالقسطنطينية كثير من قطع الأثاث حول عرش الإمبراطور ، عليها طيور جاثمة تغني ؛ وقد رآها وسمع تغريدها الأسقف لويتپراند Luitprand رسول الملك Otto ، ملك ألمانيا . بل لقد كان حول عرش إمبراطور الروم كثير من السباع المذهبّة تحف بالعرش . وكانت في أثناء استقباله الناس تفتح أفواهها بين حين وآخر ، وتزأر وتضرب الأرض بأذنابها ، وفوق ذلك كان العرش الإمبراطوري مصنوعاً بحيث يمكن رفعه بآلة إلى سقف المجلس[1] . وهذا ضرب من الذوق الفاسد البعيد عن طريقة الشرقيين.

وكان لمعظم الدور ببغداد كواشك ورواشن في الطابق الأسفل يصطدم بها راكب الحمار إن لم يتنبّه لها[2]. وكان يستتر بها أهل العبث والفساد ، حتى اشتهرت بذلك[3] . وكانت الشوارع بمدينة شيراز ضيقة لا تتسع لسير بهيمتيْن معاً ، وكان أهلها في بلاء من اصطدام رؤوسهم بالرواشن[4] .

وكانت أبواب الدور تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش ، وعلى الباب حلقة تدور بلولب ، يُطرق بها الباب[5] . وبالجملة كان الخشب يستعمل كثيراً ، وكان أحب أصنافه عند السراة خشب الساج الهندي ؛ ونظراً لكثرة استعمال الخشب فلا جرم كان داخل الغرف يحدث من الأثر مـا تحدثه غرف الفلاحين عندنا . وإذا رأى الإنسان الحجرة المحفوظة في متحف القاهرة أحدثت رؤيتها في نفسه مثل هذا الأثر .

---

(١) J. Ebersolt, Le grand palais de Constantinople, Paris, 1910. p. 68.

(٢) حكاية أبي القاسم ص ٣٣ .

(٣) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٢٥٣ ؛ وجمهرة الاسلام ، مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ٧٧ ا .

(٤) المقدسي ص ٤٢٩ .

(٥) مقامات الهمداني طبعة بيروت ص ١٠٥ .

ولكن الحجرات لم تكن غاصة بالأثاث ، فكان ذلك يدع مجالا لإبراز صور الناس وحركاتهم وملابسهم ، وكان ثم فراغ للستور والبسط المعلقة على الحيطان لتتنافس بألوانها وما عليها من جميل الصور . وكانت التخوت هي الأثاث الوحيد في الغرف ، فكانت تحفظ فيها الثياب مثلا[1] . أما الدواليب فلم تكن معروفة ، ولم يكن ثم أسرّة . وكانت الخوانات لا تستعمل إلا للطعام ، وكان كبراء القرن الثالث يحبون الخوانات المصنوعة من خشب الجزع ، وكذلك بعض أدوات المائدة[2] ؛ ثم استخدمت خوانات قوائمها منها بلا وصل[3] ، وقد ورد في حكاية أبي القاسم البغدادي وصفُ خوان حسن ، قوائمه من خلنج خراساني بلا وصل . ثم صار حجم هذه الخوانات يزداد باستمرار ، حتى يحكى أنه لما طهّر المقتدر بعض ولده عام ٣٠٥ هـ — ٩٢٧ م أهدى إلى ابن الفرات ثلاث موائد ، استدارة المائدة الكبرى منها خمسون شبراً ، فضاق الباب عن دخولها ، حتى قُلع ، ووُسّع الموضع لإدخالها[4] .

وكان خشب الخلنج يستعمل أيضاً في قصور الفاطميين لصنع الطيافير[5] ؛ وكان هذا الخشب يُجهّز بكثرة في جرجان على بحر الخزر[6] . وفي القرن الثالث الهجري بالمشرق أعجب الجاحظ بآنية من الخلنج الكيمالي (التركي) إلى جانب آنية الصيني الملمّع ، وكانت

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٧٢ ؛ ويتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٧ ؛ والفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) كتاب البخلاء للجاحظ ، طبعة فان فلوتن ص ٥٧ ؛ ومروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٢٥٩ .

(٣) مقامات الهمداني ص ١١٣ ؛ وحكاية أبي القاسم ص ٤١٩ ؛ والخطط للمقريزي ج ١ ص ٤١٩ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٦٥ .

(٥) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٢٠ .

(٦) جغرافية اليعقوبي ص ٢٧٧ .

هذه محبوبة في جميع البلاد[1]. وكانت أدوات الطبيخ تسمى الصفر[2].
ويحدثنا ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر، وأنها كانت تؤجرها كل قدر بدرهم[3].

أما الحمامات الساخنة فنجد في عناية المسلمين بها وتشييدهم الكثير منها ميراثاً من أحسن ما أُخذ عن اليونان والرومان. ولم يكن اتخاذ الحمامات العامة من مظاهر الحياة في الشرق القديم، حتى إنه ليحكى عن بلاش ملك الفرس (من عام ٤٨٤ م — ٤٨٨ م) أنه لما أمر بإنشاء الحمامات للناس في مـدن مملكته جلب على نفسه سخط الكهنة[4]؛ لأنهم رأوا في ذلك انتهاكا لحرمة الدين[5]. ولما جاء قباذ بعد ذلك واستولى على مدينة آمد، ودخل أحد حماماتها العامة سُرَّ به كثيراً، وأمر أن يُبنى حمام مثله في كل مدينة من مدن فارس[6].
ويذكر الطبري، وهو من مؤرخي العرب المتقدمين، أن الفرس لم يكن لهم قبل الإسلام حمامات[7].

على أن المتشدِّدين من المسلمين كانوا دائماً ينظرون إلى اتخاذ الحمامات العامة نظرة الارتياب. ويحكى عـن أبي بكر الشلَمي (المتوفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م) أنه قيل له: لو حلَقتَ شعرك في الحمام: فقال: لم يثبت عندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حماما قط[8]. ويحكى عن الزمخشري أنه قال: ويُكرَه أن يعطي

(١) كتاب البخلاء طبعة فان فلوتن ص ٥٧، وانظر شعراً في العقد ٢٩٦.
(٢) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٣٩٢.
(٣) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارسي.
(٤) Josua Stylites, ed. Wright § 19.
(٥) ترجمة الطبري لنولدكه ص ١٣٤ هامش رقم ٥.
(٦) Land, Anecdota, III. 210. انظر Josua Stylites, § 75.
(٧) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٩.
(٨) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٣١.

الرجلُ امرأتَه ُأجرة الحمام ، لأنه يكون معيناً لها على المكروه[1] . وقد ذكر الخليفة القاهر عام ٣٢٢ هـ ــ ٩٣٤ م عن أحد سلفه أنه بنى « حمامات رومية » للحرَم ، وهذا الإسم الذي أطلقه عليها القاهر لا يخلو من دلالة[٢] .

أما زخرفة الحمامات فلم تكن إسلامية بالكلية ، ففي حمامات سامرّا كانت الدرجات تزَيَّن بالصور بدلا مــن البلاط المختلف الألوان ؛ وهذه عادة كانت بالشام ، وترجع إلى العصر الأخير من الحضارة اليونانية في الشرق[٣] . وقد ذكر المسعودي أن الناس كانوا يصوّرون العنقاء في الحمامات ، والعنقاء صورة لحيوان خيالي عند الشرقيين وهي تمثل بطائر وجهه وجه إنسان ، وله منقار نسر ، وأربعة أجنحة من كل جانب ويدان ذواتا مخالب[٤] .

ويؤثر عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : بئس البيت الحمّام ، تـكشف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله[٥] .

وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام[٦] ، وكان في جانبي بغداد في النصف الأول من القرن

---

(١) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ١٧ .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٩ ؛ وكان يسمى المكان الذي تخلع فيه الملابس باسم مأخوذ من السريانية وهو كلمة مشلح (المغرب لابن سعيد ص ٤٣) ، وكان أهل الشام يسمون آجر الحمام بالقراميد ، وهو اسم مأخوذ من الرومية Keramidi – أنظر المعرّب للجواليقي ؛ طبعة سخاو ص ١١٦ .

(٣) Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra, Berlin 1912, S. 24.

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٩ .

(٥) مطالع البدور ج ٢ ص ١٧ .

(٦) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٤ .

الرابع عشرة آلاف[1] ، وفي النصف الثاني كان بها خمسة آلاف فقط[2] ؛ وهذا العدد لم يزل في نقصان ، حتى يذكر في القرن السادس أنه كان في بغداد ألفا حمَّام[3] . وكانت الحمامات تُطلى بالقار وتسطّح به ، حتى يُخيَّل للناظر أنها مبنية من رخام . وكان هذا القار يُجلب من عين بين البصرة والكوفة[4] .

أما بمصر فلم تكن العناية بإنشاء الحمامات كبيرة مثل ما كانت بالشام ؛ فيذكر لنا المقريزي أنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما ؛ وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م ثمانين حماما فقط[5] . وكان يقوم بخدمة الحمام خمسةُ نفر على الأقل : حمَّاميٌّ ، وقيِّم ، وزبَّال — لأن الوقود في الحمامات كان في الغالب من الزبل اليابس — ووقّاد ، وسقَّاء[6] .

أمر أبو جعفر المنصور في عام ١٥٣ هـ بلبس القلانس الطوال ، والدراريع مكتوب عليها بين كتفي الرجل : فسيكفيكهم الله ؛ كما أمرهم بتعليق السيوف في أوساطهم ؛ فدخل عليه أبو دُلامة ، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابسِ التي أمر بها الخليفة ، فقال له : كيف أصبحتَ يا أبا دلامة ؟ قال : بشرٌ ، قال المنصور : كيف ؟ ويلك ! قال : ما ظنُّكَ برجل ، وجهُه في نصفه ، وسيفه في أسته ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فأمر المنصور بتغيير الزي ، وقال أبو دلامة هذا ، لما أمر المنصور بما أمر به :

---

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ١٦ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ٧٦ ؛ وجاء في ص ٧٤ أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، وهذا فيه مبالغة وتخيل؛ أما السبعة والعشرون ألفا فيجب أن تؤخذ على أنها عدد المساجد لا الحمامات.

(٣) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٨٠ . ورحلة ابن جبير ص ٢٣٠ .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ .

(٥) الخطط ج ٢ ص ٨٠ .

(٦) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٤ .

وكنـــا نرجّي مــــن إمام زيادةً فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هـــام الرجال كأنها دنان يهود جُلّلت بالبرانس[1]

ولما اتصل أهل أوربا بالشرقيين أيام الحروب الصليبية نقلوا إلى بلادهم هذه القلانس الطوال ، ومعها الخُمر ، وجعلوها لباس النساء في الغرب[2] .

ولما جاء المستعين (٢٤٨ ــ ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ ــ ٨٦٦ م) صغّر القلانس ، بعد أن كانت طوالا كأقباع القضاة[3] ، وأحدث المستعين أيضاً لبس الأكمام الواسعة التي لم تكن تُعهد من قبل ، فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك[4] . وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب ،

---

(١) لب اللباب في رد جوابات ذوي الألباب ؛ مخطوط رقم ٨٣١٧ بمكتبة برلين ص ١٢٤ ا ، وكتاب أوليات على دده ، مخطوط برلين رقم ٩٣٧٢ ص ٥٨ ا ، وكانت هذه القلانس تدعم بعيدان من داخلها (الاغاني ج ٩ ص ١٢١) ، ولما فتح عباد بن زياد الهند ووصل قندهار راى قلانس أهلها طوالا ، فعمل عليها (الفتوح للبلاذري ص ٤٣٤) . وكانت القلانس والمناطق في نظر العرب الجاهليين من لباس الفرس Jacob Aarab Beduinenleben, S. 237 . وكان الرشيد لا يحب هذا التجديد الذي أحدثه المنصور ، فيحكي الجاحظ أن الغماني الراجز دخل على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال له : إياك أن تنشدني ، إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان ومالقان (البيان والتبيين ج ١ ص ٤٢) . ويحكي المسعودي (المروج ، ج ٨ ص ٣٠٢) أن المعتصم أعاد لبس القلانس تشبهاً بملوك الأعاجم ، فلبسها الناس اقتداء بفعله وسميت المعتصميات . وكان زي اهل مصر حوالي عام ٢٣٠ وجمال شيوخهم واهل الفقه والعدالة منهم لبس القلانس الطوال ، وكانوا يبالغون في ذلك ، فامرهم محمد بن الليث القاضي بتركها ، لأنها من لباس القضاة وزيهم ، فلم ينتهوا ، حتى ضربهم (القضاة للكندي ص ٤٦٠) .

(٢) وكان من العادات النادرة بفرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي لبس منطقتين ، واصلها عادة شرقية ، انظر Jac. Falcke, Gesch. des Geschmackes im Mittelatter S. 66.

(٣) مروج الذهب ٨ ص ٤٠٢ .

(٤) نفس المصدر .

يحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه ، مثل الدنانير[١] والكتب ؛ وكان المهندس يضع فيها ميله[٢] ، والصيرفي يجعل فيها رقاعه[٣] ، والخياط يجعل فيها الجلم[٤] ، والقاضي يضع فيها الكراسة التي يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة[٥] ، والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها[٦] .

وكان بعض العمال يحفظ المستندات في خفّه ، ويحكى عن الحسن بن مخلد ، وزير المعتمد ، أنه لما كان كاتباً بين يدي الموفّق بن المتوكل سأله يوماً : كم عنده في الخزائن من ثوب أعجبه ؛ فأخرج من خفه دستوراً فيه جُمَل ما في الخزائن من الأمتعة والثياب ، وأجاب الخليفة بما أراد[٧] .

وكان بعض الندماء يضعون مخازن مملوءة أدهاناً في خفاف غلمانهم أو اللّفّات مدرجة في المناديل ، فإذا أمضهم الجوع وشحذهم الشراب تناولوا ما أعدوه من ذلك[٨] .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري وأواخره نسمع أنه كان من عادة الظرفاء اجتناب لبس الثياب ذات الألوان ، لأنهم كانوا يعتبرون ذلك من شأن النساء والإماء . وكان أقصى ما يجوز للإنسان أن يلبسه من

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٤ ؛ والمكتبة العربية الاسبانية ج ٣ ص ٤٩ . وحكى التوحيدي (رسالة في الصداقة ص ١١) عن محمد بن علي بن الحسين الباقر رضي الله عنه انه قال لأصحابه : أيدخل احدكم يده في كم صاحبه . فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن بإخوان .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٩ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٩ .

(٤) مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٥ .

(٥) الخطط ج ١ ص ٣٩٠ .

(٦) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٦٩ ؛ وكانت الأكمام في عصر الاسلام الأول طويلة حتى كان يقص منها ما زاد على الأصابع (بستان العارفين ص ٩٠) .

(٧) الفخري ص ٢٩٨ .

(٨) أدب النديم ص ١٥ ١ .

الملوّن ، في خاصة بيته وفي أيام الاحتجام وفي حلقات الشراب ؛ أما في الشوارع فلم يكن اتخاذها يعتبر من شأن الظرفاء . وكان يحسن بسروات الناس لبس الثياب البيض ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الجنة بيضاء وخير أثيابكم البيض ، تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم[1] » .

ويحكى عن عطاء بن رباح في العصر الأموي أنه لقي ابن سرَيْج في أحد شوارع المدينة ، وعليه ثياب مصبّغة ، وفي يده جرادة مشدودة رجلها بخيط ، يطيّرها ، ويجذبها كلما تحلّقت ، فقال له عطاء : يا فتّان ! ألا تكفّ عما أنت عليه ! كفى الله مؤونتك ! فقال ابن سريج : وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي[2] !

ولا يجيز أهل الظرف والأدب لبس شيء من الثياب الدنسة مع ثياب مغسولة ، ولا المغسول مع الجديد ، ولا الكتان مع المروي ؛ وهم يرون أن « أحسن الزي ما تشاكل وانطبق ، وتقارب واتفق[3] » .

وكان البياض من لبس الرجال ، وكان أيضاً لباس النساء المهجورات ؛ أما غيرهن فيجتنبنَه إلا أن يعملن منه سراويلات . ولا يتلبَس الملوّن إلا إذا كان لونه طبيعياً ، لأن الألوان غير الطبيعية من لبس النساء النبطيات والإماء والمتقيّنات .

وكان الأزرق في المشرق لبس الحداد[4] ؟ أما في الأندلس فكان البياض يلبس لذلك[5] .

---

(١) بستان العارفين ص ٩٠ .

(٢) التذكرة الحمدونية ص ١٤٨ ا .

(٣) الموشى ص ١٢٤ ؛ والمرواة للثعالبي ص ١٢٩ ب .

(٤) الموشى ص ١٢٦ ؛ وديوان كشاجم ص ١٦٩ ؛ وكتاب العيون ص ١١٠ ا ـ ب .

(٥) الطراز الموشى ص ٢٠٢ .

وكانت السراويلات مما يكمل به لباس الرجال ، وهي لباس غير عربي[1] .

وكانت طوائف العمال الثلاثة الكبرى تتميَّز بلباسها ، فكان الكتاب يلبسون الدراريع[2] ، وهي ثياب مشقوقة من المصدر ؛ وكان العلماء يلبسون الطيلسان[3] ، وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة .

وقد صار القباء لباساً رسمياً لرجال الدولة حوالي عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢ م ، حتى كان لا يدخل المقصورة في يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود ، وحضر بعضهم مرة بدرّاعة ، فرُدّ ، حتى مضى ولبس القباء ، وكان هذا الرسم جاريا مأخوذاً به في سائر مقاصير الجوامع ، ثم بطل فيما بعد ، حتى يحدثنا الخطيب البغدادي حوالي عام ٤٠٠ هـ أنه كان لا يلبس القباء والسواد سوى الخطيب والمؤذنين[4] .

وكان التاجر الغني أو الغني من الناس يلبس قميصين ورداء فوق السراويلات ، وهذا كان لباس الخليفة القاهر يوم أُحضر للبيعة في عام ٣٢٠ هـ ــ ٩٣٢ م[5] .

ويحكى عن أبي بكر الفرغاني الصوفي (المتوفى عام ٣٣١ هـ ــ ٩٤٣ م) أنه لم يكن يُرى أحسن منه ممن يُظهر الغنى في الفقر ؛ وكان

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٥٢٨ مثلا ، وكتاب الوزراء ص ١٧٦ ، وجمع السراويل سراويلات (الموشى ص ١٢٦) .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٠٨ .

(٣) وكان اتخاذ الطيالس شائعاً بمدينة شيراز حتى يقول المقدسي (ص ٢٤٩) : « ولا ترى بها لصاحب طيلسان مقداراً ، ولقد رأيت أهل الطيالس سكارى » . وهو لم يرض أن يقابل الوزير بطيلسان .

(٤) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٥ ا .

(٥) عريب ص ١٨٢ .

يلبس قميصين ورداء وسراويل ونعلا نظيفاً وعمامة ، وفي يده مفتاح ، وليس له بيت ، ينطرح في المساجد ويطوي الخمس والست[1] .

ثم حل الخفتان محل الملابس العربية ، فيُحكى عن سعيد الشاعر المعروف بقاضي البقر أنه ركب إلى الأخشيد في ليلة شتاء باردة ، وعليه ملابس منها الخفتان[2] . وكان الخفتان أيضاً من جملة ملابس أدباء الشام[3] . ولما ركب الخليفة المقتدر عام ٣٢٠ هـ ــ ٩٣٢ م لقتال مؤنس ، وهي ركبته التي قتل فيها ، كان عليه الخفتان[4] . أما المِمْطر الذي يعمل من القماش المشمّع للوقاية من المطر ، بحيث لا يمكن أن ينفذ منه الوابل ، فقد جاء من الصين . وقد سأل البحتري (المتوفى عام ٢٨٤ هـ ــ ٨٩٧ م) ، في قصيدة من قصائده ، ممدوحَه أن يَهَب له مِمطراً يتّقي به المطر[5] . وقد وصف المقدسي قلة المطر في اليمن بأن أهلها لا يرد ذكر المماطر في كلامهم[6] .

أما الجوارب فكان يلبسها الرجال[7] والنساء على السواء[8] .

وكان لبس الخفاف الحمر معيباً ، وإن كان قد لبسها قيصر الروم وعامة المسلمين ؛ وكان وليّ العهد عند الروم البوزنطيين يلبس خفا أحمر وخفا أسود[9] ، كما كان يلبس ذلك أهل الخيلاء من المتطرفين المتخنثين الجهال .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٣ طبعة ليدن .
(٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٣ .
(٣) الصنوبري في جمهرة الاسلام للشيزري مخطوط ليدن ص ١١٣ ب .
(٤) عريب ص ١٧٧ .
(٥) ديوان البحتري ج ١ ص ١٨٥ .
(٦) المقدسي ص ٩٦ .
(٧) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٤٣ ، وكانت الابريسم أو الخز .
(٨) الأغاني ج ٦ ص ٨٥ .
(٩) الموشى ص ١٢٥ ، وابن خرداذبة ص ١٠٩ .

وقد جرت العادة دهراً طويلا بأن يلوي الغلمان والجواري شعر أصداغهم على صورة حرف (ن) أو على صورة العقرب . ويقول ابن المعتز :

لوى صدغه كالنون من تحت طُرَّة مُمَسَّكة تزهي بعاج جبين

ويقول :

ريم يتيه بحسن صورته عَبَثَ الفتورُ بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته[1]

وقد تغنى أبو نواس بذلك قبل ابن المعتز بمائة عام فقال :

أصداغهن معقربا ت والشوارب من عبير[2]

وكان القوط الشرقيون يصبغون شعورهم باللون الأخضر ؛ فلما رآهم أهل أوروبا الجنوبية ذعروا منهم . وكان أهل تراقية يصبغون شعورهم الشقراء باللون الأزرق[3] .

وكانت عادة خضاب الشعر منتشرة في بلاد الشرق ، سواء في جزيرة العرب أو في إيران ، حتى اختلف العلماء في حكم الشرع فيها . ونجد أبا نُعَيم ، صاحب تاريخ أصفهان (المتوفى عام ٤٣٠ هـ — ١٠٣٩ م) حريصا على أن يذكر في ترجمة رجاله ، إن كانوا يخضبون شعورهم أم لا . بل هو يحكي عن أبي إسحاق إبراهيم بن أيوب العنبري — وكان صاحب تهجُّد وعبادة ، لم يُعرف له فراش" أربعين سنة — أنه كان يخضب رأسه ولحيته[4] . على أنه يظهر أن عادة

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٦ ، ٧٠ .
(٢) ديوان ابي نواس ص ٨٢ — ٨٣ .
(٣) Gebhart, Italie Mystique. ؛ وانظر Thomascheck, Die Thraker. .
(٤) تاريخ اصفهان، مخطوط ليدن ج ١ ص ٩٨ ا ، ١٠٨ ا ، ١٢٢ ا ، ص ٢٥ ب.

الخضاب هذه كانت نادرة بين سروات الناس ، ولذلك نجد صاحب الفهرست في الترجمة القصيرة التي كتبها لأبي الحسن المنجّم ، وكان أديباً وممن يجالس الخليفة ، يذكر في شيء من التأكيد أنه كان يخضب إلى أن مات عام ٣٢٥ هـ ، وله من العمر ست وسبعون سنة[١] .

وقد كان من الذوق المتكلف في العصر الأخير لقياصرة الرومان أنهم كانوا يدخلون في حلبات السباق غنما مصبوغة باللون الياقوتي ، وثيراناً مصبوغة باللون الأبيض ، وسباعا مصبوغة لِبَدُها باللون الذهبي ، ونعامات مصبغة باللون الأحمر القاني[٢] . ولم يحدثنا عن مثل هذا أحد من مؤلفي القرن الرابع الهجري ؛ على أني شاهدت في بغداد في أيامنا حميراً مصبوغا نصفها باللون الأحمر ، كما رأيت حَماما مصبوغا باللون الوردي الجميل ، يطير في خضرة سماء المساء وربما يكون هذا من بقايا تلك العادات القديمة .

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت من جديد فيما يتعلق بالمقابر عادة غير إسلامية بالكلية ، وهي بناء الكبراء لأنفسهم في حياتهم ترباً ليُدفنوا فيها بعد مماتهم . وأول من فعل ذلك أم المقتدر ، وهي أم ولد رومية ، بنت لنفسها تربة بالرصافة[٣] . وكذلك بنى الخليفة الراضي (المتوفى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م) تربة بالرصافة أيضاً[٤] . ثم بنى معز الدولة (المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م) تربة في مقابر قريش[٥] . وعمّر الطائع بعد ذلك تربة لنفسه بالرصافة[٦] . وفي هذه الناحية ظهرت عدا

---

(١) الفهرست ص ١٤٤ .
(٢) v. Gleichen-Russwurm, Elegantiae S. 461.
(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٣ ، طبعة ليدن .
(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ١٦٩ .
(٥) نفس المصدر ص ١٠٢ .
(٦) ديوان الشريف الرضي ص ٦٦٦ .

ذلك مجموعة عادات أخرى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام ، ثم رسخت أصولها ؛ فقد نُهي كثيراً عن الصياح على الجنائز ، ولكن النهي لم يُثمر .

ففي سنة ٢٥٠ هـ ــ ٨٦٤ م كانت تُشق الجيوب وتُصبغ الوجوه بالسواد ، وتُقصّ الشعور بمصر[١] . وقد منع العامل من ذلك وسجن النائحات . وكذلك حدث في عام ٢٩٤ هـ ــ ٩٠٧ م[٢] .

ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله ، فحظر عام ٣٩٤ هـ على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز والبكاءَ والعويلَ وخروجَ النائحات بالطبل والزمر على الميت[٣] .

ولما قُتل الحجاج ونُكبوا على يد الجنّابي خرج نساءٌ بغداد إلى الطرقات مسوّدات الوجوه ، منشرات الشعور ، يصرخْن ويلطمْن[٤] .

وفي عام ٣٠٥ هـ ــ ٩١٧ م مات غريب خال المقتدر ، فأمرت أم المقتدر بهدم القبة الخضراء التي كان قد بناها لنفسه ببغداد ، وبتحطيم طياره ومركبه على نهر الدجلة[٥] .

ولما مات زيرك الخادم القاهري عام ٣٣٩ هـ ــ ٩٤١ م اشتد عليه حزن الراضي ، وخرج من داره مستوحشاً وانتقل إلى الشماسية ــ وهذه

---

(١) الولاة للكندي ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٦ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٥ ب .

(٤) كتاب الوزراء ص ٤٩ .

(٥) كتاب العيون والحدائق ص ٩١ ب .

عادة معروفة عند شعوب كثيرة ــ وصبّ من دنان المطبوخ أربعمائة دن في دجلة حزناً على زيرك[1] .

وقد أوصى أبو الفضل الهمذاني إذا جاءه الحق وتوفاه الموت ، ألا تُعقدَ عليه مناحة" ولا يُلطم خد ، ولا يُخمش وجه ، ولا يُنشر شعر ، ولا يُمزق ثوب ، ولا يُشق جيب ، ولا يُهال نقع ، ولا يُرفع صوت ، ولا يُدعى ويل ، ولا يُسوَّد باب ، ولا يُحرق متاع ، ولا يُقلع غرس ، ولا يُهدم بناء ؛ وأن يُكَفَّن في ثلاثة أثواب بيض لا سرف فيها ؛ وحرج على من يتولى أمره أن يقرنه ثوب خيلاء من مُطرّز أو معلم أو إبريسيم أو منسوج بذهب[2] .

وكان يعمل في تغسيل الكبراء وتكفينهم من الترف والسرف ما هو غريب عن الإسلام ؛ فيحكى أنه لما مات الأمير سيف الدولة بن حمدان عام ٣٥٦ هـ ــ ٩٦٧ م غُسل تسع مرات ، أُولاها بالماء ثم بزيت النيلوفر ثم بالصندل ، وبعد ذلك بالضريرة ثم بالعنبر ثم بالكافور ثم بماء الورد ، وغُسل بعد ذلك ثلاث مرات بالماء المقطر ، ونشف بعد غسله بديبقي ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل ، وهو قاضي الكوفة ، إلى جانب أجرته ؛ ثم دهن بالزعفران والكافور ووُضع على خديه ورقبته مائة مثقال من الغالية ، وفي عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالاً من الكافور وبلغ ثمن كفنه ألف دينار ، ثم وُضع في تابوته ورُشّ عليه الكافور[3] .

وفي عام ٣٧٥ هـ ــ ٩٨٥ م مات تميم بن المعز ، فكُفّن في ستين

---

(١) نفس المصدر ص ١٨١ ا ــ ب .
(٢) رسائل الهمذاني ص ٥٣٦ وما بعدها .
(٣) ابن شداد مخطوط بيروت ص ٥١ ؛ وقد تفضل الدكتور سراسين (W. Sarasin) باطلاعي على هذا النص .
(٤) الوفيات لابن خلكان (طبعة فستنفلد) ج ٣ ص ٢٣ .

ثوباً[٤] . وقيل إن ابن كلّس لما تـوفي عام ٣٨٠ هـ ــ ٩٩٠ م كـُفـّن وحفظ بما قيمته عشرة آلاف دينار[١] .

وكان للنداء على الموتى صورة لم ينكرها رجال الشريعة ، إذا نادى الناس في جنائز العلماء بمثل ما كان جماعة ينادون بين يدي الخطيب البغدادي قائلين : « هذا الذي كان يذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي كان ينفي الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي كان يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٢] ، وبمثل ما قاله جماعة بين يدي نعش أحد العلماء : لا ينال الشفاعة إلا من أحب السنة والجماعة[٣] .

وكثيراً ما كان العلماء يـُدفنون في دورهم ، ثم ينقلون بعد عدة سنين إلى المقبرة[٤] .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع ظهرت بين الشيعة عادة لا تزال باقية إلى اليوم ، وهي حمل موتاهم إلى النجف وكربلاء[٥] . وهذه أيضاً إنما كانت جريا على عادة قديمة ؛ فيحكي لنا القمي العالم الشيعي

---

(١) النجوم الزاهرة طبعة كاليفورنيا ص ٤٦ نقلا عن الذهبي .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٥ .

(٣) ابن بشكوال ص ١٣٤ ، ويظهر أن هذه العادة كانت منتشرة في الأندلس .

(٤) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٥٧ (ترجمة إمام الحرمين) ؛ وكذلك قاضي القضاة عبد الله بن معروف المتوفى عام ٣٨١ هـ (المنتظم لابن الجوزي ص ١٣٣ ب) ؛ والاسفرايني المتوفى عام ٤٠٦ هـ ببغداد ، ولم ينقل إلى المقبرة إلا سنة ٤١٠ هـ (الوفيات طبعة فستنفلد ج ١ ص ٣٥) ؛ والقاضي عبد الجبار المعتزلي قاضي قضاة الري (توفي عام ٤١٠ هـ ــ طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٢٠) ؛ والقدوري المتوفى عام ٤٢٠ هـ (الوفيات ج ١ ص ٣٨).

(٥) انظر الفصل الخاص بالشيعة .

(المتوفى عام ٣٨١ هـ ـــ ٩٩١ م) أن اليهود والنصارى في عصره كانوا لا يزالون يدفنون موتاهم في فلسطين[١] .

* * *

وكانت صور الدعوات إلى المجالس تتناسب بالضرورة مع مقتضيات عادة البلغاء المعقدة في ذلك العصر ، وفي هذا الباب نجد كثيراً من القطع الأدبية التي تتجلى فيها الصنعة إلى حدّ لا يروقنا رغم ما فيه من بلاغة لفظية[٢] ، فمن ذلك أن الصاحب بن عبّاد كتب لأحد أصحابه : « نحن يا سيدي في مجلس غنيّ إلا عنك ، شاكر إلا منك ؛ قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردّت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفنقت فارات النارنج ، ونطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، واهتزت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وقام منادي الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندّ ؛ فبحياتي لما حضرت ! لنحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد »[٣] .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري كان الوزير أبو الحسن علي بن الفرات يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعةً من الكتّاب الذين اختص بهم ، وكان منهم أربعة نصارى ؛ « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويُقدَّم إلى كل واحد منهم طبقٌ فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه

(١) كتاب العلل ، مخطوط برلين رقم ٨٣٢٨ ص ١١٥ ب ؛ ولما مات علي ابن الاخشيد عام ٢٥٥ هـ حمل في تابوت إلى البيت المقدسي ودفن مع أخيه ووالده بباب الاسباط (الكندي ص ٢٩٦) .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٨٠ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٨١ .

من سفرجل وخوخ وكمثرى ؛ ومعه طست زجاج يرمي فيه الثفل ، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشاة بديبقي فوق مكبّة خيازر ، ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها ، وحواليها مناديل الغمر ... فإذا وضعت رفعت المكبّة والأغشية ، وأخذ القوم في الأكل ، وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم ؛ فلا يزال على ذلك ، والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين ، ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ، ويغسلون أيديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الديبقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم »[1] .

وإنما ذكر وضع ألوان الطعام بعضها بعد بعض ، لأنه كان عادة مستحدثة ؛ أما العادة الإسلامية القديمة فكانت تقضي بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة ، ليأخذ كلٌ واحد منه ما يشتهي[2] . وكانت هذه الطريقة ، أعني وضع الطعام كله مرة واحدة ، هي الطريقة الفرنسية في القرن الثامن عشر التي حلّت محلها الطريقةُ الروسية الشائعة الآن في أوربا كلها .

وكان غسل المدعوين أيديهم معاً على المائدة قبل الطعام عادة شائعة ؛ ويكون غسل الأيدي من وعاء واحد ؛ ويبدأ رب البيت ، لئلا يحتشم أحد[3] ، أعني من التقدم للطعام أولا . أما الغسل بعد الطعام فكان أشبه بتنظيف حقيقي ، ورب البيت يغسل بعد جميع ضيوفه ،

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) المستطرف ج ١ ص ١٤٩ ، وغير ذلك من الحكايات القديمة .

(٣) كتاب العلل للقمي المتوفى عام ٣٨١ هـ مخطوط برلين ص ١١٢ ب ، وأدب النديم لكشاجم ، مخطوط باريس ص ٤٨ ب .

وذلك بأن يبتدي الدور عن يساره ، ثم يسير ، حتى ينتهي إليه ، فيكون آخر من يغسل[1] . أما إذا كان الغسل مع الرؤساء ، لا مع النظراء ، كأن يكون الإنسان مع الوزير مثلا . فكان الأليق أن يغسل الضيوف أيديهم في ناحية خاصة ؛ ويقول كشاجم في أمر غسل اليد : قد اصطلح الناس على إجلال رؤسائهم وملوكهم عن غسل أيديهم بحضرتهم ، واستجازوا ذلك مع نظرائهم ومن يسقط التحفّظُ بينه وبينهم ؛ ولو آثر الناس الاعتزال لغسل الأيدي مع كل طبقة ، حتى لا يرى بعضهم بعضاً ، لكان ذلك عندي أليق بالظريف ، لما يحتاج إليه الإنسان من استقصاء الغسل والمبالغة في التنظيف وإجالة الأنامل في اللهوات والخلال في الأسنان « مما لا يشك أحد أن ستره عن عين المحب والمبغض والرفيع والمتواضع أحمد من اطلاعه عليه ؛ وإن المرء ليتأذى أن يرى ذلك من نفسه فكيف من غيره ؟ وربما يَحسن الرئيسُ ويَجمل ، فيقول لنديمه : اغسل يدك مكانك ولا تنزعج ! فالغبي يغتنم ذلك ، والفطن يأباه ، ويغلّب الأدب ويستفيد الحظوة »[2] .

وكانت هذه العادة شائعة ؛ ففي العراق مثلا كان الخاصة ينتظرون من العامة أن يقوموا عن مجلسهم ، ليغسلوا أيديهم جانبا[3] . ويحكى أن الأفشين كان حظياً عند المعتصم ، فكان أول غضبه عليه أنه أكل عنده يوماً ، ثم دعا بالطست ، فغسل يديه بحيث يراه المعتصم ، فقال المعتصم : هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست ، حيث أراه ![4] .

---

(١) كتاب العلل ص ١١٢ ب ؛ وأدب النديم ص ٤٨ ب ؛ وقد ذكر القمي ، وهو من اهل خراسان ، عادة اخرى ، وهي أنه إذا فرغ من الطعام يبدأ الفسل عن يمين الباب حرّاً كان الجالس أو عبداً .

(٢) أدب النديم ص ٤٨ ا ــ ب ، ٤٩ ا ــ ب .

(٣) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٤٧ ؛ ومروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٠٤ .

(٤) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٦٧ .

وكان أحد كبراء البربر الأكراد بمصر أيضاً يقدم الطعام إلى ضيوفه ؛ حتى إذا فرغوا منه ، دعاهم إلى غرفة أخرى ليغسلوا أيديهم[1] . ويظهر أن عادة الاعتزال لغسل الأيدي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، كما تدل عليه الحكاية التالية : كان عيسى بن يزيد بن دأبٍ الليثي (المتوفى عام ١٧١ هـ) من رواة الأخبار والأشعار ومن حفاظها ، وكان تيّاها ، ينادم الهادي ولا يتغدّى معه ولا بين يديه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أنا لا أتغدّى في مكان لا أغسل فيه يديّ ، فقال له الهادي : فتغدّ ، فكان الناس إذا تغدّوا ، تنحّوا لغسل أيديهم ، وابن دأب يغسل يديه بحضرة الهادي[2] : وتخليل الأسنان كان لا بد أن يُعمل جانبا كما تقدم القول[3] .

يقول ابن المعتز في نديم لا تُحمد صحبته :

مَنْ عذيري من صاحب خادع الوعـ ... ـد وهذا مـن الأخلاّء بختي !
أبـداً ماشيـاً ، ويمسح نابـاً ... بسـواك كمضرب البردست[4]

وهو حين يذكر أن الوزير كان يحادث ضيوفه على الطعام يصف أيضاً عادة زمانه . على أن الناس قد اختلفوا في موقع الحديث على الطعام ، فاستحسنه قوم ، وكرهه آخرون ؛ وهو من صاحب المنزل والمائدة أحسنُ منه من الآكل والزائر ، كما قال بعضهم :

صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى ... إن الحديث طرفٌ من القرى

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٢ (f) .
(٢) الارشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٥ .
(٣) أدب النديم ص ٤٨ ب .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦ .

واستجيد قولُ بعض المحدثين[1] :

كيف احتيالي لبسط الضيف من خجل عند الطعام! فقد ضاقت به حِيَلي
أخاف ترداد قول لـي فأحشمه والصمت يُنزله مني على البخل

وكان قول الإنسان : « الحمد لله » في وسط الطعام غير مستحسن؛ لأنه يدفع الأضياف إلى النهوض قبل أن يشبعوا ، ومن المأثور قول بعضهم :

وحَمْدُ الله يحسن كل وقت ولكن ليس في وقت الطعام
لأنك تحشم الأضياف عنـه وتأمرهـم بـإسراع القيـام
وتؤذنهم ، وما شبعوا ، بشبع وذلك ليس من خُلق الكرام[2]

ويستحسن الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ ــ ٨٦٩ م) من النديم ألا يمشّش العظام ، ولا يبادر إلى البيض الموضوع على البقل ، ولا يأخذ لنفسه أكباد الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون ــ وهي لا تزال حتى اليوم أحب ما في الشاه إلى أهل البلقان ــ أو صغار الفراريج[3] . ولكن بعد الجاحظ بقرن يذكر صاحب كتاب الموشّى في باب ذكر زيّ الظرفاء في الطعام : اعلم أن أول ما استعملوه تصغير اللقم ، والتجلل عن الشره والنهم ، وأكل الأوساط الرقاق ، والبِزْماورد الدقاق ؛ وليس يأكلون العصبة والعضلة ، ولا العرق

---

(١) أدب النديم ص ٤٤ ب ــ ٤٥ ب .

(٢) « أدب النديم » ص ٤٥ ب ، « وأحسن ما سمعت » ، للثعالبي طبعة مصر ١٣٢٤ هـ ص ١٠٣ .

(٣) عمد المنسوب للثعالبي في مجلة جمعية المستشرقين الالمان .ZDMG. VIII, S. 518 (وهو كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) . وكان القصابون يذبحون كثيرا يوم الجمعة ، فيأكل الناس اللحم يوم الجمعة ، ثم تؤكل الرؤوس يوم السبت (كتاب البخلاء للجاحظ طبعة فان فلوتن ص ١٢١) ، ولذلك كان الناس بالأندلس ، حتى بعد العصر الاسلامي بزمان طويل ، يأكلون رؤوس الغنم يوم السبت ، انظر Mendoza, Lazarillo de Tormes, Reclam, S. 31.

والكلوة ، ولا الكرش والقبَّة ، ولا الطحال والرئة ، ولا يأكلون القديد، ولا الثريد ، ولا ما في القِـدر من الورق ، ولا يتحسَّون المرق ، ولا يتبعون مواضع الدسم ، ولا يملؤون أيديهم بالزهم ، ولا يجللون الملح ، وهو عندهم من أكبر القبح ، ولا يكوكبون في الخل ، ولا يمعنون في أكل البقل ، ولا يأكلون الطلع الشبيهة رائحته برائحة الماء الدافق ، ولا يمششون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ ، وإنما مشاشهم ما لان وصفه لا ما غلظ وكبر ، ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهور الأصابع ، ويطرحونه ناحية من الخوان ، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان ، ولا يتعدون مواضعهم ، ولا يلطعون أصابعهم ، ولا يملؤون باللقم أفواههم ، ولا يدسّمون بكبرها شفاههم ، ولا يقطرون على أكفّهم ، ولا يعجلون في مضغهم ، ولا يأكلون بجانبي الشدقين ، ولا يزاوجون بين الاثنين ، ولا يأكلون قدراً بائتة ولا قدراً مسخنة ، ولا يأكلون شيئاً من الكوريج والصحناة ، ولا الربيثاء والسميكات ، ولا شيئاً من الكواميخ والمالح ؛ وأكل ذلك عندهم من الفضائح[1] .

ولم يكن يفرد لأحد من الضيوف طبق" على حدة ؛ ويحكى عن أبي رياش (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) أنه كان آية في حفظ أيام العرب وأنسابها وأشعارها ؛ ولكنه كان وسخ اللبسة ، قليل التنظيف ، شَرِهاً على الطعام ، سيىء الأدب في المؤاكلة ؛ دعاه إلى البصرة أبو يوسف اليزيدي (؟) إلى مائدته يوماً ، فلما أخذ في الأكل مدّ يده إلى بضعة لحم ، فانتهشها ، ثم ردّها إلى القصعة ؛ فكان بعد ذلك إذا حضر مائدته أمر بأن يهيّأ له طبق" ، ليأكل عليه على حدة . ودعاه الوزير المهلبي يوماً إلى طعامه ، فامتخط في منديل الغمر وبزق

---

(١) كتاب الموشى ص ١٢٩ – ١٣٠ .

فيه ؛ ثم أخذ زيتونة من قصعة ، فغمرها بعنف ، حتى طفرت نواتها ، فأصابت وجه الوزير[1] .

وقد نال فن الطبيخ عناية كبيرة من جانب المؤلفين ، حتى نجد أبا الحسن علي بن هارون المعروف بالمنجّم ، وكان ممن يجالس الخلفاء ؛ وإبراهيمَ بن المهدي ، وكان أميراً يحسن الغناء ؛ وجحظة ، وكان شاعراً مجيداً ، نجدهم جميعاً يؤلّفون كتباً في الطبخ في القرن الثالث الهجري[2] ؛ بل يذكر للمؤرخ الشهير ابن مسكويه (عاش حتى عام ٤٣٠ هـ) ــ وكان خازن كتب عضد الدولة ــ كتاب" « في تركيب الباجات من الأطعمة » ، « أحكمه غاية الإحكام ، وأتى فيه من أصول علم الطبيخ بكل غريب حسن »[3] . ويقول الهمذاني في أهل اليمن : « ولهم مع ذلك ألوان الطعام والحلاوى والشرَبة التي تؤثر على غايات ألوان كتب المطابخ »[4] . ولكن يظهر أن جميع هذه الكتب قد ضاعت مع الأسف ؛ وكتب الطبيخ التي وصلت إلينا كلها حديثة بالعهد ، وهي تشتمل على ضروب من الطبيخ هي مزيج مُرَوّع ، قوامه اللحم والمسك والكافور وماء الورد[5] ، كما كان إلى ذلك يميل الإيطاليون في عصر النهضة . أما الكتب التي بقيت من العصر الأول[6] ، فتدلّ على ذوق أرَقّ من ذلك ، وهي تجعل ماء الورد والعنبر والكافور لصنع الحلوى . وكانت الحلوى أحسن ما يُصنع في طعام الأعياد ؛ وكانت ، في مظهرها للرائين ، تُصنع بأكبر مهارة بلغها فن الطعام ، فكانت تُصنع قصور" من السكر ، وتوضع في وسط المائدة ؛ ويحكى عن المتنبي مثلا

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) الفهرست ص ١٤٥ .

(٣) اخبار الحكماء للقفطي ص ٣٣١ وما بعدها .

(٤) وصف جزيرة العرب للهمداني ص ١٩٨ .

(٥) حكاية أبي القاسم ص ٣٩ ــ ٤٠ من مقدمة متز .

(٦) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٢ وما بعدها .

أنه قال شعراً يشكر فيه رجلا أهدى إليه هدية فيها سمك مصنوع من سكر ولوز في عسل[1] .

وكان وقتُ المسامرة بمعناها الصحيح ينفصل عن وقت الطعام ، فصلا تاما ، وكان لا يبتدىء إلا مع أقداح الشراب ؛ ولم يكن النبيذ يشرب على الطعام ، حتى في أشد العصور فساداً . وكانت المشهيّات تتألف من أشياء حرّيفة ، وكانت تسمى النُقل ، وربما كان ذلك أخذاً عن الكلمة اليونانية Nogalmata أو الكلمة اللاتينية Nuclei ، وهما تدلان على ما تدل عليه كلمة « نُقل » العربية . وكان أهل التظرف لا يكثرون من أكل النقل ، وإنما يعبثون منه بالشيء اليسير ، ويجتنبون الهندبا والأكشوت لبردهما ، والفجل والحُرْف لنتنهما ، والكراث والبصل لرائحتهما ؛ ولا يقع الثوم أو البصل في قدر ، فيأكلونه ؛ ولا يقربون الخيار والقثاء والهليون ؛ ويرغبون عن أكل الزيتون لنواه ، وكذلك عما خالطه النوى من فاكهة الصيف كالقَسْب والتمر والمشمش والنبق والعناب والخوخ والشاهلوج والأجّاص ، وهو عندهم من أكل العوامّ ، لا من أكل الخواصّ ، ولا يتفق عندهم الرمان والتين والبطيخ لصوْته إذا انكسر ، ولا يأكلون الحنطة المحمّصة ولا السمسم المقلوّ ، ولا الزبيب الأسود ، وهم يشبهونه بالبعر ، ولا يأكلون الباقلّي والبسر المقلوّ والبلوط والقريثاء والغبيراء والشاهبلوط والخرنوب الشامي ونحو ذلك ؛ وأكثر ما يتنقلون به مملوح البندق ، ومقشّر الفستق ، والملح النفطي ، والعود الهندي ، والطين الخراساني ، والملح الصنعاني ، وسفرجل بلخ ، وتفاح الشام ، وقصب السكر المغسول بماء الورد[2] .

---

(١) ديوان المتنبي ص ١٨ ، ط. بيروت ١٢٧٦ هـ — ١٨٦٠ م .

(٢) الموشى ص ١٣٠ — ١٣٢ ؛ وحكاية أبي القاسم ص ٤٨ .

وكان الشراب منتشراً رغم نهي القرآن عنه ، ولكن مسألة الشراب كانت تختلف باختلاف البلاد ، فبينما كان يُعاقب عليه في الحجاز ــ حتى يحكى أنه في عام ١٦٩ هـ ــ ٧٥٨ م قبض عمر بن عبد العزيز على أحد العلويين مع آخرين على شراب ، فأمر بضربهم جميعاً ، وبأن تُجعل في أعناقهم الحبال ، ويُطاف بهم في المدينة ــ كان أهل العراق لا يرون بالشراب بأساً[1] . وانتشرت دور الخمر هناك ، كما كان عليه الحال قبل الإسلام ، وكان الخمّار والساقون والساقيات في الغالب نصارى ؛ ويقول ابن المعتز :

من كفّ ظبي مُقَرْطق غنج   يعشقه من عليه يعذلني
تلوح صلبانه بلبّته   كنوْر خيريّة بلا غصن
يا ليت من جاءه يقرّبه   من فضل قربانه يقرّبني[2]

وكذلك كان حال الشراب في مصر ؛ فيحكي المقدسي أن المشايخ فيها لا يتورّعون عن شرب الخمور ، حتى ترى الشيخ منهم سكران[3]، وذهبت كلُّ أوامر رجال الشرطة سدى . وفي آخر عهد الفاطميين كان يُكتفى بإغلاق قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر ومنع بيع الخمر في آخر جمادى من كل سنة[4] .

ويحكى عن نساء مراكش ، وهي بلاد كثيرة الأعناب ، أنهن كن مولعات بالشراب[5] . ويحدثنا أحد الرحالين المحدثين أنه في أول جني العنب يكون الكثير من أهل مراكش سكارى[6] .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٥٢ .
(٢) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٤ .
(٣) المقدسي ص ٢٠٠ .
(٤) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٩١ .
(٥) زناد الواري ، مخطوط ليدن رقم ١٠٥٣ ص ٦٣ ا .
(٦) Rohlfs, Mein erster Aufenthalt in Marokko, S. 75.

ويحكى عن الأزهري اللغوي المشهور أنه ذهب إلى ابن دريد العلاّمة البصري (المتوفى عام ٣٢١ هـ ــ ٩٣٣ م) ، وقد جاوز التسعين، فوجده سكران ، فلم يعد إليه بعدها أبداً ، وكان زوّاره يدخلون عليه ، فيستحيون مما يرونه من العيدان المعلقة والشراب ، وهو في تلك السن العالية[١] .

وفي عام ٣٢١ هـ أيضاً أمر الخليفة القاهر بتحريم الغناء والخمر ، « وكان هو مع ذلك يشرب المطبوخ ، ولا يكاد يصحو من السكر »[٢] .

ويذكر عن الخليفة الراضي الذي جاء بعد القاهر أنه كان أعطى الله عهداً ألاّ يشرب ، ولم يزل من خلافته نحو سنتين محافظا على عهده ، لا يشرب ، وكان جلساؤه يشربون بين يديه ، فلا يشرب معهم إلا الجلاّب ، ولكن أصحابه لم يزالوا به ، ليشرب ، فكتب رقعة بلفظ يمينه ، وعرضها على الفقهاء ، فوجدوا له رخصة ، كالعادة ، فأعطى أستاذه ونديمه الصولي ألف دينار ليتصدق بها عنه ، وشرب[٣] .

وكان الخليفة المستكفي قد ترك النبيذ ، فلما أفضت إليه الخلافةُ عام ٣٣٣ هـ ــ ٩٤٤ م دعا به من وقته ، وعاد إلى شربه[٤] .

وكان في بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجلٌ يسمى الشرابي ، شأنه العنايةُ بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[٥] .

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٤٩ ب ، والنجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٢٤٦ طبعة ليدن .

(٢) مسكويه ج ٤ ص ٤٢٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣) الأوراق للصولي مخطوط باريس ص ٦١ ــ ٦٢ .

(٤) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٠ .

(٥) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١١ .

وكان الشراب عادة للكثيرين ، حتى كبار ذوي المناصب الشرعية ؛ فيحكى أنه كان جماعة من الكبراء يتنادمون الوزيرَ المهلّبي ، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين ، على اطّراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة ؛ منهم ثلاثة قضاة هم ابنُ قريعة ، وابن معروف والتنوخي ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ؛ فإذا تكامل الأنسُ ، وطاب المجلس ، ولذّ السماع ، وأخذ الطربُ منهم مأخذَه ، وُضع في يد كل منهم كأسُ ذهب ، وزنه ألف مثقال ، مملوء شرابا قطربليا أو عكبريا ؛ فيغمس لحيته فيه ، بل ينقعها فيه نقعاً ، حتى تتشرّب أكثره ، ويرش منه بعضهم على بعض ؛ ويرقصون أجمعهم ، وعليهم المصبّغات ومخانق البرم ؛ فإذا أصبحوا عادوا عادتهم من التزمّت والتوقّر والتحفّظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء[1] .

وكان يحضر إلى مجلس الشراب في منزل كاتب للخليفة قاضٍ من قضاة بغداد ، توفي عام ٤٢٣ هـ ــ ١٠٣١ م ؛ وكان لا يشرب إلا قارصاً ، فأرسل صاحب المنزل غلاما ، وأحضر خماسية من دكان إسحاق الواسطي ، فيها من الشراب الذي كان بأيديهم ، إلاّ أن على رأسها كاغداً وختما مكتوب عليه « قارص من دكان إسحاق الواسطي » ، فشرب القاضي منه ، ثم سأل عن الشراب فقيل له : قارص ، فقال : لا بل والله الخالص ؛ ثم ثنّى وثلّث ؛ فكان الغلام ، كلما أتاه القدح سأله عنه ، فيقول تارة : مدام وتارة خندريس ؛ فإذا قال له : خمر ، حَرِد واستخف به ؛ فلم يشرب القاضي إلا بمقدار ستة أسماء أو سبعة من أسماء الخمر ، حتى تبطّح في المجلس ولُفّ في طيلسانه وحمل إلى داره[2] .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٦٠ وما بعدها .

ويحكى عن ابن طباطبا ، نقيب الطالبيين بمصر ، (المتوفى عام ٣٥٢ هـ ــ ٩٦٣ م) ، وهو يشغل منصباً دينياً من الطبقة الأولى ، أنه كان له شعر في الخمر . فمن ذلك قوله[١] :

أأترك الشرب ، والأنوار دائمة ... والطلّ منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب ... والورد في العود مطويّ ومنشور
لا ، والتي تركتني يوم فرقتها ... كأنما الرمل في عينيَّ منثور

على أنه يحكى عن المتنبي الشاعر الكبير (المتوفى عام ٣٥٤ هـ ــ ٩٦٥ م) أنه هجر الخمر ، وعزم على ألا يشرب إلا ما يشربه الكرم ، يعني الماء ، ومن قوله :

هجرتُ الخمر كالذهب المصفّى ... فخمري ماء مُزْنٍ كاللجين[٢]

ولكن هذا لم يكن من المتنبي تورعا ، فهو لم يكن له بالدين اكتراث .

ويُذكر عن الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له أن يعيد العمل بأحكام الإسلام الأولى نهى الناس عن شرب النبيذ ، وتشدّد في ذلك ، حتى استطبّ أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أنسطاس ؛ فأشار عليه بشرب النبيذ ، وذكر له ما فيه من المنافع ؛ فجنح إلى مشورته ، ليتداوى بشربه ؛ وأغضى عما كان قد أمر به من منع الخمر ، بل استدعى المغنّين وأصحاب الملاهي إلى مجلسه ، وشرب على غناهم ، وخلع العذار معهم ، وأحسن إليهم ؛ ورجع الناس في أمر النبيذ إلى ما كانوا عليه من قبل ؛ ولكن لما مات ابن أنسطاس عاد الحاكم إلى النهي عن الخمر ، ومنع منه أشد منع ، حتى منع من بيع الزبيب والعسل ، وأحرق منهما وغرّق

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

(٢) ديوان المتنبي طبعة بيروت ١٢٦٧ هـ ص ٥١ ؛ وكان يخشى أن تضر الخمر بصحته ؛ انظر الديوان ص ٢٤٢ .

في النيل شيئاً كثيراً للتجار يُقدَّر بمال عظيم ، وكسر الضروف التي يوعى فيها النبيذ ومنع من عملها[1] .

أما كثرة الشاربين وقلتهم فكان يُكره جلوس الاثنين للشراب ؛ وهو يسمى المنشار ، لأن المنشار يجلس عليه رجلان ؛ وكان الثلاثة يعتبرون أتمّ مجلساً ، لأن الاثنين ينهض أحدهما لبعض حاجته ، فيبقى الآخر وحده واجماً[2] . وإذا كان القدماء قد استحسنوا الشراب مع نساء ذوات أدب ولباقة يتراوح عددهن بين ثلاثة وتسعة فإننا نجد أبا نواس يقول :

ثلاثــة في مجلس طيــب ‏ ‏ ‏ ‏ وصاحب الدعوة والضارب
فإن تجاوزْتَ إلى سادس ‏ ‏ ‏ ‏ أتــاك منهم شغب شاغب[3]

وقد ارتضى المتأخرون بعد أبي نواس هذا العدد ، قال الشاعر :

فليَدْع منــا خمسة ‏ ‏ ‏ ‏ متخيِّرين ولا يــزد
فدُوَيْن هذا وحشة ‏ ‏ ‏ ‏ وفويقه سوق الأحد

وقال الشاعر فيمن لا يعتد بمجالسته :

خرجنا جميعاً إلى نزهة ‏ ‏ ‏ ‏ وفينا زياد أبو صعصعة
فستة رهط بــه خمسة ‏ ‏ ‏ ‏ وخمسة رهط به أربعة[4]

وكانت أرض قاعة الشراب يُنْثَر عليها الزهر ، كما كان الحال

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١١٨ ا .
(٢) أدب النديم لكشاجم ص ٣٢ ا .
(٣) ديوان أبي نواس ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ .
(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

عند القدماء وعند الروم البوزنطيين ، وكانت أكاليل الزهر تُزَيّن رؤوس الشاربين . قال السلامي الشاعر في الدير الذي بقنطرة النوبندجان ، وقد شربوا هنالك ، ولبسوا أكاليل الزهر :

أقنطرة النوبندجان وديرها وحور مهى لا تألف الحور غيرها
شربنا بها ، والروض يخلع زهره على الشرب والأشجار تنشر طيرها[1]

وقال الصنوبري في رفاقه على الشراب :

على ذا تاج ورد وعلى ذا تاج نسرين[2]

وكان المتظرّفون يحيي بعضهم بعضاً بالورد ، وكان لا يُستحسن أن يدفع بعضهم إلى بعض وردة واحدة ؛ ولا تقول متظرّفة لأخرى : « هذه وردتُك » ، فهذا عندهن من أكبر العيوب ، ويعتبرونه من كلام العوام[3] . وكان الأدباء يحيي بعضهم بعضاً بالفاكهة على الشراب ، ويقول عبدان الأصبهاني :

سقيت، وفي كف الحبيبة وردة وأترجّة تغري النفوس بصوتها
مداماً ، فلما قابلتني بوجهها شربت فحيّتني بلوني ولونها[4]

وكان من مستلزمات الشراب الغناء والرقص ، وكانت آلات الموسيقى في أغلب الأحيان أربعاً[5] ، كما هو الحال اليوم ؛ وكان

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧٠ .
(٢) جمهرة الاسلام ، مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ١١٣ ا .
(٣) الموشي ص ١٣١ ، ويتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٠ (أ) .
(٤) اليتيمة ج ٣ ص ١٢٩ .
(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٨ : الجنك والعود والقانون والمزمار ، ويذكر التنوخي (هامش المستطرف ج ٢ ص ١٤٤) أنها العود والطنبور والمزمار والجنك ؛ وانظر فيما يتعلق بالايقاع الموسيقي ودرجاته والرقص وأنواعه وشمائله والصفات المحمودة من الراقص في =

الجواري يغنين من وراء ستار ، ولكن كان من المبالغة في إكرام الضيف أن تغني المغنيات بين يدي الستار . ويحكى أن أبا الحسن علي بن الفرات خلا للشراب في وزارته الأولى، وحضر جماعة من كتابه وأصحابه، وحضر من المغنيات بين يدي الستائر ومن ورائها ما لا يحصى كثرة[1].

وكان التأثر بالغناء قويا ، فكان منه ما يسرّ وما يُبكي ، وما يزيل العقل ، حتى يغشى على صاحبه . ويُذكر أنه لم يكن في الإسلام أحسن صوتاً من مخارق ؛ غنى يوماً في مُتَنَزَّهٍ ، وقد سنحت ظباء ، فجاءت إعجاباً بغنائه ، وتوسط دجلة يوماً ، وغنّى ، فلم يبق أحدٌ إلا بكى ؛ وكان غناؤه أحياناً يسرّ من جماله كل قلب[2] .

وغنى الأمير إبراهيم بن المهدي مرة في مجلس المأمون ، فأحسن ؛ وكان في المجلس كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يُكنى أبا زيد ، وكان قد بعثه في بعض أموره ؛ فطرب أبو زيد ، فأخذ بطرف ثوب إبراهيم[3]، فقبّله ، فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل ، فقال له أبو زيد : ما تنظر ! أُقبّله والله ! ولو قُتلت ؛ فتبسم المأمون[4] .

وفي أواسط القرن الثالث الهجري نزل عبيد الله بن طاهر عند المعتز ، فأراه أشياء عجيبة ، منها أنه أسمعه غناء سارية وزمر زنام

= طباعه وخلقه وعمله . مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٠ وما بعدها . وكان الرقص يسمى بأسماء الموسيقى من خفيف ورمل وهزج وخفيف الثقيل الأول أحياناً أو يسمى بأسماء خاصة من نحو رقص الجمل أو رقص الكرة ونحوها أحياناً اخرى .

(١) كتاب الوزراء ص ١٩٣ ، وكان ذلك حوالي عام ٣٠٠ هـ .

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

(٣) كان إبراهيم ممن رُشح للخلافة ، وخرج على المأمون . فقبض عليه .

(٤) كتاب بغداد لطيفور ص ١٩٢ .

الزامر ، ثم أراه آلة موسيقى عجيبة ؛ وأدخله إلى شباك ، وأمر أن يجمع بين السبع والفيل ، فرأى تواثبهما ؛ ثم سأله أي الأشياء أطرف فيما رأى، فقال : غناء سارية، وكان عبيد الله نفسه مما يحسن الشعر[1] .

ويحكى أنه اشتريت من بغداد جارية رائعة الحسن والغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر (توفي تميم عام ٣٦٨ هـ ـــ ٩٧٨ م) ، فغنّتْ له ولجلسائه فأطربته ، ولم يزل غناؤها يزيده طرباً ، حتى أفرط جدا فقال لها : تمنّي ما شئتِ ، فلك مُناك ، فقالت : أتمنى عافية الأمير وبقاءه ؛ فأعاد عليها ، فتمنّت أن تغني ما غنت ببغداد ، فلم يجد الأمير بُدّاً من الوفاء لها ، وأرسلها إلى بغداد ، فلما قاربتها أفلتت ممن أرسلت معهم ؛ وبقي الأمير بمصر ذاكراً لها واجماً عليها[2] . وثَمّ حكايات كثيرة من هذا القبيل .

أما الأرواح المتميزة بشدة الالتهاب ، فكان أحدُهم يمزّق ثيابه ، ويدقّ الحائط برأسه ، ومنهم من كان يتمرّغ في التراب ، ويهيج ويزبد ويعضّ بنانه ، ويركل برجله ، ويلطم وجهه[3] .

وكانت تذكر على الشراب وتستحسن الحكايات القصيرة من

---

(١) كتاب الديارات للشابشتي ص ٤٤ ا ـ ب .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ١١٤ ا ـ ب .

(٣) حكاية أبي القاسم ص ٧٨ وما بعدها ، يقول ستيندهال : إن الفناء الحقيقي في جمال الموسيقى ، وهو مضحك نادر في فرنسا أو يعتبر في العادة ضربا من الادعاء ، يشاهده الانسان كلما خطا في إيطاليا ؛ فلما كنت معسكراً بمدينة بريشيا قدّمت لرجل يعتبر أكثر أهل ذلك المكان تأثراً بالموسيقى ؛ وهو رقيق جداً وعظيم الادب ، ولكنه كان إذا حضر حفلة موسيقية واخذ منه الطرب إلى درجة معينة ، خلع نعله من غير أن يشعر ، فإذا وصل الموسيقيون إلى قطعة بالغة الجمال لم يغفل قط عن رمي نعليه وراءه على السامعين . ورأيت في بولندة أشح الناس يرمي بماله إلى الارض إذا بلغت منه الموسيقى مبلغها
(Stendhal, Vie pe Rossini, p. 18).

النوادر الهزلية والأحاديث التي يتجلى فيها الذكاء واللباقة . فيُحكى عن طاهر ذي اليمينين (حوالي عام ٢٠٠ هـ) أنه كان ، إذا تغذى مع أصحابه ، وخرج عن حد الجدّ تبسطوا في أخبار العامة وما يحسن من الهزل[1] . أما الحكايات الطوال التي يفنى باقتصاصها زمان المجلس ، وتتعلق بها النفوس ، وتحبس على أواخرها الكؤوس ، فكان ينبغي التنكب عنها ، لأنها بمجالس القُصّاص أولى منها بمجالس الخواص[2] يقول ابن المعتز[3] :

وندامايَ في شباب وحسن — أتلفت ما لَهم نفوسٌ كرام
بين أقداحهم حديثٌ قصير — هو سحر ، وما سواه كلام
وكأن السُقاةَ بين الندامى — ألِفاتٌ علــى سطور قيام

وكان البعض يؤثرون هذه اللذة — لذة محادثة الرجال — إيثاراً شديداً ؛ فيحكى عن فَنن — وكانت جارية من آدب الجواري في زمانها — أنها سألت مسلماً المعروف بالمتيَّم : أي الأمور عنده ألذ وأشهى ، محادثة الرجال ، أم استماع الغناء ، أم الخلوة بالنساء ؟ فقال : محادثة الرجال[4] .

ويقول المسعودي : قالوا في المثل : الحديث ذو شجون . يريدون

---

(١) كتاب بغداد لطيفور ص ١٠٨ .

(٢) ادب النديم لكشاجم ص ٤٣ ا ؛ ومروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ .

(٤) ادب النديم لكشاجم ص ٤٠ ا ـ ب .

بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد إلى وجوه من المعاني كثيرة ، إذ كان العيش كله في الجليس الممتع[١] .

وقال الأخشيد مرة للشاعر سعيد المعروف بقاضي البقر : حدثني بحديث صغير ... صغير بطول الإصبع[٢] ؛ فهو مشتاق للحديث كأنه طفل صغير .

وكان الأدباء ـ من له ملكة شعرية ومن ليس له ـ يرتجلون القصائد القصيرة في وصف الزهر وآنية الشراب الجميلة والمغنين والمغنيات والسماء ، ويحكى أنه "أحضرت في مجلس لأصحاب الشاعر الكبير أبي الطيب صورة" دمية ، تدور حول نفسها ، وقد رفعت أحد ساقيها ، وأمسكت بيديها باقة زهر ، فكانت كلما أدارت وجهها نحو أحدهم ، شرب على ذلك ، ثم دفعها لتدور ، وكان المتنبي كلما جاء دوره يقول فيها بعض الشعر[٣] .

وكان شرب النبيذ مقللاً لانتشار المخدرات الأخرى ؛ فالكلام في تناول الحشيش لم يظهر في مؤلفات الفقهاء إلا في القرن الثالث الهجري ، وقد حرمه الشافعية وأباحه الحنفية[٤] ؛ ولا نجد له ذكراً في الحكايات المأثورة من القرن الرابع . ويدل تاريخ الحشاشين على أن تناول الحشيش كان يعتبر شيئاً جديداً كل الجدة عند العامة .

أما الشاي الصيني فلم يكن قد استعمل للشراب في ذلك العصر ، وإن كان أحد الرحالين قد حكى في وصفه للصين في كتاب كتبه حوالي

---

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ١٣١ ـ ١٣٢ .
(٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٣ .
(٣) ديوان المتنبي ص ١٦٠ وما بعدها .
(٤) المخلاة للعاملي ص ١٨٦ .

عام ٢٣٧ هـ ـ ٨٥١ م أن الشاي كانت تدفع عليه المكوس كغيره من الأشياء[١] .

ولا نجد أن التدخين بأي نوع من أنواعه كان من أنواع اللذات ، ولكن كان الطين يمضغ (انظر الفصل الخاص بالحاصلات) . ويحكي المسعودي في أوائل القرن الرابع الهجري أنه كان يأتي من الهند ورق النابتول ليمضغ ، وأنه في ذلك العصر غلب مضغه على أهل مكة وغيرهم من الحجاز واليمن بدلا من الطين[٢] .

وكان الماء المثلّج أكبر لذة للناس في فصل الصيف ؛ ويحكى أنه لما ولي ابن الفرات الوزارة ، وكان اليومُ الذي خُلع عليه فيه شديدَ الحرّ ، سُقي في داره أربعون ألف رطل من الثلج في يوم وليلة[٣] . وكان الكبراء يحملون الثلج في حرّاقاتهم[٤] . وكان الثلج يحمل من الشام إلى قصر كافور الأخشيدي بمصر ليستعمل في تبريد المشروبات[٥] . وكان يدخل إلى دار ابن عمّار الوصي على الحاكم بأمر الله والوسيط بينه وبين الناس نصف حمل ثلجاً في كل يوم ، وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري[٦] . أما في مكة[٧] والبصرة فلم يكن الثلج ميسوراً . يقول أبو إسحاق الصابي :

لهف نفسي على المقام ببغدا ... د وشربي من ماء كوز بثلج
نحن بالبصرة الذميمة نُسقى ... شر سقيا من مائها الأترجّي

---

(١) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤١، ولم يكن قد استعمل في الصين قبل ذلك بزمن طويل ، وأول ما فرضت عليه الرسوم كان عام ٧٩٣ م (Pfizmaier, SWA, 67. 422.).

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) عريب ص ٦١ .

(٤) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٤٧ .

(٥) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٧١ .

(٦) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٦ .

(٧) كتاب الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٥ .

أصفر منكـر ثقيـل غليظ　　خاثر مثـل حقنـة القولنج
كيـف نرضى بشربه وبخير　　منه في كنف أرضنا نستنجي[1]

وقد حكى التنوخي (المتوفى ٣٨٤ هـ ـ ٩٩٤ م) حكاية جماعة من الكتّاب في القرن الرابع كانوا قاصدين مصر للتصرّف ، فلما وصلوا دمشق أقبلوا يخترقون الطرق لا يدرون أين ينزلون ، حتى اجتازوا برجل شاب حسن الوجه جالس على باب دار شاهقة وبناء فسيح ، وبين يديه غلمان ؛ فدعاهم إلى النزول عنده ، وألح عليهم ، فاستحوا من حسن ظاهره وهيئته وقبلوا الدعوة ، فأكرمهم إكراما غريباً في بابه ، وضيّفهم بضروب من الإضافة تُذكر لغرابتها ؛ فأقبل غلمان هذا الرجل ، وحملوا متاع الكتّاب ، ولم يدعوا غلمانهم يخدمونهم ، وأحضروا لهم الطسوت والأباريق ، فغسلوا وجوههم ، ثم أجلسوهم في مجلس حسن مفروش بأنواع الفرش ، وإذا الدار في نهاية الحسن ؛ ثم عرض عليهم الحمّام ، فدخلوه ، ودخل معهم غلمان مُرْد وصبيان في نهاية الحسن ، فخدموهم بدلا من القيِّم ؛ ثم خرجوا إلى مجلس آخر ، وقدمت إليهم مائدة حسنة عليها خير ألوان الطعام فأكلوا ، ثم دخل إليهم غلامان أمردان في نهاية الحسن ، فغمزوا أرجلهم ، حتى لحقهم من ذلك مع الغربة وطول العهد بالجماع عَنَت ، فأمروهم بالانصراف ، وتعفّفوا عن التعرض لهم لنزولهم على صاحبهم . ثم أُخذوا إلى مجلس في بستان حسن ، وأحضرت الأنبذة الطيبة ، فشربوا أقداحا يسيرة ، ثم ضرب صاحب الدار بيد ، على ستارة ممدودة ، وإذا جوارٍ خلفها ، فأمرهن بالغناء فغنّين أحسن غناء ، فلما توسّطوا الشراب قال صاحب الدار للجواري : « ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله ! أُخرُجْن ! » وهتك الستارة ،

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٧ ، ويقول ابن الأثير (ج ٩ ص ١٦) إن السلطان عضد الدولة منع من عمل الثلج والقز وجعلهما متجرا للخاص ، أليس يجوز أن نقرأ النص مصححين كلمة ثلج بكلمة ملح ؟ .

فخرج عليهم جوارٍ لم يُرَ قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهن ، ما بين عوّادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقّاصة ودفّافة ، بفاخر الثياب والحلى ؛ وأحطن بالضيوف ، فاشتدت محبتهم لهن ، ولكنهم ضبطوا أنفسهم ، فلما كادوا أن يسكروا ، ومضى بعض الليل أقبل عليهم صاحب الدار وقال : يا سادة ! إن تمام الضيافة وحقها الوفاء بشرطها ، وأن يقوم المضيف بحق الضيف في جميع ما يحتاج إليه من طعام وشراب وجماع ، وقد أنفذت إليكم نصف النهار الغلمان فأخبروني بعفافكم عنهم ، فقلت : هم أصحاب نساء ؛ فأخرجت هؤلاء ، فرأيت من انقباضكم عن ممازحتهن ما لو خلوتم بهنّ كانت الصورة واحدة ، فما هذا ؟ فقالوا : يا سيدي أجللناك عن تبذّل ما في دارك ، وفينا من لا يستحلّ الحرام ؛ فقال : هؤلاء مماليكي ، وهن أحرار لوجه الله تعالى ؛ وإن كان لا بد من أن يأخذ كل واحد منكم بيد واحدة ويتمتع بها ليلة ، فمن شاء زَوّجته بها ومن شاء غير ذلك فهو أبصر ، لأكون قد قضيت حق الضيافة ؛ فلما سمعوا ذلك ، وقد انتشوا طرباً ، أخذ كل واحد منهم بيد واحدة وأجلسها إلى جانبه ، وأقبل يقبّلها ويقرصها ويمازجها ؛ فمنهم من تزوّج ، ومنهم من لم يفعل ؛ وجلس معهم ساعة ثم نهض ، فإذا بخدم قد جاءوا فأدخلوا كل واحد وصاحبته إلى بيت في نهاية الحسن مفروش بفاخر الفرش ، وتركوا معهما ما يحتاجان إليه ، فباتا في أرغد عيش ، فلما جاء الصباح جاء الخدم وعرضوا عليهم الحمّام ، فدخلوه ودخل معهم المردان ، فمنهم من أطلق نفسه معهم فيما كان امتنع منه بالأمس ؛ وخرجوا ، فبُخروا بالندّ ، وأُعطوا الماورد والمسك والكافور ، وكذلك كان حال غلمان الضيوف كحال سادتهم ، ذلك أنهم قُدّمت إليهم الجواري الروميات ، فوطئوهن ، وأقبل بعضهم على بعض يقصّ حكايته ، حتى حسبوا أنفسهم في منام لا في يقظة ؛ فأقبل عليهم صاحب الدار ، وسألهم عن ليلتهم ، فوصفوها ، فسألهم : أيما أحب

إليكم : الركوب إلى بعض البساتين للتفرج ، حتى يجيء وقت الطعام ، أو اللعب بالشطرنج والنرد ، أو النظر في الدفاتر ؟ فاشتغل كل منهم بما أحب ، ثم أُحضرت لهم مائدة كمائدة الأمس ، فأكلوا ، ثم تكرر ما حدث بالأمس من أمر المردان والجواري ، وقد زال الاحتشام ؛ ودام أصحابنا على هذه الحالة أسبوعا[1] .

وكان الفقهاء في البداية لا يجيزون لعب الشطرنج ، ثم تساهلوا في أمره ، ويُذكر أن من رشيق فتاوى سهل بن سهل مفتي نيسابور (المتوفى عام ٤٠٤ هـ ـ ١١٠٣ م) في الشطرنج : إذا سلم المال من الخسران ، والصلاة عن النسيان ، فذلك أنس بين الخلان[2] .

وكان الصولي حوالي عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م أحسن لاعب للشطرنج ، وقد مهد له ذلك دخولَ دار الخلافة[3] .

وكان من الشطرنج نوع يُلعب في قصر الخليفة المعتضد حوالي آخر القرن الثالث الهجري ، وذلك بآلة مستحدثة تسمى الجوارحية ؛ وتسمى أجزاؤها بأسماء حواس الإنسان[4] .

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ، على هامش المستطرف طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ج ٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٦ .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٧٢ ؛ وسئل أبو العباس شريح عن الشطرنج ، فقال : إذا سلمت أيديهما من الطغيان ، ولسانهما من العدوان ، وصلواتهما من النسيان ، فهو مباح بين الاخوان ، غير محرم على الخلان ـ محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٧ .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٣١١ ؛ وكان الشطرنج يلعب على ورقة مربعة حمراء من ادم (مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٦ ؛ وكتاب بغداد لطيفور ص ٢٩٣) ؛ ويذكر المسعودي في المروج (ج ٨ ص ٣١٣ وما بعدها) آلات الشطرنج على اختلاف هيئاتها ، فيذكر إلى جانب الآلة المربعة المشهورة عندنا آلة مستطيلة وآلة مدورة منسوبة إلى الروم ، وأخرى تسمى النجومية أو الفلكية وابياتها اثنا عشر على عدد بروج الفلك ؛ فيها ينقل سبعة امثلة مختلفة الألوان على عدد الخمسة الأنجم والنيرين وعلى ألوانها ، وهذا ما يقوله المسعودي عام ٣٣٢ هـ .

(٤) مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٤ ، والفهرست ص ١٣١ (أ) .

ولم يكن جلوس اللاعبين صامتين بعضهم إلى جانب بعض من عادات العرب ، وكان العربي القح يشعر بما في ذلك من غرابة عن طباعه ؛ ويحكى أن أهل المدينة كانوا لا يزوّجون لاعب الشطرنج ؛ وقال العرب إنما وضع الشطرنج للعجم الذين لا علم لهم ؛ لأنهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر ، فجعلوا الشطرنج مشغلة[1] .

أما العرب فكان أعظم شيء عندهم الموسيقى والإيقاع مع الغناء إلى جانب ما امتازوا به من الأمثال والنوادر اللطيفة والعبارات البليغة ؛ ويحكى عن الخليفة المأمون ، بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة ، أنه اشتهى الشطرنج ، فاستحضر كبار أهله ، فكانوا يتوقّرون بين يديه ، حتى ضاق بذلك ، وقال : إن الشطرنج لا يُلعب مع الهيبة ؛ قولوا ما تقولون إذا خلوتم[2] .

ونوادر الشطرنج التي وردت في كتاب حكاية أبي القاسم مأخوذة من مجالس الشطرنج[3] ؛ وكان الغالبُ في لعب الشطرنج يتطلّع إلى شيء من المكسب ، كأن تُعمل بعده أكلة طيبة[4] .

أما النرد ، وهو يُلعب على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجراً وفصَّيْن ، فكان لعبة تدور على الصدفة والاتفاق . وشبّه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهَّدة لساكنها ، ومنازل الرقعة ، وهي أربعة وعشرون ، بساعات الليل والنهار ، وبيادتها وهي ثلاثون ، بعدد أيام الشهر ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار

---

(١) محاضرات الادباء ج ١ ص ٤٤٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٤٩ .

(٣) حكاية أبي القاسم ص ٩٣ وما بعدها .

(٤) كتاب الديارات ص ٣٥ ب .

وسواد الليل ، ومنازلها الأربع بالطبائع الأربع ، وهكذا ؛ وشبّه ما يخرج من الفصين ، إذا رُمي بهما ، بالقضاء الجاري على العباد ؛ ولهذا ظل أهل الورع ساخطين عليه ، ويسميه أبو الليث السمرقندي « عمل الشيطان » ، هو وسباق الحمير والصيد بالكلاب ومهارشة الكباش والديوك .

وكان النرد يُلعب ابتغاء الكسب صراحة ؛ فيحكى أن رجلا لاعب آخر فغلبه ، فأخذ منه عشرين ديناراً . ويحكى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق بين الخيل ، ويروى عنه عليه السلام في روايات كثيرة أنه قال : لا تحضر الملائكة من اللهو شيئاً إلا ثلاثة : لهو الرجل مع امرأته ، وإجراء الخيل ، والنضال . غير أن الفقهاء اشترطوا في هذه الرياضة التي أباحوها ، وهي مسابقة الخيل ، ألاّ تُلعب طلباً للمال ، وكان سباق الخيل كثيراً بمصر ، وبلغ من شغف الناس به وتقديرهم له أن السابق كان يأخذ حصان المسبوق ، وذلك عام ١٩٠ هـ ــ ٨٠٦ م .

وتولى على مصر يزيد بن عبد الله التركي عام ٢٤٢ هـ ــ ٨٥٦ م ، وكان متشدّداً ، فعطّل الرهان ، وأمر ببيع الخيل التي كانت تُتخذ للسلطان[1] ؛ وكانت هذه الخيل يُنفق عليها من مال الدولة على العادة الجارية قبل الإسلام ؛ ولكن الخيل جرت من جديد عام ٢٤٩ هـ ــ ٨٦٣ م[2] . وكانت حلبة السباق في أيام خمارويه تقوم مقام الأعياد[3] . وفي عام ٣٢٤ هـ شرع الأخشيد في إجراء حلبة السباق على رسم أحمد ابن طولون[4] ، ويذكر المسعودي أن لعيسى بن لهيعة المصري كتاباً

(١) الولاة للكندي ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٠٢ .
(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣١٨ .
(٤) المغرب لابن سعيد ص ١٨ .

يسمى كتاب الجلائب والحلائب ، ذكر فيه كل حلبة أُجريت في الجاهلية والإسلام[١] .

وكان الناس مولعين بسباق الحمام ، رغمَ إنكار الفقهاء له[٢] ، وكان منتشراً في مصر ، وزاد كثيراً في القرن الخامس الهجري .

ويُحكى عن الخليفة المعز أنه سابق بحمامه حمام الوزير أبي الفرج يعقوب ، فسبق حمامه حمامَ الخليفة ، فعظُم ذلك على المعز[٣] .

وكذلك كان البعض يحارش بين الكباش والديوك والكلاب[٤] ؛ وكان عند سبكتكين التركي ، قائد جيوش السلطان معز الدولة ، كبش" قوي النطاح ، وقد ذكره ابن الحجاج في شعره ، وتمنّى لو تُرك لينطح زوجاً كريه الصورة لمغنّية كان هو متعلقاً بها[٥] .

وكان بعض الناس يلعبون بالسُّمّان[٦] . بل نجد الناس اليوم مولَعين بالمهارشة بين هذا الطير في تركستان ولعاً شديداً ، حتى إن رجلا ممن يملك هذه الطيور صار رجلا ذا شأن بتلك البلاد ، وقد استطاع أن يفوز بحياة رغدة بالمهارشة بين طيوره[٧] .

وكان القمار أكثر ما يُلعب بفصي النرد[١] ؛ وقد شغف الناس

---

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥ .
(٢) Goldziher, AfR. VII, p. 422.
(٣) مطالع البدور للغزولي ٢ ص ٢٦٠ .
(٤) كتاب بغداد لطيفور ص ٣٨ ا ، والتذكرة الحمدونية مخطوط باريس رقم ٣٣٢٤ ص ٢٥ ا ، ومروج الذهب ج ٨ ص ٢٣٠ ، ٣٧٩ .
(٥) ديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد ص ١٤١ .
(٦) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٩ .
(٧) v. Schwarz, Turkestan, S. 290.

بذلك رغم تحريم القرآن للقمار . بل يحكم من أخبار عصر النبي عليه السلام أن أبا لهب قامر العاصي بن هشام ، فقَمَرَهُ ، حتى أخرجه من ماله ، ثم عرض عليه العاصي أن يقامره، فأيهما قمر كان عبداً لصاحبه[2] . وروي عن ابن جامع المغني في عصر الرشيد أنه قال : « لولا أن القمار وحب الكلاب شغلاني لتركتُ المغنين لا يأكلون الخبز»[3] . ويحكى عن الشريف الرضي في أواخر القرن الرابع الهجري أنه عاقب أحد العلويين وأفرط في معاقبته لأنه كان يقامر بما يتحصّل له من حرفة يعانيها ، ويترك أطفاله محتاجين[4] .

وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من جملة المهام التي يقوم بها المحتسب[5] . وكان بمصر شيوخ " يُسَمَّوْن المطمّعين ، لهم جراية من دور القمار ، ليجلبوا الناس إليها ، وكانوا يطمعونهم في اللعب . وقد حكى ابن سعيد : أن الأخشيد في وقت من الأوقات أمر بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم ، فأخذوا ؛ وأدخل عليه جماعة منهم وعرضوا عليه ، وفيهم شيخ له هيئة ، فقال : هذا الشيخ مقامر ؟ فقالوا : هذا يقال له المطمّع ، فقال الأخشيد : وإيش المطمّع ؟ قالوا : هو سبب عمارة دار القمار ؛ وذلك أن الواحد إذا قمر ما معه ، قال له : العب على ردائك ، فلعلك تغلب ! فإذا ذهب رداؤه ، قال له : العب على قميصك ، حتى تغلب به كل شيء ، حتى يبلغ إلى نعليه ؛ وربما اقترض له ؛ ولهذا الشيخ جراية" يأخذها على ذلك كل يوم من مُتَقَبِّل دار

(١) انظر مثلا كتاب بغداد لطيفور ص ١٣٨ .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١٠٠ .

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٧٠ .

(٤) ديوان الشريف الرضي ص ٣ من المقدمة .

(٥) الأحكام السلطانية للماوردي طبعة إنجر ص ٤٠٢ .

القمار ؛ فضحك الأخشيد ، وقال : يا شيخ ! تُبْ إلى الله وحده من هذا ؛ فتاب وأمر له الأخشيد بثوب ورداء وألف درهم ، وقال يُجرى عليه في كل شهر عشرة دنانير ؛ فانصرف الشيخ شاكراً داعياً ، فقال الأخشيد : ردُّوه ! وقال : خذوا ما أعطيناه ، وابطحوه ! فضربه مائتي عصا ، ثم قال : خلُّوه ، أين هذا من تطميعك[1] !؟

أما الرياضة التي كان أكثر ما يشتغل بها الكبراء والوزراء فكانت بالصوالجة ، كما هو الحال عندنا اليوم ؛ واللعب بالصوالجة هو ضرب كرة من على ظهور الخيل ؛ وأصلها فارسي[2] . وكان الخلفاء يلعبون بالصوالجة في ميادين خاصة في قصورهم[3] . ويحكى أنه في سنة ٢٦٣هـ دخل الوزير أبو الحسين عبد الله بن يحيى بن خاقان التركي ميداناً في داره يوم الجمعة ليضرب الصوالجة ؛ فركب ، ولعب ، فصدمه خادمٌه ، وسقط من على دابته ميتاً[4] . وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويُدَلَّكون[5] . ومن إجادة الضرب بالصوالجة أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه متشازراً مترفقاً مترسلا ، وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لبَّتها في رفق ، وأن يستعين بسوط ؛ وألا يؤثر في الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته ، وعليه أن يحترس من إيذاء من جرى معه في

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٠ .

(٢) يجد القارىء وصفا حسنا لهذه اللعبة كتبه احد مؤرخي الروم ، وذلك في كتاب كاترمير : Quatrmère, Hist. des Mameloucs, 1, p. 11 f.

(٣) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٨ من طبعة ليدن ، وفي عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م سقط أسفار ابن شبرويه والي جرجان من على دابته ، وهو يلعب الكرة ، فمات (زبدة الفكرة ص ٢٠٣ ب) .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٢٧ .

الميدان ، وأن يحسن الكف" للدابة في شدة جريانه ، متوقياً من الصرعة والصدمة في تلك الحال ، وأن يجانب الغضب ويتحفظ من إلقاء كرة على ظهر بيت ، وإن كان ست كرين بدرهم ، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لأن عَرْض الميدان إنما جُعل ستين ذراعاً لئلا يُحال ولا يُصال مَن جلس على حائطه[1] .

أما الديلم فكانوا شعباً جبليا ، فآثروا الرياضة البدنية البسيطة ؛ فيحكى أن معزّ الدولة لما جاء إلى بغداد اشتهى رؤية الصراع ، فكان يُعمل بحضرته حلقة" في ميدان ، فتقام شجرة وتجعل عليها ثياب الديباج والمروي ونحوهما ، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم ، ويقف على سور الميدان أصحابُ الطبول والزمور ، وعلى الباب أصحاب الدبادب ، ثم يؤذن للعامة في دخول الميدان،فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم؛ ثم دخل في ذلك أحداثُ بغداد ، حتى صار بكل موضع صراع" ؛ فإذا برع أحدهم صارع بحضرة معز الدولة ، فإن غلب أُجريت عليه الجرايات ؛ فكَم من عينٍ ذهبت بلطمة ، وكم من رِجْلٍ اندقّت ! وشغف شبان معز الدولة بالسباحة ، فتعاطاها أهل بغداد ، حتى أحدثوا فيها الطرائف ؛ فكان الشاب يَسْبح قائما ، وعلى يديه كانون ، فوقه حطب يُستعمَل تحت قِدر إلى أن ينضج ؛ ثم يأكل من القدر إلى أن يصل دار السلطان[2] .

على أنه بالرغم من كل هذه الرياضات بقي الصيد محتفظا بكل ما له من شأن ، بل ظهرت في تمجيده قصائدُ خاصة[1] ، إلا أن معظمها يدور حول مدح كلاب الصيد ووصفها ؛ وكان أشهر الوحوش الضارية

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ١٦٦ – ١٦٧ . نقلا عن كتاب العيون والحدائق .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ٥٧٣ ب – ٧٤ ا .

هو الأسد ؛ ولم تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام ، ولا على شواطيء نهري الدجلة والفرات ، بل كانت أحياناً تدنو قريباً جداً من بغداد ، حتى أنه في عام ٣٣١ هـ ــ ٩٤٣ م خرج الخليفة الملتقي إلى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع[٢] . ويحكى عن خمارويه ، صاحب مصر ، أنه كان لا يسمع بأسد إلا بحث في طلبه[٣] . وكانت قصص السباع وصيدها تحتل مكاناً كبيراً من أحاديث التسلية[٤] . وكانت إذا اختلفت آثار رجل في طريق فأول ما يتبادر إلى الذهن أن يقال : أكله الأسد[٥] .

وكان بقصر الخليفة بسامرا[١] ، على عهد المعتصم ، مكان يُحفظ به الحيوان ، وهو يسمى « حير الوحش »[٦] . ويحكى عن المعتز حوالي منتصف القرن الثالث الهجري أنه أطلع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد نزل ضيفاً عنده ، على عراك بين أسد وفيل ، وكان ذلك أحد العجائب التي أطلعه عليها[٧] .

ولكن حب الاطلاع على غرائب الحيوان زاد ، حتى صار اهتماما كبيراً به ، فيُحكى عن خمارويه بن أحمد بن طولون أنه بنى في داره

---

(١) تسمى قصائد الصيد بالقصائد الطردية ؛ ولم تستعمل كلمة طرد في معنى الصيد إلا عند المتأخرين ، ويقول (Lane) إن أول من استعملها الزمخشري ، وأصلها شامي ، وكان أهل عرب الشام يستعملون كلمة طارد بدلا من كلمة صاد . انظر كتاب : Barhebraeus, Buch der Strahlen, S. 30 (ترجمة موبرج Moberg) .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ٧١ ا؛ وفيما يتعلق بالشام راجع قصائد المتنبي في الصيد.

(٣) الخطط ص ٣١٦ .

(٤) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٧٠ وما بعدها .

(٥) رسائل أبي العلاء طبعة مرجليوث ص ٢٦ .

(٦) الأغاني ج ١٠ ص ١٣٠ .

(٧) كتاب الديارات ص ٤٤ ب .

الكبيرة موضعاً للسباع ، وعمل فيه بيوتاً ، كل بيت لسبع لا يسع غير السبع ولبؤته[1] .

وكان في قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ –٩١٢م دارٌ بها قطعان من أصناف الوحش[2] ، وصار يُرسَل إليها كلُّ غريب من الحيوان من جميع البلاد .

وكان جعفر بن الفضـل بن الفرات الوزير بمصر المعروف بابن خنزابة (المتوفى عـام ٣٩١ هـ) يهوى النظـر إلى الأفاعي والحيّات والعقارب وما يجري مجراها من الحشرات ، وكان في داره قاعةٌ لطيفة مرخمّة فيها سلل الحيّات ، ولها قيّمٌ فرّاش حاوٍ من الحواة ومعـه مستخدمون ؛ وكان كل حاوٍ في مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه ، وكان الوزير يثيبهم ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا في تحصيلها ؛ وذات يوم انساب إلى دار ابن المدبر الكاتب – وكان يسكن إلى جوار الوزير – الحيّةُ البتراء وذاتُ القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة ؛ فكتب إليه أن يأمر حاشيته وصبيته بصون ما يوجد منها ، إلى أن يُنفِذَ الحواة لأخذها ؛ فلما وقف ابنُ المدبر على ما في الخطاب قلبه وكتب في ذيله : أتاني أمر مولانا الوزير ، أدام الله نعمته وحرس مدّته ! بما أشار به في أمر الحشرات ، والذي يُعتمَدُ عليه في ذلك أن الطلاق يلزمني ثلاثاً ، إن بِتُّ أنا أو أحـد من أولادي في الـدار ، والسلام[3] .

وكان اللعب بالخيّال معروفاً ؛ فكان لأحد طباخي المأمون ابنٌ يُسمى عبّادة ، وكان من أطيب الناس ، وأخفهم روحاً وأحضرهم نادرة،

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ .

(٣) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٠٩ – ٤١٠ ؛ والخطط ص ٣١٩ .

قال له دعبل يوماً : والله لأهجونك ، قال : والله ! لئن فعلت لأخرجن أمك في الخيال[1] . وكذلك كان الناس بمصر يخرجون في بعض الأعياد ، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماحات[2] .

وكان ثمّ مقلدون بالمعنى الصحيح أيضاً ، وكان الواحد يسمّى الحاكية ؛ وكان التقليد والمحاكاة يعتبران فنين جديرين بالعناية ؛ فكان ببغداد رجل يعرف بابن المغازلي ، يقف على الطريق ويقصّ على الناس أنواع الأخبار والنوادر المضحكة ؛ وكان في نهاية الحذق ، يقلّد كل طوائف الناس ؛ فلا يدع حكاية أعرابي أو نجدي أو نبطي أو زطّي أو زنجي أو سندي أو تركي أو خادم إلا حكاها ؛ وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكول ، وتصبي الحليم . وقد سمع المعتضد بنوادره، فأعجب بها ، وأمر بإحضاره بين يديه[3] .

وفي القرن الرابع الهجري كان أبو الورد من عجائب الدنيا في المطايبة والمحاكاة ، وكان يخدم الوزير المهلبي ، ويحكي شمائل الناس وألسنتهم ، فيؤدّيها كما هي ، فيعجب الناظر والسامع ويضحك الثكلان[4] .

وفي القرن الخامس الهجري نجد محمد بن أحمد أبا المطهر الأزدي يؤلف كتاباً سماه حكاية أبي القاسم البغدادي ، جعل فيه مثل هذه المحاكاة والتمثيل موضوعاً للأدب ، وجعل ذلك وسيلة لوصف أخلاق

---

(١) كتاب الديارات ص ٨١ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٠٧ ، نقلا عن المسبحي المتوفى عام ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩م .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، وقد اضيفت هذه القصة في المستطرف (ج ٢ ص ٢٠٣) إلى شخصية اكثر جاذبية ، هي شخصية الرشيد . وتكلم عن الحاكية الجاحظ في البيان والتبيين (ج ١ ص ٣١) والثعالبي في عمد المنسوب ZDMG, V. .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٢ ، وكتاب عمد المنسوب ZDMG, V. .

عامة بغداد وكلامهم القبيح ، وكل ذلك فى شخص أبي القاسم هذا[١] .

ويذكر لنا الرحالة فون فيريدي v. Wrede أنه شاهد بحضرموت حاكياً هزليا يقلد أعمال الترك والبحريين بل والأعراب[٢] . ويحدثنا سخاو Sachau في العصر الحديث عن رجل كهذا[٣] .

وقد نجد أحياناً ذكر ما يسمى بالسماجات ، وهي تذكر في مصر في بعض الأعياد[٤] ، وفي بغـداد في يوم النيروز ، حيث كان أصحاب السماجات يلعبـون بين يدي الخليفـة ، وكل منهـم متنكر بصورة منكرة[٥] .

*

(١) نشر حكاية أبي القاسم متز Metz مؤلف هذا الكتاب .

(٢) . v. Maltzan, II, S. 119.

(٣) . E. Sachau, Am Euphrat and Tigris. S. 655 f.

(٤) الخطط ج ١ ص ٢٠٨ نقلا عن المسبّحي .

(٥) كتاب الديارات للشابشتي ص ١٥ ا ــ ب وانظر الفصل الخاص بالأعياد .

الفصل الثاني والعشرون

أحوال المدن "١"

لا نعرف عن القرن الرابع إلا تصنيفاً واحداً للمدن ، وهو يقوم على اعتبار أساس سياسي ، ويفرّق بين المدن على هذا النحو :

(١) الأمصار ، وهي البلاد التي يحلها السلطان ، وتجتمع فيها الدواوين ، وتُقلّد منها الأعمال وتُضاف إليها مدن الأقاليم .

(٢) القصبات ؛ وهي عواصم الأقاليم ، ومقامها من الأمصار مقام الحجاب من الملوك .

(٣) المدن أو المدائن ، وهي ما يلي القصبة في الأقاليم ، ومقامها مقام الجند .

(٤) النواحي ؛ مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر .

(٥) القرى ؛ وهي الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرجّالة[٢] .

والعلامة التي تُعرف بها المدينة هي أن يكون بها مِنبَر" ، وقد شدّد الحنفية بنوع خاص في أنه لا تُقام الجمعة إلا في الأمصار الجامعة التي تقام فيها الحدود . ولما كان رأي أصحاب أبي حنيفة هو المتمثل

---

(١) ظهر هذا الفصل بعنوان : Von der Muhammedanischen Stadt im 4. Jahrhundert - ZA. Bd. 27 (1912) S. 65-74 في مجلة .

(٢) المقدسي ص ٣٥ ، ٤٧ ، ورويت تقسيمات للبلاد لوحظ فيها الخصال النفسية كقول الجاحظ : إن الأمصار عشرة : الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والخير ببغداد ، والغدر بالري ، والحسد بهراة ، والجفاء بنيسابور ، والبخل بمرو ، والطرمذة بسمرقند ، والمروءة ببلخ ، والتجارة بمصر ، (انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٥ ا) .

عند الأمير ببخارى فلذلك كان ببلاد ما وراء النهر قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع[1] ، « وكم تعب أهل بيكند حتى وضعوا بهـا المنبر ! » . وقـد كان بفلسطين على ضيق رقعتها نحوُ خمسين منبراً[2] .

وكان من أثر تلك القيمة التي للمنبر أن البعض قضى ، حتى في المدن الكبرى ، بالتزام مسجد جامع واحد ، إن أمكن[3] . وكان ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ نحو من سبعة وعشرين ألف مسجد[4] . ولكن صلاة الجمعة كانت لا تقام إلا في المسجد الجامع في كل من جانبيْ بغداد ، وفي مسجد دار الخلافة ، منذ المعتضد حوالي عام ٢٨٠ هـ ، وكان هذان المسجدان بطبيعة الحال يضيقان بمن يسعى إليهما من جموع المصلّين ، حتى كانت الصفوف تمتد من أبواب المسجد المفتوحة ، في الشوارع حتى تنتهي إلى دجلة . وكان المتباطئون في السعي إلى الجمعة يدركون المصلّين ، وقد ضاق الوقت والمكان ، فيصعدون من سميريَّاتهم ويفرشون بعض ما عليها ، وإذا قامت الصـلاة نقل المكبّرون التكبير للناس عند الركوع والسجود والنهوض والقعود[5] .

وكان بالفسطاط أيضا مسجدان للجمعة : المسجد الذي بناه عمرو ابن العاص والمسجد الذي بناه أحمد بن طولون[6] .

---

(١) المقدسي ص ٢٨٢ .
(٢) الاصطخري ص ٥٨ .
(٣) كان الشافعية بنوع خاص متشددين في ذلك ؛ انظر حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٥٥ .
(٤) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٦ حيث ذكر عدد الحمامات بدلا من عدد المساجد ، ويذكر اليعقوبي (كتاب الجغرافية ص ٢٥٠ ، ٢٥٤) انه كان بالجانب الشرقي من بغداد خمسة عشر ألف مسجد ، وبالجانب الغربي ثلاثون ألفا .
(٥) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٥ ا .
(٦) الاصطخري ص ٤٩ .

أما البصرة فكان فيها في القرن الثالث الهجري سبعة آلاف مسجد، وكان بها في القرن الرابع ثلاثة جوامع[1] . وهذا يبعث على الدهشة ، وذلك لأن المعنى الإسلامي القديم لجماعة المؤمنين في مدينة قد انحلّ في هذا القرن ؛ وتتلخص أهمية هذا العصر في أن الصبغة الإسلامية الأولى رقّت وتضاءلت في جميع مظاهر الحياة ، كما أنها تتلخص في ظهور الرسوم الشرقية القديمة من جديد وبقائها بالإجمال على الصورة التي اتخذتها في ذلك العهد .

ففي القرن الرابع بدأ أولو الأمر في جعل عدد المساجد ذات المنابر متمشياً مع حاجات الناس ومطالبهم ؛ فيذكر المقدسي أنه كان بالفسطاط إلى جانب مسجد عمرو بن العاص ستة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة ، وأن الزحام كان يشتد في جامع عمرو ، حتى تمتد الصفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع ، وحتى تكون القياسير والمساجد الصغيرة والدكاكين حوله من كل جانب مملوءة بالمصلين[2] . وقد أحصى ناصر خسرو في عام ٤٤٠ هـ غير هذه المساجد السبعة أربعة أخرى في القاهرة[3] .

أما في بغداد فكان ازدياد عدد المساجد أبطأ سيراً ؛ فكانت الصلاة لا تقام في أول الأمر إلا في مسجدي المدينة والرصافة إلى وقت خلافة المعتضد ، فإنه في عام ٢٨٠ هـ جعل الناس يصلون في دار الخلافة بقصر الحسني على دجلة ؛ ولما جاء المكتفي أقام في هذا المكان مسجداً جامعاً ؛ فاستقرت الصلاة في المساجد الثلاثة حتى عام ٣٢٩ هـ ؛ وذلك أنه كان بالموضع المعروف ببراثا مسجد" يجتمع فيه قوم من الشيعة رُفع للمقتدر

(١) جغرافية اليعقوبي ص ٣٦١ ، والمقدسي ص ١١٧ .
(٢) المقدسي ص ١٩٨ — ١٩٩ .
(٣) رحلة ناصر خسرو ، طبعة شيفر ص ١٤٥ .

أنهم يجتمعون على سب الصحابة والخروج على الطاعة ، فأمر بكبسه وأخذ من فيه ؛ ثم هُدم حتى سُوي بالأرض ، فأمر بجكم بإعادة بنائه وإحكامه وتوسيعه ، وكتب في صدره اسم الخليفة الراضي بالله ، ثم جُمّع فيه ، وصار أحد مساجد الحضرة . وفي سنة ٣٧٩ هـ وُسّع مسجد صغير بقطيعة أم جعفر في الجانب الغربي ، بعد أن رأت امرأة في المنام أنها ماتت ، وأن النبي عليه السلام صلى عليها فيه ، ووضع كفه في حائط القبلة ؛ واستأذن أبو أحمد الموسوي الخليفة الطائع في أن يجعله مسجداً يصلى فيه أيام الجمعة ، واحتج بأنه من وراء خندق يقطع بينه وبين المدينة ، ويصير به ذلك الصقع بلداً آخر ، فأذن الخليفة في ذلك . وفي سنة ٣٨٣ هـ جُمّع في مسجد بناه أحد الهاشميين بالحربية ؛ وذلك بعد إباء من الخليفة المطيع وإذن من الخليفة القادر بعد استفتاء الفقهاء[١] .

وفي القرن السادس الهجري وجد ابن جبير أن المساجد التي يُجَمَّع فيها ببغداد أحد عشر مسجداً ، هذا مع أنها فقدت كثيراً مما كانت عليه ، حتى أصبحت ــ على حد تعبير ابن جبير ــ داخلة تحت قول حبيب : لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار[٢] .

ولم يكن في الدواوين سجلات" إحصائية للناس سوى التي كان يُحصى فيها من يلزمهم دفع الجزية ؛ ويظهر أنه في عام ٣٠٦ هـ أُحصي المغنون والمغنّيات[٣] ، كما يُذكر أيضاً إحصاء الفقراء[٤] .

وقد عُني جغرافيّو القرنين الثالث والرابع بذكر كثير من الأرقام

---

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٦١ وما بعدها .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ ــ ٢٣١ .
(٣) حكاية أبي القاسم ص ٨٧ .
(٤) التحفة البهية طبعة القسطنطينية عام ١٣٠٦ هـ ص ٣٧ .

مثل أعداد الأبواب في المدن وأعداد المساجد والحمامات ونحوها ، ولكنهم لم يهتموا قط بذكر عدد السكان .

وأخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الإحصاء ، فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة أن بمدينة بَلَرْم ، قصبة صقلية ، ما يزيد على مائة وخمسين حانوتاً للقصابين ، وأراد أن يتخذ من ذلك دليلا على كثرة عدد أهلها[1] . وكذلك أراد بعض من روى للخطيب البغدادي أن يقدر عدد سكان بغداد في القرن الثالث مستدلا بما ذُكر له من عدد الحمامات مع ما كان فيه من مبالغة ، فقد ذُكر له أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، فقدّر أن بإزاء كل حمام خمسة مساجد فيكون ببغداد ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون في المسجد خمسة أنفس فيكون أهلها ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان[2] .

أما في القرن الخامس فقد تغير ذلك ، فنجد الرحالة الفارسي ناصر خسرو يقدر أن من أهل أرجان ما يزيد على عشرين ألفاً من الذكور ، ومن أهل جدة ما يقارب خمسة آلاف ، على حين أنه يقدر أهل مكة بألفين ، ويقول إن الباقين فروا من المجاعات ، وهو يقدر أيضاً أهل كل من مدينتي بيت المقدس وطرابلس الشام بعشرين ألفاً من الذكور — ويظهر أن العشرين عنده رقم محبوب[3] .

وأوضح من ذلك كله ما قيل في قرطبة حوالي عام ٣٥٠ هـ من أن عدد الدور التي بها للرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، وأن مساجدها ثلاثة آلاف[4] .

---

(١) ابن حوقل ص ٨٣ .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٥ ، ٦٧ .

(٤) البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذارى المراكشي طبعة ليدن عام ١٨٤٩ م ج ٢ ص ٢٤٧ .

وكان في المملكة الإسلامية أربعة أنواع من المدن : مدن على الطراز اليوناني ، في صورته الشرقية ، والمعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ والمدن التي على طراز جنوب جزيرة العرب مثل مدينة صنعاء ، ومن هذا الطراز مكة والفسطاط ؛ والمدن التي كانت تشيّد على الطراز البابلي ؛ والمدن التي كانت على الطراز المعروف في شرق المملكة الإسلامية .

وتختص المدن العربية بتقارب المباني وارتفاع الدور .

وكان بالفسطاط دور من طبقات كثيرة تبلغ الثمان ، حتى كأنها المنائر ؛ وأسفل الدور غير مسكون ، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس[1] ، بل يقول ناصر خسرو :«وترى مصر من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات... وبها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل ؛ لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها »[2] .

أما المدن الإيرانية فكانت تتألف من قلعة (قوهندز) ، ومن المدينة الرسمية (ولها في العادة أربعة أبواب) ، ومن قسم تجاري يشتمل على الأسواق ؛ وكان كل قسم من هذه الأقسام محصناً بسوره الخاص ؛ وكان بين المدينة الرسمية والأحياء الخارجة عنها شغب دائم .

وقد ظهر منذ منتصف القرن الثالث الهجري طراز آخر خامس ؛ وذلك أن الملوك صاروا يبنون لأنفسهم إلى جانب العاصمة مدناً خاصة يتخذونها مقراً لهم ، مثل مدينة سامرا والجعفرية على نهر دجلة إلى جانب بغداد ، ورقادة التي اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان ، والقطائع التي اتخذها الطولونيون إلى جوار مصر .

---

(١) الاصطخري ص ٤٩ ، وابن حوقل ص ٩٦ ، والمقدسي ص ١٩٨ .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ٧٠ ــ ٧١ من النص الفارسي .

وفي القرن الرابع بُنيت المدن التي اتخذها خلفاء الفواطم مقرًّا لهم ، مثل المهدية والمنصورية والمحمدية والقاهرة ؛ فكانت أعظم ما أسِّس من المدن نجاحا في القرن الرابع ، بل في تاريخ الإسلام .

أما في الأندلس فقد بنى عبد الرحمن بن محمد في غرب قرطبة مدينة سماها الزهراء ، وخط فيها الأسواق والقصور والحمامات ، وأمر مناديه بالنداء : ألا من أراد أن يبتني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم ، فتسابق الناس إلى العمارة وتكاتفت الأبنية حتى كادت تتصل بين قرطبة والزهراء[1] .

وكذلك ابتنى السلطان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢ هـ) مدينة فناخسرو (وهو اسم عضد الدولة) ، اختطَّها على مسافة نصف فرسخ من مدينة شيراز ، وشقّ إليها نهراً كبيراً ، أجراه من مرحلةٍ ، وجعل إلى جنبيه بستاناً سعته فرسخ ، ونقل إليها الصوّافين وصنّاع الخزّ ؛ واتخذ بها القوادُ دوراً حسنة وعقاراتٍ جليلة ، وجعل لها عيداً في كل سنة يجتمع فيه القوم للفسوق واللهو ؛ ولكن بعد أن مات عضد الدولة خفّت وأشرفت على الخراب وبطل سوقها[2] .

وكانت هذه المدن الجديدة تمتاز بالاتساع ، حتى نجد اليعقوبي في كلامه عن سامرّا لا يملّ من وصف اتساعها ، فيقول : إن المتوكل جعل عرض الشارع الأعظم فيها مائتي ذراع ، وقدّر أن يحفر في جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير[3] .

وكانت القاهرة في أول وضعها مدينة حدائق ؛ فيذكر ناصر خسرو

---

(١) ابن حوقل ص ٧٧ .

(٢) المقدسي ص ٤٣٠ – ٤٣١ . ومعجم ياقوت ؛ وانظر Schwaz, Iran, S. 50

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٢٦٦ .

(ص ٤٥) أن كل الدور منفصل بعضها عن بعض ، حتى إن أشجار إحداها لا تبلغ حائط الأخرى[1] •

وقد نالت مياه الشرب في المملكة الإسلامية عناية كبيرة ، ولكن مجاريها ــ رغم هذه العناية ــ لم تبلغ من الكِبَر ما بلغته مجاري الماء عند القدماء ، وذلك لأن المسلمين كانوا يشفقون من الإسراف في العناية بالأبدان إشفاق أهل العصور الوسطى في الغرب: ولذلك كانوا يتعجبون من أشياء أنشأها القدماء ، فنجد في كتاب الموالي للكندي (المتوفى عام ٣٥٠ هـ) أن الإجابة على سؤال من يسأل عن أعجب شيء في الدنيا ، هي منارة الإسكندرية ومجاري مياه قرطاجنة[٣] ، وقد أطرى ياقوت (ج ٤ ص ٥٨) عقود هذه المجاري وأعمدتها التي تشبه المنائر •

وكانت طريقة إمداد الناس بالماء في قصبة القطر المصري طريقة لا أثر فيها للرقي قط ،فكان أهل مصر يشربون ماء النيل ، يحمله الحمالون في الروايا ويصعدون الدور ، كل طبقة بنصف دانق[٣] • ويحكي ناصر خسرو (ص ٤٤) في عام ٤٤٠ هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنتان وخمسون ألف جمل لحمل قِرَب ماء الشرب في هاتين المدينتين •

وفي سنة ٣٨٢ هـ نودي بالسقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء ، لئلا يصيبَ الماءُ الذي يتساقط منها ثياب الناس[٤] •

---

(١) وقد أصاب القاهرة فيما بعد ما أصاب غيرها من المدن ، حتى نجد ابن سعيد في القرن السابع يشكو ضيق دروبها وكثرة التراب والأزبال فيها ، وارتفاع مبانيها ، حتى ضيقت مسلك الهواء والضوء (الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣٦٦) •

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ١٦١ (أ) •

(٣) المقدسي ص ٢٠٧ •

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ١٠٨ نقلا عن المسبّحي •

وكان أكثر شرب أهل بغداد من ماء دجلة ؛ وكان السقاؤون يأخذونه إما من النهر مباشرة ويحملونه إلى دور أهل اليسار ، أو من مواضع تقوم مقام الخزانات وتغذيها نهيرات صغيرة ، بل كان هناك قناتان يجري فيهما الماء إلى المدينة ، وكلاهما مغطاة ومحكمة العقد ، وإحداهما القناة التي كانت تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات . وكانت هاتان القناتان أقل إحكاماً من القنوات والمجاري الحجرية التي كانت معروفة عند الرومان ، فكانت إحداهما مثلا معقودة وفي أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها[1] .

ولما كانت عين الماء بمكة مرّة ، حتى كان لا يستطيع الإنسان أن يشرب منها ، فسرعان ما أصبح إمداد هذه المدينة المقدسة بالماء باباً من أكبر أبواب البرّ . وكانت القناة المعقودة تحت الأرض والتي أمرت بإنشائها السيدة زبيدة كثيراً ما تتعطل ؛ ففي سنة ٢٤٥ هـ غار الماء بمكة ، حتى بلغ ثمن القربة ثمانين درهماً . فبعثت أم المتوكل آمرة بإصلاح القناة والإنفاق عليها[2] . وحوالي عام ٣٠٠ هـ كان أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقل الماء من جدة إلى مكة ؛ وكان الوزير علي بن عيسى في ذلك الوقت بمكة مغضوباً عليه من السلطان ببغداد ، ورأى ضيق الماء على أهل مكة ورأى تلك السخرة ، فابتاع كثيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء ، وأقام لها العلوفة الراتبة ، ومنع السخرة وحظرها ؛ وحفر بئرا عظيمة في الحنّاطين ، فخرجت عذبة شروباً ، وسماها الجراحية ، وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار ووسّعها ، حتى كثر واتسع الماء بمكة[3] .

---

(١) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٠ .

(٢) الطبري ج ٣ ص ١٤٤٠ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٨٦ .

وكانت عناية أهل البر بماء الشرب في سمرقند أعظم مما تقدم ، فيحكي لنا ابن حوقل : « وقلّ ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلّة أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبّل ، وذكر لي من يُرْجَع إلى خبره أن بسمرقند في المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادةً على ألفي مكان ، يُسقى فيه ماء الجمد مسبّلا ، عليه الوقوفُ ، من بين سقاية مبنية وجبات نحاس منصوبة وقلال خزف في الحيطان مبنية »[1] . ولهذه المدينة مياه جارية تدخل في نهر كان أصله خندقاً قديماً ، وقد بُنيت له في بعض المواضع مسنّاةٌ عالية عن الأرض يجري عليها الماء ، ووجه هذا النهر رصاص كله ؛ وهو نهر قديم جاهلي يشق سمرقند ، وهو من أعمر المواضع بها ، وله غلاّتٌ موقوفة لمرمّته ومصالحه ، وعليه حفظة من المجوس شتاءً وصيفاً في شرط عليهم بذلك ، ولا تؤخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب[2] .

أما مجاري الماء المبنية تحت الأرض فكانت توجد في مدن إيران الشمالية بنوع خاص مثل قمّ ونيسابور ، وكانت نيسابور أكبر مدن المشرق في ذلك العصر[3] . ويحكي ناصر خسرو أنه كان بنيسابور كثير من مجاري الماء المغطاة ، بعضها يظهر في خارج المدينة ويروي البساتين، وبعضها الآخر يُمِدّ الدور بالماء ، وكانت هذه المجاري على أعماق متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، حتى يضطر الإنسان أن ينزل إليها مائة درجة ، ولذلك قال أصحاب النوادر : ما كان أبهى مدينة نيسابور لو أن مجاري الماء فيها أصبحت ظاهرة ، ودخل أهلها تحت الأرض[4] . وكان على

---

(١) الاصطخري ص ٢٩٠ ، وابن حوقل ص ٣٣٩ .

(٢) الاصطخري ص ٣١٦ ، وابن حوقل ص ٣٦٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٢٧٨ .

هذه المجاري والأودية قَوّام" وحَفَظَة"[1] ، وكانت مدينة الدينَوَر مدينة جبلية تتفجّر عيوناً ، ولم يُرَ أنظف من مائها ، وقد بلغ من رقيّ أهلها أنهم جعلوا على أفواه العيون مزمّلات وأنطونيات يخرج منها الماء[2] .

أما مسألة تصريف الإفرازات الإنسانية ، وهي من المسائل العسيرة فيظهر أنها كانت تُحَلّ في مدينة البصرة المشهورة بتجارتها حلا من طريق المضاربة ؛ وكان بالبصرة تجار لهذه المهمة . وكان ذلك موضوعاً لأصحاب النوادر ، فيحكى أن رجلا من أهل المدينة دخل البصرة ، ثم انصرف ، فقال له أصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال خير بلاد الله للجائع والعزب والمفلس : أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناء .... وأما المحتاج فلا عيلة عليه ما بقيت عليه استُه ، يَخْرأُ ويبيع[3] .

وكان اكتراء الحمير منذ القرن الثالث الهجري وسيلة قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المدن ؛ وكان أكبر محل يقف فيه الحمارون بحميرهم ببغداد عند باب الكرخ ، وهو مدخل القسم التجاري[4] . وكان بالفسطاط موضع" لاكتراء الحمير بالقرب من دار الحرم ، وكان كراء الحمار قيراطين[5] .

---

(١) الاصطخري ص ٢٥٥ ، وابن حوقل ص ٣١٢ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٥٧ ، وفيما يتعلق بالسراديب المائية في الأجزاء التي ليس بها نظام للصرف بفارس اليوم انظر كتابي : Grothe. Wanderungen, in Persien, 1910 S. 103 ; Hedin, Zu Land nach Indien 1, S. 184.

(٢) المقدسي ص ٣٩٤ .

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٦٤٨ ، وعيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٢٦٥ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣١ .

(٥) ابن سعيد ص ٣٣ ، ويقول ناصر خسرو عام ٤٤٠ هـ إنه كان بمصر خمسون الف حمار للكراء (ص ٥٣ من الرحلة) .

أما في المدن التي تقوم على الأنهار كبغداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضاً .وقد أُحصيت السُّمَيْريات المعبرانيات بدجلة في أيام الخليفة الموفّق (من سنة ٢٥٦ هـ ــ ٢٧٩ هـ) فكانت ثمانين ألفاً يتقدَّر كسبُ ملاَّحيها في كل يوم بتسعين ألف درهم[١] .

أما إدارة المدينة فكان الحظ الأوفر منها في يد عمال الدولة ؛ وكان من هؤلاء العمال في كل بلد من خراسان مثلا أربعة وهم : القاضي ، وصاحب البريد ، والبندار ، وصاحب المعونة[٢] .

أما بغداد فكان جزؤها الشرقي تحت إدارة الخليفة مباشرة ؛ والجزء الغربي كله كان يدخل ضمن عمالة بادوريا ، ولذلك كان لا يتقلد هذا الإقليم إلا أجلُّ العمال ، وذلك لكثرة معاملاته واختلافها وكونها مع الكبراء ، ومن ضَبَط ذلك كله صلح للأمور الكبيرة[٣] .

وحوالي عام ٣٢٥ هـ كان أبو الحسين بن سعد الكاتب يشتغل بتدبير أصبهان ، ووُكلت إليه فوق ذلك جبايةُ الخراج ، فكان صاحب البلد[٤] .

وكان إلى جانب التنظيم الرسمي تنظيم خاص ؛ فمثلا لما أسست بغداد قسمت الأرباض إلى أرباع ، وقلّد كلُّ ربع لرجل من الحاشية ليديره ، وكان في كل ربض ــ زيادة على ذلك ــ رئيس" وقائد ، خصوصاً بفارس[٥] .

وكان الذي يُعنى بالأمن في مقر الأمير أو الوالي صاحب الشرطة ؛

---

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٣ .
(٢) ابن حوقل ص ٣٠٩ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٧٦ .
(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٢٩ ــ ١٣٠ .
(٥) جغرافية اليعقوبي ص ٢٤٠ وما بعدها ؛ وكان رستاق الكرخ اثني عشرة قرية (كتاب الوزراء ص ١٥٨) .

أما في المدن الأخرى فكان يتولى ذلك صاحبُ المعونة ، وكان يقوم إلى جانبهما المحتسب ، باعتباره الممثل الأكبر للمجتمع الذي يعتبر أن له الكلمة العليا ، والذي يشرف على الأفراد ويزعهم إلى اتباع الحق .

وكان المحتسب حوالي عام ٣٠٠ هـ موظفاً معيناً ، له منصب ثابت، وكان محتسب بغداد في جملة أصحاب المخاطبات المعروفة للكتاب ، وكان يجري مجرى الطبقة الأولى من العمال[١] . وأول من بيّن الواجبات المتعددة التي على المحتسب أن يقوم بها الماوردي[٢] وابن الطوَير[٣] ؛ وفي كثير من الأحيان يُعهد إليه تولي مهامّ مثل الإشراف على سوق الرقيق ودار الضرب والطرز ، وقد صدر منشور إلى الولاة من بغداد حوالي عام ٣٦٦ هـ جاء فيه ، فيما يختص بأسواق الرقيق ، أن يأمر الوالي من يُسند إليهم أمرُها بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أمره ، وبالتحرّز من وقوع تجوُّزٍ فيه وإهمال له ، إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج وتطهير الأنساب ، وأن يبعدوا عنه أهل الريبة ويُقرّوا أهل العفّة ، وبألا يمضوا بيعاً على شبهة ، ولا عقداً على تهمة . وفيما يتعلق بدور الضرب أُمر صاحبها بتخليص عين الدرهم والدينار ، ليكونا مضروبيْن على البراءة من الغش ، وبإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يُضرب ذهباً وفضة ، وإجراء ذلك على الرسم المعروف ببغداد . وأُمر المشرفُ على دور الطرز بأن يُراعى أن يكون النسج جيداً صحيحاً متيناً ، وأن ينقش اسم الخليفة على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام ونحوها[٤] .

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٥٨ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٤٠٤ وما بعدها من طبعة انجر .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٦٣ .

(٤) رسائل الصابي طبعة بعبدا ص ١١٣ .

وكان المحتسبون يختارون في الغالب من بين القضاة ؛ ففي سنة ٣١٩ هـ خَلعَ على محمد بن ياقوت وقلّد مع الشرطة الحسبةَ ؛ فعَظُم ذلك على مؤنس ، وسأل المقتدر صرفَ محمد بن ياقوت عن الحسبة ، وقال : هذا عمل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول[١] .

وكان أصحاب الشرطة يحملون آلة من السلاح تسمى الطبرزين ، وهي عبارة عن سكين طويل ، يحملونها مُعَلَّقة[٢] في أوساطهم وكل من هرب أمامهم كان لا بد أن يؤويه الناس[٣] ؛ وكانوا يقومون بالطوْف أو العسس طول الليل إلى صلاة الفجر[٤] .

ولم يكن في القرن الثاني الهجري بالمشرق نظام لضبط أسماء الأغراب قبل دخولهم من أبواب المدن[٥] . وقد تكلم أحد الرحالين المسلمين في القرن الثالث الهجري عن نظام جواز المرور المعروف بالصين كلامَ من يعتبر ذلك شيئاً جديداً لا عهد له به[٦] ، وقد أحدث السلطان عضد الدولة في القرن الرابع الهجري لأول مرة نظام مراقبة الأبواب في شيراز عاصمة بلاده ، حتى قال المقدسي في حقها : « ومنع الخارج منها إلا بجواز ، وحبس الداخل والمجتاز »[٧] .

---

(١) عريب ص ١٤٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ .

(٢) مقامات الهمداني طبعة بيروت ١٨٨٩ م ص ١٧٠ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ١ ص ١٩ .

(٤) مقامات الهمداني طبعة بيروت ص ١٦٠ (؟) .

(٥) الأغاني ج ١٩ ص ١٤٧ ، حيث أوقف الرشيد ببغداد قائداً على جسر النهروان ليتصفح الناس الذين يدخلون بغداد ويتعرف رجلا كان الخليفة يطلبه ، وهذه طريقة كان عنها غني لو وجدت ثم سجلات . (المترجم)

(٦) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤٢ . وقد كان بمصر منذ اول العصر الاسلامي نظام جوازات دقيق فيما يختص بالانتقال الداخلي C.H. Becker, Papyri Sehott—Reinh. I, 40
(المغرب في حلى المغرب لابن سعيد طبعة فولرز ببرلين ص ٥٢ عام ١٨٩٤) .

(٧) المقدسي ص ٤٢٩ .

الفصل الثالث والعشرون

الأعياد

تدل الأعياد عند المسلمين على مقدار رقة المظهر الإسلامي الذي يحيط بالحياة العامة ؛ فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية ، طول العام ، وكان معظم هذه الأعياد النصرانية تتجلى فيها عادات أقدم من ذلك : وكثير من المواضع التي كان يحج إليها المسيحيون في مصر وفي العراق إنما كانت مواضع مقدسة عند الوثنيين من قبل ، ولم تكن أعياد القديسين التي كانت تعمل في الأديرة الناشئة هناك إلا تجديداً لأعياد الآلهة القدماء .

ولم يَرْض الذين دخلوا في الإسلام من أهل تلك البلاد بأن يحرموا من الاحتفال بهذه الأيام التي كانت تزدهي بها حياة آبائهم الوثنيين من قبل ؛ ولكن المسلمين ، خلافا للكنيسة النصرانية ، أنفوا في الغالب من وضع الأساطير . وقد تركوا النصارى يتصرفون في أمورهم الدينية من غير تدخل في ذلك ، واشتركوا في الجانب الاجتماعي المسَلّي من تلك الأعياد كما فعل آباؤهم من قبل ؛ فمثلا كانت أعياد أهل بغداد تكاد تكون نصرانية من كل وجه ، وكانت أعياد القديسين في مختلف الأديرة أكثر الأعياد نصيباً من احتفال الناس ؛ ولكن هذه الأديرة كانت لا تخلو، حتى في غير الأعياد، من الزوار الذين لا تربطهم بالدين صلة[1].

---

(١) كتاب الديارات للشابشتي ص ١٨ .

وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة ، وقاعات شرابها الباردة ؛ مجتمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين ، وكثيراً ما يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب في كلام الشعراء . قال ابن المعتز :

بديـر المطيرة نقري المدا م لدى القس لما أتيناه زورا

وكان شراب القربان مشهور بنوع خاص . ويقول ابن المعتز :

كم أردتُ التقى فما تركتني خندريس يـُديرهـا طاووس
من شراب القربان يوصي الشمّا سَ خزانُ بيتها والقسوس[١]

ولم يكن الحال في مصر يختلف كثيراً عما تقدم ؛ فقد أحصى إبراهيم ابن القاسم الكاتب حوالي أواخر القرن الرابع معاهد اللهو بالقاهرة ، وذلك في قصيدة له قالها يحن فيها إلى مصر ويذكر معاهدَ لهوها ، كمصايد الغزلان بجانب الأهرام ، ومواخير الجيزة وجسرها ، وبستان القس ، وملعب دير مرحَنّا ؛ وأحسنـُها كلها دير القصير ، وكان على جبل المقطم ، وكان له منظر جميل ، وهو يقول فيه :

وكم بتُّ في دير القصير مواصلا نهاري بليلي،لا ُأفيق من السكر[٢]

وقد أمر أبو الجيش خمارويه الطولوني أن تـُبنى له في أعلى دير القصير طبقة لها أربع طاقات على الجهات الأربع[٣] .

وكان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامة ؛ ولا بد أنه كان

---

(١) ابن المعتز (ديوان) ج ٢ ص ٤٦ ، ٥٠ . ويحكي شلتبرجر Schiltberger أنه وجد قساوسة الروم في المملكة الاسلامية يشتغلون خمارين (انظر : Bibl des. Literar. Vereins S. 50) ؛ وكذلك كان الرهبان النصارى في قرى الشام يحضرون لنا النبيذ تحت ثيابهم .

(٢) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩١ .

(٣) تاريخ الشيخ أبي صالح الارمني ص ٤٩ ا .

عيداً قديماً من أعياد الأشجار ، وخصوصاً أشجار الزيتون[1] ؛ وكان في مصر يسمى عيد الزيتونة فقط[2] . وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرون في قصر الخلافة ببغداد ، متزينات في ثياب جميلة غالية ، وفي أعناقهن صلبان من الذهب ، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون[3] .

وفي القرن الرابع الهجري كان رسم النصارى ببيت المقدس في هذا العيد أن يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التي بالعازرية إلى كنيسة القيامة ، وبينهما مسافة بعيدة ، ويشقّوا بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات ، حاملين الصليب مشهوراً ؛ ويركب والي البلد فيجميع موكبه معهم ويذبّ عنهم[4] .

وكان الرسم بمصر وسائر البلاد أيضاً أن تُزَيَّن الكنائس في هذا العيد بأغصان الزيتون وقلوب النخل ويتفرّق منها على الناس على سبيل التبرّك ؛ فمنع الحاكم بأمر الله ذلك في بيت المقدس وفي سائر

---

(١) وفي القرن الرابع الميلادي كانت عادة الأطفال في هذا اليوم ببيت المقدس أن يدوروا حول جبل الزيتون ، وبأيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون (انظر : Silvia pergrinatio S. 91) . ولا يزال الموارنة إلى اليوم يذهبون في يوم احد الشعانين إلى الكنيسة بشجرة كبيرة من الزيتون ، ويباركونها ويعطونها لمن يدفع فيها ثمناً اوفر ، فيجعل مقتنيها إبنه أو صبيا يحبه فوقها ، ويطوفون بها في الكنيسة بين أصوات الفرح ، ثم يهجم القوم عليها ويأخذ كل منهم غصناً يحفظه للبركة . أما الاقباط فكانت عادتهم أن يقطعوا قلوب النخل وسعفه واغصان الزيتون يوم سبت العازر ، ويضفرونها زيتونة كبيرة بالصلبان ، ويكللونها بالشموع، ويرفعونها إلى محل إقامة البطريرك ؛ ثم توضع يوم الأحد أمام الهيكل ، ويبتدىء البابا في القداس ، وتحمل الشجرة إلى كل ركن من اركان الكنيسة الاربعة ويقرأ أمامها في كل ركن من احد الاناجيل الاربعة ؛ ثم يأخذ الناس منها على سبيل البركة ، وكان البعض يدورون بالزيتونة في الأديرة والطواحين والأفران (مجلة المشرق ج ٨) عام ١٩٠٥ م (ص ٣٤٢) . وفي الكنيسة الغربية يحتفل في يوم أحد السعف بمباركة الزيت المقدس .

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٨ .

(٤) يحيى بن سعيد مخطوط باريس ص ١١٨ ب .

أعمال مملكته ، وأمر ألا تحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخل في كنيسة من الكنائس ، وألا يُرى من ذلك شيء في يد مسلم ولا نصراني[1] .

وكان الخميس المقدس يسمى في مصر خميس العدس ، لأن عامة النصارى كانوا يأكلون العدس في هذا اليوم ؛ وكان العدس يعتبر طعام الحداد ، وكان نصارى مصر يأكلونه في كل يوم جمعة[2] . وفي يوم خميس العدس كانت تضرب خراريت تفرّق على أهل الدولة[3] . وكان أهل الإسكندرية في يوم خميس العدس يخرجون إلى المنارة بمآكلهم ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يصلّي ، ومنهم من يلهو ، ولا يزالون هناك إلى نصف النهار[4] . وفي الشام كان هذا اليوم يسمى الخميس الأزرق أو خميس البيض ، وكان يباع فيه بأسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة ألوان ، « فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ، ويُنتدَب من جهة المحتسب من يروعهم »[5] .

وفي يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو ، إلى شرقي بغداد ، بباب الشماسية على نهر المهدي ؛ ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره ، وهناك يدور الشراب ؛ وفي ذلك قال أحد الشعراء :

فتـلاعبت بعقولنـا نسـوانه   وتوقـدت بخدودنا نيرانـه

---

(١) نفس المصدر ، وكان من العادات الخاصة بالنصارى في هذا العيد لبس الثياب البيض (ديوان الشريف الرضي ص ٩١٧) .

(٢) الرازي ترجمة ستينشنيدر في Virchows Archiv, 36, S. 574 .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٥٠ .

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٧ .

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٦ . والمدخل ج ١ ص ٣٠٥ .

حتى حسبت لنا البساط سفينة والدير ترقص حولنا حيطانه[1]

وكان عيد دير الثعالب في آخر سبت من أيلول ؛ وهذا الدير يقع في الجانب الغربي من بغداد ، عند الموضع المعروف بباب الحديد ؛ وكان لا يتخلف عن عيده أحد من النصارى والمسلمين ، لأنه في أعمر موضع ببغداد ، لما فيه من البساتين والنخل والرياض ، ولتوسّطه في البلد[2] .

وكان في اليوم الثالث من تشرين الأول عيد القديسة أشموني ؛ وكان يعمل بدير أشموني بقطربل ، غربي دجلة ، وكان من الأعياد العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا خرج إليه ، كل منهم على حسب قدرته ؛ فمنهم من يأتي في الزبازب ، ومنهم من يركب الطيارات أو السميريات ، ويتنافسون فيما يظهرون به هناك من زينتهم ، ويباهون بما يعدونهم لقصفهم ، ويعمرون ديره وأكنافه وحاناته ؛ ويُضرب لذوي البسطة منهم الخيام والفساطيط ، وتعزف عليهم القيان ؛ فيظل كل إنسان منهم مشغولا بأمره ، ومُكِبّاً على لهوه ؛ فهو أعجب منظر وأنزهه ، وأطيب مشهد وأحسنه[3] . وكان الغريب الذي يهبط بغداد ويسأل عن أعجب وأبهى ما يستحق أن يُرى فيها يُسَرُّ ويَتسلّى بأن ينتظر شهراً لرؤية عيد أشموني .

وكان عيد بربارة يُعمل في أول الشتاء (الرابع من كانون أول) ، وكان المسلمون يعرفونه ، فيقول المقدسي إنه من أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول ، وبه يُعرف وقت الأمطار ،

---

(١) كتاب الديارات للشابشتي ص ١٤ – ب .
(٢) نفس المصدر ص ١٨ ا ، وكتاب الآثار الباقية للبيروني ص ٣١٠ .
(٣) كتاب الديارات ص ١٨ ا ، ب ، والبيروني في الآثار ص ٢٩١ .

« ومن أمثال الناس : إذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زمارة ؛ يعني فليجلس في البيت »[1] ، والمقدسي يفتخر بأنه رأى عيد بربارة[2] .

وفي ليلة عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) وعيد الشمس كان يُحتفل بها بإيقاد النيران ، وقد تكلم ابن بابويه القمي الشيعي الفارسي (المتوفى عام ٣٨١ هـ — ٩٩١ م)[3] عن العلة التي من أجلها يوقد النصارى ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز ، وروي عن وهب بن منبّه أنه لما ألجأ المخاضُ مريمَ ، عليها السلام ، إلى جذع النخلة اشتدّ عليها البردُ ، فعمد يوسف النجار إلى حطب ، فجعله حولها كالحظيرة ، ثم أشعل فيها النار ، فأصابتها سخونةُ الوقود من كل ناحية ، حتى دَفِئَتْ ، وكسر لها سبع جوزات وجدهن في خرجه ، فأطعمها ؛ ومن أجل ذلك يوقد النصارى النيران ليلة عيد الميلاد ، ويلعبون بالجوز .

ولكن المسلمين كانوا يحتفلون أيضاً بليلة الوقود التي تُعرف بالسَدَق[4] والتي تكون بحسب قانون مسعود لعشرة تمضي من بهمن ماه[5] ، وتكون بحسب ما ذكره ابن الأثير وأبو الفدا في ليلة عيد الميلاد[6] .

ويحكي ابن الجوزي في عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٨ م عن قوم من أهل عكبرا أنهم اجتمعوا في ليلة عيد الميلاد لإشعال النار على عادتهم[7] .

وجرت العادة في القرن الرابع الهجري بالتبخير ليلة الوقود لدفع

---

(١) المقدسي ص ١٨٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٥ .
(٣) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ٣٢ ا .
(٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها .
(٥) الآثار الباقية للبيروني ص ٢٢٧ .
(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ ، وأبو الفدا تحت عام ٣٢٣ هـ (ج ٢ ص ٢٨٨) .
(٧) المنتظم ص ١٩٢ ا .

المضرة ، وصار في رسوم الملوك في ليلته إيقاد النيران وتأجيجها ، وإرسال الوحوش فيها ، وتطيير الطيور في لهبها ، والشُرب ، والتلهي حولها ؛ ويقول البيروني بعد حكايته لذلك « انتقم الله من كل مُتَلَذِّذ بإيلام غيره من الحاسّين غير المضرّين »[1] .

وكانت أشهر ليلة وقود في القرن الرابع في عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ؛ ففي هذا العام أمر القائد مرداويج ، أمير بلاد الجبل في غرب إيران ، قبل ليلة الوقود بمدة طويلة ، أن تُجمع الأحطاب من الجبال والنواحي البعيدة ، وأن تُنقل في الوادي المعروف بزرين روذ ، قرب أصفهان ؛ وأمر بجمع النفط والنفّاطين والزرّاقات ومن يحسن معالجتها واللعب بها ، وتقدم بإعداد الشموع العظام ؛ ولم يبق جبلٌ مشرف ولا تلٌ ظاهر إلا وُضعت عليه الأحطابُ والشوك ، وصيدت له الغربان والحدا ، وعُلّق بمناقرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقة ونفطا ؛ وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع وأساطين عظام ، لم يُرَ مثلها ، ليكون الوقود في ساعة واحدة على الجبال ورؤوس اليفاعات وفي الصحراء وعلى الطيور التي تُطلق ؛ ثم عُمل له سماطٌ عظيم في الصحراء التي يبرز إليها من داره ، وجُمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة ، وزُيّن بما لم تجر العادة بمثله ؛ فلما فُرغ من جميع ذلك ، وحضر الوقت الذي ينبغي أن يجلس فيه مع الناس للطعام ثم للشراب ، خرج من منزله ثم طاف على كل ذلك ، فاستحقره واستصغر شأنه ؛ قال : وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد في فضاء واسع ، ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة ، استحقرها ، وإن كانت عظيمة ؛ واغتاظ

---

(١) الآثار للبيروني ص ٢٢٦ .

ودخل إلى خيمته ، واضطجع ، محوّلا وجهه إلى خلاف الباب ، والتفّ بكسائه ، لئلا يكلمه أحد[1] .

وفي أيام الدولة الفاطمية بمصر كان يُفَرّق على أرباب الرسوم ورجال الدولة جامات الحلاوة القاهرية ، وقربات الجلاّب ، وطيافير الزلابية ، وماء الورد ، والسمك البوري ؛ وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويُعطى للفقراء فوانيس ، يحملونها في أيديهم ، ولهم على ذلك درهم[2] .

وكان يحتفل بعيد الغطاس بمصر احتفالا كبيراً ؛ وهو يسمى عيد الغطاس ، لأن كثيراً من النصارى كان يغطس فيه في النيل ؛ وفي هذا اليوم نفسه لا تزال الكنيسة الرومية في عصرنا تحتفل بعيد الماء المقدس. وكان من الرسوم القديمة بمصر أن يركب مُتَوَلّي الشرطة السفلانية ليلةَ الغطاس في موكب كبير ، وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل ؛ فيطوف الشوارع وينادي في الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى في تلك الليلة، وألا ينكّدوا عليهم عيدهم ؛ وذلك أن النصارى كانوا في سَحَر تلك الليلة يخرجون إلى شاطىء النيل ويغطسون فيه ؛ وكان رسم الملكية خاصةً أن يخرجوا من كنيسة ميكائيل التي بقصر الشمع إلى شاطىء النيل في جَمْعٍ وفير ، بالقراءة الملحّنة والصلبان المشهورة ؛ « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب بها في هذا العيد من الطيبة والفرح ما لا يكون لهم في غيره من أيام السنة وأعيادها »[3] .

---

(١) ابن مسكويه ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ وما بعدها ، وابو الفدا تحت عام ٣٢٣ هـ، وهو يقول إنه كان في ذلك السماط ألف فرس وألف رأس بقر.

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) يحيى بن سعيد ، مخطوط باريس ص ١١٩ ب .

ويقول المسعودي في ليلة الغطاس : « ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ؛ لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة عشر تمضي من كانون الثاني ؛ ولقد حضرتُ سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر ، والأخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة ، في الجزيرة الراكبية للنيل ، والنيلُ مطيفٌ بها ؛ وقد أمر ، فأُسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألفُ مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ؛ وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو الألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية للنيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب ، والملابس ، وآلات الذهب والفضة ، والجواهر ، والملاهي ، والعزف والقصف ؛ وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ؛ ولا تُغْلَق بها الدروبُ ؛ ويغطس أكثرهم في النيل ، ويزعمون أنه أمان من المرض ونشرة من الداء[1] » .

وكانت العادة أن يضاء سوق الشماعين بإضاءة كبيرة ، وكانت حوانيته لا تزال مفتّحة إلى نصف الليل ، يقصده كثير من الناس ؛ وكان يجلس فيه في الليل بغايا يُقال لهن زعيرات الشماعين ، لهن سيما يعرفن بها ، وهي نبس الملاآت الطرح ، وفي أرجلهن سراويل من أديم أحمر ، وكنّ يعانين الدعارة[2] .

وفي عام ٤١٥هـ ــ ١٠٢٥م نزل أمير المؤمنين الظاهر لنظر الغطاس، ومعه الحُرَم ؛ وضرب بدرُ الدولة ، مُتَوَلّي الشرطتين ، خيمةً للخليفة وحرمه ؛ وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل في الليل ، وكان وقوداً كثيراً[3] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥ .

(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٩٦ .

(٣) نفس المصدر نقلا عن المسبّحي .

وكان عيد الأحد من الصوم المسيحي عيداً من أعياد اللهو عند المسلمين ، وكان يُعمل في دير الخوّات بعكبرا المشهورة بنبيذها ، ويبلغ اللهو أقصاه في ليلة الماشوش ، « وهي ليلة تختلط النساء فيها بالرجال ، فلا يردّ أحد يده عن شيء ، ولا يرد أحدٌ أحداً عن شيء ؛ وهو معادن الشراب ، ومنازل القصف ، ومواطن اللهو[1] » .

وقد تكلم ابن خلدون ، مع أنه من المتأخرين ، عن شيء يسمى الكرّج ، وهو تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية ، يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرّون ويثاقفون[2] .

وكان في يوم الأحد الرابع من الصوم عيد دير دُرْمالس ، وكان يجتمع إليه نصارى بغداد ، ولا يبقى أحدٌ ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم ، وكان الناس يقيمون فيه الأيام[3] .

وكان من الأعياد الكبرى عند النصارى بمصر عيد سرعان ما اتخذه المسلمون ، وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ؛ وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن أسواق البلد بالطبول والبوقات ، ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم ؛ ولكن حدث في عام ٤١٥ هـ ـــ ١٠٢٥ م أن اشتدّ الغلاء ، فامتنع التجار من الدفع ؛ فأمر الخليفةُ الظاهرُ التجارَ بأن يدفعوا ما جرت به العادة ، وأن يُطلق للمحتفلين ضعفُ ما أطلق لهم في السنة الماضية ؛ فخرجوا إلى السجن بالجيزة ، ومعهم التماثيل والمضاحك والخيّال والحكايات

(١) كتاب الديارات ص ٣٧ ب .
(٢) مجلة المشرق ج ٩ (عام ١٩٠٦ م) ص ٢٠١ .
(٣) كتاب الديارات ص ٢١ .

والسماجات ، وخرج الخليفة إلى الجيزة ، وأقام يومين ، حتى رأى الجماعة ، فضحك منهم واستظرفهم[1] .

وكان للناس عند خليج الخور مجتمع" ، يكثر فيه لهوهم ولعبهم . وفي سنة ٤١٥ هـ كان ثالث الفتح ، فاجتمع عند كنيسة المقس خلق" كثير من النصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشرب واللهو ، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن" في قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال ما يقبح ذكره[2] .

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد في الثامن من مايو ؛ وكان النصارى يلقون في النيل في هذا العيد تابوتاً من خشب ، فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى ، ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة إلا بهذا. وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا ، وكان يرحل إليه عالم عظيم للفجور واللهو والفسق ، وفيه يصرفون أموالا لا تحصى ؛ ولا يبقى مُغَنّ" ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا بغي" ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا نحو ذلك إلا خرج لهذا العيد ؛ وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة ، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القرن الثامن[3] .

وكانت أعياد رأس السنة ثلاثة :

١ ـ عيد رأس السنة الفارسية والشامية ، وهو أول الربيع .
٢ ـ عيد رأس السنة القبطية بمصر ، وهو في آخر أغسطس .
٣ ـ عيد رأس السنة الهجرية ، وهو مُتَنَقِّل في أثناء السنة الميلادية .

---

(١) المقريزي ج ١ ص ٢٠٧ نقلا عن المسبّحي .
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٦ .
(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

وكان إلى جانب هذه الأعياد آثار رأس السنة الفارسية القديمة ، وهو في وقت الانقلاب الصيفي .

وكانت العادة عامة في الاحتفال بعيد النيروز — وهو مبدأ السنة الشمسية — بتبادل الهدايا ؛ فكان الخليفة في بغداد يفرّق على الناس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر ، منها ورد أحمر مثلا[1] . وكان رسم ملوك السامانيين ببخارى أن يخلعوا فيه على قوادهم الخلع الربيعية والصيفية[2] . وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام[3] . وفي هذا اليوم كان أصحاب السماجات يظهرون بين يدي الخليفة ، فينثر عليهم الدراهم ؛ وكانوا يقتربون منه للقطها ، حتى يحكى أنه دخل إسحاق على المتوكل في يوم نوروز ، وأصحاب السماجات بين يديه ، وقد قربوا منه ، حتى جذبوا رداءه ؛ فغضب إسحاق وخرج ، فأمر المتوكل بردّه ، وسأله فقال له : أتجلس في مجلس يتبذلك فيه هؤلاء الكلاب ، حتى يجذبوا ذيلك ، وكل واحد منهم متنكر بصورة منكرة ، فما يؤمن أن يكون فيهم عدوّ ، فيثب بك ! فمتى كان يُستقال هذا ، ولو أخليتَ الأرض منهم ! فقال المتوكل : يا أبا الحسين، والله لا تراني على مثلها أبداً[4] .

وكانت العادة في رأس السنة الفارسية والقبطية أن يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء ؛ وقد مُنع ذلك في المشرق عام ٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م[5].

---

(١) كتاب الديارات ص ٢٢ ب .

(٢) الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٧ .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٦٨ .

(٤) كتاب الديارات ص ١٤ ا — ب .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٤٤ .

على أن البيروني يتكلم عن الرش ووجوده عام ٤٠٠ هـ[١] . ويحكي لنا الرحالة الصيني وانج ين تي (Wang-Yan-te) الذي طاف بالمشرق بين عامي ٩٨١م و ٩٨٣م عن أهل مدينة طرفان (كاتنشانج) أنهم يعملون أنابيب من الفضة والنحاس ، ويملؤونها بالماء ، ويرش بعضهم بعضاً ؛ وقد يمزحون أحياناً فيرشون الماء بأيديهم ، وهم يزعمون أنهم بذلك يضعفون حرارة المزاج ، ويدفعون الأمراض[٢] .

وكان العامة بمصر في النيروز ينتخبون رجلا يسمونه أمير النيروز، فيطلي وجهه بالدقيق أو الجير ، ويركب في الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو أصفر ، ويسير معه جمع كبير ، فيتسلط على الناس في طلب رسم رتّبه ، وفي يده دفتر مثل دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يُرش بالماء ممزوجاً بالأقذار ؛ وكان الناس يضرب بعضهم بعضا بالجلود والأنطاع ، الفقراء في الشوارع والأغنياء في دورهم ، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك ؛ وإن غلط مستور" ، وخرج من بيته لقيه من يرشه ، ويفسد ثيابه ، ويستخف" بحرمته ؛ فإما أن يفتدي نفسه ، وإما أن يفضح ؛ وكان يرش الناس الماء في الحارات ، ويحيي المنكر في الدور أهلُ الخسارات ؛ وكان التلاميذ في مكتبهم يهجمون على معلمهم ، وكثيراً ما يرمونه في البئر ، حتى يفتدي نفسه بالمال ؛ وفي عام ٣٣٥ هـ ـــ ٩٤٥ م منع السلطان من رش الماء ؛ وفي عام ٣٦٣ هـ ـــ ٩٧٤ م أبطل الخليفة هذا العيد ، ولكنه عمل في العام الثاني على أكبر صورة ، وقد

---

(١) الآثار الباقية ص ٢١٥ ، ٢١٨ .

(٢) JA, 1847, I, p. 58.

استمر يؤدّب الناس ثلاثة أيام ، فلم ينفع التأديب[1] ؛ وظل جاريا في كل عام حتى أبطله السلطان برقوق في أواخر القرن الثالث الهجري[2] .

ونستطيع أن نتبين في العـادة الجاريـة بمصر أنهـا تشبه عيد الكرنفال شبهاً واضحاً ، لأن أيام الكبس التي تنتهي بها السنة القديمة عند الجميع يكون الأمر فيها لأمير من الغوغاء ، وهي تسير مع النيروز ، وتتمشى مع القمر متنقلة في التقويم[3] . وقد بقي من آثار الاحتفال برأس السنة الفارسية رش الماء حتى عام ٤٠٠ هـ[4] ؛ ولا يزال الرش بالماء يعمل إلى اليوم عند النصارى في عيد الصعود ، ويسمى « خميس الرشاش » إلى اليوم[5] ، وقد رأيت الرشاش بنفسي في بغداد .

وثَمَّ عيدٌ يسمى عيد الكوسج ، وهو يشبه عيد الكرنفال ، ويومه يكون مع الأيام الخمسة التي تكبس بها السنة الفارسية ، وكان الاحتفال به في وقت من الأوقات يكون في آخر فبراير ، ولكنه وقع في أول نوفمبر بسبب الكبس في السنة الفارسية . وكان الكوسج يركب على بغل ، ويطوف الشوارع بالمدن الفارسية والعراقية ، ويطالب الناس؛ فمن تأخر في دفع ما عليه ، رشوا عليه ما يفسد ثيابه ؛ ويزعم البعض أن

---

(١) الولاة للكندي ص ٢٩٤ ؛ والمقريزي في الخطط ج ١ ص ٢٦٧ ، « والنيروز بمصر في اغسطس حيث يوقد الناس النار ويرشون الماء ، انظر زيج قرطبة لسنة ٩٦١ م طبعة دوزي ص ٥٨ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٦٩ ، ٤٩٣ .

(٣) وكذلك في أوروبا في الأيام التي بين ليلة الميلاد وليلة الغطاس ، ففي بعض أجزاء ألمانيا يضرب الأطفال آباءهم واقاربهم في عيد الميلاد ، وكذلك في بلغاريا يضرب الخدم سادالهم في رأس السنة .

(٤) الآثار الباقية للبيروني ص ٢٦٦ .

(٥) مجلة المشرق مجلد ٣ ص ٦٦٨ .

الله في هذا اليوم يقدر حظوظ الناس من سعادة أو شقاء ، كما كان الناس يعتقدون ذلك في أول السنة قديماً ؛ وكانت هذه الأيام أيام اللهو والطرب وإظهار السرور عند الفرس[١] .

وكان بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً عيد المهرجان ؛ وكان يُعتبر أول أيام الشتاء ، وظل إلى جانب النيروز أكبر الأعياد ؛ وكان الناس يتهادون فيه كما يتهادون في النيروز ؛ وكان القواد ورجال دار الخلافة تُخلع عليهم فيه ملابس الشتاء[٢] ؛ وكان العامة يغيِّرون فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس[٣] ؛ وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان . وقد جاء المهرجان مرة ، وأبو إسحاق الصابي في الحبس بأمر عضد الدولة ، فكتب إليه قصيدة ، وبعثها إليه مع درهم خسرواني وجزء من كتاب ، فكان مما قاله :

أتتك الهدايا فيه بين موقّر ... على قدر المهدي وبين زهيد
فكان احتفالي في الهدية درهما ... يطير مع الأنفاس يوم ركود
وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسي ... وتقييده بالشكل مثل قيودي[٤]

أما رأس السنة الهجرية فإنه لما كان متنقلا دائماً ، ليس له موعد ثابت ، لم يصر عيداً من الأعياد الشعبية ، بل ظل عيداً في قصر الخلافة ، لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة ، وكان الناس يتهادون فيه أيضاً[٥] .

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤١٣ ، والآثار الباقية ص ٢٢٥ ، والقزويني على هامش الدميري ج ١ ص ١٢٧ ، والثعالبي في مجلة ZDMG, VI. S. 389. .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٦٥ ، والآثار للبيروني ص ٢٢٣ ، وديوان كشاجم في كثير من المواضع .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٤ ، وسكردان على هامش المخلاة ص ١٦٣ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٥٨ .

(٥) فيما يتعلق بشمال فارس انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٤١ ، وفيما يختص بمصر راجع المقريزي ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩٣ .

وكان من العادات بقصور العباسيين نثرُ الزهور ، وهي عادة أصلها يرجع إلى الأعياد الطبيعية ؛ ويحكى عن الخليفة المتوكل ــ وكان محبا للأبهة ــ أنه أمر أن تُضرب لذلك خمسةُ آلاف درهم ، وتُلَوَّن بالحمرة والصفرة والسواد وغيرها ، لتُنثَرَ على أصحاب الرتب بقصر الخلافة[1] . وكان يُصنع للخليفة بمصر قصرٌ من الورد بقرية من قرى قليوب ، وكان بها جنان وورود كثيرة ؛ وكان الخليفة يخرج في يوم يسمى يوم قصر الورد إلى تلك القرية متنزّهاً ، ويُخدم هناك بضيافة عظيمة[2] .

أما العيدان الدينيان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر ؛ وكانا إلى جانب النيروز الفارسي أكبرَ الأعياد عند أهل بغداد[3] . وكان أهل البصرة يسمّنون الأضاحي سنة وأكثر ، ثم تُباع لعيد النحرِ ، الواحدة منها بعشرة دنانير[4] .

ويحكى أنه في آخر يوم من رمضان سنة ٣٠٨ هـ حمل يأنس الصقلبي صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى ، وحمل أيضاً عليّ بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها في شوارع القاهرة . وكانت تعمل أسمطة أخرى في القصر يحضرها الخليفة بنفسه في يوم عيد الفطر وعيد النحر ؛ ففي عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمائة ذراع في سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند ، فإذا صلى الخليفة الفجر جلس،

(١) كتاب الديارات ص ٦٨ ب .

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٨٨ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١١٧٠ (!) .

(٤) الأغاني ج ٣ ص ٦٢ .

ومكّن الناس من ذلك السماط (مائدة طويلة) الممدود ، فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه[1] .

وكان هذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللذان كانا يحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالا رسميا ، وكانا لذلك يبلغان منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون الشعور الإسلامي فيها على أقواه ، مثل طرطوس[2] ، حيث كان يأتي غزاة المسلمين من كل أنحاء المملكة الإسلامية ، حتى كان عيداها يعتبران من محاسن الإسلام . ولما ضاعت من المسلمين طرطوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها[3] ، وكان يذبح في عيد النحر حيوانات كثيرة .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذي يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين ؛ ويحكى عن الوزير ابن عبّاد أن داره كانت لا تخلو في كل ليلة من ليالي رمضان من ألف نفس تفطر فيها ، وأن صدقاته وقرباته في هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة[4] .

وكان ازدياد التعظيم للنبي عليه السلام بين أهل الصلاح والورع سبباً في أن صار يحتفل بمولده حوالي عام ٣٠٠ هـ ؛ وكان ذلك بدعةً في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى . ويحكى عن الكرجي (المتوفى عام ٣٤٣ هـ — ٩٥٤ م) ، وكان من الزهّاد المتعبدين ، أنه كان لا يفطر إلا في العيدين وفي يوم مولد النبي عليه السلام[5] .

---

(١) المقريزي ج ١ ص ٣٨٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٤٧٣ وما بعدها ، ورحلة ناصر خسرو ص ١٥٨ من ترجمة شيفر ، وما حكي عن المسبّحي في كتاب بكر Becker, Beiträge zur Gesc hichte Aegyptens I. S. 70 ff.

(٢) تاريخ بغداد ، مخطوط باريس ص ١٤ ب ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) المقدسي ص ١٨٣ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦ .

(٥) AGGW, 37 Nr. 126 .

وفي القرن السادس الهجري أبطل الأفضل بن أمير الجيوش أمر الموالد الأربعة : النبوي والعلوي والفاطمي ومولد الإمام الحاضر[1] .
على أن أول من احتفل بمولد النبي عليه السلام احتفالا عظيما هو — كما يقال — الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلي (المتوفى عام ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م) ؛ وفي ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع إيثار الكلام في قصة المعراج ؛ فكان ذلك عونا كبيراً على تكوين السيرة النبوية[2] .

وكان أهم الأعياد العائلية عيد الختان ، ولم يكن قد صار بعدُ عيداً « خاصاً » ، لأنه كان لا يزال محتفظا بالكثير من خصائص أعياد بلوغ الشباب عند القدماء .

وكان الرجل يكره أن يختن لابنه منفرداً ؛ ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه في سنة ٣٣٢ هـ ختن خمسة من أولاده ، وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام ، ونثر في هذا الختان خمسة آلاف دينار عيناً ومائة ألف درهم ورقا ، وفرّقت فيه دراهم وكسوة ؛ ويقال إنه بلغت النفقة فيه ستمائة ألف دينار[3] .

وحكى أبو جعفر الجزار عن عام ٣٤٠ هـ — ٩٥١ م أنه في هذه السنة « أمر إسماعيل بن القائم (الفاطمي) أن يُكتب له أولاد القواد

---

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٣٢ .

(٢) الزرقاوي ج ١ ص ١٦٤ ؛ وكان يفد إلى هذا العيد الذي يقيمه الأمير طوائف الناس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين ، بل ومن فارس ؛ منهم العلماء والمتصوفون والوعاظ ، والقراء والشعراء ، وهناك يقضون في اربلا من المحرم إلى اوائل ربيع الأول . وكان الأمير يقيم في الشارع الاعظم مناضد عظيمة من الخشب ، ذات طبقات كثيرة ، بعضها فوق بعض ، تبلغ الاربع والخمس ، ويزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الخيال حتى اعلاها ؛ ولم يكن للناس شغل إلا التمشي امام تلك المناضد والتمتع بما يقدم لهم ؛ وكان الامير في ليلة المولد نفسها يركب في الشارع وبين يديه الشموع العظيمة ، كل منها مربوط في بغل؛ وكان العيد ينتهي بموكب ووليمة (ابن خلكان طبعة فستنفلد ٦/١ ؟).

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٠ ب .

ووجوه رجاله من كتامه ، والعبيد والجند وضعفاء الناس من أهل القيروان وغيرها ، ليُختتنوا ويُحسن إليهم بالكسى والصلات ؛ فبلغوا أكثر من عشرة آلاف ، فابتدأ في ختانهم ، وعمل ولائم ، وأطعم خاصة الناس وعامتهم ، وأعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد إلى مائة درهم وأقل من ذلك ؛ فكان يُختن في كل يوم من خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة ، فأقام على هذا سبعة عشر يوماً . قال أبو جعفر الجزار : فسمعت من يقول من أهل الخدمة إنه أحصى ما أنفق في هذا الختان ، فكان مائتي ألف دينار ، وحدث في البلد عند ذلك من الإنفاق واللهو ما لم يُرَ مثله »[1] .

وكان أكبر عيد بقصر الخلافة في القرن الثالث الهجري عيد ختان عبدالله المعتز بن المتوكل ؛ ويقال إن المتوكل أنفق في ذلك ستة وثمانين ألف ألف درهم[2] ، وهو مقدار يشبه ما يقال في القصص الخيالية ؛ ولكن مصرّف الأقدار شاء أن يقتل هذا الولد ، الذي بلغ من محبة أبيه له وسروره به هذا المبلغ ، بعد حكم قصير ، وأن يقضي ابنُه آخرَ أيام حياته في فقر وآلام ، وأن يكون أميراً مغضوباً عليه .

وكانت حفلات الزواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل ، إلى جانب حفلات الختان ؛ فيقال إن نفقات زفاف هارون الرشيد بلغت خمسين ألف ألف درهم ، وإن نفقات زفاف المأمون بلغت سبعين ألف ألف درهم[3] .

وفي سنة ٣١٠ هـ ـــ ٩٢٢ م قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة،

---

(١) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ٢٥٢ ب ـ ٢٥٣ ا .
(٢) كتاب الديارات ص ٦٦ ا وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٦٦ ب .

لأنها زوجت ابنة أختها من أمير كان مرشحاً للخلافة ، وأكثرت من النثار والدعوات ، حتى خسرت الأموال الجليلة[1] .

وكان العامة يحاولون في هذه المناسبات أن يظهروا من الغنى أكثر مما عندهم ، وكان يمكن لهم أن يستأجروا الزينة والآلات والفرش[2] .

وأخيراً كان من الأعياد يوم الاحتجام ، وفيه يهدي أصحاب المحتجم له الهدايا ، ويعمل له أجودُ الطعام[3] ، وكان الذي يقوم بهذه العمليـة المزيّن ، وكان يعطى على ذلك حوالي عـام ٣٠٠ هـ ٩١٢ م ديناراً[4] .

*

---

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ص ١٩٢ ا من مخطوط باريس .

(٢) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١١٩ ؛ وانظر الفصل الخاص بالتجارة . وكان اول ما يؤكل في حفلات الزواج بحسب عادة أهل بغداد طعام الهريسة (ديوان ابن الحجاج ج ١٠ ص ٧٩) ، وكان النثار أيضاً من العادات التي تعمل في الزواج (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠).

(٣) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ١٤١ .

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٧٠ ؛ وكان بعض الكبراء يتخذ لنفسه مزيناً خاصاً به (مسكويه ج ٦ ص ٢٤٧) .

الفصل الرابع والعشرون

الحاصلات

كان أهل المملكة الإسلامية كلهم تقريباً يتغذّون بالخبز ، خلافاً للهنود ولسكان بلاد آسيا الشرقية ممن غذاؤهم الأرز ؛ وكانوا يتميزون عن هؤلاء الأخرين بنوع خاص بأنهم جميعاً يشربون اللبن ؛ وكان هذان الغذاءان هما الأساسيان في أوروبا ؛ إلا أن الخبز في الشرق كان يُعمل أرغفة رقيقة مستديرة ، وهي الصورة التي كان يُعمل عليها في أوروبا في بعض القرى ، هذا إلى أن أنواع القمح في أوروبا هي من جنس أنواعه في البلاد الإسلامية سواء بسواء .

وكان أهم حادث في الاقتصاد الزراعي الأوروبي في العصور الوسطى هو إحلال الحنطة محل الذرة والشعير ؛ أما في الشرق فكانت الحنطة قد استوطنت واستقرت منذ زمان طويل ، وكانت تزرع في كافة البلاد ، التي يكون الماء فيها موفوراً ؛ أما الذرة فإنها بقيت مقصورة على الأجزاء الجافة في جنوب المملكة الإسلامية ، مثل جنوب جزيرة العرب وبلاد النوبة وكرمان ، وذلك لأن الذرة تنتفع بالماء القليل كالسمسم والهرطمان[1] ، « وكانت تؤكل كما يؤكل الأرز »[2] .

وكانت العراق بلاداً أكثر ما يزرع فيها الحنطة ، وكان ارتفاع أسعار القمح يُذكر دائماً دليلا من دلائل غلاء المعيشة .

---

(١) مجلة المشرق عام ١٩٠٨ م (مجلد ١١) ص ٦١٤ .
(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٨٧ .

وكان الأرزُ يأتي في المرتبة بعد الشعير ، وقد استلفت ذلك نظر الصينيين ، فيحدثنا الرحالة (لنج-وي-تي-تا) (Ling-wai-tai-ta) عن بغداد قائلا إن الناس جميعاً فيها يأكلون الخبز واللحم والسولو (su-lo ?) ولكنهم قلّ أن يأكلوا السمك والبقول والأرز ؛ وكتب صيني آخر عن مصر حوالي عام ١٣٠٠ م : أن الناس فيها يعيشون على اللحم والخبز ، ولا يأكلون أرزاً قط[١] ، وكذلك كانت الحنطة في المكان الأول ببلاد خوزستان ؛ ولكنهم كانوا يعملون من الأرز خبزاً ، وكان الأرز قوتاً للشعب[٢] . ولم يكن خبز الأرز غالباً إلا في طعام أهل مازندران بإقليم طبرستان ، ومازندران بلد تحيط به المستنقعات[٣] .

وكان يزرع بفلسطين ومصر نبات يشبه البطاطس عندنا ، ويسمى القلقاس[٤] ، وهو بقل نجد الدلائل على زراعته قديماً في جزر اليونان وآسيا الصغرى ومصر ؛ وهو عبارة عن جذر مدوّر كبير الحجم ، عليه

---

(١) انظر كتاب Chau-Ju-Kua ترجمة هيرث Hirth ص ١٢٧ ، ١٤٤ ، وكذلك يذكر سترابو Strabo XV, 1 زراعة الارز في العراق ؛ ولكن لا بد أنها كانت قليلة ، فلا نجد لها أثراً في التلمود ، ولا نجد له ذكراً بالكلية في كتاب كراوس Krauss, Talmudische Archäologie ؛ وكانت الحنطة التي تزرع في الشام قبل الحنطة العراقية تسمى القمح ، وهي تذكر في العهد القديم إلى جانب الحنطة العراقية ، وهي التي نقلت لمصر بهذا الاسم (انظر : Kremer, SWA, 1889) . وفي العصر العربي كانت الحنطة لغة كوفية والقمح لغة شامية ، وفي الجزيرة العربية يسمى البر (البيان والتبيين ج ١ ص ٩) ، وربما كان الأخير من جنس الذرة (وكلمة darata باليونانية معناها الخبز ، والدرفا durvâ نوع من الذرة) . وكلمة القمح لا تزال حتى اليوم هي الكلمة التي نسمعها في الشام كله ، ولا نسمع غيرها حتى إذا وصلنا تدمر سمعنا فجأة الكلمة العراقية : حنطة .

(٢) ابن حوقل ص ١٧٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٧٢ .

(٤) المقدسي ص ٢٠٣ ، وقد رآه عبد اللطيف في دمشق حيث كان قليلا (رحلة عبد اللطيف البغدادي ترجمة دي ساسي ص ٢٣) .

قشر ، وكان النبات الأساسي الذي يتغذى به أهل بولينيزيا قبل مجيء الأوروبيين ؛ ويصفه المقدسي[1] بأنه « شيء على قدر الفجل المدوّر ، عليه قشر وفيه حدّة ؛ يقلى بالزيت ، ويطرح في الكسباج » ، وهو يقشر ويطبخ ويرمى الماء الذي يطبخ فيه ، وبعد ذلك يقلى بالزيت[2] ؛ وهو على نوعين : رؤوس وأصابع ، والأصابع أحسنه وأطيبه وأغلى من الرؤوس[3] ؛ « وهو من مأكولات فصل الشتاء ، وهو ألذ ما يؤكل في هذا الفصل إذا أُكل باللحم الضأن »[4] .

وكان الكرم أكثر ما يزرع من الفواكه ؛ وقد ذكر الماوردي[5] أن الكرم (شجر العنب ، وإن كانت كلمة الكرم كانت تطلق في العراق قديما على الحقل المزروع بالجملة) حتى في العراق كان له المقام الأول بين الفواكه ؛ وهو كثير الأصناف والضروب ، حتى يقول ابن الفقيه : « ولو أن رجلا خرج من بيته مسافراً في عنفوان شبيبته وحداثة سنه ، واستقرى البلدان صقعاً فصقعاً يتتبّع الكروم مصراً فمصراً ، حتى يهرم ، وصغيراً حتى يبدن ، لتعرّف أجناسه وإحاطة العلم بأنواعه ، بل إقليما واحداً من الأقاليم وناحية من أقطار الأرض ، لأعوزه وغلبه ، وعزّه وبهره ، إذ كانت كثرة فنونه واختلاف أنواعه لا تدرك[6] » .

وكانت أشجار العنب أكبر ما تكون في اليمن ؛ ويحكى أن بعض عمال الرشيد حمل إليه ، وهو يؤدي فريضة الحج مرة ، عنقودين من العنب في محملين على بعير ؛ وربما كان يحمل من جبال أرمينية

---

(١) المقدسي ص ٢٠٤ .
(٢) رحلة عبد اللطيف ص ٢٣ .
(٣) المدخل لابن الحاج ج ٣ ص ١٤٣ .
(٤) هزّ القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف للشربيني طبعة إسكندرية ١٢٨٩ هـ ص ٢١٢ .
(٥) الاحكام السلطانية طبعة انجر ص ٣٠٤ .
(٦) ابن الفقيه ص ١٢٥ .

وأذربيجان أخونة عظيمة جداً يكون دور بعضها عشرين شبراً من خشب الكرمة[1] . وكانت الأسماء الكثيرة التي تسمى بها أصناف العنب أسماء شعبية إلى حد ما ، مثل عين البقرة ، والسكر ، وأنملة القزم ، والقوارير ونحوها ؛ ولكنه كان ينسب في الغالب إلى البقعة التي يجلب منها كالصقلبي والجَرَشي والمُلَّشي .

وقد انتشر العنب — الذي قال سترابو (XV, 3) إن المقدونيين كانوا أول من نقله إلى العراق[2] وفارس — في جميع المملكة الإسلامية ؛ ثم جاء الفتح العربي ، فجلب إلى المشرق أنواعا أخرى ؛ فمثلا نقل العنب الطائفي الذي ينسب إلى مدينة الطائف المجاورة لمكة إلى العراق، كما نقل إلى قرب هراة ببلاد أفغانستان ، وصار يزرع فيها[3] . وذكر ابن حوقل عن أهل مدينة زُغر ، وهي مدينة قريبة من البحر الميت ، أنهم يلقحون كرومهم وكروم فلسطين ، كما يلقح النخيل بالطلع الذكر ، وكما يلقح أهل المغرب تينهم[4] .

وقد أضاف القرن الثالث الهجري إلى الفواكه التي كانت موجودة في المملكة الإسلامية فاكهتين : وهما الأُترج والنارنج ، وكلاهما كان يقدم إلى الناس في الاحتفال بختان المعتز بن المتوكل حوالي منتصف القرن الثالث الهجري ، وذلك إلى جانب ما عزّ من الفواكه الغالية . وقد نوّه حاكي هذا الخبر في القرن الرابع بأن هاتين الفاكهتين كانتا قليلتين في ذلك الوقت[5] ، وذكرهما ابن المعتز في شعره حيث يقول[6] :

---

(١) نفس المصدر .
(٢) رسائل الخوارزمي ص ٤٩ .
(٣) الاصطخري ص ٢٦٦ .
(٤) ابن حوقل ص ١٢٤ .
(٥) كتاب الديارات للشابشتي ص ١٦٥ ا — ب .
(٦) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١٠٦ ، ١١٩ .

كأنما النارنج لما بدت صفرته في حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً فاصفرّ ثم احمرّ خوف الرقيب

ويقول أيضاً :

يا حبذا ليمونة تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

ولكن يظهر أنهما بقيتا مقصورتين على طائفة قليلة من الناس .

ويقول المسعودي حوالي عام ٣٣٢ هـ ـ ٩٤٤ م « وكذلك شجر النارنج والأترج المدوّر جُلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة ، فزُرع بعمان ، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف ، فعدمت منه الروائح الطيبة واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد »[1] .

وكان للخليفة القاهر في بعض الصحون بقصره بستان ، نحو من جريب ، قد غرس فيه النارنج ؛ وحُمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجارُه ولاحت ثمارُه ، وكان القاهر كثير الشرب عليه والجلوس فيه .

وفي عصر المقدسي كان الأترج والنارنج يزرعان بفلسطين ؛ وهو يقول إنهما في فلسطين أحسن منهما في غيرها[2] .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ ، والخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٨ .
(٢) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ . وكان القاهر يقول : إن هذا البستان لذته من الدنيا .
(٣) المقدسي ص ١٨١ .

وفي القرن الرابع الهجري وصف ابن حوقل الأترجة لقرائه فهـو يقول : « وهي (المنصورة بالسند) مدينة حارة بها نخيل ، وليس لهم عنب ولا تفـاح ولا جوز ولا كمثرى ، ولهم قصب سكر ، وبأرضهم ثمرة" على قدر التفاح تسمى الليمونة ، حامضة شديدة الحموضة»[1] .
وكذلك يقول المقدسي عند الكلام على السند : « وخصائصهم ليمونة ، وهي ثمرة مثل المشمش حامضة جداً ، وأخرى مثل الخوخ يسمونها الأنبج[2] » .

وظل الأترج طول القرن الرابع من الفواكه المستوردة[3] ، حتى حـُمل فيما بعد إلى البصرة وعمان ، ثم جـُلب إلى العراق[4] .

«وكان من جملة أصناف الليمون بمصر في العصور المتأخرة ليمون، يقال له التفاحي" ، يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه » [5] .
وكذلك كان فيها ما يسمى بالليمون الشتوي والليمون السائل[6] .

ولم يكن الناس يستعملون هذا الثمر في تحضير شراب الليمون ، بل كانت عادة الكبراء ببغداد في القرن الرابع شرب الماء المثلج ، يقول الصابي[7] :

---

(١) ابن حوقل ص ٢٢٨ .

(٢) المقدسي ص ٤٨٢ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٨٢ .

(٤) القزويني على هامش الدميري ج ٢ ص ٣٠ وما بعدها ، ولا نجد في إحصاء الفاكهة بالأندلس ، وهو الذي جاء في زيج قرطبة لسنة ٩٦١ م ذكراً للنارنج ولا للأترج .

(٥) المقريزي ج ١ ص ٢٧٣ .

(٦) ثمرات الأوراق ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٧) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٧ .

لهف نفسي على المقـام ببغـدا | د وشربي من كوز مـاء بثلـج
نحن بالبصرة الذميمـة نُسقى | شر سقيا مـن مائهـا الأترجيّ
أصفر منكـر ثقيـل غليظ | خاثـر مثـل حقنـة القولنـج
كيف نرضى بشربـه وبخير | منـه في كنف أرضنـا نستنجي

وكان أكثر ما يباع من الثمـار في الأسواق البطيخ ؛ ولذلك كان سوق بيع الفاكهة يسمى دار البطيخ[1] . وكان شمال فارس بنوع خاص مشهوراً بصحة الفاكهة وجودة البطيخ ، وكان يبلغ من صحة البطيخ أنه كان يُقَدَّد ويُحْمَل إلى العراق ، ولم يُعْلَم أن هذا ممكن في غير تلك البلاد[2] . ويؤيد الرحال ماركوپولو ذلك بقوله : « إن بطيخ مدينة شبرقان (بين مرو وبلخ) كان يقطع حلقات رقيقة كما يفعل الأوروبيون بقاوون الشهد ، وبعد أن تُقَدَّد وتُجَفَّف في الشمس تُرسل كميات كبيرة لتباع في البلاد المجاورة[3] » . وكان بطيخ مرو يرسل إلى الخلفاء ببغداد طازجاً ، فكان يحمل إلى المأمون أولاً ثم إلى الواثق في قواليب الرصاص معبأة بالثلج ، وكانت تُقَوَّم الواحدة منه إذا سلمت ووصلت بسبعمائة درهم[4] .

---

(١) المضاف والمنسوب للثعالبي في مجلة ZDMG, VIII, 524 . ويحكى أن ابن الرومي مدح الوزير إسماعيل بن بلبل بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفواكه ، فسماها عامة بغداد دار البطيخ تشبيهاً لها بالموضع الذي تباع فيه الفواكه على اختلافها ، وهو يسمى دار البطيخ (الفخري طبعة آلفارت ص ٢٩٩) ؛ ويتيمة الدهر (ج ٢ ص ١٢٢) حيث يقول ابن لنكك : « كدار بطيخ تحوي كل فاكهة » .

(٢) الأصطخري ص ٢٦٢ .

(٣) Marco Polo, I, 24 .

(٤) لطائف المعارف للثعالبي ص ١٢٩ ، ومعظم إقليم مرو في عصرنا صحراوي ، ولكن بخارى ، وهي شبيهة بمرو في موقعها ، مشهورة ببطيخها . ويذكر أن متولي أمور الزراعة =

وفي ذلك الزمان كان للرمان من الشأن في المطابخ ما للطماطم الأمريكية فيمطابخ أوروبا الجنوبية في أيامنا هذه ،وقد ذُكر لنا أن سفناً كثيرة كانت تسير في الفرات قاصدة بغداد محمّلة بقراقير الرمان إلى جانب أطواف الزيت والخشب ٠

وكان أحسن التفاح في ذلك العصر تفاح الشام ، حتى كان مضرب المثل في الحسن[٢] ٠ وقد جُلب إلى مصر[٣] ٠ وكان يُحمل إلى الخلفاء في كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة[٤] ٠ وهو لا يعيش في المشرق ، «لأنه لا يقوى على احتمال هواء الصحراء الحار اليابس[٥] » ٠

وكانت تجارة التمر سبباً في تصدير مقادير كبيرة منه ؛ وكانت العراق[٦] وكرمان وشمال إفريقية أكبر مراكز إنتاج التمر ٠ وكان التمر العراقي أجود الأنواع ، وقد ذُكرت منه أنواع كثيرة ، وكانت قسطلية وقابس كثيرة التمور ، حتى كان في بعض السنين يُبـاع وقر الجمـل بدرهمين[٧] ٠ وكانت كرمان كثيرة التمور ، حتى كان أهلها لا يرفعون

= في واشنجتن استوردوا من البطيخ البخاري إلى الولايات المتحدة أنواعا وزرعوها وزاوجوا بينها وبين غيرها ، فكانت احسن بطيخ في الولايات المتحدة ؛ انظر :
W. Busse, Bewässerungswirtschaft in Turan, S. 241.

(١) كتاب الوزراء ص ٢٥٧ ٠

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ٢٧٠ ، ولطائف المعارف للثعالبي ص ٩٥ ٠

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٢٢٩ ٠

(٤) لطائف المعارف للثعالبي ص ٩٥ ٠

(٥) . W. Busse, Bewässerungswirtschaft in Turan, S. 319.

(٦) وعلى اننا نجد اليوم أن حدود الاقليم الذي يزرع فيه شجر النخل تنتهي بمدينة عانة على الفرات وتكريت على دجلة ، فقد كانت سنجار في ذلك العصر مدينة من مدن التمر ٠ (ابن حوقل ص ١٤٩ ، والمقدسي ص ١٤٢) ٠

(٧) المقدسي ص ٢٣٠ ، وفي وادي دراعة يكون التمر رخيصا جدا ، حتى ربما بيع في بعض السنين الجيدة حمل الجمل بنصف دينار ٠ انظر :
. Rohlfs' Mein erster Aufenthalt in Marokko, S. 44.

ما وقع من النخل ، وربما بيع في بعض بلادها مائة منّ بدرهم . وكان رسم الحمالين أنهم يحملون التمر إلى خراسان مناصفة ، ويقصدها في كل سنة مائة ألف جمل ، يدخلونها على غفلة ؛ ويكثر الزنا والفساد في هذه القوافل[1] . وكذلك كانت القوافل التي تسير من شمال إفريقية إلى بلاد السودان مجتازة الصحراء تحمل التمر في الغالب ، وكانوا يعودون بسبي العبيد والذهب ؛ وكان أكبر مركز لتجارة التمر هذه مدينة سجلماسة في جنوب مراكش[2] .

أما شجر الزيتون فهو من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط ؛ وكانت الشام وإفريقية الشمالية تمدّان المملكة الإسلامية كلها بالزيت . وكان أحسنه ما يأتي من الشام[3] ، حيث كانت مدينة نابلس خاصة كثيرة الزيتون[4] . وكان الزيت يحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب . ولما بلغ الروم إلى هذه المدينة عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م عمدوا إلى هذه الجباب فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض[5] . وكانت تونس من قبل تغذّي روما بالزيت ، وكان بمدينة سفاقس في القرن الرابع من الزيت الكثير والزيتون ما ليس بغيرها ، حتى ربما كان يباع ستون وسبعون قفيزا بدينار[6] . ولا تزال شجرة الزيتون تلقى من العناية في هذا الإقليم ما لا تلقاه في أي بلد من بلدان البحر الأبيض المتوسط[7] .

---

(١) المقدسي ص ٤٦٩ .

(٢) جغرافية الادريسي طبعة دوزي ص ٤ ، ٦ ، ٢١ .

(٣) يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « لا شرقية ولا غربية » اي منبتها الشام ، واجود الزيتون زيتون الشام . (سورة النور آية ٣٥) .

(٤) المقدسي ص ١٧٤ .

(٥) مسكويه ج ٦ ص ٢٥٥ .

(٦) ابن حوقل ص ٤٧ .

(٧) The, Fiseher Mittelmoardilber Bd. I. S. 432.

وكان الناس في مصر يستخرجون زيت المصابيح من بذور البنجر واللفت ، ويسمونه الزيت الحار[١] . أما في العراق وأفغانستان فكان عندهم زيت السمسم[٢] . وقد غرست في فارس أشجار الزيتون من جديد .

ونظرا لحلاوة السكر ولذته فقد كان قصبه يزرع في جميع البلاد التي تمكن زراعته بها ؛ حتى لقد زرع في كابل وصور[٣] . ولم يتكلم أحد من الجغرافيين في القرن الرابع عن زراعته في مصر ، وإن كان يدل على زراعته بها أوراقُ البردي التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الهجري[٤] ؛ ولكن يظهر أنه أصبح ذا شأن في القرن الخامس الهجري ــ وربما كان ذلك لانفصال مصر عن المشرق سياسيا ؛ ويقول ناصر خسرو حوالي عام ٤٤٠ هـ ــ ١٠٤٨ م : « وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكراً[٥] » . وكان أكبر مركز لصناعة السكر إقليم خوزستان ، وخصوصاً مدينة جنديسابور ، حتى كان يقال إن عامة سكر خراسان والجبل منها[٦] . وكان الإقليم المحيط بالبصرة أشهر مكان بصناعة السكر في العراق[٧] . وكذلك عني المسلمون في الأندلس بالسكر ،

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٧٦ من النص الفارسي ؛ وكان شجر الزيتون يزرع في نواحي الاسكندرية (المقدسي ص ١٩٧) . ويقول القلقشندي (Wüstenfeld, S. 34. ترجمة صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٢) إن الزيتون قليل بمصر ، ولا يستخرج منه الزيت ، بل كان يؤكل مملحاً .

(٢) Krauss, Talmudische Archäologie, S. 226. ، وانظر كتاب Marco Polo I, 27 وقد جاء في التلمود أنه كان في العراق بعض شجر الزيتون Krauss, S. 215. .

(٣) المقدسي ص ١٦٢ ، ١٨٠ ، وكان لأهل مدينة البندقية أيام الحروب الصليبية مزرعة قصب في مدينة صور Tafel und Thomas, Urkunden, II. S. 368. .

(٤) دليل أوراق البردى (مجموعة رينر) Führer duch die Aufstellung der Papyrus-Rainer S. 183.

(٥) رحلة ناصر خسرو ص ٧٤ من النص الفارسي .

(٦) المقدسي ص ٤٠٨ .

(٧) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٦٢٣ .

وجعلوه من الحاصلات المستوطنة في بلادهم[1] .

وكان لأهل اليمن تفنن في صناعة معقّدات الفاكهة من أترج وجزر وقرع وخوخ ونحوها ، مما إذا شرع فيه الجاهل قضم على طيبه بعضَ أنامله ؛ ولهم الشهد الجامد الذي يقطع بالسكاكين ، ويُهدى إلى العراق ومكة وسائر البلدان ؛ وهو يعمل بطريقة خاصة ، وذلك أنه يُحَرّ في الشمس ويوضع في قصب البراع ، ثم يوضع القصب أياما في مكان بارد ، حتى يعود إلى جموده ، ثم تُختم أفواهُ القصب بالقصة وتصدّر ، فإذا أريد وضعه على الموائد ضُربت القصبة بالأرض ، فانفلقت عن قصبة عسل تقطع بالسكاكين على طيفورية أو رغيف[2] .

وكان يخرج من بحيرة وان سمك صغير يعرف بالطّريخ (تقابله الكلمة اليونانية thrissa) يقوم مقام سمك البقلة المجفف عندنا ؛ فكان يملّح ويحمل إلى الجزيرة والموصل وحلب وبلخ وسائر الثغور[3] ، أما في المغرب فكان يقوم مقامه السمك المسمى بالتنّ (وباليونانية thynnos) ، ويصاد في شواطيء أسبانيا وشاطيء إفريقية المقابل لها (خصوصا سبتة) وهنا كان يجفف ويباع ؛ وكان يصاد برماح في أسنتها أجنحة بارزة تنشب فيه ولا تخرج[4] ؛ وكان العامة يزعمون أنه يهاجر في كل سنة إلى البحر الأبيض المتوسط ليحجّ إلى صخرة معروفة فيه[5] .

---

(١) فيما يتعلق بالقرن الرابع انظر زيج قرطبة طبعة دوزي ص ٢٥ ، ٤١ ، ٩١ ، وانظر Cron, Moro Rasis. في Mem. Acad. Madrid, VIII, 37, 38, 56.

(٢) وصف جزيرة العرب للهمداني طبعة موللر ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٣) ابن حوقل ص ٣٤٨ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٤٥٧ ، وجغرافية ابي الفدا طبعة رينو ص ٥٣ ، وبحيرة وان بحيرة ملحة Le Strange, Mustawfi, p. 51 .

(٤) الادريسي ، طبعة دوزي ص ١٦٨ .

(٥) جغرافية ابي الفدا ، طبعة رينو ج ٢ ص ٢١٥ .

وكان من الأطعمة المحبوبة الطين الذي يؤكل في آخر الطعام ؛ وأحسنه ما كان يجلب من ناحية كران ، وهو أخضر كالسلق وأشرق منه ، ولا نظير له[١] . وكذلك ورد ذكر الطين الأبيض العادي في كلام الشعراء[٢] . وكان الأخضر يجلب بكثرة من بلاد قوهستان[٣] ؛ وكان يجلب من نيسابور طين يسمى بالنقل ، يحمل إلى أداني البلاد وأقاصيها ، ويتحف به الملوك والسادة ، وكان الرطل منه ربما يباع في مصر وبلاد المغرب بدينار[٤] . وكذلك كان الطين يصدَّر من المغرب إلى المشرق من طليطلة فيحمل إلى مصر والشام والعراق وبلاد الترك[٥] . على أن كثيراً من الفقهاء حرموا أكل هذا الطين[٦] .

« وكان يرتفع من مفازة سجستان فيما بينها وبين مكران غلة عظيمة من الحلتيت ، حتى إنه قد غلب على طعامهم ، ويجعلونه في عامة أطعمتهم »[٧] ؛ ولا يزال هذا الطعام الكريه الرائحة من أكبر صادرات البنجاب في أيامنا ، ومنها يحمل إلى كوتا ، ثم إلى أفغانستان[٨] ؛ وكان في العصور الوسطى يُحمل من هناك إلى الصين[٩] .

---

(١) ابن حوقل ص ٢١٣ ، لا « الذي يشبه طعمه طعم البنجر » (Le Strange. The Lands of the eastern Caliplate, 258) ، وكثيراً ما تُشبَّه الأشياء الخضراء بالسلق .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٠٧ :

ذاك الذي يحسب في شكله   قطاع كافور عليها عبير

(٣) الاصطخري ص ٢٧٤ .

(٤) لطائف المعارف ص ١١٤ .

(٥) الادريسي ص ١٨٨ .

(٦) كنز العمال على هامش المسند لابن حنبل ج ٢ ص ١٩١ ؛ وكتاب العلل ص ١٢٠٧ .

(٧) الاصطخري ص ٢٤٤ .

(٨) Revue du Monde Musulman, V, 5, p. 137.

(٩) Chau-Ju-Kua, trans. Hirth, 224.

وكان التجار البحريون المسلمون يحملون الكافور من جزيرتي بورنيو وسومطرة إلى الغرب وإلى الصين[1] ، وكان العنبر من أحسن البهارات المرغوبة ؛ أما البخور الذي كان أكبر صادرات اليمن في العصور الأولى فقد بطل استعماله في المملكة الإسلامية ، وأصبح من العادات القديمة ؛ وهو لا يزال يذكر في بعض الأحيان[2] ، ولكن حل محله العنبر ، وكان أحسن أنواعه ما يجلب من جنوب جزيرة العرب أيضاً[3] .

وإن كثرة تنوع الملابس في مملكة الإسلام بما في ذلك من طرافة ، ناشئة" من أن كل إقليم كان يستعمل من اللباس ما هو أقرب إليه وما جرى عليه منذ البداية ، فكان البدوي يلبس ملابس تتخذ من صوف الضأن الأبيض وشعر الماعز الأسود ، وكان أهل برقة يلبسون محمّرة ، حتى كانوا في القرن الرابع بالفسطاط يعرفون من بين جميع أهل المغرب بحمرة ثيابهم[4] ؛ وإنما كانوا يتخذون الملابس الحمراء ، لأن مدينتهم في صحراء حمراء التربة والمباني ، فكانت تحمّر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها[5] .

ولكن التجارة كان لها بالإجمال أثر في توحيد لون الملابس ؛ وسرعان ما انتشرت في جميع أنحاء مملكة الإسلام المادتان الأساسيتان في الصباغة وهما : النيل للتلوين باللون الأزرق ، والقرمس للتلوين

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٣ ، وانظر سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٣٦ .
(٢) الاصطخري ص ٢٥ ، والهمداني ص ٢٠٠ .
(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٣٦٦ .
(٤) ابن حوقل ص ٤٣ .
(٥) كتاب البدء والتاريخ للمطهر المقدسي ج ٤ ص ٧٢ ؛ وجغرافية البكري ، طبعة Slane ص ٥ .

باللون الأحمر (ومن كلمة قرمس أخذت الكلمة الأوروبية crimson أو Karmoisin) ؛ وكان يباع في مدينة كابل وما حولها فقط في كل سنة من النيل بما يبلغ ألفي ألف دينار[1] ، ولذلك فإن شجر النيل كان بسبب قيمته يُزرع في كل قطعة تصلح لزراعته ، كما كان ذلك شأن السكر ؛ فكان يزرع في مصر بالصعيد ـ وكان أهم ما يزرع في الواحات[2] ـ وببلدتي زُغَر وبيسان بفلسطين[3] ، وفي كرمان ، وبالقرب من البحر الميت ، حيث كان للنيل تجارة كبيرة ، وكان يقرب من نيل كابل في الجودة[4] . وكان شجر النيل بمصر يحصد في كل مائة يوم ، وهو يبقى في الأرض الجيدة ثلاث سنين ؛ وفي السنة الأولى يسقى في كل عشرة أيام دفعتين ، وفي السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفي الثالثة أربع دفعات[5] ؛ فنلاحظ أن زراعة النيل كان منشؤها البلاد التي تتبع نظام الري على قاعدة العشرة الأيام .

أما القرمز فكان أكبر مصدر له بلاد أرمينية وخصوصاً إقليم أرارات[6] ، ومنها كان يُحمل إلى الهند وسائر المواضع[7] .

وكان يستعمل للتلوين الأصفر الزعفرانُ النقي والعصفر والزعفران

---

(١) ابن حوقل ص ٣٢٨ ، ومنذ القرن السادس او اوائل السابع كان النيل معروفا عند اهل الصين بأنه من حاصلات بلاد فارس (انظر كتاب Chau Ju Kua ترجمة Hirth ص ٢١٧) .

(٢) جغرافية الادريسي طبعة دوزي ص ٤٤ ؛ وكان النيل المصري يعتبر اقل جودة من الهندي (رحلة عبد اللطيف ص ٣٦) .

(٣) المقدسي ص ١٨٠ .

(٤) ابن حوقل ص ١٢٤ ؛ والمقدسي ص ١٧٤ ، والادريسي ، طبعة براندل ص ٥ .

(٥) المقريزي في الخطط ج ١ ص ٢٧٢ وقد تكلم ماركو بولو (٢٥/٣) عن صناعة النيل بالهند .

(٦) الأصطخري ص ١٨٨ .

(٧) نفس المصدر ص ١٩٠ .

العربي المسمى الورس ، وهو نبت يشبه السمسم ، ويكون في اليمن[1] ؛ وكانت جمال اليمن التي تحمل الزعفران إلى الشمال تصفر ألوانها بتأثير لون أحمالها الغالية . وكان يندر أن يكون للورس شأن واعتبار إلى جانب صاحبيه ، على أن الإيطاليين سموا خشب البرازيل بلفظ verzino أخذاً من كلمة ورس العربية . وكان للزعفران نصيب عظيم من التقدير ؛ ويحكى أن الخليفة المتوكل لما أرسل رسوله إلى ملك الروم في أمر الفداء عام ٢٤٦ هـ ـــ ٨٦٠ م بعث في جملة هداياه القيمة مقداراً كبيراً من الزعفران[2] . وكان الزعفران لعظم قيمته يُزرع في كثير من البلاد كالشام . وجنوب فارس ؛ ولكن ميديا القديمة كانت أكبر موطن له[3] . أما في المغرب فكانت تحمل منه مقادير كبيرة من طليطلة[4] .

أما البورق ، من بين المواد غير العضوية ، فلم يكن يوجد إلا في بحيرة « وان » بشمال فارس ، وكان يصدَّر للخبّازين في بلاد العراق وما بين النهرين ، وكان يسمى « بورق الخبز » وكان يستعمل في تلميع الخبز[5] ، وكان يوجد إلى جانبه بورق الصاغة ، وكان يحمل من بحيرة أرمية إلى العراق والشام ومصر ، فيُرْبَح فيه الربح العظيم[6] .

وكان الشب أهم ما يستخرج حول بحيرة شاد بالسودان ، وكان

---

(١) الجوهري تحت كلمة ورس ؛ وفقه اللغة للثعالبي طبعة القاهرة ص ١١٣ ؛ والهمداني ص ٢٠٠ ؛ وعجائب المخلوقات للقزويني ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤٤٩ ـ ١٤٥٠ .

(٣) Karabacek, Die persische Nadelmalerei S. 52 ff. .

(٤) المقري ج ١ ص ٤٨ ؛ وانظر Moro Rasis, p. 50 .

(٥) عن رسالة في الكيمياء العربية في كتاب Berthelot, La chémie au moyen âge, II, p. 63, 145, note 4.

(٦) ابن حوقل ص ٢٢٨ .

رأس مال أهل هذه البلاد ، فكانوا يتجوّلون به في جهة المشرق ، حتى ينتهوا إلى مصر ، وينصرفون في جهة المغرب ، حتى يصلوا بلادَ المغرب الأقصى[1] .

وكان الملح الذي يستخرج من مناجم الصحراء يشتغل بحمله آلاف من الجمال والحمالين ، كما كان الملح الذي يستخلص من المحيط الأطلسي يحمل إلى أعماق السودان[2] .

وكان ملح النوشادر ، وهو من أهم الأملاح الكيماوية في ذلك العهد ، يوجد في نقطتين متقابلتين على أطراف المملكة الإسلامية ، وهما صقلية ، وبلاد ما وراء النهر[3] ؛ وكانت الثانية أهم من الأولى بكثير ، ولذلك سمي ملح النوشادر في أوربا ــ منذ العصور القديمة ــ بالملح التتري (Tatarisches Salz) نسبة لموقع بلاده[4] . ويقول الجغرافيون إنه كان بجبال البتّم معدن النوشادر ، وهو جبل فيه مثل الغار بني عليه بيت قد استوثق من أبوابه وكواه ، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنهار الدخان ، وبالليل النار ؛ فإذا تلبّد هذا البخار ٱُخذ ، وهو النوشادر ، وداخل هذا البيت يكون شديد الحر لا يتهيأ لأحد أن يدخله إلا احترق ؛ إلا أن يلبس لبوداً يرطبها بالماء ، ويدخل كالمختلس ، فيأخذ ما يقدر عليه من النوشادر ؛ وهذا البخار ينتقل من مكان إلى مكان ، فيُحفر عليه ، حتى يظهر ؛ فإن خفي في مكان حُفر عليه في آخر ، وإذا لم يكن على هذا البخار بناء يمنعه من التفرق لم يضرّ من قاربه ، فإذا

---

(١) الادريسي ، طبعة دوزي ص ٣٩ ــ ٤٠ .

(٢) J. Marquart, Die Beninsammlung, Inhaltverzeichnis (unter Salz) .

(٣) ابن حوقل ص ٣٣٧ ؛ ويقول ناصر خسرو (ص ٥ من النص الفارسي) إن بقمة جبل دماوند بئراً يخرج منها النوشادر والكبريت ؛ ويصعد على الجبل رجال يحملون جلود البقر ، فيملؤونها بالنوشادر ، ثم يدحرجونها من قمة الجبل .

(٤) V. Richthofen. China, I, S. 560. .

كان عليه بيت يجتمع فيه أحرق من يدخله من شدة الحر[1] . وقد وصف المسعودي حوالي عام ٣٢٢ هـ - ٩٤٤ م جبال النوشادر التي بالصين وصفاً جديراً بالذكر فقال : « وللصين أنهار كبار ، مثل الدجلة والفرات ، تجري من بلاد الترك والتبت والصغد بين بخارى وسمرقند . وهنالك جبال النوشادر ، فإذا كان في الصيف رأيتَ في الليل نيرانا ترتفع من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ ، وبالنهار يظهر منها الدخان لغلبة شعاع الشمس وضوئها وضوء النهار ؛ ومن هنالك يُحمل النوشادر ، فإذا كان في الصيف ، فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين صار إلى هنالك ، وهنالك وادٍ بين تلك الجبال طوله أربعون ميلا أو خمسون ، فيأتي إلى أناس هنالك على فم الوادي فيرغّبهم في الأجرة النفيسة ، فيحملون ما معه على أكتافهم وبأيديهم العصي ، يضربون جنبيه ، خوفا أن يبلّج ويقف فيموت من كرب الوادي ، وهو يحضر أمامهم حتى يخوضوا إلى ذلك الرأس من الوادي ، وهنالك غابات ومستنقعات ، فيطرحون أنفسهم في ذلك الماء لما نالهم من شدة الكرب وحرّ النوشادر ؛ ولا يسلك ذلك الطريق شيء من البهائم ، لأن النوشادر يلهب ناراً في الصيف ، فلا يسلك ذلك الوادي داعٍ ولا مجيب ؛ فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء وقع على ذلك الموضع فأطفأ حرّ النوشادر ولهيبه ، فيسلك الناس حينئذ ذلك الوادي ؛ والبهائم لا صبر لها على ما ذكرنا من حرّه ، وكذلك من ورد من بلاد الصين فُعل به من الضرب ما فعل بالآخر[2] » .

وفي عام ٩٨٢ م زار الرحالة الصيني وَنج - ينْ - تي Wang-yen-te جبال النوشادر ، وهو يقول : « يستخرج النوشادر

---

(١) الاصطخري ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، وابن حوقل ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

من جبال تقع شمال پيتِـنـج ، ومنها تتصاعد أعمدة النار من غير انقطاع، وفي أثناء الليل تـُرى لـَهـَبٌ كالتي تتصاعد من المشاعل حتى يستطيع الإنسان أن يرى الطيور والفيران ملونة كلها باللون الأحمر ؛ ويلبس المشتغلون بجمع النوشادر أحذية ، نعلها من الخشب ، لأن الجلد يحترق[1] ؛ ويقول الصينيون إن المكان الذي يؤخذ منه النوشادر يقع في شرق جبال تيان شان على مسافة مائتي « لي » شمال « كوت » .
وقد جاء في أحد المراجع الصينية ، يرجع إلى عام ١٧٧٢ م : « يـُجلب النوشادر من جبل النوشادر في شمال مدينة كوشا ، وهو جبل كثير الشقوق والأغوار ؛ وهذه الشقوق تمتلىء بالنار في الربيع والصيف والخريف ، حتى يظهر الجبل بالليل كأنه مـُضاء بآلاف المصابيح ؛ وفي ذلك الوقت لا يستطيع أحد أن يقترب منه ، وفي الشتاء فقط يشتغل أهل ذلك المكان بجمع النوشادر ، وذلك عندما تسقط الثلوج والأنداء فتطفيء حرّ النوشادر ولهيبه »[2] .

وكذلك يحدثنا الحجويري الأفغاني في القرن الحادي عشر الميلادي في كتابه كشف المحجوب ، وهو كتاب في التصوف والمتصوفين ، أنه رأى على حدود بلاد الإسلام ، في بلد من بلاد الترك ، جبلا ملتهباً يخرج منه بخار النوشادر ، وأنه كان في ذلك اللهيب فأرٌ أراد أن يهرب من الحرّ فمات[3] .

وكان لهذا النوشادر قيمةٌ كبيرة بالصين نفسها ، حتى كان أهل جبال النوشادر يدفعون منه الخراج الذي عليهم للإمبراطور[4] . وقد

---

(١) JA, 1847, I, p. 63.

(٢) V. Richthofen, China, I, S. 560.

(٣) كشف المحجوب ص ٤٠٧ من ترجمة نيكلسون .

(٤) انظر مقال فردريشن Friedrichen, Zeitsch. Gesell. Erdkunde. Berlin, 1899, S. 246. نقلا عن كتاب Klaproth, tableaux histor., p. 110 .

ذهبت بعثة لارتياد هذا الجبل منذ ثلاثين عاماً ، وفي هذا الشأن تقول مجلة التركستان الرسمية : « إن جبل بيشان ليس بركاناً ، كما قررت بعثة روسية أُرسلت بقصد البحث عن ذلك ؛ فإن الدخان الذي يتصاعد منه ناشيء من احتراق معادن من الفحم ؛ وسفوح جبل بيشان مغطاة بشقوق يخرج منها الدخان وغاز الكبريت بصوت مروع » ؛ وهذا ما وجدته في بحث فريدريشن Friedriechen ، وهو يزيد على ما تقدم قائلا : « وهذا يتفق مع ما حكاه ريجل Regel [1] عن عالم بالنبات ، يسمى فيتيسوف Fetisow أُرسل لعمل أبحاث نباتية في تلك المنطقة ، فهو يقول إن جبل بيشان جبل مخروطي الشكل ، وليس له فوهة في أعلاه ، بل له فتحات جانبية » ؛ فكأن فريدريشن يعتبر الجبل كتلة من الفحم تحترق[2] •

أما المعدنان النفيسان فقد كانت أجزاء المملكة الإسلامية يكمل بعضها بعضاً منهما على نحو جميل ، فكان المشرق يهييء الفضة والمغرب يأتي بالذهب ؛ أما معادن التبر في ذلك العهد فكانت تقع في الصحراء الحارة التي تقع إلى شرقي النيل في الصعيد بين أسوان وعيذاب • وكانت أكبر مدينة لمنجمي الذهب هي العلاقي التي تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان[3] ، فكانوا يتجوّلون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ، ويعلّمون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً[4] علامة يعرفونها ، ويبيتون هناك ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام

(١) Gartenflora, 28 Jahrg. 1879, S. 40 .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤٧ •

(٣) تجد هذا مفصلا أوسع تفصيل في جغرافية اليعقوبي ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٤) كانوا يعلمون على المواضع بالرماد او الطباشير ، انظر بتاحيا (Petachja) في JA, VIII. p. 384. ؛ ويظهر أن هذه الطريقة في البحث عن الذهب كانت مألوفة في جميع بلاد الشرق الادنى ، فيحدثنا تشانج تي (Chang-te) الرحالة الصيني الذي رحل إلى الغرب عام ١٢٥٩ م أن الذهب يوجد بأرض مصر ، وبالليل ترى أشياء مضيئة في بعض المواضع ، فيعلم الناس عليها بالريش والفحم ، فإذا حضروها بالنهار عثروا على قطع كبيرة من الذهب Bretschneider, Mediaeval Researches, I. p. 142. .

الرمل التي علموا عليها ومضوا بها إلى آبار هناك فغسلوها بالماء واستخرجوا التبر ، ثم يؤلّفونه بالزئبق ويسبكونه[1] .

ولم يتوافد طلابُ الغنى إلى ذلك الموضع إلا منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، وذلك بعد أن أُرسلت عام ٢٤١ هـ ــ ٨٥٥ حملة قوية صغيرة العدد ممتازة الجند لتأديب البجة الذين كانت لا تهدأ ثورتهم على الدولة ، حتى ردتهم إلى الصواب ؛ ومن ذلك التاريخ اندمج البجة في القبائل العربية[2] .

وفي سنة ٣٣٢ هـ ــ ٩٤٤ م كان سيد قبيلة ربيعة ملك بلاد الذهب[3] ، ويحكى أن الخليفة المستنصر صاحب مصر بذل لأبي العلاء المعري (المتوفى عام ٤٤٩ هـ ــ ١٠٥٧ م) ما ببيت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً وقال :

كأنما غاية لي من غنى	فعدٌ عن معدن أسوان
سرت برغمي عن زمان الصبى	يعجلني وقتي وأكواني
صدّ أبي الطيب لما غدا	منصرفاً عن شعب بوّان[4]

وكان المعدن الثاني للذهب في السودان ؛ ويقول الإدريسي إن السودان بلاد التبر ، وإنه أكبر غلة عند السودان ، وإنهم عليها يعوّلون صغيرهم وكبيرهم[5] . وكانت كل القوافل التي تسير في الصحراء الكبرى آتية من الجنوب تحمل الذهب والعبيد ؛ وكان الحمّالون

(١) الادريسي طبعة دوزي ص ٢٦ .
(٢) الاصطخري ص ٢٨٨ (؟) .
(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ .
(٤) الارشاد لياقوت ج ١ ص ١٧٨ .
(٥) الادريسي طبعة دوزي ص ٨ .

يحملون الملح ويعودون بالذهب ، وكانوا يحملونه على رؤوسهم ، حتى أصبحت صلعاء لا أثر فيها للشعر[١] .

وقد كشف في عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م معدن للذهب في نواحٍ يقال لها خشباجي[٢] من بلاد سجستان ؛ وقد ذُكر هذا ، ولكنا لم نسمع عن هذا المعدن شيئاً بعد ذلك .

وكان أكبر معدن للفضة في المملكة الإسلامية يقع في مشرقها ، في بلاد هندكوش ، مدينة پنجهير ؛ وحكى بعض الجغرافيين أن هذه المدينة كانت تشتمل على عشرة آلاف رجل ، « ويغلب على أهلها العبث والفساد[٣] » . ويقول ياقوت « پنجهير مدينة بنواحي بلخ فيها جبل الفضة ... والدراهم بها واسعة كثيرة لا يكاد أحدهم يشتري شيئاً ، ولو جزرة بقل ، بأقل من درهم صحيح ؛ والفضة في أعلى جبل مشرف على البلدة ، والسوق والجبل كالغربال من كثرة الحفر ؛ وإنما يتبعون عروقاً ، يجدونها ، تدلهم على الجوهر ؛ وهم إذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً إلى أن يصيروا إلى الفضة ؛ فيتفق أن للرجل منهم في الحفر ثلاثمائة ألف درهم زائداً أو ناقصاً ، فربما صادف ما يستغني به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما أكدى وافتقر لغلبة الماء وغير ذلك ؛ وربما يتبع الرجل عرقاً ويتبع آخر شعبة أخرى منه بعينه ، فيأخذان جميعاً في الحفر ؛ والعادة عندهم أن من سبق فاعترض على صاحبه ، فقد استحق ذلك العرق وما يفضي إليه ؛ فهم يعملون عند هذه المسابقة

---

(١) J. Marquart, Die Beninsammlung, S. CII. نقلا عن احد المراجع البرتغالية ؛ ويجد القارىء عند ماركفارت في قائمة محتويات الكتاب تحت كلمة (Gold; كل ما له قيمة من المعلومات عن استخراج الذهب وتجارته في الجنوب .

(٢) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٧٨ ؛ وابن الجوزي في المنتظم ص ١٤٤ ا ، وابن الأثير ج ٩ ص ١١٦ .

(٣) ابن حوقل ص ٣٢٧ .

عملا لا تعمله الشياطين ، فإذا سبق أحد الرجلين ذهبت نفقة الآخر دهراً ، وإن استويا اشتركا ؛ وهم يحفرون ما حييت السرجُ واتقدت المصابيح ، فإذا صاروا في الحفر إلى موضع لا يحيى السراج فيه لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في أسرع وقت ، والرجل منهم يصبح غنياً ويمسي فقيراً أو يصبح فقيراً ويمسي غنياً[1] » .

أما معادن الفضة التي كانت بأصفهان فكانت في القرن الثالث الهجري قد هـُجرت منذ زمان طويل[2] . وكذلك تـَعـَطـّل العمل في معادن الفضة التي كانت بمنطقة باذغيس من بلاد أفغانستان وذلك بسبب فناء الحطب[3] .

وكان بأصفهان معدنٌ للنحاس الأصفر عليه للسلطان خراج قدره عشرة آلاف درهم[4] ، وكان يـُجلب من بخارى النحاس الأصفر الذي يستعمل في طلاء أعلى المنائر[5] . وكانت فارس أكبر إقليم لاستخراج الحديد ولصناعته[6] .

وكان بالقرب من بيروت[7] وبكرمان[8] وكابل[9] مناجم حديد أيضاً . وكان بفرغانة مناجم حديد ، وقد برع أهلها في صناعته ، وتفتقت

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٧٤٣ وما بعدها .
(٢) ابن رسته ص ١٥٦ .
(٣) الأصطخري ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٤) ابن رسته ص ٥٦ .
(٥) المقدسي ص ٣٢٤ .
(٦) ابن حوقل ص ٢١٤ ، وابن الفقيه ص ٢٥٤ .
(٧) المقدسي ص ١٨٤ ، والادريسي ، طبعة برانـدل ص ٢٢ ، وقـد كتب زيتزن (Seetzen) في عام ١٨٠٥ م ما هو اوفى من ذلك فيما يتعلق باستخراج الحديد في لبنان . U. J. Seetzen, Reisen 1, 189.
(٨) المقدسي ص ٤٧١ .
(٩) ابن حوقل ص ٣٢٨ .

لهم الخواطر بغرائب اتخذوها منه ، وكان بمدينة مرسمندة بخراسان مجمع وسوق في رأس كل شهر ينتابه الناس من الأماكن البعيدة[1] وكان الحديد يوجد في المغرب بصقلية[2] . وكان لا يزال يحمل من أفريقية ، وهي الموطن الأول للحديد ، وكان يؤخذ إلى الهند ، فتصنع منه أغلى آلات الحديد[3] . أما في آسيا الغربية فكان الحديد على الدوام نادراً ، ويحكى أنه في عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٤ م استهدى القرامطة في هجر (بجزيرة العرب) من سيف الدولة حديداً ، فأمر بقلع أبواب الرقة ، وكانت من حديد ، وسدّ مكانها ، وأخذ حديداً بديار مضر ، حتى أخذ سنجات الباعة والبقالين ، ثم حُمل هذا الحديد في الفرات إلى هيت ، ومن هيت إلى القرامطة في البرية[4] .

أما الزئبق فكان أكبر وأعظم معدن له في المملكة الإسلامية بالأندلس ، على مقربة من قرطبة . يقول الإدريسي : وبشمال قرطبة الحصن الذي به معدن الزئبق ، ومنه يتجهز بالزئبق والزنجفر إلى جميع أقطار الأرض ، وذلك أن هذا المعدن يخدمه أزيد من ألف رجل ، فقومٌ للنزول فيه وقطع الحجر ، وقومٌ لنقل الحطب لحرق المعدن ، وقومٌ لعمل أواني سبك الزئبق وتصعيده، وقوم لشأن الأفران والحرق، قال المؤلف : « وقد رأيت هذا المعدن فأخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفلها أكثر من مائتي قامة وخمسين قامة[5] » .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٨٤ .

(٢) المقدسي ص ٢٣٩ .

(٣) الادريسي ، نشرة جوبير Jaubert، ج ١ ص ٦٥ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، والمنتظم لابن الجوزي ص ٩٤ ب .

(٥) الادريسي طبعة دوزي ص ٢١٢ — ٢١٣ ؛ ومحاسن التجارة للدمشقي طبعة القاهرة ١٣١٨ هـ ص ٢٩ . ويقول الدمشقي إن أحسن الزئبق ما جلب من المعدن الذي بقرب طليطلة .

وكان يوجد الفحم الحجري بفرغانة وبخارى ، وقد وصفه الجغرافيون الرحالون بأنه « حجارة تحترق كالفحم[1] » ؛ ولكنهم اعتبروه من غرائب الطبيعة .

وكان بمدينة دخشان بخراسان حجر الفتيلة ، وقد سمي بهذا الاسم ، لأنه كان يستعمل في ذلك العهد ، كما في أيامنا ، فتيلة للمصابيح، وكان ينسج منه غطاء الموائد ، فإذا اتّسخ ، وأرادوا غسله ، طرحوه في التنور ، فيعود نظيفاً[2] .

أما الأحجار النفيسة فكان تقدير نفاستها في ذلك العصر يختلف عنه في أيامنا ، وقد بيّن أحد كتاب القرن الرابع نفائس الجواهر فهي عنده : فيروزج نيسابور ، وياقوت سرنديب ، ولؤلؤ عمان . وزبرجد مصر ، وعقيق اليمن ، وبجاذي بلخ[3] . وكذلك أحصى البيروني حوالي عام ٤٠٠ هـ ــ ١٠٠٩ م الجواهر ، وهي عنده : الياقوت والزمرد واللؤلؤ[4] .

وإذن فلم يكن للألماس في ذلك العصر هذا المركز العظيم الذي يفوق به في أيامنا جميع الأحجار الكريمة ، بل كان الناس يقدمون عليه الأحجار الملونة ذات البريق اليسير ، ولم يكن يستعمل إلا في القطع أو في السم بخراسان والعراق[5] ؛ وكان الملوك والكبراء يستعملون الفصوص الكبار منه في قتل أنفسهم ، فإذا وقعوا في قبضة عدوّ ،

---

(١) ابن حوقل ص ٣٦٢ ، ٣٩٧ .

(٢) المقدسي ص ٣٠٣ ؛ وانظر Marco Polo, I, 40 .

(٣) لطائف المعارف للثعالبي ص ١١٦ .

(٤) كتاب الجماهر للبيروني،ترجمة فيدمان Wiedemann, Der Islam II, 347-348 .

(٥) نفس المصدر ص ٣٥٢ .

وأيقنوا أنه يعذبهم ويهينهم قبل القتل ، ابتلع أحدهم الفص ، فمات[1].

وكان الفيروزج الأزرق لا يوجد إلا في نيسابور[2] . وفي عام ١٨٢١ م زار فريزر Fraser التل الذي يقع على مسافة ستين كيلو متراً إلى شمال غربي هذه المدينة ، وكان الفيروزج يستخرج بطريقة لا أثر فيها للرقي الفني ، وذلك باستعمال الفؤوس ، في حفر صغيرة ، ولكن يستطيع الناظر أن يلاحظ أن العمل في هذا الشأن كان واسع النطاق في الزمن الماضي[3] .

ولكن بعد القرن الرابع بقرنين تغير ذوق الناس ، وصار الملوك لا يكادون يرغبون في لبس الفيروزج ، لأن العامة أكثروا من التختم به ولبس الفصوص المشبهة بالجيد منه[4] .

وكذلك نزلت في القرن الرابع الهجري قيمة العقيق ، وذلك أنه

---

(١) محاسن التجارة للدمشقي ص ١٦ ؛ وانظر Benvenuto Cellini, II, 13. ، فكانوا يخلطون الألماس المجروش بالطعام ، وهو ليس سما بذاته ، ولكنه بسبب صلابته الشديدة وزواياه الحادة لا يستدير كغيره من الأحجار إذا ابتلعها الانسان ، بل إذا دخل مع الطعام في الجسم فإنه يلتصق أثناء الهضم بجدران المعدة والأمعاء ، فإذا ضغطه الطعام خرق الموضع الذي التصق به ومات الانسان من فوره ؛ وليس من بين الأحجار الاخرى حتى الزجاج ما يلتصق التصاق الماس ، بل هي تمر مع الطعام .

(٢) لطائف المعارف ص ١١٥ ؛ ويذكر ماركو بولو Marco polo, Lemke p. 93 . ان الفيروزج يوجد بكرمان ايضاً .

(٣) Fraser, Journey into Khorasan. London, 1852 p. 407 ff. . وقد وصف بريكتو Bricteux (في كتابه المسمى Au pays du lion et du soleil, p. 251-55 ، نقلا عن جروته Grothe, persien, 19.) العمليات التي تجري اليوم لاستخراج الفيروزج بنيسابور .

(٤) محاسن التجارة ص ١٦ . ولعل هذا نقل عن احوال القرن السادس الهجري .

هان عند الملوك ، لاقتدار العامة عليه ، وصاروا لا يتخذون منه إلا ما كان حجراً كبيراً ، قد عملت منه آلة" مليحة كالمدهن أو القدح أو ما جرى هذا المجرى[1] ؛ وكان أحسنه ما يستخرج بصنعاء ، فكان من أراد العقيق اشترى قطعة أرض بصنعاء ، ثم حفر ، « فربما خرج له شبه صخرة وأقل ، وربما لم يخرج شيء »[2] وكذلك كان العقيق الجيد يستخرج من جبال أفغانستان ، وكان هذا العقيق يحفر عليه في مناجم كمناجم الذهب والفضة[3] .

وكان الجبل الوحيد الذي به معدن الزمرد في المملكة الإسلامية يوجد بمصر في برّيّة منقطعة عن العمارة على مسيرة سبعة أيام من صعيد مصر ؛ وهم يحفرون عليه في الجبل ويقتلعونه من عمق بعيد[4] . وقد ذكر سترابو هذا الجبل من قبل ، وكان صاحب المعدن في عام ٣٣٢ هـ ــ ٩٤٣ م أبا مروان بشر بن إسحاق ، وهو من ربيعة ، وكان أيضاً صاحب معادن الذهب[5] .

وكان الجزع الملوّن المخطط محبوباً بنوع خاص في صنع بعض الآلات ؛ وكان يجلب من اليمن ، ويعمل ألواحا وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن ونحو ذلك[6] . وكان لتنوّع لونه وجمال وَشْيه ولمعانه تصنع منه أدوات المائدة للسادة والكبراء .

---

(١) نفس المصدر ص ١٧ .

(٢) المقدسي ص ١٠١ .

(٣) ابن حوقل في كلامه عن بلخشان ؛ وانظر Marco polo, I, Ch. 27. .

(٤) المقريزي ج ١ ص ١٩٣ نقلا عن الجاحظ ، ومروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ وما بعدها ، وكان يوجد بالهند مثل هذا الزمرد .

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣ .

(٦) الهمداني ص ٢٠٣ .

أما المرجان فكان يُصاد في ذلك العصر ــ كما يصاد اليوم ــ من شمال أفريقية (مرسى الخرز) ، من سبتة وما إليها[1] : وكان يعمل في مرسى الخرز في أكثر الأوقات خمسون قارباً وأكثر من ذلك ، وفي كل قارب نحو من عشرين رجلا[2] . وكان يخرج الصيادون إلى جمعه في قوارب ، ومعهم صلبان من خشب ، قد لُفّ عليها من الكتان المحلول ، ورُبط في كل صليب حبلان يمسكهما رجلان ، ثم يرميان بالصليب ، ويدير النواتي القاربَ فتلفّ خيوطها الكتان على ما قاربها من نبات المرجان ؛ ثم تُجذب الصلبان فيخرج معها ما يساوي العشرة دراهم إلى العشرة آلاف درهم[3] . وكان أكثر ما يُحمل إلى بلاد غانة وبلاد السودان[4] . وكان نساءُ الهند يحبونه بنوع خاص[5] . وفي عصر ماركوبولو ، كان يصدَّر إلى أوروبا من كشمير[6] . وفي عصرنا هذا يصدر المرجان الإيطالي إلى روسيا ؛ ولكن نظراً للضرائب الثقيلة على حدود روسيا في الغرب فإنــه يحمل إلى مسافة كبيرة ماراً بالهند والتركستان الشرقية ، حتى يصل إلى روسيا[7] .

وكان اللؤلؤ الذي يستخرج من الخليج الفارسي في شرق جزيرة العرب يعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين[8] . وكان الغواصون يغوصون عليه في بحر فارس من أول نيسان إلى آخر أيلول ، وما عدا

---

(١) المروج ، ج ٤ ص ٩٧ ، والمقدسي ص ٢٢٦ ، وكتاب الجماهر (مجلة Der Islam, II. 345 ff. ويقول الرحالة الصيني تشاو ــ يو ــ كوا Chu-Ju-Kua عام ١٣٠٠ م ان المرجان يوجد في غرب البحر الأبيض المتوسط (انظر ترجمة Hirth ص ١٥٤ ، ٢٢٦) .

(٢) ابن حوقل ص ٥١ .

(٣) المقدسي ص ٢٣٩ ، والادريسي طبعة دوزي ص ١١٦ .

(٤) الادريسي ، طبعة دوزي ص ١٦٨ .

(٥) البيروني كتاب الجماهر .

(٦) Marco Polo, I, ch. 29.

(٧) M. Hartmann, Chinesisch Turkestan, S. 63.

(٨) Chu-Ju-Kua, S. 229.

ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها[1] . وكان استخراج اللؤلؤ يعمل على قاعدة النظام الرأسمالي ، فكان أحد المقاولين يؤجّر الغواصين شهرين ، ويدفع لهم أجرهم بانتظام ، وكان يحصل من وراء غوصهم في بعض الأحيان على ربح جسيم لا يصيبهم منه شيء[2] . وفي عصر بنيامين التوديلي (حوالي عام ١١٧٠ م) كان هذا العمل يقوم به أحد اليهود[3] ؛ أما في أيامنا فإن الربح يعود على القبيلة أو القبائل التي تملك القوارب المستعملة في مساعدة الغواصين . والقسمة بين القوارب على السوية ؛ أما ربح ذلك فهو يؤول إلى تجار الهند الذين يشترون أصنافه بأبخس الأثمان[4] . وكانت مهمة الغوص شاقة جداً ؛ وقد وصف الأعشى الشاعر الجاهلي هذا الغواص وصفاً بيّن فيه ضعف حاله والخطر الذي يتجشمه ، وأنه ينزل في البحر الذي ربما قد مات فيه أبوه من قبل ، وهو مع ذلك لا يجد من المبتاعين رفقاً[5] .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري يحدثنا المسعودي أن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئاً من اللحم إلا السمك ؛ ويأكلون التمر ونحوه من الأقوات ، وتشَق أصول آذانهم ليخرج منها النفس بدلا من المنخرين ، لأنهم يجعلون على المنخرين شيئاً من ظهور السلاحف البحرية

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٣٢٨ ، والادريسي طبعة جوبير Jaubert ج ١ ص ٣٧٣ وما بعدها ؛ وانظر ما ذكره بالجراف Palgrave في كتاب Zehme, Arabien, S. 208 . وقد غلط بنيامين (Benjamin, 89) حين حدد أول الغوص بانه في اكتوبر .

(٢) عجائب الهند ص ١٣٥ ؛ والادريسي طبعة جوبير ج ١ ص ٣٧٣ .

(٣) رحلة بنيامين طبعة أشر Asher ص ٩٠ .

(٤) انظر كتاب Zehme, Arabien, S. 208 ، ويذكر جروته (Grothe, Persien, S. 19) بحثاً صغيراً للفرنسي بيريز Perez عنوانه Six Semaines de dragages sur les bancs perliers du Golfe Persique (Orléans, 1908)

(٥) خزانة الأدب ج ١ ص ٥٤٤ ، وترجم شعر الأعشى ليال Lyall في مجلة J R A S 1902 p. 146 f.

التي تتخذ منها الأمشاط أو من القرن ، يضمّها كالمشقاص ، لا من الخشب ، ويجعل في آذانهم القطن ، وفيه شيء من الدهن فيعصر من ذلك الدهن اليسير في قعر الماء ، فيضيء لهم بذلك ضياء نيراً ، وتطلى أقدامهم وسيقانهم بالسواد خوفا من أن تبلعهم دواب البحر ، لأنها تنفر من السواد ، وهم في قعر البحر يصيحون كالكلاب ، حتى يسمع بعضهم صياح بعض[1] .

وفي القرن الرابع قل شأن الغوص على اللؤلؤ بجزيرة سرنديب حتى كاد الإنسان لا يرى أصدافه هناك ، وحتى حسب البعض أن اللؤلؤ ترك جزيرة سرنديب وذهب إلى أفريقية[2] : ولهذا السبب لم يتكلم الرحالون والجغرافيون في ذلك العهد عن الغوص على المرجان هنالك ؛ ولكن الأصداف عادت إلى الظهور فيما بعد ، حتى حدثنا كتاب القرن السادس الهجري عن اللؤلؤ والغوص عليه أحاديث مفصلة ، وذلك أنه كان يخرج من المدينة أكثر من مائتي سفينة معاً تحمل كل منها خمسة تجار إلى ستة ، كل منهم في مكان خاص به ، ومعه غوّاصه ومساعدوه ؛ ويقود هذا الأسطول قائد في مركب يسير به أمام الجميع ، فيقف في مكان ما ويغوص ، فإذا وجد شيئاً ألقى مراسي سفينته ، وألقى الآخرون مراسي سفنهم حوله ؛ ثم يسدّ الغواصون أنوفهم بالشمع المذاب في زيت السمسم ، ويأخذ كل منهم سكيناً ومخلاة ، ويقعد على حجر مربوط في حبل يمسكه المساعد به وينزله إلى قرار البحر ؛ ويستمر هذا الغوص ساعتين من النهار . ثم يُقاس هذا اللؤلؤ ويباع في يوم يحدّد له بإشراف الحكومة ، ويُفرز اللؤلؤ بثلاثة غرابيل متفاوتة اتساع

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها .

(٢) كتاب الهند للبيروني ترجمة سخاو ج ١ ص ٢١١ .

الخروق بعضها فوق بعض[1] • ويقول بنيامين (ص ٨٩) إن الغواص يستطيع أن يبقى تحت الماء من دقيقة إلى دقيقة ونصف •

وحكى كاتب صيني من أهل ذلك العصر فقال : « يُستعمل في استخراج اللؤلؤ ثلاثون أو أربعون قارباً ، على كل منها نحو من اثني عشر بحاراً ؛ ثم يأتي الغواصون وقد شُدت الحبال على أجسامهم ، وشُدّت أنوفهم وآذانهم بالشمع الأصفر ، ويَتنزّلون البحر على عمق مائتين أو ثلاثمائة قدم أو أزيد من ذلك ؛ وتكون الحبال مُثَبَّتة إلى القارب ، فإذا أشار أحد الغواصين بتحريك حبله جذبوه إلى السطح ، ويكون قد سُخِّن له غطاء ليِّن في الماء المغلي ، فيُلقى عليه بمجرد خروجه من الماء ، لئلا تصيبه النوبات ، فيموت • والغواصون عرضة لأن تهجم عليهم الأسماك الكبيرة ووحوش البحر ، فتمزق أجسامهم أو تكسر أعضاءهم ؛ وفي كثير من الأحيان يحرك الغواص حبله ، فيجذبه الرجل الذي على ظهر المركب فلا يستطيع ، وعند ذلك يأتي البحارة جميعاً ويجذبونه بكل قوتهم ، فيخرجونه وقد عض ساقه وحش من وحوش البحر • وتعتبر اللؤلؤة بالإجمال ذات قيمة إذا كانت مستديرة تمام الاستدارة ، ودليل ذلك أن تظل متدحرجة نهاراً كاملا على سطح مستو توضع عليه • ومن عادة التجار الأجانب الذين يقصدون الصين أن يخبئوا اللؤلؤ في بطائن ملابسهم أو مقابض مظلاتهم هرباً من دفع المكوس »[2] •

ويحكي لنا الرحالة الصيني چانج تي الذي سافر في ١٢٥٩ م من

(١) الادريسي طبعة جوبير ج ١ ص ٣٧٣ وما بعدها .

(٢) Chau-Ju-Kua, trans. Hirth p. 229 f. ، نقلا عن الرحالة لنج واي تاي تا (Ling-wai-tai-ta) الذي كتب حوالي عام ١١٧٤ م .

الصين نحو الغرب ، وهو رحّال قد جمع معلومات جيّدة عن استخراج اللؤلؤ ما يأتي : « يدخل الغاصة على اللؤلؤ في أكياس من الجلد بحيث لا تكون طليقة إلا أيديهم ، وتربط الحبالُ حول أوساطهم ، ثم ينزلونهم ، وهم على هذه الحال إلى قعر البحر ، فيجمعون اللؤلؤ وما يحيط به من رمل ويضعونه في المخلاة ؛ وكثيراً ما يهجم عليهم وحوش البحر تحت الماء ، فيقذفون عليها الخلَّ ليخيفونها ؛ فإذا ملؤوا مخاليهم بأصداف اللؤلؤ أشاروا لمن على ظهر المراكب بتحريك الحبال ؛ فعند ذلك يجذبونهم إلى السطح ، وكثيراً ما يحدث أن يهلك هؤلاء الغاصة ، وهم في أعماق البحر »[1] .

وكان تجار العرب يشترون العاج من بلاد الزنج (إفريقية الشرقية)، ويحملونه إلى الصين[2] . وكان يُدفع لأجله أكثر من العاج الذي يُجلب من بلاد أنام أو من تَنج ـ كنج ، وكان يؤخذ من أنياب صغيرة محمَّرة اللون[3] ؛ ويؤكد المسعودي أنه لولا تصدير العاج إلى عمان والهند والصين لكان كثيراً في بلاد الإسلام[4] .

وكان يجلب من بلاد الزنج أيضاً الذبل ، وهو ظهور السلاحف ، ومنه كانت تُصنع أحسن الأمشاط ؛ فأما العادية منها فكانت تصنع من القرون .

والزنج فوق ذلك هم أصحاب جلود النمور الحمر ، وهي أكبر ما يكون من جلود النمور ، ومن أحسنها يُتَّخَذ غطاءُ السروج[5] .

---

(۱) Bretschneider, Mediaeval Researches, I, 145.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٨ .

(٣) Chau-Ju-Kua p. 232.

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٨ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢ .

وكان الزنوج بالجملة هم الذين يمدون غرب آسيا كله بالجلود ؛ ويظهر أن أهل مصر واليمن تعلموا من الزنوج ما نبغوا فيه من حسن صناعة الأديم[1] . وقد كان المقدسي باليمن في عـدن ، وكان قد تعلم تجليد الكتب على طريقة أهل الشام ؛ وكان أهل اليمن يعجبهم التجليد الحسن، ويبذلون فيه الأجرة الوافرة ؛ فكانوا يعطون الكتب للمقدسي ليجلدها ، وهو يفتخر بأنه ربما كان يُعطى على تجليد المصحف دينارين[2] .

ومن الطريف أن نلاحظ أن الطريقة التي تُجلد بها كتبنا اليوم ، والتي حلت محل الأدراج المطوية القديمة ، إنما كان منشؤها في القارة السوداء . وفي القرن الثالث الهجري كان عند أهل الإسلام أشياء مثل ذلك ، أُخذت عن السود ، فقد ذكر الجاحظ في رسالة فخر السودان على البيض قولهم : « وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا ؛ منها الغالية ، وهي أطيب الطيب وأفخـره وأكرمه ؛ ومنهـا النعش ، وهو أستر للنساء ، وأصون للحرم ؛ ومنهـا المصحف ، وهو أوقى لمـا فيه ، وأحصن له وأبهى »[3] .

أما غابات الخشب فكانت قد خفَّت في غرب المملكة الإسلامية منذ القدم ، ولم يكن بالمشرق غابات إلا في الأجزاء المتطرفة البعيـدة المنال ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم عند الكلام عن الفضة أن العمل في معدنها بجهة باذغيش (الأفغان) قد تعطل لفناء الحطب ، ويحكي الأصطخري أن « أراضي بخارى كلها قريبة إلى الماء ، لأنها مغيض ماء السند ؛ ولذلك لا تنبت الأشجار العالية فيها ، مثل الجوز والدُّلب والحوَر وما أشبهه ؛

---

(١) المقدسي ص ١٨٠، ٢٠٣ ؛ وانظر : Benjamin, ed. Asher, p. 30. والاصطخري ص ٢٤ ، ٢٥

(٢) المقدسي ص ١٠٠ .

(٣) رسائل الجاحظ ص ٧١ ، طبعة فان فلوتن .

(٤) الاصطخري ص ١٣٢ .

فإذا كان من شجر فهو قصير غير نام »[٤] . أما حشيش هذه البلاد فهو عجيب في طوله بحيث تغيب فيه الدواب"[١] . وقد عوّض ذلك على أهل هذه البلاد تجارة" عظيمة في الخشب ، وكان خشب بوشنج ، وخصوصاً خشب العرعر ، لا يوجد مثله في بلد من البلدان بخراسان ؛ وكان يحمل منها إلى سائر النواحي[٢] .

أما خشب بناء السفن فكان يجلب من مدينة البندقية ومن صعيد مصر[٣] . وكان خشب الساج الهندي يعتبر أحسن ما يستعمل في بناء البيوت ببغداد وبالمشرق كله ؛ وكانت تصنع منه الأدوات لبيوت السادة والكبراء ، وكان خشب الصنوبر يقوم هذا المقام في أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان حصن التينات على مقربة من الإسكندرية مجمع خشب الصنوبر الذي كان ينقل إلى الشامات وإلى مصر وصقلية والثغور[٤] .

وكانت غابة الصوبر بطرطوشة أشهر غاباته بالأندلس ، وكان خشبها « أحمر صافي البشرة ، رسمه لا يتغير سريعاً ، ولا يفعل فيه السوس ؛ وكان خشب المسجد الجامع بقرطبة من عيدان الصنوبر الطرطوشي »[٥] .

وكانت غابات إقليم مازندران ، التي لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم، تؤتي خشب الخلنج ، وكانت العادة أن يصنع منه أثاث المنازل في القرن الرابع الهجري ؛ وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة[٦] . وكان سكان

---

(١) المقدسي ص ٢٨٣ .
(٢) الاصطخري ص ٢٦٨ .
(٣) انظر الفصل الخاص بالملاحة البحرية .
(٤) الاصطخري ص ٦٣ .
(٥) الادريسي طبعة دوزي ص ١٩٠ ، ٢٠٩ .
(٦) ابن حوقل ص ٢٧٢ .

الجبال بطبرستان يصنعون آنيـة وأطباقاً من خشب شديد الصلابـة عندهم[1] ؛ وكانت تصدَّر من مدينة قمّ الكراسي الجيدة ؛ وكان أهل السيرجان ، قصبـة كرمـان ، يقلّدون هـذه الكراسي فـلا يأتون بحسنها[2] .

وكان أهل الريّ يصنعون الأطباق المدهّنة[3] .

أما بلاد الإسلام التي كانت أمور الري فيها ذات مشكلات عسيرة تحتاج إلى الحلّ فقد كانت مصر واليمن والعراق وشمال شرقي فارس وأفغانستان ومـا وراء النهـر ؛ وكان التشريع الخاص بتنظيم الريّ متشعّباً يشتمل مجموعة قوانين دقيقة معقدة ، ولكنها جميعاً تتفق في قاعدة شرعية واحدة ، هي أن الماء لا يجوز أن يشترى أو يباع ؛ وعلى هذا فلم يكن يجوز للدولة ولا للأفراد أن يجعلوا مسألة الري وحدهـا سبيلا للكسب أو التجارة[4] .

وإن الجزء الأكبر من التشريع الأوروبي الخاص بالماء مقتبس من التشريع الشرقي . ولقد كانت طرق الري ووسائله متنوعة بتنوع البلاد، ولكننا للأسف لا نعرف إلا القليل من المعلومات الصحيحة فيما يتعلق بذلك ، فلا نستطيع أن نبين علاقاتها بعضها ببعض ؛ كما لا نستطيع أن نقرر ما إذا كانت كلها متفرعة من أصل واحد أُخذت منه .

أما في العراق فكان مـن واجبـاب الدولة أن تسهر على صيانة السدود والمسنّيات والبثوق[5] . وكان ثمّ لهذا الغرض طائفةٌ قائمة

---

(1) الاصطخري ص ٢١٢ .
(2) المقدسي ص ٤٧٠ .
(3) ابن الفقيه ص ٢٥٣ .
(4) فيما يتعلق بالتركستان انظر كتاب Busse ص ٥٥ .
(5) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٦٣ .

بذاتها من العمال يسمون المهندسين . وكانت المحافظة على السدود أمراً شاقا ، لأنها كانت تبنى من قصب وتراب ، وتقام في وجوه المياه الجارية ؛ وربما كان سبب انبثاق الماء منها ثقب فارة ، ثم يوسّعه الماء ، حتى ينتهي إلى حيث لا حيلة في سدّه ؛ وكان « يكفي أن تقع ثلمة يسيرة في إحدى نواحي السدّ ، حتى يتولى الماء الهدم والتخريب ، فربما أفسد في ساعة تعبَ سنة أو نحوها »[1] .

وكان السلطان معزّ الدولة بن بويه حاكما قديراً ، فاعتنى بأمر السدود عناية كبيرة ؛ حتى إنه لما انبثق أحد السدود خرج للعمل فيه بنفسه ، وضرب لعسكره المثل بنفسه ، وذلك بأن حمل التراب في طرف ثوبه ، فحذا حذوه الجميع ، وانسدّ البثق[2] .

وكانت القوانين المتعلقة بتنظيم الماء في شرق فارس متشعّبة كل التشعّب ؛ فكان في مرو ديوان يسمى « ديوان الماء »[3] ، وكان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل ؛ وكان منصبه أرقى من منصب صاحب المعونة في تلك المدينة[4] .

وكان الماء يقاس بقياس مصطلح عليه يسمى البَسْت ، وهو مخرج للماء من ثقب طوله شعيرة وعرضه شعيرة ، وكان شرب اليوم والليلة ينقسم إلى ستين جزءاً ، الواحد منها يسمى السرَفَة[5] .

وكان مقياس ارتفاع النهر يقع على مسافة فرسخ من المدينة ؛ وكان عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوق شقا طوليا تتحرك عليه شعيرة ،

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٧٦ .

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٩ .

(٣) مفاتيح العلوم للخوارزمي طبعة فان فلوتن ص ٦٨ .

(٤) الاصطخري ص ٢٦١ وما بعدها ؛ والمقدسي ص ٣٣٠ .

(٥) مفاتيح العلوم ص ٦٨ وما بعدها .

فربما علا الماء حتى بلغ ارتفاعه ستين شعيرة ، فتكون السنة سنة خصبة، ويستبشر الناس بذلك ، ويُزاد مقدار ما يُفَرَّق عليهم ؛ وإذا بلغ الارتفاع ست شعيرات فقط كانت سنة قحط . والمتولي للسدّ يلاحظ ارتفاع الماء ، ويُنفِذ سُعَاتَه بذلك إلى ديوان النهر ، فينفذ صاحبُه الرسل إلى جميع من يتولون شعب الأنهار ، فيقسمون الماء حسب ارتفاعه ؛ « وكان على السد الذي أُقيم جنوب مرو أربعمائة غواص ، يراعونه في ليلهم ونهارهم ، وربما احتاجوا دخول الماء في البرد الشديد، فيطلون أنفسهم بالشمع . وعلى كل رجل منهم قَطْعُ الخشب وجَمْعُ الشوك بشيء معلوم في كل يوم يستعدونه لوقت الحاجة »[1] .

وكانت الأقاليم الواقعة شرقي فارس البعيدة عن مجاري المياه الكبرى تُروى بطريقة مبتكرة متقنة الصنع : لم يكن في هذه الأقاليم إلا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار ؛ فلم يكن بد من جمع هذا الماء والماء المستخرج من الأرض إلى آخر نقطة ، ثم يستعمل النظام المعروف اليوم بنظام كارس Kariss ؛ وذلك بأن تُعمل في جوف الأرض قنوات" معقودة عليها قناطر ، وقد بلغ طول إحدى هذه القنوات اليوم خمسين كيلومتراً ؛ وكان بمدينة قُمّ قنطرة" من هذا النوع . وكانت نيسابور خاصة مشهورة بقنواتها التي تجري تحت الأرض ؛ حتى ينزل الإنسان إليها على مراقٍ ربما يبلغ عددها السبعين ؛ وهي تسقي ضياع البلد ، وتدور في محلاتها ، وتمدّ أهلها بماء للشرب نظيف بارد في فصل الصيف[2] .

---

(١) المقدسي ص ٣٣١ .

(٢) جغرافية اليعقوبي ص ٢٧٤ ، والمقدسي ص ٣٢٩ ؛ وما ذكره شيفر في رحلة ناصر خسرو ص ٢٧٨ ؛ وانظر الفصل الخاص بالمدن .

وكان هذا التنظيم يحتاج إلى مهارة كبيرة ؛ فكان لا بد للقائمين به أن يعالجوا الطبقات الأرضية التي يجري عليها الماء في المواضع التي يجدون فيها أرضاً لا يخترقها الماء ، كما كان لا بدّ لهم من أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلا يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده[1] .وكان يستعمل من الآلات المائية الدولاب والدالية والغرّافة والزرنوق والناعورة والمنجنون[2] ؛ وكان الزرنوق عبارة عن آلة بسيطة مركّبة على بئر ؛ وفي المدينة مثلا كانت تجرها النواضح[3] ، أما الدالية فكانت آلة ترفع الماء وتديرها البقر ؛ والناعورة كانت تركّب على الأنهار ويديرها الماء[4] . وأما الدولاب فهو الاسم الفارسي للآلة المسماة عند اليونان منجنون ، ويظهر أن الناعورة لم تكن مستعملة في غرب العراق[5] .

وكانت جميع السدود التي تقام على الأنهار تنقصها الصلابة ، لأنها كانت تصنع من الخشب ، حتى سدّ بخاري المشهور . أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من منطقة التحضر الإيراني ، أعني خوزستان وفارس ، فقد كانت تمتاز ببناء السدود الحجرية . وكان يقع إلى جنوب تُستَرَ الشاذوران المشهور الذي يبلغ عرضه بحسب تقدير العرب ألف ذراع ، وبحسب تقدير الأوروبيين ستمائة خطوة ، والذي جاء في الروايات أن سابور الأول ملك الفرس أمر أسيره الإمبراطور الروماني ڤاليريانوس Valerianus ببنائه[6] . وكانت مهمة هذا الشاذوران أن

---

(١) فيما يتعلق بنظام الكارس انظر : W. Busse, Bewässerungswirtschaft in Turan, S. 321 ff. ; Suen Hedin, Zu Land nach Indien, I. 184 ; Grothe, Wanderungen in Persien 1910, S. 105.

(٢) مفاتيح العلوم ص ٧١ .

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٢١٣ .

(٤) الجوهري تحت كلمة دلو .

(٥) المقدسي ص ٤١١ ، ٤٤٤ .

(٦) تاريخ الطبري ج ١ ص ٨٢٧ ، وانظر ترجمة الجزء الخاص بفارس من تاريخ الطبري لنولدكه ص ٢٣ ، هامش ٢ .

يفصل من نهر دجيل نهر مَشْرُقان .

وفي القرن الرابع الهجري بنى عضد الدولة سكراً عظيما يعتبر من عجائب بلاد الفرس ، وذلك على نهر الكرّ بين شيراز واصطخر . وكان السكر عبارة عن حائط عظيم أساسه من الرصاص ، بناه في عرض النهر، فتبخَّر الماء خلفه وارتفع ، فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب ، وتحت كل دولاب رحى ؛ وأجرى عضد الدولة الماء في قنوات ، فسقى ثلاثمائة قرية[1] . وكان لهذا الشاذوران أبواب تفتح إذا كثر الماء ، ولولا ذلك لغرقت الأهواز . ويسمع للمـاء المنحدر صوت يمنع مـن النوم أكثر السنة ، وزيادته تكون في الشتاء لأنه من الأمطار لا من الثلوج »[2] .

أما في اليمن حيث لا بد من جمع الماء الجاري للاستعمال فكانوا يبنون المصانع وهي عبارة عن غُدُر مرصوفة من جوانبها بالصفا[3] . أما في المناطق الجبلية مثل صنعاء ، فكانوا يبنون سدوداً لها فتحات في أسفلها ، يجري منها الماء ويوزع في قنوات صغيرة . وكانت هذه الطريقة مما اختصت به اليمن ، حتى إن ابن رسته أراد أن يزيد في البيان لقارئه ، فوصفها وصفاً كافياً[4] .

وأما بلاد ما وراء النهر فكان بها أفضل مادة لعمل القنوات ، وهي نوع من الطين ، إذا تندّي بالماء صار ليناً ، كالطين الذي تصنع منه أواني الفخار ، وإذا جفف في الشمس عاد صلباً ، كالحجر ، وهو الطين الأصفر الذي كان يستعمله مهرة الأكرة الصينيين . وقد أفصح الكتاب عـن عجبهم مـن جودة القنوات التي استطاع الأكرة أن يعملوهـا بمجرد

---

(١) المقدسي ص ٤٤٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٤١١ ؛ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٤١١ - ٤١٢ نقلا عن ابي دلف .

(٣) الهمداني ص ١٣٨ .

(٤) ابن رسته ص ١١٢ .

استعمال فؤوسهم ومن غير استعانة بآلة يقيسون بها استواء الأرض ، « ولإخصائييهم المسمَّين بالأستاذين دربة عجيبة تمكنهم مـن التفطن للتميز بين أقل درجات الميل مما لا يفطن له الناظر العادي قط »[1] • ومما هو جدير بالملاحظة في إنشاء هذه القنوات أن الأرض هنا ليست سهلة كأرض مصر والعراق ، بل هي أرض جبلية ، وهذا يجعل العمل شاقا جداً • وتقع هذه القنوات على ارتفاعات متفاوتة كبيرة ، ويقطع بعضها بعضاً في كثير من الأحيان ، وفي هذه الحالة يسير الأعلى منها فوق الأسفل في قنوات خشبية محمولة ؛ ولم يكن نظام الأهوسة معروفاً[2] •

وكان للماء في هذه البلاد تشريع قديم ، لم يتعرض له المسلمون ، بل تركوه جاريا ؛ وأراد الروس أن يزلزلوه ، فكان الغرم عليهم • وكان الموضع القديم لهذا النظام هو وادي فرغانة ، وهو يقع على خط عرض إلى جنوب خطوط العرض التي تقع عليها إيطاليا الجنوبية ؛ ولكنه في وسط القـارة ، فكانت حرارته تقارب حرارة الأقاليم الاستوائيـة • وعرض هذا الوادي يقرب من مائة كيلو متر ، في أعرض أجزائه ؛ وهو بين جبال يتراوح ارتفاعها بين اربعة آلاف وسبعة آلاف متر ، وتنحدر من ثلوجها في الصيف جداولُ تروي البلاد ؛ والمراعي هناك تسمَّد ، وتكون الحقول مغطاة بالمـاء والوحل ، بل تنثر عليهـا مواد كيماوية معدنية • وكان عمال ديوان المـاء ينتخبهم الأكرة أنفسهم ، وكان لهم نصيب من الريع ؛ وكانت القاعدة الأساسية في الري هي تحويل مـاء النهيرات بإنشاء سدود ، حتى لا تصل مياه النهيرات إلى النهر الأكبر في الوادي ، بل تفيض على ما حولها ؛ ويـُعـْتمد في بناء هذه السدود ــ كما هو الحال في سدود أفغانستان ــ ألا تكون قوية راسخة ،حتى يكتسحها

(١) W. Busse, Bewässerung . . . S. 111.

(٢) v. Schwarz, Turkestan. S. 341 ff. Busse, S. 32.

الماء ، إن زاد ، فتنجو البلاد من الغرق ؛ ويراعى في هذه القنوات أن يكون انحدارها يسيراً في أعاليها ، ثم يُجعَل انحدارُها كبيرا عند اقترابها من الوادي ، لكي تستعمل قون جريان مائها في إدارة الطواحين[1] ؛ وفي القرن الرابع الهجري كان ببلاد ما وراء النهر كروم وضياع قد أزيل عنها الخراج وجُعل على أهلها مكانه إصلاح سكور الأنهار[2] .

والجزء المنزوع في أفغانستان لا يتعدى دلتا نهر هندوند ، وهذا النهر ــ كنهر الأردن ــ وهو كجميع أنهار فارس ــ ما عدا واحداً ــ لا ينتهي إلى بحر يصب فيه ، بل يتلاشى في مستنقعات واسعة . وهذا النهر ، كغيره من الأنهار التي تسير في أراض رملية في الصحراء ، قد غيَّر مجراه مرات كثيرة ، فنشأت عن ذلك مشكلات خاصة يواجهها القائمون بأمور الري ، وقد ذكر الميجر سيكز أنه وجد هذا النهر في أوائل أبريل يبلغ عرضه عرض نهر التاميز عند لندن[3] . ويتفرع من نهر هندوند نهيرات كثيرة ؛ وقد بني في آخره سِكْر ، ليمنع الماء من أن يجري إلى بحيرة زَرَه ، فإذا ذابت الثلوج وجاء الفيضان اخترق السكر ، ووقع فضلُ ماء هذا النهر إلى البحيرة[4] ؛ فلم يكن هذا السد متيناً ، ولعله كان قد بني ، كما بني اليوم السد الكبير في بِنْديسَيْنستِن ؛ فقد قام ببنائه نحوٌ من ألف عامل ، وجيء بأعمدة من شجر اللبخ ، فرُصَّت بعضها إلى جانب بعض ، ونُسجت فيما بينها غصون نبات متشابك ، ثم غُطي ذلك بالحصر الخشنة ، وطليت الفتحات بالجص[5] .

---

(1) v. Middendorf. Mém. Acad. St. Petersbourg, VII, Bd. 29.

(2) ابن حوقل ص ٢٧١ .

(3) Sykes, A travers la Perse orientale, Paris, Hachette, 1907, p. 193.

(4) الأصطخري ص ٢٤٤ .

(5) Sykes, a. a. O. ; S. Hedin, Zu land nach Indien, II, 331.

وكان على نهر النيل في جزئه الأدنى سدان في القرن الرابع : أحدهما بعين شمس ، وكان سدا مبنيا بالحلفاء والتراب ، وكان يقام قبل زيادة النيل ، فإذا أقبل الماء رده السد ، وعلا الماء ، فسقى ما وراء السد من الضياع ، وكان هذا السد خليج أمير المؤمنين ، « فإذا كان يوم عيد الصليب ، وقت انتهاء حلاوة العنب ، خرج السلطان إلى عين شمس ، فأمر بفتح هذه الترعة ، وقد سد الناس أفواه أنهارهم ؛ حتى لا يخرج الماء منها ، وجعلوا عليها الحراس ، فينحدر الماء بعد فتح السد إلى بقية أرض الدلتا » . أما السد الآخر فكان أعظم بناء ، وهو يقع بسردوس ، أسفل عين شمس ، ويبين بفتحه النقصان في النيل .

وكان مقياس ارتفاع ماء النيل منذ أقدم العصور عموداً طويلا ، عليه علامات الأذرع والأصابع ، وهو يقوم وسط بركة يجري فيها الماء ، وكان أهم مقاييس مصر المقياس الذي في جزيرة الروضة بمصر القديمة ، وكان عليه عامل يرفع للسلطان في كل يوم مقدار الزيادة ، فإذا بلغت الزيادة اثني عشر ذراعاً نادى المنادي : « زاد الله اليوم في النيل المبارك كذا وكذا ، وكانت زيادته عام أول في هذا اليوم كذا وكذا ، وعلى الله التمام » . أما قبل بلوغ الزيادة اثني عشر ذراعاً فلا ينادي المنادي ، ويكتفى بما يرفع للسلطان[1] . ولما أمر المتوكل عام ٢٤٧ هـ — ٨٦١ م بابتناء المقياس الهاشمي وبعزل النصارى عن مقياسه كانت علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعاً أن يسبل الستر الخليفي الأسود على شبابيك المقياس ، فإذا شاهده الناس استبشروا بسنة خصب وإقبال[2] .

وفي أيام زيادة النيل تتبحر مصر ، حتى لا يمكن الذهاب من

(١) المقدسي ص ٢٠٦ .
(٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ١٨٥ .

ضيعة إلى أخرى في بعض المواضع إلا في الزواريق[1] . وكان الناس يجهزون حاجاتهم الضرورية مدة الشهور الأربعة التي تكون البلاد فيها مغمورة بالماء ، وكانوا يخبزون من الخبز ما يكفيهم مــدة الفيضان ، ويجففونه حتى لا يتعفن[2] .

وكان يستعمل في قسمة الماء بجميع البلاد الجهــاز المائي الذي يسمى بالفارسية الطرجهارة ، وكان بمدينة بيار (بشمال إيران) طرجهارة نحاسية ، وكذلك بأرَّجان بفارس[3] ، وبشمال إفريقية ، وكان « شِرْب مدينة توزر (بإحدى واحات الصحراء الكبرى الإفريقية) مــن ثلاثة أنهار تنقسم بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادي الجمال ... ثم ينقسم كل نهر منها إلى ستة جداول ،وتتشعَّب من تلك الجداول سواق لا تحصى كثرة، تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمةٍ عدلٍ ، لا يزيد بعضها عن بعض شيئاً ، كل ساقية سعةُ شبرين في ارتفاع متر ، يلزم من سقي منها أربعة أقداس[4] مثقال" في العام ، وبحساب ذلك في الأكثر والأقل ، وهو أن يعمد الذي تكون له دولةُ السقي إلى قدس ، في أسفله ثقبة بمقدار ما يسدها وَتَر قوس الندَّاف ، فيملؤه بالماء ، ويعلقه ، ويسقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول ، حتى ينفذ مــاء القدس ، ثم يملؤه ثانياً ، وهم قد علموا أن سقي اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدساً[5] » .

---

(١) المقدسي ص ٢٠٦ .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ٥٦ من النص الفارسي ، وص ١١٨ من ترجمة شيفر .

(٣) المقدسي ص ٣٥٧ .

(٤) ويقابل هذه الكلمة كلمة Cadus اللاتينية .

(٤) البكري (المغرب) طبعة سلين ص ٤٨ ، واليوم يحسب الوقت الذي تروي فيه كل عائلة من العائلات بمدينة سوس بأن يوضع إناء مخروق في حوض كبير به ماء ، فإذا امتلأ الاناء ماء ووصل إلى قرار الحوض انتهى وقت السقي(انظر M. Zeys, Une Française au Maroc, p. 79).

ولم تكن محاربة طغيان الرمال إلا في أفغانستان ؛ وكان لأهل هذه البلاد علم خاص بكيفية مقاومة فيضان الرمال ، فقد كانت أرض تلك البلاد سبخة ورمالا ، ورياحهم تشتد وتدوم ، حتى إنهم نصبوا عليها أرحاء ، يسيرونها بها ؛ ورمال بلادهم تنتقل من مكان إلى مكان ، فلولا أنهم يحتالون عليها ، لطمَّت القرى والمدن بها ؛ وكانوا إذا أحبوا نقل الرمل من مكان إلى مكانٍ جعلوا مثل الحائط من خشب وشوك وغيرهما ، حتى يعلو على ذلك الرمل ، وفتحوا في أسفله بابا ، فيدخله الريح ، ويطير الرمل على أعلاه مثل الزوبعة على مدّ البصر ، حتى لا يضرهم . وفي سنة ٣٥٩هـ — ٩٧٠م تواترت الرياحُ عليهم بما لم يعهدوا مثله ، وأكبَّت الرياحُ على الجامع فملأته بالرمل ؛ وتزايد البلاء على البلد ، وكان بها قوم موسومون بعلم بهذه الصنعة ، قد أعجزهم هذا الرمل ، حتى ابتدر حَدَثٌ ، وطلب عشرين ألف درهم لدفعه ؛ فأعطوها له ، بعد تردّد وبعد أن خشوا من الهلاك ؛ وأعمل هذا الحدث الحيل ، حتى حوّل مجرى الريح بسدود أقامها ، فنسف الريحُ الرملَ بأجمعه[1] .

وقد كانت الزراعة في المملكة الإسلامية متنوعة الصور ، حتى كاد كل واد أو قرية يكون منفرداً بشيء ابتدعه ، ففي إقليم أردبيل (بين تبريز وبحر الخزر) — مثلا — كانوا يحرثون الأرض على ثمانٍ من البقر ، لكل اثنتين منها سائق ؛ ولم يكن ذلك لصلابة في الأرض ، بل لأنها كانت متجمدة . أما بمدينة أبرقوة بفارس فكان أهلها لا يزرعون على البقر ، مع كثرتها في بلادهم[2] .

وكان يُعتنى بتسميد الأرض عناية كبيرة في جميع البلاد ، وكانوا

(١) ابن حوقل ص ٢٩٩ .

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٦ ، ورحلة عبد اللطيف البغدادي ص ٣ .

يستعملون في ذلك ما يخرج من روث البقر والغنم وما يخرج من فضلات الإنسان أيضاً ، وكان الأول يباع في العراق بالسابل . وكان للفضلات الإنسانية قيمة" في البصرة ، كما تقدم القول[1] . وكان الناس في ناحية سيراف ، أعني في مدينتي كران وأراهستان ، يزرعون النخل في حفر عميقة ، حتى لا يظهر من النخلة على وجه الأرض إلا أعلاها . وكان ماء الشتاء يتجمع في هذه الحفر ، ويروي النخل . وكذلك كان إذا سئل أحد : أين ينبت النخل في الآبار ؟ أجاب : بأراهستان[2] .

ولم تكن تعرف بالمملكة الإسلامية كلها الأشباحُ التي يطرد بها الطيرُ عن المزارع ، وهي ليست معروفة اليوم أيضاً . فكان بالعراق أبناء القرامطة هم الذين يطردون الطير من الحقول ، وكانوا يعطون على ذلك أجراً ، فيدفعونه لجماعتهم[3] . أما في التركستان في أيامنا « فإن أهل البلاد يعملون على حماية مزارعهم وبساتينهم من الطيور بأن يقيموا ربوة من الطين ، ارتفاعها نحو مترين في وسط كل حقل ، وعلى هذه الربوة صبيان عراة أو أنصاف عراة . عملهم طول النهار وفي الشمس المحرقة طردُ الطيور ، بأن يصيحوا عليها أو يقذفونها بأكر من الطين ، أو بأن يضربوا طبلا أو وعاء معدنيا قديماً ، وفي الصيف عندما ينتشر هؤلاء الصبيان اثنان أو ثلاثة في كل حقل أو حديقة ، وكل منهم يحاول أن يتفوق على الآخر ، عند ذلك تسود المزارع من الصباح إلى المساء ضوضاءُ مزعجة ، يكاد الإنسان منها يجن »[4] .

---

(١) الارشاد لياقوت جـ ٥ ص ٣٠٦ ، وانظر الفصل الخاص بالمدن .

(٢) ابن البلخي في مجلة J R A S, 1902. p. 329. (كتب ابن البلخي حوالي عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٧ م) .

(٣) De Goeje, Mém. sur les Carmathes, p. 29.

(٤) V. Schwarz, Turkestan, S. 65.

أما فيمــا يتعلق بمراكش ، فيستطيع القاريء أن يراجــع وصف الرسام بوكسر لذلك[1] .

وكانت العراق في القرن الرابع الهجري لا تزال بلاداً تُرَبِّي البقر؛ وكان الأنباط المقيمون هناك يُعْرَفون بأنهــم « فرسان البقر » ولــم يتغلّب الجاموس في هذه البلاد إلا لما زادت البطائح والمستنقعات . وقد جلب العربُ الجاموسَ من الهند ؛ وهي موطنه الأصلي، ثم نُقل في عهد بني أمية من السند إلى بطائح العراق ؛ بل يذكر أن الحكومة وضعت أربعة آلاف من الجاموس على حدود الشام مــن الشمال ، لأن الناس شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم ، وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود . على أن المسعودي يحدثنا في أوائل القرن الرابع الهجري أن طريقة استخدام الجاموس للعمل بأنطاكية هي طريقة أهل الهند[2] . ثم إن عرب الشام نقلوا هذا الحيوان الذي يحب المستنقعات الى إيطاليا والأندلس .

وكان الناس في القرن الثاني الهجري يأكلون لحم البقر ، ثم تركوا ذلك[3] ، وكانوا يربون البقر لأجل لبنها[4] ، أما لحمهــا فكان يعتبر ضاراً[5] ، بل كان الأطبــاء يعتبرونه ساماً ؛ وكان أبو بكر محمد بن

---

(1) F. Buchser, Marokkanische Bilder. Berlin, p. 1861, S. 66.

(2) De Goeje, Mémoires... 22 f. ، وفي حوادث عام ٢٧٠ هـ ـ ٨٨٣ م أن احمد ابن طولون صاحب مصر والشام أكثر من لبن جاموس قدم له ، فأصابته تخمة ، ومات (تاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ٢٦٠) ، وكذلك كان من الأشياء التي احصاها المقدسي بفلسطين لبن الجاموس (المقدسي ص ١٨١) .

(3) المقدسي ص ١١٦ ، ويحكي ابن خرداذبة (ص ١٥) أن الحجاج منع من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة .

(4) ابن حوقل ص ٢٠٨ .

(5) حكاية أبي القاسم طبعة متز ، وكذلك كانت قبائل القرغير متأثرة بالعرب ، فهم لا يأكلون لحم البقر ، ولا يأكله الفقراء إلا مكرهين ، وهم يزعمون أنه عسير الهضم ، فهو اضر شيء بالصحة ، وانه يحدث آلام المعدة والرأس.(Radloff, Sibirien, II, S. 439.)

زكريا الرازي الطبيب لا يوصي إلا بلبن الغنم ولحم الضأن[1] . وقد حكى ابن رستة مظهراً لدهشته من أن أهل اليمن يفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين[2] ، وأهل اليمن إلى اليوم يعتبرون أن من التحقير تقديم لحم البقر ، حتى للخدم[3] .

ولم يذكر استيراد الحيوانات للذبح إلا بمصر ، فكانت تجتلب السائمة من برقة ، وكانت برقة هذه ذات مزارع تصلح عليها السائمة ، وكانت أكثر ذبائح مصر منها[4] .

وكانت جزيرة العرب خير منبت للجِمال ذات السنام الواحد ، ويدل ما ذكره علماء اللغة في معاجمهم عن الجمل على مقدار مبالغة العرب وشدة مهارتهم في الاستفادة من أصغر غريزة أو حركة لهذا الحيوان أو في تغييرها أو اقتلاعها ، وذلك لمصلحة الإنسان . وقد كان الجمل موضوعاً نمت عليه دقة العقل العربي نمواً كبيراً .

وكانت بلخ مشهورة بالجِمال ذات السنامين ، وهي المسماة بالجمال البخت ، وهي أفضل من كل ما عداها[5] . وكان يجلب من السند الفالج الذي يولّد البخاتي ، وله سنامان ، وهو أعظم من البخت، لا يستعمل ، ولا يملكه إلا الملوك[6] . والبخاتي والجمّازات السريعة

---

(١) كتاب طب الفقراء للرازي ، مخطوط ميونخ رقم ٨٠٧ ص ٦٨ ا ــ ب (على ان الرازي يذكر لبن الحليب ولحم الفراريج ويدخل حليب البقر في الأغذية ــ المترجم) .

(٢) ابن رسته ص ١١٢ .

(٣) نقلا من Glasser في كتاب Jacob, Altarab. Beduinenleben, S. 94.

(٤) المغرب للبكري طبعة سلين ص ٥ .

(٥) الأصطخري ص ٢٨٠ .

(٦) المقدسي ص ٤٨٢ . وانظر كلمة فالج عند الجوهري .

الجري تتولّد من المزاوجة بين هذه الفوالج البلخية وبين النوق العربية؛ ولكن هذه البخاتي والجمازات لا تتزاوج بل تظل عقيمة[1] .

وكانت الخيل تُربَّى في بلاد كثيرة، وكان لكل من العرب والفرس في أمر الخيل تقاليد خاصة وضرب خاص في حفظ أنساب الخيل . وكانت الخيل الأصيلة الكريمة تجلب إلى بغداد من جزيرة العرب ، أما الخيل العادية فكانت تأتي من الموصل[2] . وتجارة الخيل ، التي لها شأن عظيم في أيامنا بين الهند وجزيرة العرب ،أول من ذكرها ــ فيما أعلم ــ الرحالة ماركوپولو ، وكانت بحق أهم علاقة تجارية بين البلدين ، وهو يذكر أن الحصان كان يشترى بمائة مارك فضة . وكان يُجلب إلى الهند من الخيل في كل عام خمسة آلاف ، لا يبقى منها بعد الحول إلا ثلاثمائة أحياء ، وهو يعلل ذلك بأن هواء بلاد الهند لا يلائم الخيل ، ولذلك فإنها لا تربى هناك ، وتصعب المحافظة عليها من الهلاك ، وهم يطعمونها الأرز مع اللحم المطبوخ ، وإذا وقع حصان جميل على فرس كبير ببلاد الهند لم يلد إلا فلواً قبيح الصورة معوج الأرجل لا يصلح للركوب[3] .

وفي بعض جهات شمال إفريقية ،وهي سجلماسة وقفصة وقسطيلية، كان الناس لا يزالون يحتفظون بعادة قديمة جداً ، وهي أنهم يسمنون الكلاب ويأكلونها[4] .

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٠٤ . وفيما يتعلق بما كانت تقطعه الجمازات وتقوم به انظر الفصل الخاص بالمواصلات .

(٢) المقدسي ص ١٤٥ .

(٣) Marco Polo, p. 91, 454.

(٤) البكري (المغرب) ص ١٤٨ ؛ وانظر Marquart, Die Beninsammlung S. CLXVII ، وهو يقول إن اسم جزر قناريا مشتق من ذلك .

وكانت مصر مــن قديم مشهورة بتربية الفراخ تربية صناعيــة ، وخصوصاً بطريقة الترقيد الصناعي التي برعوا فيها ، ويظهر أن هــذه الطريقة لم تنتقل إلى غير مصر من البلاد،حتى نجد عبداللطيف البغدادي يصفها عام ١٢٠٠ م ، بأنها من الأشياء التي اختصت بها مصر[١] .

وكان الحمام يحفظ في أبراج تبنى له وقايةً من الأفاعي وغيرها من الحيوانات الضارة[٢] وكان لا يؤكل ، وذلك لأن زبله كان له قيمة كبيرة في التسميد . أما فيما يتعلق بتربية الأسماك فليس عنــدي إلا ملاحظة واحدة ، وهي أنه كان ببحيرة طبرية أنواع من السمك ، منه البنّي الذي حُمل إليها من واسط[٣] .

*

(١) رحلة عبد اللطيف البغدادي ، ترجمة دي ساسي ص ١٣٥ وما بعدها ، وفي هامش رقم ٣ جمع دي ساسي النصوص القديمة .

(٢) Geoponica, 13, 6.

(٣) المقدسي ص ١٦٢ .

الفصل الخامس والعشرون

الصناعات

كان اللباس عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التي يحتاج إليها جسم الإنسان ، وهي : الطعام واللباس والمسكن ؛ وكانت صناعة الملابس أرقى الصناعات ، وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستور ملوّنة تعلّق على حيطانها . وكان أهم ما يعتبر ترفاً هو أن يكون الإنسان حسن اللباس عندهم ؛ وكان جمال المسكن يتلخص في أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستور الجميلة ، وأن تكون أرضه مفروشة بالبُسُط . ويحكى عن الطوسي الزاهد (المتوفى عام ٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م) أنه لم يكن له فِراش[١] ؛ وإنما ذكر ذلك ليكون دليلا خاصاً على زهده . ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة في جميع البلاد .

وكانت النماذج الصناعية لكل بلد أشبه بجزء من اللباس القومي الذي تختص به . وكان السائر في أنحاء المملكة الإسلامية يستطيع أن يعرف في أي بلد هو ، وذلك بالنظر إلى ما على حيطان الغرف من أنواع الستور ، وكانت السجاجيد في ذلك العصر ثلاثة أقسام : أولها الستور المعلقة على الحيطان ؛ وثانيها البسط والأنخاخ التي تفرش بها أرض الغرف والصحون والممرات ، وثالثها الأنماط ، وهي تفرش على الأرض للنظر دون الدوس[٢] . ويضاف إلى ذلك أنواع أخرى صغيرة ، منها

---

(١) تاريخ الشافعية : Wüstenfeld, AGGW 37, Nr. 129 .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢ .

سجاجيد الصلاة والأغطية والمخادّ والنمارق والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائد[1] .

وبالرغم من أن القطن كان يزرع بمصر العليا منذ زمان طويل[2] ، فإنه لم يذكر بين حاصلات مصر في القرن الرابع الهجري ، ويظهر أنه لم يكن له شأن في هذه البلاد التي تنبت اليوم أحسن أنواع القطن[3] .

وكان الكتان هو القماش الذي اختصت به مصر ؛ وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته وكان يصدر إلى النواحي ، حتى ربما بلغ فارس[4] . وكانت الأجساد المحنّطة تلفّ دائما بقماش الكتان .

وكانت صناعة النسيج من الرقيّ ، بحيث أمكن صنع بعض الأقمشة الصوفية أيضاً[5] ؛ فكانت تُصنع بمدينة طحا ، إحدى قرى الصعيد ، ثياب الصوف الرفيعة[6] .

وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما الفيوم ، وبحيرة تنّيس بنواحيها وهي : مدينة تنّيس ودمياط وشطا ودبيق ؛ وكانت هذه المدينة الأخيرة في أول الأمر أكبر المدن التي تصنع النسيج ، لأنه كان ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالديبقي . أما في القرن الرابع فقد أصبحت تنّيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج .

---

(١) حكاية ابي القاسم صفحة ٣٦ .

(٢) Plinius, Hist. nat. 19, 14 .

(٣) وحتى اواخر القرن الثامن عشر كانت مصر تصدر الكتان إلى الشام وتستورد منها القطن . (Brown, Travels in Africa, London, 1799 p. 354) .

(٤) المقدسي ص ٢٠٣ ؛ وفي عام ٢٧٣ هـ ارتفع سعر القمح بمصر ، حتى مات الناس من الجوع والجهد ، وكانوا يأكلون بذور الكتان (يحيى بن سعيد ص ٧٨ ا) .

(٥) المقدسي ص ٢٠٢ .

(٦) نفس المصدر ص ٢٠٢ .

وكان القماش الذي يُصنع بمصر هو قماش الكتان الأبيض الذي لا تلوين فيه ، حتى كان يقال في العصر الأموي إن الأقمشة المصرية كالغشاء على البيض ، أما اليمنية فهي كأزهار الربيع[1] . وكان من ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه — إذا عمل لها ثياباً يقال لها الشرب — كل زنة درهم بدرهم فضة[2] .

وكان القماش المسمى بالدبيقي الثقيل جيد النسيج ، إذا انشق كان له صوت عالٍ ، شبّه بعض المجان به الضراط العالي[3] ، وكان هذا القماش يستعمل في رسم الخرائط عليه بالأصباغ المشمّعة[4] . وربما بلغ ثمن الثوب من هذا الدبيقي مائة دينار ، فإذا كان به ذهب بلغ المائتين[5] .

وكان الثوب الفخم الذي نبغ في صناعته أهل تنيس يسمى البدنة ، وكان يصنع للخليفة ولا يدخل فيه من الغزل — سدى ولحمة — غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمته ألف دينار[6] .

وكان يصنع بالفيوم الستور الثمينة ، يبلغ طول الستر ثلاثين ذراعاً أو أكثر أو أقل ، وقيمة الزوج منها ثلاثمائة دينار[7] .

ولم يكن يستحسن للظرفاء من الرجال في القرن الرابع الهجري

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٤٦ (؟) .
(٢) الخطط ج ١ ص ١٦٣ .
(٣) حكاية أبي القاسم ص ٩٣ ، ١٠٩ .
(٤) الفهرست ص ٢٨٥ .
(٥) ابن حوقل ص ١٠١ .
(٦) الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٧٧ ، وابن دقماق ج ٢ ص ٧٦ .
(٧) ابن حوقل ص ١٠٥ .

لبس الثياب الشنعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران ، وكان أول ما يحسن لهم اتخاذه من اللباس الكتان الناعم النقي اللون،مثل الدبيقي[1].

وحتى عام ٣٦٠ هـ ـ ٩٧١ م كانت تنيس تصدر للعراق وحدها من الأقمشة ما تبلغ قيمته من عشرين ألف إلى ثلاثين[2] ، ولكن لما انتقلت مصر إلى أيدي الفاطميين منعوا الإصدار[3] ، ولذلك شاعت بمصر العمائم الدبيقية الطويلة التي يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع ، وظلت منذ عام ٣٦٥ إلى ٣٨٥ هـ (٩٧٦ ـ ٩٩٥ م[4]) .

وكان يوجد إلى جانب هذه الثياب الجيدة ثياب" رقيقة « مهلهلة النسج ، كأنها المنخل[5] وهي المسماة بالقصب » ، وكان هذا القصب يلوّن ، وكان الملوّن منه يُنسج بتنيس ، ولم يُنسج في أي مكان آخر قصب" ملوّن مثله ، وكان يُعمل منه عمائم للرجال ، ورقايات وملابس للنساء ، أما الأبيض فكان يُنسج بدمياط[6] .

وفي القرن الخامس الهجري ظهر نوع" جديد من القماش وهو

---

(١) الموشي للوشاء طبعة برونو ص ١٢٤ ؛ وكتاب المرواة للثعالبي مخطوط برلين رقم Pet. 59 ص ١٢٩ ب ؛ وحكاية أبي القاسم ص ٣٥ .

(٢) الخطط ج ١ ص ١٣٧ .

(٣) ابن دقماق ج ٢ ص ٧٩ .

(٤) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٢٩ (؟) . وذكر ياقوت (معجم البلدان) في العصر المتأخر بلداً بالعراق تسمى دبقية لم أر لها قط ذكراً في القرن الرابع ، وهذا لا يدل على انتقال صناعة الكتان المصرية إلى هناك ، فربما يكون هذا الموضع سمي بذلك نسبة للقماش الدبيقي المشهور ، كما سمي موضع قرب بغداد باسم سوسنجرد (انظر Carabacek, Die persische Nadlmalerei, S. 117.

(٥) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٩٠ .

(٦) رحلة ناصر خسرو ص ٥١ من النص الفارسي ؛ وحكاية أبي القاسم ص ٥٣ — ٥٤ مثلا .

المسمى أبا قلمون ، وهو قماش يظهر للرائي في ألوان متقلبة ، وكان يصنع في مدينة تنّيس وحدها[1] .

وكانت صناعة النسيج في الدلتا المصرية صناعة منزلية ، فكان النساء يغزلن الكتان ، والرجال ينسجونه ، وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم ، ولم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا إلا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة ، وكانت أجرة النسّاج في أوائل القرن الثالث الهجري نصف درهم كل يوم ، « وكان ذلك لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله » : ويشبه هذا ما قاله أهل تنيس شاكين للبطريرك ديونيسيوس التلمخري[2] ، لما مر ببلدهم في ذلك العصر وكان ثمن قطعة القماش يرتفع ارتفاعاً باهظاً بسبب المكوس والضرائب المتنوعة[3] .

وكان للمشرق أيضاً مراكزه الخاصة لنسيج الكتان ، وذلك بفارس ، وكانت أكبر مدينة بفارس لصنع ثياب الكتان مدينة كازرون ، حتى كانت تسمى « دمياط الأعاجم[4] » وكانت أنواع الأقمشة بفارس هي الأنواع المصرية من الدبيقي والشرب والقصب ، مما يدل على صلة بين الصناعتين بمصر وفارس . ويقول المقدسي (ص ٤٤٢) إنه تصنع بمدينة سينيز (إحدى المدن الساحلية بفارس) ثياب تشاكل القصب ، وإنه ربما حمل إليهم الكتان من مصر ؛ أما في عصر المقدسي فهو يقول إن أكثر ما يعمل بسينيز من الذي يزرع عندهم ، وفي كلام المقدسي هذا

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٣٧ من ترجمة شيفر ؛ وحكاية أبي القاسم ص ١٣٦ . على أن مؤلفي القرن الرابع لم يصفوا أبا قلمون هذا ، فهو عند المقدسي (ص ٢٤٠ — ٢٥١) من عجائب المغرب ، ويصفه بأنه دابة تحتك بحجارة على شط البحر ؛ وهو في لين الخز ، لونه لون الذهب ، وهو عزيز الوجود يجمع وتنسج منه ثياب تتلون في اليوم ألواناً ، وربما بلغ الثوب منه عشرة آلاف دينار ، وفي القرن الخامس الهجري وجدت مرتبة قلموني في خزائن الفرش والأمتعة التي للفاطميين (الخطط جزء ١ ص ٤١٦) .

(٢) Michael Syrus, ed. Chabat, 516.

(٣) انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية .

(٤) المقدسي ص ٤٣٣ — ٤٣٤ .

دليل" على أن صناعة نسج الكتان نقلت إلى فارس من مصر ، وكان الكتان ينقل بطريق البحرِ ، وكان في أول الأمر يصنع بالمدن الساحلية مثل سينيز وجنابة وتوُز ، ولم تنتقل صناعته إلى داخل بلاد فارس إلا فيما بعد ، عندما استقلت بلاد فارس بكتانها عن مصر ، ويسمى أحسن الكتان الفارسي بالتوّزي ، نسبةً إلى توّز ، وإن كان أكثره يُعمل بكازرون[1] .

وهاك ما ذكره ابن البلخي في وصفه لمملكة فارس حوالي عام ٥٠٠ هـ ــ ١١٠٦ م عن كيفية صناعة الثياب التوّزية بمدينة كازرون : يُبَلّ الكتان في البرك ، ثم يتفصل بعضه عن بعض ، ويغزل ؛ ثم تُغسل خيوطه في ماء نهر الرهبان ، وماء هذا النهر ، وإن كان قليلا شحيحاً ، فإن له خاصية تبييض خيوط الكتان ، مع أنها لا تبيض في غيره من الماء ؛ وهذا النهر ملك لخزانة السلطان ، ودخله يرد إلى بيت الأمير ؛ ولذلك لا يُصرح بالغسل فيه إلا للنساجين المكلفين بذلك ، ويتولى الإشراف عليه ناظره ، وثَمَّ سماسرة يعيّنون الثمن المعادل للأقمشة ، ويختمون اللفائف المخزونة ، قبل تسليمها للتجار الأجانب ؛ وكان هؤلاء يثقون بالسماسرة ، ويشترون اللفائف من غير أن يفكوا حبالها ، بل يأخذونها كما هي ؛ وكانت إذا وصلت اللفائفُ إلى أي بلد اشتراها التجار من غير أن يفتحوها ، واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السمسار بكازرون ؛ فكثيراً ما كان يحدث أن ينتقل الحمل من لفائف كازرون ، حتى تتداوله عَشْر أيدٍ ، من غير أن يُفك وثاقه ؛ ولكن في هذه الأيام الأخيرة ظهر الغش ، وصار الناس خوَنة ، وانعدمت الثقة كلها ؛ وكثيراً ما وُجدت البضائع المختومة بختم السلطان من نوع رديء ،

(١) المقدسي ص ٤٣٥ .

ولذلك انصرف التجار عن بضائع كازرون[1] .

وإذا صرفنا النظر عما تقدم وجدنا أن مركز القطن في المشرق من مملكة الإسلام كمركز الكتان في مغربها[2] ، بل كان القصب الذي يصنع بمدينة كازرون يعمل من القطن في كثير من الأحيان ، وقد حمل القطن من الهند إلى الشمال مباشرة قبل أن ينقل غربا أو شرقاً بزمن طويل ، ولم يكن القطن معروفاً في الصين في القرن الثالث عشر الميلادي، وقد ذكر الرحالة الصيني تشانشنج Chanchung حوالي عام ١٢٢١ م في وصفه لوادي إيلي وهو يقول : « وهناك نوع من القماش يسمى لولوما ، يقول الناس إنه يصنع من صوف نبات ، وهذا الصوف يشبه زهر الكاتكن الذي نراه في مراعينا ، وهو نقي ناعم لين ، ومنه يصنعون الخيوط والحبال والقماش والأغطية[3] » .

وفي القرن الرابع الهجري كان يصدر من مدينة كابل ثياب من قطن مشهورة بحسنها ، يعمل منها ما يسمى السبنيَّات التي كانت تحمل إلى الصين وخراسان[4] .

ولم يكن القطن يزرع بالعراق ، وإنما نقل إليها من شمال فارس ومما بين النهرين[5] ، ولا تزال بلاد ما وراء النهر تنتج من القطن ما تبلغ قيمته أربعمائة مليون مارك ــ وقد نشره فيما بين النهرين أمراء الحمدانيين ، على الرغم مما عرف عنهم من الجور على الزراع وعدم

---

(١) JRAS, 1902, S. 337 .

(٢) يقول الثعالبي : وقد علم الناس أن القطن لخراسان وأن الكتان لمصر (لطائف المعارف ص ٩٧) .

(٣) Bretschneider, Mediaeval researches, I, S. 70, 31 .

(٤) ابن حوقل ص ٣٢٨ .

(٥) W. Busse, Bewässerungowirt. in Turan. S. 72 .

الاكتراث بالأشجار[1] . وكذلك انتشر القطن في القرن الرابع بشمال إفريقية[2] ، والأندلس[3] .

أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع في شرق فارس ، وهي مرو ونيسابور وبَم (بشرقي كرمان) ؛ وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة ، وكان من طرائف ما يعمل فيها الطيالسة المقوَّرة التي تنسج برفارف ، يبلغ الطيلسان منها والشرب الرفيع ثلاثين ديناراً ، وكانت تُحمل إلى أقطار الأرض ، وتباع بخراسان والعراق ومصر[4] . وكان يُصنع في مرو القطن الذي يبلغ الغاية في اللين[5] ، وهو لا يمكن أن يُلبس لثقله وغلظه ، ولذلك يسميه المتنبي لبـاس القرود[6] . ويقول أبو القاسم لقوم يستقبحهم : « على أبدانكم ثيابٌ بفت ، خشن ، مرويّ ، غليظ ، من غزل البيت ، طاقة وضرطة ؛ وغزول مطابقة ، منها قمصانكم ومنها عمائمكم »[7] . ولكنه كانت تتخذ منه العمائم[8] . وكان يُحمل من الإقليم الذي يزرع فيه القطن بالتركستان الثيابُ القطنية[9] ، على حين أن الكتان كان من أندر الأشياء ببلاد ما وراء النهر ؛ ويحكى عـن إسماعيل الساماني أنه أهـدى لكل قائد في

---

(1) انظر الفصل الخاص بالمالية .

(2) البكري طبعة سلين ص ٥٩ ، ٦٩ .

(3) Moro Rasis, S. 56 .

(4) ابن حوقل ص ٢٢٣ .

(5) المقدسي ص ٣٢٣ ، ابن حوقل ص ٣١٦ ، وابن الفقيه ص ٣٢٠ ، ولطائف المعارف ص ١١٩ .

(6) ديوان المتنبي طبعة بيروت ص ١٧ .

(7) حكاية أبي القاسم ص ٣٧ .

(8) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٢ .

(9) ابن حوقل ص ٣٦٢ .

جيشه ثوباً من الكتان كهدية قيّمة[1] .

أما صناعة الحرير فقد كانت ، على عكس صناعة القطن ، منتشرة من بوزنطة في الغرب إلى المشرق . ويقول المسعودي إنه منذ أن غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم ، ونقل من أهلها خلقاً كثيراً أسكنهم مدناً من فارس ، صار الديباجُ يُعمل بتستر والخز بالسوس حتى عصر المسعودي[2] . وكان استيراد الديباج والبزيون والثياب والأكسية الرومية لا يزال مستمراً في القرن الرابع ، وكان ذلك أهم ما يمر بمدينة أطرابزنده[3] ؛ وكانت دبابيج الروم مشهورة معروفة بجودتها في القرن الرابع[4] . وكانت أكبر مصانع نسج الحرير في ذلك العصر توجد بإقليم خوزستان ، حيث نقل الساسانيون هذه الصناعة من بلاد الروم ؛ وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز وستور تصنع هناك . أما صناعة الأبريسم فكانت متركزة في الشمال على طريق الصين القديم ، فكانت تصنع بمدينة مرو بإقليم طبرستان (الأراضي الجبلية الواقعة جنوب بحر الخزر) ثياب الأبريسم التي كانت تصدر إلى جميع الآفاق[5] ، وكان أهل أرمينية يصنعون من هذا الأبريسم التكك الأرمينية المشهورة ، التي كانت تباع الواحدة منها بدينار إلى عشرة دنانير[6] ؛ والثياب الحرير الثقيلة التي كانت تصدرها

---

(١) Vàmbéry, Geschichte Bocharas, S. 63.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(٣) ابن حوقل ص ٢٤٦ .

(٤) لطائف المعارف للثعالبي ص ١٣١ ، بل كان الديباج يجلب إلى بلاد المسلمين من فرنسا (ابن الفقيه ص ٢٧٠) .

(٥) الأصطخري ص ٢١٢ ، وابن حوقل ص ٢٧٢ .

(٦) ابن حوقل ص ٢٤٦ ، وهذه الصناعة هي أغلى الصناعات ببغداد اليوم ، وكان المعروف أن أصل القز بجرجان وطبرستان جاء من مرو (ابن حوقل ص ٣١٦) ؛ وفي القرن الرابع كان بزر الأبريسم يؤخذ كل سنة من جرجان إلى طبرستان (ابن حوقل ص ٢٧٣) .

طبرستان تدل على صلة قريبة بين صناعة الحرير بطبرستان وصناعته بالصين ، لأنها ثقيلة ؛ أما الصناع الفرس فكانوا يؤثرون الأقمشة الرفيعة الدقيقة .

أما الفُرُش الصوفية فكان الناس يميزون فيها بنوع خاص بين الفارسية والأرمينية والبخارية ؛ وكانت البسط الفارسية الحقيقية (المسماة بالبسط السنيّة) تعمل بفارس ، وكان أحسنها ما يصنع على طريقة أهل سوسنجرد[1] ؛ وكان الناس في القرن الرابع يقدمون البسط الأرمينية على ما عداها من البسط[2] ، وعن هذه البسط أخذت صناعة البسط الأزميرية المشهورة عندنا ، وقد وُصف أحد الخلفاء ، حتى في العصر الأموي ، وهو الوليد بن يزيد ، بأنه كان جالساً في بيت منجّد بالأرمنيّ أرضه وحيطانه[3] . وكانت الخيزران ، أم الهادي والرشيد ، تجلس في دارها على بساط أرمنيّ ، وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات هاشم على نمارق أرمينية[4] . ولما مات الحسين ابن أحمد المعروف بابن الجصاص ، وكان صاحب مال وجوهر وأثاث ، وكان أوسع أهل بغداد ثروة ، حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ، كان من أهم ما ذُكر في جملة ما احتوت عليه داره الفرش الأرمينية[5] . وذكرت الفرش الأرمينية أيضاً من جملة ما كان في خزائن أم المقتدر[6] ؛ ويحكى أن بعض عمال الخليفة أهدى إليه سبعة بسط أرمينية في جملة ما أهداه إليه[7] .

---

(١) Karabacek, Die persische Nadelmalerei Sûsangird, Leipzig, 1881.

(٢) لطائف المعارف للثعالبي ص ١١١ ، ٢٣٢ ، وحكاية أبي القاسم ص ٣٦ .

(٣) الأغاني ج ٥ ص ١٧٣ .

(٤) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٥) عريب ص ٤٨ .

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٣٨٩ .

(٧) Elias Nisib. S. 202.

وكان يفضَّل من البسط الفارسية ما هو أشبه بالأرميني في صناعته[1] ، وكانت توصف البسط الفارسية التي تعمل بأصفهان والتي كان حسنها مشهوراً في الآفاق بأنها، إن استعملت مع الأرميني الفاخر من الفرش حَسُنت معه . وإن بُسطت وحدها اجتُزِيء بها[2] . وقد قال ماركوبولو (جـ ١ ص ٣) إن الفرش الأرمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة ، وربما كان سبب ذلك التقدير للبسط الأرمينية جودة الصوف الأرميني الذي يعتبره الثعالبي أجود الصوف بعد صوف مصر[3] . وكان أحسنه الصوف الأرميني الأحمر ، ويقول المسعودي حوالي عام ٣٣٢ هـ ـ ٩٤٣ م إن الأحمر استعماله في حالة الزينة والطرب وأوقات السرور واستعمال النساء والصبيان ، وإن حِسَّ البصر مشاكلٌ للون الحمرة ، إذ كان من شأنه أنه اذا أدركها انبسط نور البصر في إدراكها ، ولكنه إذا وقع على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه انبساطه في إدراك الحمرة ، وذلك للنسبة الواقعة بين نور البصر وبين لون الحمرة[4] .

وكان أهم ما ذُكر ضمن خزائن الفرش والأمتعة بالقاهرة ، في بعض العصور ، الحمراءُ المذهبة[5] ؛ وقيل في الفرش القرمزية التي كانت تعمل بمدينة أسيوط بصعيد مصر أنها تشبه الأرميني[6] :

---

(١) الأصطخري ص ١٥٣ .

(٢) ابن رسته ص ١٥٣ .

(٣) لطائف المعارف ص ١٢٨ ، ويلي ذلك صوف تكريت ثم صوف فارس ، ويرجع أصل هذا النص الذي ذكره الثعالبي إلى كتاب التجارة للجاحظ (انظر مجلة ZDMG, VIII, 529)

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٠٢ .

(٥) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤١٦ ـ ٤١٧ .

(٦) جغرافية اليعقوبي ص ٣٣١ .

أما الفرش المسماة بالطنافس فهي تدل من اسمها على أثر الفن الرومي (كلمة tapetes الرومية تقابل كلمة طنافس العربية) ؛ ولا بد أنها كانت في أول الأمر تصنع بالعراق في مدينة الحيرة ، وهي مدينة نصرانية قريبة من حدود الروم ؛ وذلك لأن الطنافس التي كانت تصنع فيما بعد في مدينة النعمانية كانت تسمى الطنافس الحيرية[1] ، وهذه النسبة لا تخلو من دلالة ؛ وكانت الصور التي ترسم عليها هي هي دائما : الزخارف والخيل والجمال والسباع والطيور[2] .

وكانت الحصر تصنع في جميع أنحاء المملكة الإسلامية من الحلفاء ؛ وكان أشهرها ما يصنع بعَبَّادان ، وهي مدينة في جزيرة على نهر شط العرب ، ليس وراءها إلا البحر[3] . وكانت حصرها تُقلّد في مصر وفارس[4] . وكانت البلاد المشهورة تنقش على ما يصنع فيها عبارة : عمل مدينة كذا أو كذا ، ليكون ذلك دليلا على أصلها . وهذا لم يمنع الغش بالطبع ؛ فمثلا كانت بعض المدن التي لا شهرة لها تعمل ستوراً تشبه الستور التي كانت تصنع بمدينة بِصِنِّي وتكتب عليها اسم بِصِنِّي ، لتدلّسها في الستور الجيدة ، كما كانت بعض الثياب تُعمل في بعض البلاد ويكتب عليها اسم بغداد على سبيل التدليس[5] .

وقد ازدهرت بإقليم سابور من أعمال فارس صناعة خاصة تشبه الصناعة التي اختصت بها الرفييرا الفرنسية ، وهي صناعة الروائح العطرية ، وكانت الزيوت العطرية في ذلك العصر تتخذ من البنفسج

---

(١) ابن رسته ص ١٨٦ .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢ ، والمقريزي ج ١ ص ٤١٧ ، وانظر — v. Kremer, Kulturgeschichte, II. 289 .

(٣) المقدسي ص ١١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٠٣ ، ٤٤٢ .

(٥) الاصطخري ص ٩٣ .

والنيلوفر والنرجس والكارده والسوسن والزنبق والمرسين والمرزنجوش والبادرنك والنارنج[1] •

وقد حاول البعض أن يقوم بهـذه الصناعة الغاليـة في العراق ، فاستحدثت الكوفةُ دهانَ الخيري ، وكانت في الخيري والبنفسج تفوق سابور[2] •

وكانت بمدينة جور (تقع جنوب فارس) صناعة تشبه الصناعة المتقدمة ، ولكنها تنفصل عنها تمام الانفصال ، فكان يحضَّر ماء الورد بمدينة جور ، وذلك من زهور غير الزهور الأولى ، مثل الورد والطلع والقيسوم والزعفران والخِلاف ، وكان ينقل ماء الورد من جور إلى سائر البلدان ، فيحمل إلى المغرب والأندلس ومصر واليمن وبلاد الهند والصين[3] • وهاتان الصناعتان الهامتّان لم يحدثنا الأقدمون بشيء عن أصلهما ، لا بد أنهما نشأتا في العصر الإسلامي •

وقد أصبحنا في القرن الرابع الهجري لا نسمع شيئاً عن الطاحونة التي تدار باليد وتحدث جعجعة ، لا عند أهل المدن ولا عند أهل القرى، بل كان على الأنهار أرحاء في سفن[4] ، وكان على النهيرات الصغيرة أرحاء مائية تدور[5] ، وكان على نهر الشيطان وحده ــ وهو بجيروفت في كرمان ــ خمسون رحى[6] •

وقد عالج أهل البصرة مشكلة من أحـدث مشكلات استخدام حركة الماء ، وذلك أنه كان عندهم الجزر والمد ، وكان الماء يزورهم كل

---

(١) المقدسي ص ٤٤٣ •
(٢) الأصطخري ص ١٥٣ ، وابن حوقل ص ٢١٣ •
(٣) ابن حوقل ص ٢١٣ •
(٤) المقدسي ص ٤٠٨ مثلا ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٧١ •
(٥) المقدسي ص ٤٠١ ، ٤٦٦ •
(٦) ابن حوقل ص ٢٢٢ •

يوم وليلة مرتين ، ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار ، وفي أثنـاء الجزر ينحسر راجعاً ؛ فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار ليديرها الماء في أثناء حركته خارجا وداخلا[1] ، ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا في الجهات التي ليس بها أنهار[2] .

وكان أهل مدينة إيجلي بمراكش يتهيّبون من تسخير الماء تورّعاً « فكان بغربي مدينتهم نهر كبير عليه بساتين كثيرة ، ولم يتخذوا قط عليه رحى ، فإذا سئلوا عن المانع لهم من ذلك قالوا : كيف يسخَّر مثلُ هذا الماء العذب في إدارة الأرحاء »[3] .

وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة ، لا على الفرات، وذلك في تكريت والحديثة وعكبرا والبردان وبغداد،وكان بعض الأرحاء المشهورة بالموصل وبمدينة بلد أيضاً ، وكانت طواحين مدينة بلد هذه « تقع فوق الموصل على نهر دجلة » ، لها فصل تدور فيه ، وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن إلى العراق .

وقد انتهى إلينا وصفُ مطاحن الموصل ، فكانت تسمى الواحدة منها عربة ، وهي مصنوعة من الخشب والحديد الذي لا يمازجه شيء من الحجر والجص ، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد ، كل عربة فيها

---

(١) المقدسي ص ١٢٥ .

(٢) الأصطخري ص ٢٧٣ بخراسان ؛ ويظهر أن إدارة الطواحين على الدواب لم تكن عادة أهل فارس ، لكثرة انهارها ؛ ويذكر عن أهل مدينة خلار ، التي كانت تمد فارس كلها بحجارة الطواحين ، انهم يطحنون غلالهم في القرية المجاورة لهم ، لانه لم يكن في بلدهم رحى مائية (ابن البلخي في J R A S, 1902, S. 335) .

(٣) البكري طبعة سلين ص ١٦٢ .

حجران ، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم[1] • وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها رحى البطريق ، فقد كانت مائة حجر تغلّ في كل سنة مائة ألف ألف درهم[2] • ولم يحدثنا أحد من المؤلفين عن أرحاء نشر الخشب •

يُحكى عن أبي لؤلؤة فيروز ، قاتل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وكان فارسيا من نهاوند ، أنه قال : لو شئتُ أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت[3] • وكانت الرياح تشتد بإقليم سجستان وكرمان ، ويدوم هبوبها دواماً غير مألوف ، (وكانت تسمى باد صدوبيست روز ، لأنها تهب مائة وعشرين يوماً) ؛ وكان أهل هذه البلاد ينتفعون بهذه الرياح ، فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها[4] ، ولا تزال هذه الطواحين إلى اليوم ، فيقول الرحالة سفين هيدن : « يبدأ هبوب الرياح الشمالية حوالي منتصف يونية ، ويستمر شهرين ؛ وتنصب الطواحين لأجلها خاصة ؛ وللرحى ثمانية أجنحة ، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم ؛ والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً ، طرفه الأسفل يحرك حجراً ، فيدور هذا الحجر على حجر آخر »[5] • فهذه الرحى طاحونة هوائية على الحقيقة •

وقد حكى الغزولي المتوفى (عام ٨١٥ هـ ـ ١٤١٢ م) في أمر هذه الطواحين ما يبين أن من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تُغلق وتُفتح فيها ، كما نفعل نحن اليوم بالعجلات المائية ، وهو يقول :

(١) ابن حوقل ص ١٤٧ ـ ١٤٨ •

(٢) جغرافية اليعقوبي ص ٢٤٣ •

(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٢٢٧ •

(٤) ابن حوقل ص ٢٩٩ ، والمقدسي ص ٣٣٣ •

(٥) Sven Hedin, Zu Land nach Indien, Bd.. II, S. 147.

« حدثني من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليبهم تدور بريح الشمال ، قد جُعلت منصوبةً تلقاءَها ، وأن هذه الريح تجري عندهم على الدوام صيفاً وشتاء ، وهي في الصيف أكثر وأدوم ؛ وربما سكنت في اليوم والليلة مرة أو مرات ، فيسكن كل رحى دولاب بذلك الإقليم ، ثم يتحرك ، فيتحرك ، وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بهـا أثنا عشر ألفاً ، وتنقطع بانقطاعها ، قال : والخصب والقحط في بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال ، ولكنه قال : ولهم في الأرحاء منافس تُغلق وتُفتح ، لثقل شدة دورانها وتكثر ، وذلك أنها إذا كانت قوية أُحرق الدقيق فخرج أسود ، وربما حمي الرحاء فانفلق ، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه »[1] .

وكذلك أحدث القرنان الثالث والرابع انقلاباً عظيمـا في صناعة الورق ، فحرَّرا مادة الكتابة من احتكار بلد من البلاد له واستئثارها به ، وصيَّراه رخيصاً جداً . وكان الناس ــ طول استعمالهم للبردي ــ يعتمدون على مصر[2] . أما في القرن الرابع فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطّلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند وبالصين[3] . ولم يتكلم اليعقوبي في أواخر القـرن الثالث الهجري إلا عـن مدينتين

---

(١) مطالع البدور للغزولي طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج ١ ص ٥٠ ؛ أما الطواحين الفارسية التي ذكرها البكري (طبعة سلين ص ٣٦) بشمال إفريقية ، وذكرها أبو صالح الأرمني في تاريخه (ص ٦٣ ا) ، فلا نجد لها ذكراً في المعاجم ، ولكنها كانت تستعمل في تقطيع قصب السكر .(Lippmann, Gesch. des Zuckers, S. 110) .

(٢) وكان يصنع من البردى القراطيس أو الطوامير ، ويكون طول الواحد ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر (حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٩٤) ، ولا أدري معنى قول عمر بن أبي ربيعة « وقرطاسة قَوْهيَّة » (ديوان عمر ، طبعة شفارتز ، قصيدة رقم ٣٢ بيت ٣ ص ٣٠) ، وربما يكون الصواب تَهويّة (يعني كلون الخمر) .

(٣) لطائف المعارف ص ١٢٦ .

اثنتين فقط تصنع بها القراطيس في مصر السفلى[1] . ويحدثنـا ابن حوقل أن بصقلية بقاعاً ، قد غلب عليها البردي ، ولكن لا يعمل منه الورق إلا للسلطان ، على قـدر كفايتـه[2] ، وأكثره يفتـل حبـالا للمراكب[3] ، كما كان الحال في العصر الهومري من قبل[4] . ويقول كراباتشك : « يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح إن صناعة تجهيز ورق البردي بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالإجمال حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، فنجد أن الورق البردي المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣ هـ ـ ٩٣٥ م انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م »[5] .

وكان أجود الورق في ذلك العصر بمملكـة الإسلام هو الكاغد الذي نقلت صناعته من الصين ، وناله على أيـدي المسلمين التغيير الهام الذي يعتبر حادثا في تاريخ العالم ، فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل في صناعته من ورق التوت ومن الغاب الهندي . وكان في القرن الثالث يصنع ببلاد مـا وراء النهر فقط[6] . أمـا في القرن الرابـع فكانت توجد مصانع الـورق بدمشق وطبرية بفلسطين[7]

(١) جغرافية اليعقوبي ص ٣٣٨ .

(٢) ابن حوقل ص ٨٦ .

(٣) Hehn, Kulturpflanzen, 8 Auf., S. 312.

(٤) Karabacek, Mitteilungen aus den Papyrus Rainer, II/III S. 98.

(٥) نفس المصدر ص ١١٤ وما يليها .

(٦) الأصطخري ص ٢٨٨ .

(٧) المقدسي ص ١٨٠ .

وبطرابلس الشام[1] . ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته دائما ؛ وقد داعب الخوارزمي أحد أصحابه ، لأنه لم يكتب إليه ، فتساءل هل سمرقند بعدت عليه ، والكاغد عزّ عليه[2] ؛ وكان صاحب خزانة كتب السلطان بهاء الدولة بشيراز يجمع إليها كل ظريف عجيب من الكاغد السمرقندي والصيني[3] .

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ١٢ ، ويذكر الادريسي في القرن السادس انه يُعمل بمدينة شاطبة بالاندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الارض ، وأنه يعم المشارق والمغارب (الادريسي طبعة دوزي ص ١٩٢) . ويقول كراباتشك (Karabacek, S. 121.) إنه أنشيء مصنع لعمل الورق السمرقندي ببغداد منذ القرن الثاني الهجري ؛ وهذا يعارض ما صرح به الاصطخري والثعالبي ، ويظهر أن الثعالبي نقل عن مصدر قديم لعله كتاب التجارة للجاحظ ؛ هذا إلى عدم ذكر خبر هذا المصنع بالمرة في كتب المؤلفين القدماء مع أن منهم من كتب عن بغداد ووصفها وصفاً دقيقاً . والمصدر الوحيد الذي اعتمد عليه كراباتشك هو ابن خلدون ، ولكنه متأخر جدا ؛ ولم يذكر صاحب الخطط وصاحب ديوان الانشاء — وهما مؤرخان متأخران ومن مؤرخي غرب الملكة المصرية — أكثر من استعمال الورق في ديوان هارون الرشيد . ويذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٢) أنه في عصره كان الكاغد يعمل بدار القز ببغداد . وقد أراد كراباتشك ، متابعا لكريمر ، أن يتخذ مما قاله صاحب الفهرست (ص ١٠) من أنه عثر على وثائق مكتوبة على ورق تهامي دليلا على وجود موضع ثالث لعمل الورق على الشاطيء الجنوبي الغربي لجزيرة العرب ؛ وهذا غير محتمل قط ، وهو يعارض ما ذكره الاصطخري . وسكوت والهمداني وجميع المؤلفين المتاخرين . على انه إذا كان الثعالبي (Z D M G. VIII, 526) يثني على قراطيس مصر بأنها احسن وأنعم وأرفق ، فليس بواضح من ترجمة فون هامر ، إن كان الثعالبي يقصد البردي أم الورق ؛ ويجوز أن الثعالبي كان يتكلم مع ذلك عن عصور أقدم ، وهذا يصبح مؤكدا ، إذا عرفنا ما حكاه ياقوت (الارشاد ج ٢ ص ٤١٢) من أن الوزير أبا الفضل بن الفرات كان يستعمل له الكاغد بسمرقند ويحمل إليه بمصر في كل سنة (وتوفي ابن الفرات هذا عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م) وأن أحد العلماء وقعت له جملة من كتب هذا الوزير ؛ فكان إذا رأى ورقة بيضاء في أحدها انتزعها حتى عمل من ذلك كتبا كتب فيها ، وهذا يدل على أن الكاغد لم يكن يعمل بمصر ؛ (على أنه يؤخذ من النص الذي ذكره الثعالبي في اللطائف أن المقصود بالمدح هو كواغيد سمرقند لا قراطيس مصر . انظر لطائف المعارف ص ١٢٦ — المترجم) .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٢٥ .

(٣) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٧ .

وكانت مدينة حرّان آخر مأوى لعبادة الكواكب ؛ وقد نشأ عن هذا المركز الديني الخاص أن كان يُصنع بهذه المدينة آلات القياس مثل الأسطرلابات وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة[1] ، وكانت صحة موازين أهل حرّان مضرب الأمثال[2] .

وكان يصنع بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر السُبَح[3] لكثرة من كان يزور الحرم الشريف ؛ ولا تزال هذه الصناعة رائجة مزدهرة إلى اليوم .

*

(١) الهمداني ص ١٣٢ .
(٢) المقدسي ص ١٤١ .
(٣) نفس المصدر ص ١٨١ .

الفصل السادس والعشرون

التجارة

لقد كان الشرق الأدنى ، في طول العصور التي نعرفها من تاريخه ، بعيداً جداً عن مبدأ تقسيم العمل ، وهو المبدأ الذي تقضي به الطبيعة ، والذي يجعل إنتاجَ الثروة من شأن الرجل والمحافظةَ عليها من شأن المرأة .

ولم يستلفت نظرَ هيرودوت اشتغالُ النساء بالتجارة إلا بمصر ، حيث كُنَّ يَقُمْنَ بالبيع والشراء[1] .

ويحكي المقدسي في كلامه عن مدينة بيار بشمال إيران أن « السوقَ في الدور ، والباعةَ نسوان[2] » .

وقد لاحظ الرحالة ماركوبولو أن نساء التتر « يعالجن كل أمور التجارة »[3] .

ونلاحظ أن الشعوب الحربية المتعاقبة كانت دائماً تنظر إلى التجارة نظرة الاحتقار .

ويحكى عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ـ وكان أدق من يمثل الروح الأولى للإسلام ـ أنه ذُكر أمامه حديثُ الاستئذان ، وكان قد نسيه ، وطلب البيِّنة عليه ، فلما جاءه به أبو سعيد الخدري قال عمر :

---

(١) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات .

(٢) المقدسي ص ٣٥٦ .

(٣) Marco Polo, I, 4.

أخفي عليَّ مـن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ألهاني الصفقُ بالأسواق ! يعني الخروج للتجارة[1] .

وكان الأمويون أيضاً لا ينظرون للتاجر بعين التقدير ، ولم يكن هذا ناشئاً عن إشفاقهم مما أشار إليه عمر ، بل لأنهم كانوا جيلا مـن المحاربين الفرسان وأمراء القطائع ، حتى لا نجد لطبقة التجار شأناً في تاريخهم .

وقد أحدث القرن الثالث في هذا الباب انقلابا كبيراً ، فلما جـاء القرن الرابع أصبح التاجر الغني هو ممثل الحضارة الإسلاميـة التي صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة في ذلك ؛ ففي أواخر القرن الثالث لم يترفع بدر بن حسنويه ــ وكان في منصب من المناصب الجليلة في الدولة ــ عـن أن يبتاع خاناً بمدينـة همدان ، ويفرده باسمه ، ويقيم فيه من يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة في أعماله ؛ وقدَّر أن ينال من وراء ذلك نحواً من ألف ألف ومائتي ألف درهم ؛ ولكن ذلك شق على أبي سعيد بن الفضل ، وكان ينظر في أعمال همدان والماهين وسهرورد من قِبَل مجد الدولة ، وتصور أنه طريق لخروج ارتفاع البلد عن يده ؛ فوضع قوماً من الديلم على أن يقصدوا الرسول الذي أرسله بدر لعقد ضمان الخان على من يرغب فيه ، ويوقعوا به ؛ فقصدوه وكبسوا داره ، وأخذوا ما كان معه من المال[2] .

وفي ذلك العصر انكمش بعض النشاط التجاري إلى الأسواق ودور الصرافين، التي كان فيها الكثير من الأساليب الخلابة والمظاهر المشوِّقة. ولما كان كلّ تاجر رجلا رحّالا فإن المعرفة بأثمان البضائع وأسعار أنواع النقود التي يجل عددها عن الحصر كانت ، على أيـدي المغامرين مـن

(1) صحيح البخاري : كتاب البيوع .
(2) كتاب الوزراء ص ٤٧٨ .

المتعاملين المهرة في جميع البلاد ، تمتزج بالخبرة الواسعة بالدنيا والمعرفة بأخلاق الناس .

وكانت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام ، وصارت هي السيدة في بلادها ، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية ، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الأقل . وكان التجار اليهود[1] الذين يأتون من مقاطعة پروفانس بفرنسا يسمون عند المسلمين في القرن الثالث الهجري باسم مجر ّد ، وهو « تجار البحر »[2] . وقد وصفهم المسلمون بأنهم يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من « فرنجة » الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور ؛ ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والجار ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك ؛ ويرجعون إلى القلزم ، ثم يتحولون إلى الفرما ، ويركبون البحر الغربي ؛ فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية ، فباعوها للروم ، وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة ، فباعوها هناك ؛ وإن شاءوا حملوا تجاراتهم في

(١) يسمون الرهدانية ويقول سيمونسن .Simonsen, Revue des études juives 1907, S. 141 f. إنها نسبة إلى نهر الرون، ولكن دي غوي لا يوافق على هذا التفسير القريب . De Goeje, Verslagen en Mededeelingen. Amsterdam, 1909, p. 253. ورأى أنه غير وجيه . وقد تكلم عن سفن اليهود في البحر الابيض في ذلك العصر (آخر القرن التاسع الميلادي) بلبولوس في حكايات شارل الاكبر ، فقال : يرى الانسان في مدينة من مدن الشاطىء بغالة النربونية سفنا يقول البعض إنها سفن يهودية ويقول البعض إنها أفريقية أو سفن لتجارة بريطانيين : Notker Balbulus. Karl. II, Kap. 14 .

(٢) ابن الفقيه ص ٢٧٠ .

البحر الغربي ، فخرجوا بأنطاكية ، وساروا براً إلى الفرات فركبوا في دجلة إلى الأبلّة إلى عمان والهند والصين ، وكانوا يتكلمون العربية والإفرنجية والفارسية والرومية ، وهم تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية[1] . وبعد ذلك لا نجد في القرن الرابع ذكراً لهؤلاء التجار الذين خلفوا التجار الشاميين الذين كانوا ، حتى العصور الوسطى ، يستوطنون حوض نهر الرون ؛ وذلك لأن ظهور شأن التجارة الإسلامية ونماءها أخرج التجار الأجانب من البحار .

وكان الأمر الثاني الكبير الذي بلغه العرب في القرن الرابع الهجري هو فتح الطريق التجاري إلى بلاد الروس في الشمال ؛ على أنه كانت ثمّ بعضُ العلاقات قبل القرن الرابع بين بلاد الروس وبين بلاد الإسلام ؛ فقد وصف لنا ابن خرداذبة مسلك تجار الروس من بلادهم إلى بلاد الإسلام بقوله : « فأما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من الصقالبة ، فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صَقَلَبة إلى البحر الرومي ، فيعشّرهم صاحب الروم ؛ وإن ساروا في تنيس ، نهر الصقالبة ، مرّوا بخليج مدينة الخزر ، فيعشّرهم صاحبها ؛ ثم يصيرون إلى بحر جرجان ، فيخرجون في أي سواحله أحبّوا ؛ وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ؛ ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدّعون أنهم نصارى ، فيؤدون الجزية »[2] .

وفي سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م حدث اتصال سياسي بين الخليفة وبين ملك أهل الفلجا[3] ؛ وفي العام التالي أسلم هذا الملك وأسلم أهل بلاده[4] . وفي ذلك العصر تولى شؤون الجزء الشمالي من مملكة

(١) ابن خرداذبة ص ١٥٣ — ١٥٤ ، وابن الفقيه ص ٢٧٠ .
(٢) ابن خرداذبة ص ١٥٤ ، وابن الفقيه ص ٢٧١ .
(٣) وذلك بإرسال ابن فضلان ، وقد وصل إلينا بعض ما حكاه .
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ .

الإسلام لأول مرة حكام" أكفاء ، وهم آل سامان ، وكان لذلك أكبر شأن في تاريخ الإسلام فإنهم حفظوا تخوم البلاد وساروا بها إلى النماء والمجد ، وضمنوا للتجار الأجانب ربحاً هادئاً ؛ ومعظم النقود العربية التي اكتشفت في شمال أوروبا ترجع إلى القرن الرابع الهجري ، وأكثر من ثلثيها من نقود السامانيين[1] . وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر إلى ما بعد الحروب الصليبية هي الطريق بين شمال أوروبا وبين الشرق[2] .

وكما أن الإسلام وجد طريقه إلى الشمال فكذلك نال في المشرق بلاداً أخرى واسعة (انظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب)؛ ففي عام ٣٣١ هـ ـ ٩٤٣ م أرسل ملك الصين يخطب ودّ نصر بن أحمد الساماني في بخارى ، ويطلب مصاهرته ؛ فرضي نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين ، فضمن ذلك أمام التجار المسلمين الطريق إلى الصين[3] وفي حوالي عام ٤٠٠ هـ ـ ١٠١٠ م أضيفت إلى مملكة الإسلام أجزاء" كبيرة من بلاد الهند ذات شأن تجاري عظيم . هذا وقد كان في بلاد الصقالبة الشمالية من جهة أخرى قلاقل شديدة في القرن الرابع ، وذلك بسبب زحف النرمانديين الذين ركبوا نهر الفلجا وساروا فيه عام ٢٧٠ هـ ـ ٨٨٣ م ، وعام ٢٩٧ هـ ـ ٩١٠ م ، وعام ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ ؛ ويقال إنهم في المرة الأخيرة كانوا خمسمائة سفينة ، على كل منها ثلاثمائة رجل ، فوصلوا بحر الخزر ، ونهبوا كل شيء ؛ وفي عام ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٩ م خربوا عاصمة الخزر[4] ؛ وربما كان هذا هو السبب في انقطاع

---

(١) Heyd, Levantehandel, I, 69.

(٢) Schlumberger, Epopée Byzantine, S. 9.

(٣) معجم البلدان لياقوت تحت كلمة صين نقلا عن أبي دلف .

(٤) ابن حوقل ص ٢٨١ . وانظر :
Dorn, Caspia, Mém. Acad. St. Petersbourg, 1875.

الزيارات الودية بين بلادهم وبلاد الإسلام ، في ذلك العصر ؛ ولكن تجار الفرس ظلوا يذهبون إلى الخزر ، كما كان الحال من قبل[١] ، وأصبح الخزر هم الوسطاء في اجتلاب البضائع من الشمال ، وكان الشيء الوحيد الذي تصدره بلاد الخزر مما تنتجه هو غراء السمك ، أما ما كانوا يصدرونه من العسل والشمع والوبر ، فكان يحمل إليهم من ناحية الروس[٢] . وكان تجار اليهود يستأثرون بأهم ما كانت تصدره أوروبا ، وهو الغلمان والجواري ، وفي عام ٣٥٦ هـ ـــ ٩٦٥ م كان يختلف إلى مدينة براج ـــ وكانت أكبر سوق للرقيق في أوربا ـــ مسلمون ويهود وترك من بلاد الترك يحملون البضائع وقطع الذهب البوزنطية ، ويعودون بالرقيق والصفيح والفراء[٣] .

وقد نشأ عن هذا التقدم التجاري ازدهارُ الجاليات الإسلامية في كثير من الأطراف التي تغلّب عليها غير المسلمين ؛ فكان يرأسهم مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم ، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادةً إلا المسلمون ، وإن قلوا ؛ وذلك مثل بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وصيمور (الهند)[٤] . وكان بالصين أيضاً جاليةٌ إسلامية[٥] ؛ بل كان في كوريا أيضاً جاليةٌ من التجار المسلمين[٦] . أما في بوزنطة فكان لا يُسمح لتجار المشرق أن يقيموا أكثر من ثلاثة أشهر[٧] ، وكانت أكبر جالية للمسلمين في الإمبراطورية الرومانية تقيم بمدينة أطرابزند[٨] .

---

(١) ابن رسته ص ١٤١ .
(٢) ابن حوقل ص ٢٨١ — ٢٨٢ .
(٣) Westberg, Ibrahim Ibn Ja'qûbs Reiseberichte, S. 53, 155.
(٤) ابن حوقل ص ٢٢٥ وما بعدها ، و Merv. de l'Inde, 142, 144, 161.
(٥) انظر الفصل الخاص بالملاحة البحرية .
(٦) ابن خرداذبة ص ٧٠ .
(٧) Vogt, Basile, I. S. 393.
(٨) المقدسي ص ١٤٨ .

وقد حكى لنا كُسْماس Cosmas ، الرحالة الهندي ، في منتصف القرن السادس الميلادي خبر مناظرات ، جرت في مجلس ملك سرنديب بين تاجر رومي وآخر فارسي ، وأراد كل منهما أن يثبت أن ملك بلاده أقوى ؛ وغلب التاجرُ الرومي صاحبَه آخر الأمر ، وذلك بأن أخرج قطعة ذهبية جميلة من العملة البوزنطية التي يُتعامل بها في جميع البلاد ، على حين أن الفارسي لم يستطع أن يخرج إلا عملة من الفضة . ومن الصحيح في هذه الحكاية أنه كان بين البوزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدةٌ خاصة بالعملة ، تقضي بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط ، ويتخذوا العملة الرومية الذهبية عملة لهم[1] ؛ ولهذا شاعت في بلاد الإسلام التي كانت تحت حكم الرومان من قبل العملةُ الذهبية ، على حين أن بلاد الفرس كانت عملتها الجارية الدراهم الفضية . وقد ذكر يحيى بن آدم (المتوفى عام ٢٠٣ هـ ــ ٨١٨ م) أن العملة في العراق هي الدرهم،وفي الشام الدينار،وفي مصر الدينار أيضاً[2]،ونلاحظ أنه في هذا العصر الذي ندون تاريخه كانت العملة الذهبية تنفذ وتنتشر شرقا ، وهذه آكد علامة من علامات وحدة التجارة الإسلامية . ففي أول القرن الثالث الهجري كانت عطايا الخليفة تحسب بالدراهم ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري دخلت العملة الذهبية بغداد ، وصار حساب الحكومة بالدنانير ؛ وقد تمت الخطوة الحاسمة بين عامي ٢٦٠ هـ ــ ٨٧٤ م و ٣٠٣ ــ ٩١٥ م ؛ ففي السنة الأولى ذُكر ارتفاع العراق بالدراهم الفضة[3] ، أما في الثانية فقد ذُكر بالذهب[4] . وقد زال مع

---

(١) Gelzer, Byzantinische Kulturgeschichte, 1909, S. 79.
وكذلك كان بين بوزنطة وبين كلودويج ملك الفرنجة معاهدة كهذه .

(٢) كتاب الخراج ، طبعة جوينبول ص ٥٢ .

(٣) قدامة بن جعفر ص ٢٣٩ .

(٤) V. Kremer, Einnahmebudget.

زوال الحساب بالدراهم الفضية حسابُ الأشياء بنوعها ؛ وهذه نقطة طريفة ، ففي عام ٢٦٠ هـ ــ ٨٧٤ م كان يُذكر في ارتفاع العراق مقدارُ الحاصلات من الحنطة والشعير مثلا وما يقابلها بالدراهم ، أما في عام ٣٠٣ هـ ــ ٩١٥ م فقد بطل ذلك ؛ ويتبين من قانون نشره رؤساء اليهود بالعراق في عام ٧٨٧ م أن كثيراً من الثروة صار يعتبر ثروة منقولة ، ويقضي هذا القانون بأن تؤخذ للوفاء بتسديد ديون المدين المتوفى الثروة المنقولة التي يتركها لا الثروة العقارية الكبيرة غير المنقولة وحدها[1] . وكانت الممتلكات الفردية مع هذا تحصى بالدراهم والدنانير ؛ فمثلا ذُكر في ترجمة ابن يحيى ثعلب النحوي اللغوي (المتوفى عام ٢٩١ هـ ــ ٩٠٤ م) أنه خلف أحداً وعشرين ألف درهم وألفي دينار ، ودكاكين بباب الشام ، قيمتها ثلاثة آلاف دينار[2] . ولكن العطايا التي كانت توهب للشعراء مثلا كانت دراهم على الطريقة القديمة[3] ؛ ولا شك أن هذا كان أقرب إلى إظهار الهبة في صورة غير تجارية .

على أنه قد انتهى إلينا شيء من شعور الناس بتقدير نوعي النقود القديم والجديد ؛ فأما البلاد الشرقية لمملكة الإسلام فقد ظلت تتعامل بالدراهم الفضية، حتى في أثناء القرن الرابع الهجري ؛ فيقول الأصطخري إن «نقود أهل بخارى الدرهم ، ولا يتعاملون بالدينار ، وهو كالعرض»، وربما كانت الدراهم نقداً جارياً في بعض المدن الكبرى[4] ، أما في فارس

---

(1) Graetz, Geschichte der Juden, V. 4 Aufl. S. 196.

(2) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ١٥٣ .

(3) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

(4) الاصطخري ص ٣١٤ ، ٣٢٣ .

فكان البيع والشراء بجميع فارس بالدراهم ، وكانت الدنانير عندهم بالعرض[1] .

وقد عُني صغار الملوك الناشئين ، الذين ضربوا العملة لأنفسهم تحت رئاسة الخليفة أو مستقلين عنه ، أن يُخرِجوا للتعامل أكبر عدد ممكن من أصناف العملة ، وكان في قوائم أسعار العملة التي بين أيدي كبار الجهابذة في ذلك العصر شيء من الطرافة ، كما نستطيع أن نستنتج ذلك من أصناف العملة التي ذكرها المقدسي[2] ، وكان الدينار في القرن الرابع الهجري يساوي نحو الأربعة عشر درهماً[3] . وكان من أثر انفصال القسم الشرقي من مملكة الإسلام عن قسمها الغربي ، وهو الذي كان وحده يتمتع بخزائن الذهب ، أن ارتفعت أسعار العملة الذهبية في المشرق ارتفاعاً هائلا في أواخر القرن الرابع . والمقريزي قد بالغ حين قال إن الناس في مصر لم يرد ذكر الدرهم على ألسنتهم لأول مرة إلا أيام الفقر في عهد صلاح الدين ، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدنانير[4] .

وفي أواسط القرن الرابع ضرب ركن الدولة بن بويه ديناراً نصفه أو أكثره من النحاس ، وكان هذا الدينار يقبل في عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م بثلث قيمة الدرهم المعتاد[5] .

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٢) انظر ايضا رسائل الهمداني طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ص ١١ .

(٣) أمدروز (هامش رقم ١ في كتاب الوزراء ص ٣٦) ؛ وفي عام ٣٣٩ هـ — ٩٤٣ م ضرب ناصر الدولة بن حمدان دينارا كاملا قيمته ثلاثة عشر درهما ، على حين أن الدينار كان يساوي من قبل عشرة دراهم JA, Sér. VII, Bd. 15, 259. . وكان الدينار أحيانا يساوي خمسة عشر درهما (عجائب الهند ص ٥٢) .

(٤) JA, Sér. VII Bd. 14, p. 524. .

(٥) Amedroz, J R A S. 1906, 475. .

وفي عام ٤٢٧ هـ ـ ١٠٣٦ م حاولت حكومة بغداد أن تقوي العملة البغدادية ، فأمر الخليفة بترك التعامل بالدنانير المصرية المغربية ، وأمر الشهود ألا يشهدوا في كتاب ابتياع ولا إجارة ولا مُداينة تذكر فيها الدنانير المغربية ؛ فعدل الناس عن هذه العملة إلى غيرها(١) . ومن جهة أخرى خفّ وزن الدراهم الفضية حتى صار الخمسة وعشرون والأربعون ، بل المائة وخمسون أحياناً بدينار(٢) .

وفي عام ٣٩٠ هـ ـ ١٠٠٠ م شَغَبَ حرسُ الديلم ، وقصدوا دار الوزير ثائرين لفساد العملة الذهبية(٣) ؛ وكان للعملة الزائفة ثمنها المحدّد جهاراً ، وإن كان زهيداً ، كما هو الحال اليوم ؛ وكانت الدراهم المزيّفة تسمى المزبّقة(٤) ، وكانت بمكة مثلا أربعة وعشرون بدرهم من الدراهم النقية ، وكانت تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلى آخر الموسم(٥) .

وكان البعض يزيّف الدراهم النقية ، كما يفعل المزيّفون في عصرنا ؛ ولكن لما كانت العملة توزن ، فلم يكونوا يَبْرُدونها ، بل يصنعون عملة يتوفّر لها الوزن الصحيح ، مستعيضين عما ينتقصونه من الذهب باستعمال الزئبق أو الأنتيمون(٦) .

وكانت الفلوس تتدرج على أساس القاعدة السداسية ؛ فكان الدرهم يساوي ستة دوانق ، وكان الدانق اثني عشر قيراطا ، والقيراط أربعة وعشرين طسوجاً ، والطسوج ثمانية وأربعين حبة ؛ وكانت العملة

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٩١ ا .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٦ هامش رقم ١ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٠٢ .

(٤) مادة زبق عند الجوهري ، وكانت الفضة التي تضرب تذاب مع الزئبق . انظر Amedroz, J R A S, 1906, p. 479.

(٥) المقدسي ص ٩٩ .

(٦) Abu Jùsuf JA, Sér. VII, Bd., 19 p. 29.

الفضية المكسّرة تستعمل في المعاملات اليسيرة رغم أن ذلك كان يلقى الاعتراض دائماً[1] .

وكانت المعاملات الضخمة تستدعي وسائل للدفع ، مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، بعيدة عن متناول اللصوص[2] . ومعظم هذه الوسائل يحمل أسماء فارسية ، فيذكر عن أحد العلماء أنه سافر إلى الأندلس ، ومعه سفتجة وخمسة آلاف درهم نقداً[3] . ويحكي ناصر خسرو ، الرحالة الفارسي ، أنه لما خرج من أسوان بمصر أخذ خطاباً من صديق له ، كتبه إلى وكيله في عيذاب بأن يعطي ناصراً كل ما يريد ويأخذ منه مستنداً ليضاف إلى حساب الصديق[4] . وكذلك أرسل الأخشيد صاحب مصر إلى نائبه ببغداد سفائج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة أيامَ أن كان مصروفا[5] . وكان من وسائل المعاملات الصك ، وهو في الأصل سند الديْن ؛ وكان الرجل إذا اشترى عقاراً كضيعة مثلا كتب صكا بشرائها[6] . ويحدثنا ابن حوقل أنه رأى بأودغشت صكا باثنين وأربعين ألف دينار كتب بدين على محمد بن أبي سعدون من أهل سجلماسة لرجل من أهلها ؛ وقد شهد عليه العدول[7] ،

---

(١) نفس المصدر ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) يجد الباحث بيانها عند R. Grasshoff, Die. Suftaga und Hawala der Araber, Jur. Dissert, Königsberg, 1899.

(٣) مصارع العشاق ص ١٠ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٦٤ من طبعة شيفر .

(٥) المغرب لابن سعيد ص ٣٢ .

(٦) صحيح البخاري طبعة ١٣٠٩ هـ ج ١ ص ١٤ ، وكتاب الاغاني ج ٥ ص ١٥ ، وديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ ، وكان الاصطلاح أن يقال صك فلان على فلان كذا — كتاب الوزراء ص ٧٧ .

(٧) ابن حوقل ص ٤٢ ، ٧٠ ؛ وكانت المسافة بين سجلماسة وأودغشت إحدى وخمسين مرحلة (المغرب للبكري ص ١٥٦ وما بعدها) .

وهذا يدل على أن الورق في ذلك العصر كان قد بلغ إلى مسافة كبيرة في وسط الصحراء الكبرى . وكان الصك بالعراق أشبه بالشيك الرسمي عندنا ، وكان للجهبذ مع وجود هذه الصكوك شأن كبير ، ويذكر لنا حتى في القرن الثالث الهجري أن أحد العمال كان يكتب الصكوك لجهبذه[1] ، ويذكر عن جحظة الشاعر (المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٦ م) أن بعض الرؤساء صكّ له صكا ، فدافعه الجهبذُ ، حتى ضجر ، فكتب لذلك الرئيس :

إذا كـانت صِلاتكمُ رقاعا ... تُخَطَّط بالأنامل والأكفّ
ولـم تكن الرِّقاع تجرّ نفعاً ... فها خطي خذوه بألف ![2]

ويُحكى عن هذا الشاعر نفسه — وكان إلى جانب الشعر مغنّياً — أن الحسن بن مخلد وهب له خمسمائة دينار ، أعطاه رقعة بها على صيرفي ، فتوجه إليه ، فأفهمه الصيرفي أن الرسم أن ينقصه في كل دينار درهما ، وخيّره بين ذلك وبين أن يركب معه ، ويقيم عنده يومه وليلته ، ليشرب ، ويسمع توقيعه ، فلما أصبح الصباح أعطاه الخمسمائة دينار ، وأهدى إليه فوقها خمسمائة درهم[3] .

ويُحكى عن جهبذ آخر أكثر حباً للفنّ أنه جاء إليه شاعر ، ليقبض مالا ، فلم ينقصه شيئاً ، بل أعطاه خمسين ديناراً من عنده ، وذلك لإعجابه بالقصيدة التي مدح الشاعرُ بها الأمير[4] .

وإذن فقد كانت المهام التي يقوم بها الجهبذ كثيرة ، فلا عجب أن

---

(١) كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي ؛ وإلى هذا يرجع أصل الحكايات المتعلقة بهارون الرشيد .

(٢) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٩٨ — ٣٩٩ .

(٤) كتاب الديارات ص ٨٨ ا .

يحدثنا ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرافين بمدينة أصفهان مائتا صراف[1] ، وكانوا جميعاً يجلسون في سوق واحد يسمى سوق الصرافين ؛ ولم يكن عن الصراف غنى في سوق البصرة حوالي عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م ؛ فقد كان العمل بهذا السوق أن كل من معه مال يعطيه للصراف ، ويأخذ منه رقاعا ، ثم يشتري ما يلزمه ، ويحوّل ثمنه على الصراف ، ولا يعطون شيئاً غير رقاع الصرّاف ، طالما كانوا بالمدينة[2] . ويظهر أن هذا هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالي في المملكة الإسلامية[3] ؛ ومما له دلالته أن يظهر ذلك في مدينة البصرة المشهورة بتجارتها والتي تقع على الحدود بين فارس والعراق ، وذلك لأن أهل البصرة واليمن وأهل فارس كانوا أحسن تجار المملكة الإسلامية ، وكان لهم جاليات في جميع البلاد التي تجلب منها التجارة ، وهم أشبه بالشوابيين (بألمانيا) والسويسريين في الوقت الحاضر .

ويقول ابن الفقيه الهمذاني في كتاب البلدان حوالي عام ٢٩٠ هـ — ٩٠٢ م : « وقالوا : أبعد الناس نجعةً في الكسب بَصْرِيٌّ وحميريٌّ ؛ ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصريا أو حميريا »[4] ، وكان أهل البصرة يَنْتَسِبون إلى قلة الحنين إلى وطنهم ؛ حتى يُحكى أنه وُجد مكتوباً على حجر هذا البيت :

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٢٥٣ من الترجمة ؛ وقد مر ناصر خسرو بأصفهان عام ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٨ من النص الفارسي .

(٣) ولكن لم يكن هناك نظام الجيرو giros كالذي بلغ منتهى كماله في مصر على عهد اليونان (انظر Preisigke, Girowesen im griechischen Aegypten, Strassburg, 1910.) ونظام الجيرو وهو نظام الحوالات .

(٤) كتاب البلدان ص ٥١ .

ما من غريب ، وإن أبدى تجلّده، إلا سيذكر ، عند العلّة ، الوطنا

وقد كُتب تحته : « إلا أهل البصرة » ؛ فكأن أهل البصرة يحملونها في رؤوسهم[1] .

وكان الفرس منذ الدهر الطويل قد استوطنوا جدّة وهي فرضة مكة[2] ؛ وكان يسكن بمدينة سجلماسة (بجنوب مراكش) كثيرٌ من أهل العراق وتجار البصرة والكوفة وبغداد[3] ؛ وكذلك كانت الموانى ذات الحركة التجارية القوية بالشام ، وهي طرابلس وصيدا وبيروت ، يسكنها قوم من الفرس ، نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان[4] .

وكانت مصرُ بلداً تجارياً[5] ، إلا أن المصري الحق ، سواء أكان مسلما أو قبطياً ، لا يمتاز، حتى في أيامنا ، بالاستعداد الخاص للتجارة ؛ وكان يعرف المصري في القرن الرابع بأنه لا يُرى مستوطناً غير مصر إلا في الندرة[6] . وفي عصرنا هذا نجد اليونان والشاميين والفرس وحتى الهنود هم الذين يقتطفون زبدة التجارة المصرية ؛ ومنذ القرن الثاني الهجري كان بقصبة مصر جالية كبيرة قوية التأثير من أهل فارس ؛ ومنهم أخذ القاضي مرة ثلاثين رجلا ، جعلهم ضمن الشهود ، وكان هذا المركز مرموقاً لا يُقبل فيه إلا من هم أهل للشهادة[7] . وكان أكبر

(١) رسائل المعري طبعة مرجليوث ص ٧٥ .

(٢) الاصطخري ص ١٩ .

(٣) ابن حوقل ص ٢٤ .

(٤) جغرافية اليعقوبي ص ٣٢٧ .

(٥) يقول المقدسي (ص ٣٥) من كان مراده التجارة فعليه بمصر أو عدن أو عمان .

(٦) لطائف المعارف ص ١٠١ .

(٧) الكندي ص ٤٠٢ .

رجال الغنى والثروة بمصر في ذلك العصر هو أبو بكر محمد بن علي المادرائي ، ولكنه لم يكن تاجراً ، وكان ارتفاع ضياعه يبلغ أربعمائة ألف دينار ، وأصله من أسرة عراقية[1] .

وكان أكبر منافس لأهل العراق وفارس هم اليهود ؛ وكانت مدينة اليهودية على مقربة من أصفهان[2] هي القسم التجاري لهذه المدينة الفارسية الكبيرة[3] ، وقد صرح بعض المؤرخين أن معظم التجار بمدينة تُسْتَر كانوا يهوداً ، وكانت تستر أكبــر مركز لصناعة البُسُط الفارسية ؛ وكان الذي يقبض على ما يُستخرج من اللؤلؤ في شواطيء جزيرة العرب رجلا من اليهود[4] ؛ وكانت بلاد كشمير مغلقة أبوابها في وجه جميع التجار الأجانب ، ولم يكن يدخلها إلا قليل منهم ، وخصوصاً من اليهود[5] . وكانت الحرفة التي اختص بها اليهود في الشرق أيضاً الاتجار بالعملة ؛ ويذكر أنه لما فرضت الحكومة على بطريرك الإسكندرية جزيةً باهظة أواخر القرن الثالث الهجري حصل على المال اللازم بأن باع إلى اليهود أملاك الكنيسة وجزءاً من الكنيسة المعلّقة[6] . وكان اليهود بين الصيارفة بقصبة مصر ، حتى إنه في عام ٣٦٢ هـ ــ ٩٧٣ م عزّر المحتسب طائفة منهم ، فشغبوا ؛ فأمر جوهر ألا يظهر يهودي

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ١٦١ ــ ١٦٣ .

(٢) المقدسي ص ٣٢٨ ؛ وباصفهان اليوم خمسة آلاف يهودي (انظر Jackson, Persia p. 205.

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٠٨ .

(٤) انظر فصل الحاصلات .

(٥) كتاب الهند للبيروني ج ١ ص ٢٠٦ من ترجمة سخاو .

(٦) بطرس بن راهب (في مجموعة Petrus Ibn Rahib. Corp. Scrip. Orient. Christianorum ص ١٣٢ ، وتاريخ الشيخ ابي صالح الأرمني ص ١٤٨) .

إلا بغيار[1] ، وفي القرن الخامس الهجري حكي لناصر خسرو أن بمصر رجلا يهوديا غنيا ، يسمّى أبا سعيد ، له مال كثير ، وأنه كان على سقف سرايه ثلاثمائة جرّة من الفضة ، في كل واحدة منها شجرة مثمرة محمّلة[2] . أما في العراق فإننا نسمع ذكر رجلين من جهابذة اليهود ، وهما يوسف بن فنجاس وهارون بن عمران ؛ ومنهما اقترض الوزير عشرة آلاف دينار في أوائل القرن الرابع الهجري[3] . ويظهر أن هذين الرجلين كان لهما شبه بنك أو شركة ؛ لأنه لما خلع الوزير علي بن الفرات عام ٣٠٦ هـ ــ ٩١٨ م وطولب بالمال أقر بأن له عندهما سبعمائة ألف دينار[4] . وكان يوسف جهبذ الأهواز ، أعني أنه كان يقدم للدولة مالا معجّلا ينتظر سداده من خراج الأهواز ؛ وكان ، إذا أحضر لتعجيل المال ، يعتذر عادة بكثرة الأموال التي يلزمه تعجيلها ، وأنه لا يتمكن من الدفع[5] . وكان هذان الجهبذان ومعهما زكريا بن يوحنا يسمّون جهابذة الحضرة ، ويخاطبون في المراسلات : إلى أبي فلان ، فلان بن فلان أبقاه الله ! وهذه هي أقل درجة في المخاطبات ، فكان يخاطب بها مثلا صغار عمال البريد[6] . ثم إن اليهود الذين كان لهم الشأن الأول في صناعة البسط بمدينة تستر ، لم يكونوا صناعاً ، بل كانوا صيارفة[7] . ويحكى عن أبي علي الإسكافي (المتوفى عام ٣٩٤ هـ)

---

(١) الاتعاظ للمقريزي ص ٨٧ .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ من النص الفارسي .

(٣) V. Kremer, Einnahmebudget, S. 343.

(٤) عريب ص ٧٤ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٨ .

(٦) نفس المصدر ص ١٥٩ ، وتذكر المصادر اليهودية يوسف بن فنجاس وختنه نتيرا من بين أكبر رجال اليهود ببغداد (انظر : Graetz, Gesch. der Juden, V. 4 Aufl. S. 277.)

(٧) مسكويه ج ٥ ص ٤٠٨ .

أنه لما تولّى بغداد من قبل بهاء الدولة قبض على اليهود ، وأخذ منهم ألوف دنانير وهرب إلى البطيحة[1] • وإذن فلا عجب أن نجد في لغة العرب لفظـة مبلّط (وهي اصطلاح مالي يهودي) تستعمل بمعنى المُفْلس[2] •

وكان الروم والهنود إلى جانب أهل العراق والفرس واليهود هم أنشط تجار المملكة الإسلامية ؛ وقد نفذ الروم إلى أقصى البلاد ، حتى كانت لهـم جالية من التجـار في مدينة جيروفت التجارية بأواسط كرمان[3] ؛ أما التجار الأرمينيون فلم يكن لهم شأن يذكر في أي مكان ؛ بل نرى من هذا الشعب طائفة تتبوأ مناصب حربية عليا في الدولة البوزنطية[4] ، وكان منهم جند وقواد للفاطميين[5] ، منهم أبو النجم أمير الجيوش الذي حكم بلاد الفاطميين في القرن الخامس الهجري[6] ، ولم تتغير هذه الحال إلى منذ العصر التركي •

وكانت التجارة مركزها الأسواق ، شأنها شأن الصناعة ؛ وكانت كل طائفة من التجار يجلسون معاً في قسم واحد ، وكانوا يمكثون إلى ما بعد الظهر ، ثم يأكلون في أحد المطابخ ، أو يستحضرون شيئاً إلى دكاكينهم ، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا في المساء[7] • وكان للهرّاسين

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٥٠ ا •

(٢) انظر مادة بلط في تاج العروس : البلطة المفلس وابلط الرجل ذهب ماله .

(٣) ولا يذكـر هـذا إلا منـذ القـرن السادس الهجـري ، (انظـر : Houtsma, Seldschuken, I, 48.

(٤) Gelzer, Kulurgeschichte, S. 80.

(٥) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٩٤ •

(٦) نفس المصدر ص ٣٨١ •

(٧) كان الجهبذ ينتهي عمله ببغداد عند الظهر (الارشاد ج ١ ص ٣٩٩) ، وكانت هرمز مجمع تجارة كرمان وفرضة البحر ، وهي وبندر عباس في ايامنا تتنابها افظع انواع الجو ، ولذلك لم يكن بها مساكن كثيرة ، وإنما كانت مساكن التجار متفرقة في قرى تمتد نحواً من فرسخين (الاصطخري ص ١٦٦) •

في العراق موضع فوق الدكاكين ، فيها الحصر والموائد والمري والخدام والطشوت والأباريق والأشنان ؛ فإذا انحدر الرجل دفع دانقاً[1] . وقد وصف الهمذاني في إحدى مقاماته أكلة أكلها هو وأبو زيد في أحد المطابخ[2] . وكانت الأكلة بعشرين (ربما كانت عشرين دانقاً أو عشرين درهماً) ؛ وكان الطباخون في ذلك العصر أيضاً يعنون بمظهر طبيخهم وتأثيره ، ويحكى عن مالك بن دينار المتصوف المعروف أنه قال : أخوة هذا الزمان مثل مرقة الطباخ في السوق ، طيبة الرائحة لا طعم لها[3] .

وكانت الدكاكين في مصر وآسيا الغربية تمتد على طول الشوارع من الجانبين ، على كل جانب صفٌ منها ، ولذلك لما أنشئت بغداد لم يُجعل لسوقها مكان مخصص لـه ؛ ولهذا أيضاً تذكـر « سويقة عبد الوهاب » التي كانت ببغداد ، كما يذكر الشيء الغريب الذي يستلفت النظر[4] . أما أسواق المدن فقد كانت ـ في مبدإ أمرها وعندما تسمت بهذا الاسم ـ أسواقاً أسبوعية ، تقام في أيام معينة من الأسبوع، فمثلا كان السوق بشرقي بغداد يوم الثلاثاء ، وكان سوق القيروان يعقد في يومي الأحد والخميس[5] ، وكان سوق العسكر (خوزستان) يوم الجمعة ، وكان بين العسكر هذه وبين خان طوق ست مدن تسمى كل منها بيوم من أيام الأسبوع المتتالية ، وهو الذي يعقد فيه سوقها[6]، وربما كان قوام الكثير من مثل هذه المدن عبارة عن دكاكين ثابتة لا

---

(١) المقدسي ص ١٢٩ .

(٢) مقامات الهمذاني ص ٥٧ وما بعدها من طبعة بيروت .

(٣) الصداقة والصديق للتوحيدي . طبعة القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٤٣ .

(٤) تاريخ بغداد طبعة سالمون ص ٢٨ .

(٥) المقدسي ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٦) نفس المصدر ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ، وكان على وادي درعة بمراكش سوق في كل يوم من أيام الجمعة لكثرة الناس عليه (المغرب للبكري ص ١٥٢) .

تمتليء وتعمر إلا في يوم السوق ، مثل سوق الأربعاء في الجزائر الذي كان أول من وصفه الأمير بوكلير[1] ، أو مثل سوق بوعان الكبير باليمن الذي يمكن أن يمثله الإنسان لنفسه بأن يتصور صفين أو ثلاثة من الدكاكين التي تشبه الأكواخ ، يجتمع فيها العرب يوم السوق ، فتراهم يتساومون[2] ، وهم جالسون .

أما في المشرق فقد استلزمت العادة جمع الدكاكين صفوفاً في مكان واحد ، كالدار التي بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون ؛ وكانت مركز نسج الكتان ، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم[3] ، وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقاً عند مدينة جامع رام هرمز ، وكانت غاية في الحسن ، نظيفة ، قد بُلِّطت وظُلِّلت وزُوِّقت وبُرِّبقت ، وجُعل عليها دروب تغلق في كل ليلة[4] .

أما في غرب المملكة الإسلامية فلم يكن هناك فنادق إلا للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة ؛ وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها ، وينامون في أعلاها ، ويغلقون غرَفهم بأقفال رومية ، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم الفنادق (من الكلمة اليونانية pandokeion) ، وكانت توجد خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة ، حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[5] .

---

(1) Pückler, Semilasso in Africa, II. 107.

(2) Glaser, Petermanns Mitteilungen, 1886, S. 41.

(3) المقدسي ص ٤٣٢ .

(٤) نفس المصدر ص ٤١٣ — ٤٢٥ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٢٥ ، وكانت هذه المباني تسمى خانات ، وفيما وراء النهر كان الواحد يسمى تيما (مقدسي ٣١) ، والدكان الواحد يسمى مخزن (الكلمة الأوروبية magasin) والمخزن الكبير يسمى خانبار وجمعها خانبارات ، (المنتظم ص ١٨٠ ب، ١٨٢ ا).

وكان رأس المال والترف مرتبطين في بلاد الإسلام أيضا ارتباطاً وثيقاً ، وكان كبار التجار وأصحاب الصناعات هم المشتغلون بتجارة الترف والنعيم ؛ وينصح المقدسي بنصيحة يعرف بها الإنسان خفة ماء بلد أو ثقله ، فيقول : « إذا أردت أن تعرف خفة ماء بلد ، فاذهبْ إلى البزّازين والعطارين ، فتصفحْ وجوهَهم ؛ فإن رأيت فيها الماء فاعلم أن خفته على قدر ما ترى من نضارتهم ، وإن رأيتها كوجوه الموتى ، ورأيتهم مطامني الرؤوس ، فَعجِّل الخروج منها[1] » . وإذن فالمقدسي يعتبر أن أقرب التجار إلى الترف والنعيم في القرن الرابع هم البزازون والعطارون ، وكانوا بمدينة جامع رام هرمز يسكنون سوقا جميلة غاية في الحسن بناها عضد الدولة[2] ؛ ومن أمثال القرن الثالث الهجري أن أحسن التجارة تجارة البزّ ، وأحسن صنعة صنعة المرجان[3] ؛ وكان ابن مجاهد (المتوفى عام ٣٢٤ هـ ـــ ٩٣٥ م) يقول : « من قرأ لأبي عمرو ، وتمذهب للشافعي ، واتجر في البز ، وروى شعر ابن المعتز ، فقد كمل ظرفه »[4] ؛ وكذلك بين أبو نصر الفارابي (المتوفى عام ٣٣٩ هـ ـــ ٩٥٠ م) الصناعات من أشرفها إلى أخسها : تجارة البز ، وصناعة النسيج (وكانت حتى ذلك العصر معتبرة من الصناعات الخسيسة) ، وصناعة العطارين ، ثم صناعة الكناسين[5] . وكان أغنى تجار مصر وأجلهم حوالي عام ٣٠٠ هـ ـــ ٩١٢ م عفان بن سليمان

---

(١) المقدسي ص ١٠١ .

(٢) نفس المصدر ص ٤١٣ .

(٣) ونسب هذا القول إلى النبي عليه السلام كما نسب غيره ، (مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٠) .

(٤) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٠٣

(٥) المدينة الفاضلة للفارابي طبعة ديتريصي ص ٩٠ .

البزاز ، فلما مات أخذ الأخشيد من ماله نحو مائة ألف دينار[1] . وكانت أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب الدهون والخزازين والجوهريين بعضها إلى جانب بعض ببغداد[2] .

وكانت طريقة التأجير شائعة شيوعا كبيراً ؛ فكان الناس لا يستأجرون في المدن المساكن فقط ، بل كانوا يستأجرون الأثاث أيضاً ؛ ويحكى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر من النحاس ، وكانت تؤجرها ، كل قدر بدرهم في الشهر[3] ؛ وكانت الماشطة تحضر إلى حفلات الزفاف ، ومعها أصناف الزينة[4] ، وكانت البسط وأنواع الفرش تستأجر في مثل هذه[5] المناسبات .

وكان البيع والشراء يتمّان « بالمقابضة »[6] ، وذلك بحسب الشرع ؛ على أن من الفقهاء المحدثين من يرى أن البيع لا يكون صحيحاً إلا إذا كان مصحوباً بقول صريح علني من الجانبين[7] ، وهذا ما رأيته بنفسي في صحراء الشام : ففي أثناء المساومة بين الطرفين يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر ، فإذا قال البائع : « بِعتُ » ، وقال الشاري « اشتريتُ » ، ترك كلٌّ يد صاحبه وتمّ البيع والشراء ؛ ولم ينس ابن المعتز الشاعر (المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م) في كلامه عن المصادرَين أن يذكر كيف كانوا يعذبون حتى يبيعوا ضياعهم وأنهم كانوا يحلّفون بيمين البيعة[8] .

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٧ .

(٢) الأوراق للصولي ص ٩١ من مخطوط باريس .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارسي .

(٤) Quatremére, Hist. des Mameloucs. p. 247 .

(٥) الأغاني ج ٥ ص ١١٩ .

(٦) الجامع الصغير على هامش كتاب الخراج ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٧) Sachau, Muhammedanisches Recht. S. 278 .

(٨) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ .

على أنه في مملكة شاسعة كالمملكة الإسلامية التي كانت تضم كل درجات الحضارة لا بد أنه كانت توجد جميع أنواع التجارة بعضها إلى جانب البعض في وقت واحد ؛ ولكن الجغرافيين في ذلك العصر خاصة لم يهتموا بهذا للأسف ، وكان الفقهاء من جهة أخرى يُعنون بمعالجة الأصول النظرية الجافة ، حتى لا نجد بين أيدينا إلا قليلا من المعلومات المؤكدة ؛ فمثلا كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقصى خراسان مما يلي الترك قومٌ يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة ، فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب ، فإذا جاء صاحبُ المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب[1] . وقد استلفت نظر « ربي بتاحيا » ، وهو من مدينة ريجنزبورج ، عندما مرّ بالعراق أن المسلمين أهل لأن يوثق بهم كل الثقة ؛ فكان إذا جاء إلى هناك تاجرٌ وضع أمتعته في بيت رجل من الناس ، ورجع ؛ فيحملون هذه الأمتعة إلى جميع الأسواق للبيع ، فإذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها ، وإلا حملوها إلى جميع السماسرة ؛ فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بثمن أقل ، وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة[1] .

وقد حرمت الشريعةُ الإسلامية منذ البداية التعامل بالربا أشدَّ التحريم ، كما حرمت المضاربةَ في مواد الطعام ؛ وقد أنفق الفقهاءُ جزءاً كبيراً من جهودهم لسدّ أصغر الأبواب التي قد يلجأ إليها الناس فراراً من هذا التحريم . ولكن اليهود والنصارى كانوا يدخلون في الفجوة ، إذا ظهرت ، ففي أول القرن الرابع الهجري اقترض الوزير من يوسف ابن فنجاس وهارون بن عمران الجهبذين اليهوديين عشرة آلاف دينار

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٩٢ — ٩٣ ,J. Marquart, Beninsammlung
CLXXX ff.

(٢) Petachia, J A, 1831, p. 373 .

بربح ثلاثين ديناراً في كل مائة[1] . وقد ألّف حوالي عام ٨٠٠ م كتابُ تشريع للنصارى أُجيز فيه أن يتعاملوا فيما بينهم بربح يبلغ العشرين في المائة[2] . وكان من صور المراباة المُربِحة أن يقدّم الناس للمصادَرين ، وهم يعانون التعذيب وضروب العسف ، مالاً ، وهم في هذا الموقف الحرج ، وكانوا ينالون في بعض الأحيان من وراء ذلك عشرة في الواحد (١٠٠٠٪)[3] .

وعلى هذا فقد كانت الأمة الإسلامية في القرن الرابع الهجري قد بعدت كثيراً عن شريعة الإسلام ؛ بل يُذكر لنا أنه كان في عصر المأمون تاجران متواخيان في شراء غلات العراق ؛ فأشرفا على ربح عشرة آلاف ألف درهم ، ثم اتّضع السعر ، فخسرا ستة آلاف ألف درهم[4] . وفيما عدا هذا كانت الظروف الزراعية الخاصة تستلزم بعض صفقات المضاربة على الحصاد والدرس وجني الثمر ؛ وكان الفقهاء يترخصون في ذلك متجاهلين ، بشرط أن يكون ذلك على ضمان المشتري[5] . ويحكي لنا « ڤانسلب » أن الناس كانوا بمصر حوالي عام ١٦٦٤ م يسخرون من القوانين التي تحرم الربا ، وذلك بأن يضطروا المقترض إلى أخذ بضائع رديئة النوع بالسعر الباهظ ؛ وهذا هو الحال عندنا أيضاً[6] .

---

(١) انظر : V. Kremer, Einnahmebudget S. 343 .

(٢) Sachau. Syrische Rechtsbücher II. S. 157 .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ .

(٤) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٥٨ .

(٥) الجامع الصغير على هامش كتاب الخراج لابي يوسف ص ٧٨ .

(٦) Wansleb, Beschreibung Aegyptens, S. 63 .

الفصل السابع والعشرون

الملاحة النهرية

كان الفرق بين وسائل المواصلات في المملكة الإسلامية وبينها في أوروبا أثناء العصور الوسطى هو قلّة الطرق المائية في مملكة الإسلام ؛ فلم يجد المقدسي في جميع هذه المملكة الشاسعة إلا اثني عشر نهراً كبيراً فائضاً تجري فيها السفن وهي : دجلة والفرات والنيل وجيحون والشاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران والرَس ونهر الملك ونهر الأهواز[1].

ولا نستطيع أن نعتبر ثلاثة الأنهار التي بآسيا الصغرى ولا النهرين اللذين بالقوقاز ولا النهر الذي على حدود الهند[2] ، من بين هذه

---

(١) المقدسي ص ١٩ ؛ وهذا يتفق مع ما كان واقعاً بالفعل ، وإن كان الاصطخري (ص ٩٩) ذكر في فارس وحدها اثني عشر نهراً كباراً « تحمل السفن إذا اجريت فيها » ؛ أما نهر هيدمند بسجستان ، وهو ينبع من جبال هندكوش فكانت تجري فيه السفن إذا امتد الماء ، ولا تجري في غير ذلك (ابن حوقل ص ٣٠١) . ويذكر سترابو Strabo, XV, 1 أن الفينيقيين كانوا يسيرون سفنهم على نهر الأردن . أما في العصور الوسطى فكانت الملاحة على هذا النهر نادرة ، كما هي اليوم ؛ فلم يكن هناك إلا سفن صغار يسافر الناس عليها ، وتحمل عليها الغلات فوق البحيرة الميتة بين زغر والدارة واريحة وسائر أعمال الغور (الادريسي طبعة براندل ص ٤) .

(٢) وكان بين أهل كشمير وبين المنصورة مسيرة سبعين يوماً ؛ فكانوا يركبون السفن على نهر السند ، وهو يزيد في وقت زيادة الدجلة والفرات ، ويضعون جذور شجر المغاد في أكياس زنة كل منها من سبعمائة إلى ثلاثمائة رطل ويضعون الاكياس في جلود يطلونها بالقطر لكي لا ينفذ إليها الماء ، ثم يحزمون الاكياس أزواجاً ليقعدوا أو يقفوا عليها ، فيصلون المنصورة بعد سبعة وأربعين يوماً من غير أن تبتل الجذور (Merv de l'Inde, S. 104).

الأنهار الاثني عشر ، أنهاراً من أنهار البلاد الإسلامية على التدقيق ، بحيث أنه فيما عدا النيل ، لا نجد بلاداً فيها الملاحة النهرية إلا أرضَ ما بين النهرين ، وما اتصل بها من خوزستان ، ثم أقصى الشمال الشرقي لبلاد الإسلام . وفي هذه الأقاليم نجد أن الملاحة في شمال بلاد ما بين النهرين تواجه صعوبات شديدة ، وذلك على الأقل في النهرين الكبيرين ؛ وقد حدثنا رجال من أحسن مرتادي هذه البلاد « أن نهر الشاش عند مدينة فرغانة لا يستطيع أن يثقل قاربا للصيد في بعض الأحيان »[1] . هذا إلى أن كلا من جيحون والشاش يختلف مجراهما في مكان عنه في آخر اختلافاً كبيراً مستمراً ، كما أن عمق الماء فيهما مختلف ؛ ولذلك أوقف سير البواخر النهرية الروسية على أولهما ، وهي مستمرة على الثاني بمشقة كبيرة ، « ولا تستطيع سفينة مهما كانت خفيفة أن تجتاز شلالاته عند مدينة كالف (في أواسط مجراه) وقت الفيضان »[2] . ونظراً لزيادة هذا النهر زيادة من غير انتظام ونظراً لكثرة الرمال على جانبيه لم يمكن أن يتخذ عليه بلد ذو جانبين كبغداد وواسط غير كالف هذه ؛ وذلك لتَشمُّر النهر عندها وخلوّه من البثق والرمل[3] على أن الأصطخري[4] يقول إن السفن كانت تحمل على الأنهار الكبيرة وما يتشعب منها .

وليس هناك بالجملة بحيرات كبيرة تصلح للملاحة الطويلة مما يستحق الذكر ، وإن كانت بحيرة أُرمية ، وهي أكبر البحيرات في مملكة

---

(1) V. Middendorf, Mémoires de l'Académie de St. Pétersbourg, VII, Bd. 29. S. 189.

(2) V. Schwarz, Turkestan, S. 425.

(3) المقدسي ص ٢٩١ .

(4) الأصطخري ص ٣٠١ وما بعدها .

الإسلام ، تبلغ مساحتها عشرة أمثال مساحة بحيرة كنستانس ، وإن كانت البحيرة الميتة أيضاً تبلغ مساحتها ضعف مساحة هذه البحيرة .

وعلى هذا فقد كانت الشام وجزيرة العرب وفارس كلها في وسط المملكة الإسلامية عبارة عن أراضٍ واسعة جداً ليس فيها ملاحة تذكر ، لا في الأنهار ولا في البحيرات ؛ وهذا شأنها اليوم كما كانت في العصور الوسطى .

أما في العراق فكانت أحوال الأنهار ملائمة للملاحة على نحو لا نظير له ؛ وذلك لأن مستوى نهر الفرات أعلى قليلا من مستوى نهر دجلة ، وهذا يجعل سير السفن في الأنهار المتفرعة من الفرات إلى الشرق سهلا يسيراً ، ولا يصعب عليها أن تعود إلى الغرب ، وقد استفيد من هذا في القرن الرابع استفادة كبرى ، وكان يجري على أنهار العراق كثير من أصناف القوارب الشديدة الاختلاف ؛ وقد ذكر أبو القاسم[1] بعض أنواع هذه القوارب ، وزاد عليها في القرن الرابع الطيّارات والحديديات التي كانت ترسو على أبواب كبار العمال مثلا[2] ؛ وكان صياح الملاحين إلى جانب صوت آلات رفع الماء مما تمتاز به بلاد العراق. ويحكى عن محمد بن رائق أنه لما ولي الشام لم يذهب إليها ، واستخلف ابنه الحسن وقال : « ركوبي في الطيّار في دجلة ، وصياح الملاحين ، أحب إليّ من ملك الشام كله » . وكانت هذه عاطفة تعلق بالوطن ، وقد دفع حياته ثمناً لها ؛ وذلك أنه لم يذهب إلى الشام فبقي حتى قتل عام ٣٣٠ هـ[3] .

وكان نهر الفرات صالحا للملاحة من الموضع الذي فيه مدينة

---

(١) حكاية أبي القاسم البغدادي طبعة متز ص ١٠٧ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٤ ، ٥٧ ، ١١١ .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٢٩ .

سميساط ، فكانت تنقل عليه التجارة بين الشام وبغداد ؛ أما المسافرون فكانوا لا يرضون عن السفر في الأنهار ، ويحكى عن علي بن عيسى أنه لما سافر من دمشق إلى بغداد انحدر إلى جسر منبج ، ثم سار الى الفرات ، فسار فيه إلى بغداد ، وخرج الناس لتلقيه ؛ فمنهم من لقيه بالرحبة ومنهم من استقبله بهيت ثم بالأنبار • وكان المسافر من هنا يركب جواداً[1] ، وهذا يدل على أن مركز الأنبار بالنسبة للسفر السريع في القرن الرابع كمركز الفلوجة اليوم ، وهذه تقع قريبة من تلك ؛ وكان عند الأنبار جسر من سفن ، كما هو الحال عند الفلوجة في عصرنا[2] ؛ والمسافة بينهما وبين بغداد اثنا عشر فرسخاً[3] • ومن عند الأنبار كان يخرج النهر المسمى نهر عيسى[4] • على أن مجرى الفرات الأعلى كان غيره اليوم ، فكان ماؤه يحيط بعدة جزائر تقع بين رحبة مالك وهيت ، وكان على هذه الجزائر عدة مدن هي الحديثة وعانة وألوسة ، لا الحديثة وحدها كما هو الحال اليوم[5] •

وكانت البضائع التي تنقل بكميات كبيرة على نهر الفرات هي خشب البناء • من جبال أرمينية وزيت الزيتون من الشام ؛ وكان الخشب والزيت ينحدران في النهر على أخشاب تحملهما • وكان الرمان يحمل على الفرات أيضاً في مراكب كبيرة تسمى القراقير ، ويبلغ عرض الواحدة منها من ستة عشر ذراعاً إلى عشرين[6] ؛ وقد شبهها هيرودوت

(١) كتاب الوزراء ص ٣١٠ •

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٥ مثلا فيما يتعلق بالقرن الرابع •

(٣) ابن خرداذبة ص ٧٢ •

(٤) جغرافية ابي الفدا ص ٥٢ : يخرج من الفرات بالقرب من الأنبار عند ضيعة يقال لها الفلوجة ، نهر يقال له نهر عيسى •

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠ •

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٥٧ •

منذ العصر القديم ، وكذلك ليڤيوس (Livius) بمراكب البحر الأبيض المتوسط ، وذلك لكبرها .

وكانت أكبر شبكة من النهيرات توجد شرقي البصرة حيث تفترش مياه الأنهار ؛ وقد أحصيت في بعض العصور ، فزادت على مائة وعشرين ألف نهر ، تجري فيها الزوارق ؛ وقد سمع ابن حوقل ذلك ، فأنكره ، حتى رأى تلك البقاع ، فشاهد في مقدار رمية سهم عدة من الأنهار صغاراً تجري في جميعها السُّمَيْريّات ، فجوّز أن يكون ذلك العدد الكبير موجوداً حقيقة في طول تلك البقعة وعرضها .

وكان بتلك البلاد نخيل متصل نيفا وخمسين فرسخاً ، لا يكون الإنسان بمكان ، إلا وهو في نهر ونخيل أو بحيث يراهما ، حتى البحر ؛ وكانت هناك المجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والقصور والبساتين على جوانب الأنهار ؛ فإذا جاء مدّ البحر تراجع الماء في كل نهر ، حتى يدخل بساتينهم وجنانهم ؛ وإذا جزر الماء عنها خلت منه البساتين والنخيل ، وبقيت أكثر الأنهار فارغة[١] .

وكانت حركة الملاحة كبيرة على نهر الدجلة أيضاً ؛ فكانت تنحدر بضائع أرمينية إلى بغداد بالموصل ، وكانت هذه معتدلة الجو حسنة الثمار والبقول ، وكان منها ميرة بغداد[٢] . بل كان الحجاج أيضاً يأتون من الشمال على الأنهار ، ففي عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م غرق منهم ألف نسمة ، وكانوا آتين من الموصل في بضعة عشر زورقاً كباراً[٣] . وكانت بغداد نفسها شبيهة بمدينة البندقية بإيطاليا فيقول المقدسي :

---

(١) ابن حوقل ص ١٥٨ — ١٦٠ .

(٢) المقدسي ص ١٣٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٣٤ .

« والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن ، وترى لهم جلبة وضوضاء ، وثلث طيب بغداد في ذلك الشط[1] » • وكانت السفن التي تحمل البضائع تستطيع أن تقف عند أسواق كثيرة ، وكان يجد الإنسان بين لحظة وأخرى قنطرة عالية تصعد عليها الشوارع الضيقة ؛ وقد أحصي في أوائل القرن الرابع عدد السفن التي تنقل الناس والتجارة في بغداد ، فكانت ثلاثين ألفاً ، وقدّر كسب ملاحيها في كل يوم بتسعين ألف درهم • ولم تكن هذه السفن المكشوفة لا من حيث اسمها ، ولا من حيث صورتها تشبه قوارب اليوم التي تسمى القفاف ، بل كانت تلك السفن تسمى السُّمَيْريّات (أي مراكب أهل سُمَيْرة[2]) • ويظهر أن مقدار كسب أصحاب تلك السفن صحيح ؛ فإن صاحب القفة لا يقل دخله يومياً عن الريال المجيدي (أربعة دراهم أو خمسة[3]) ؛ وكانت دار الخلافة تنفق لأرزاق الملاحين في الطيارات والسُّمَيْريّات والحرّاقات وما إليها خمسمائة دينار في كل شهر[4] •

وكذلك كان ببغداد كثير من القوارب الخاصة ؛ فقد كان لكل من ذوي اليسار من أهل بغداد دابة" في اصطبله ، وطيار" في النهر ؛ وكان الكبراء وأصحاب الجاه ينتقلون في الغالب على الماء •

وفي أواخر القرن الثاني الهجري أمر الخليفة الأمين بعمل خمس حرّاقات في دجلة ، أحدها على خلقة الأسد ، والباقيات على خلقة الفيل والعقاب والحيّة والفرس ، وأنفق على عملها مالا عظيما ؛ وابتنى سفينة

---

(١) المقدسي ص ١٢٤ •

(٢) كتاب الديارات ص ١٧ ا ، ٢٦ ب ، وكتاب تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٣ ، وهي تسمى السميريات العبرانيات •

(٣) مجلة المشرق ج ٤ (عام ١٩٠١ م) ص ٩٩٢ •

(٤) كتاب الوزراء ص ١٩ •

عظيمة على خلقة الدلفين ، وهذه كلها للنزهة والأبهة[1] . وكان للخليفة المستكفي عام ٣٣٣ هـ ـ ٩٤٤ م طيّار يسمى الغزال[2] . ولما مات الخليفة الراضي عام ٣٢٩ هـ ـ ٩٤١ م حُمل بعد غسله في طيّار أُنزل فيه إلى تربته بالرصافة[3] .

وبعد أن هزم السلطانُ معزُّ الدولة الديلمَ الذين ثاروا عليه في عام ٣٤٥ هـ ـ ٩٥٦ م انصرف إلى بغداد ، ثم سار في يومه إلى معسكر الحاجب بباب الشماسية ، أي أنه سار وسط المدينة ، وكان هو في زبزب ، ووراءه الثوار في زبازب مكشوفة ، ليراهم الناس ؛ وفي ذلك اليوم اجتمع الناس على الشطوط، فدعوا للسلطان ودعوا على الثوار[4] .

وفي عام ٣٦٤ هـ ـ ٩٧٤ م خرج عضدُ الدولة للقاء الخليفة ، وكان ذلك على نهر دجلة ، « فامتلأت دجلة بالسميريات والزبازب ، ولم يبق ببغداد أحد ؛ ولو أراد إنسان أن يعبر دجلة على السميريات من واحدة إلى أخرى لأمكنه ذلك لكثرتها[5] » .

وفي سنة ٣٧٧ هـ ـ ٩٨٧ م ركب الأميرُ شرفُ الدولة إلى دار الخليفة الطائع لله في الطيار ، وضُربت القباب على شاطىء دجلة وزُيّنت الدور التي عليها من الجانبين بأحسن زينة ، وخُلعت على شرف الدولة الخلعُ السلطانية ، وتُوِّج وطُوِّق وسُوِّر ، وعُقِدَ له لواءان

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٩٥٢ وما بعدها ، وقد مدح أبو نواس الخليفة بقصيدة في هذه المناسبة .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٣٧٧ .

(٣) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ١٨٣ ب .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢١٨ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧ .

وقُرِىءَ عهدُ استخلاف الخليفة إياه[١] .

وكان للجسور المعمولة من السفن في الجانب الشرقي من بغداد زَنْبَرِيَّتان متحركتان يمكن رفعهما لتمكين السفن من المرور[٢] ؛ بل يذكر المقدسي أنه كان في طرفي الجسر بواسط موضعان تدخل فيهما السفن[٣] . وكانت تستعمل لإخراج السفينة من الماء على نهر دجلة طريقة" خاصة ، وذلك أن الملاحين كانوا ، وهم على ظهرها ، يجذبون حبلا يجري على بكرة مُثَبَّتَة على نقطة من الشاطىء ؛ ولا يزالون يجذبون حتى يتجمع الحبل دوائرَ منتظمة على ظهر السفينة ؛ وكان الملاحون في أثناء ذلك يَتَغَنَّون ؛ وهذه هي الطريقة التي نراها على صور الأشوريين والتي كانوا يستخدمونها في جرّ الأحمال الثقيلة[٤] .

وكان بين بغداد وسامرّا ــ عند الموضع الذي تقع فيه قرية تسمى علث ــ نقطة" صعبة ضيقة المجاز كبيرة الحجارة شديدة الجريان تجتازها السفن بمشقّة ؛ وكان هذا الموضع يسمى الأبواب ، وكانت السفينة إذا وافت الى العلث أرست بها ، فلا يتهيأ لها الجواز إلا بهادٍ من أهلها يكترونه ، فيمسك السكان ويتخلل بالسفينة تلك المواضع ، ولا يترك السكان حتى يتخلص منها[٥] .

ولكن كان في جنوب العراق العقبة الكبرى التي ظلت الملاحة تواجهها على نهر دجلة طوال عهد العرب ؛ وذلك أن دجلة فيما بين

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ١٢٥ ا .

(٢) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٧٩؛ وانظر : Gildmeister, NGGW. 1882, S. 439.

(٣) المقدسي ص ١١٨ .

(٤) وكان الملاحون يضعون على أكتافهم ما يسمى القمايا (حكاية أبي القاسم ص ١٠٨) ولم اجد هذه الكلمة في المعاجم .

(٥) كتاب الديارات للشابشتي ص ٣٨ ب .

واسط البصرة كان يتشعب ثلاث شعب ، تنصبّ كلها في مستنقعات وآجام ، تسمى البطائح ؛ وكانت السفن إذا وصلت إليها ألقتْ ما تحمله إلى زواريق تجتاز هذه المنطقة ، فتجري في شبه أزقة من قصب ، وبين هذه الأزقة مواضع متخذة من قصب أشباه الدكاكين عليها أكواخ ، وفيها قوم يحرسون الزواريق في هذه المنطقة الغريبة التي يتخلل آجامها بين حين وآخر رقعةٌ من الماء الذي لا شجر فيه . وكان في كل كوخ خمسة مسالح ، وهي شبيهة ببيت النحل ، وليس لها شبابيك ، وفيها كان الحراس يكتنّون من البق[١] .

ورغم يقظة الحكومة في المحافظة على الأمن ، فإن العراق ، في أسفل بغداد ، لم تتمتع بالأمن قط في أثناء القرن الرابع الهجري ؛ وكان معظم اللصوص بها من الأكراد ، وقد بلغ من شر اللصوص أنهم قتلوا بجكم القائد التركي ، عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م ، على عظيم سطوته ، وذلك أن قوما من الأكراد لقوه ، وهو يتصيّد ، فقتلوه بواسط[٢] . وقد وصف الخوارزمي[٣] وقوع شيء مرات كثيرة بقوله : « وليس بأول غارة الكردي على الحاجي » ؛ كأن غارةَ الكردي شيءٌ معروف مألوف . وقد اختص بالذكر بين اللصوص في أواخر القرن الرابع الهجري ابنُ مردان ، أحد رؤساء الأكراد ؛ فكان ينهب السفن ، رغم أنها كانت تسير قوافل تسمى الواحدة منها بالكار[٤] .

وكان من رؤساء اللصوص المشهورين في القرن الرابع الهجري

---

(١) ابن رسته ص ١٨٥ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٨٥ ا .

(٣) رسائل الخوارزمي ص ٧٩ .

(٤) ديوان ابن الحجاج مخطوط لندن رقم ٤٥٩١ ص ١٧٠ ا (؟) ؛ وانظر كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ١٠٧ .

ابن حمدون ؛ وكان يقوم بالسرقة والنهب في المنطقة الواقعة بين واسط وبغداد . وكان ابن حمدون هذا رجلا غريب الأحوال من طراز رينالدو رينالديني (Rinaldo Rinaldini) ؛ وكانت فيه شهامة الفرسان وعطف على الفقراء حتى يقول التنوخي إنه كان فيه فتوّة وظرف ، وكان لا يتعرض لأصحاب البضائع القليلة[1] ؛ وصار بعض أحوال حياته مضرب المثــل[2] .

وكان بالبطائح بين واسط والبصرة أمير للصوص يسمى عمران ابن شاهين ، استفحل أمره ، حتى تضاعف طَمَعُه في السلطان ، وتجرّأ أصحابه على جند السلطان ، وصاروا يطالبون من يمرّ بهم من قواد السلطان وعماله بحق المرصد والخفارة ؛ فإن أعطاهم ، وإلا ضربوه ؛ فلما غلب على تلك النواحي سيّر معزُّ الدولة عام ٣٣٨ هـ — ٩٤٩ م جيشاً لمحاربته ، وعلى رأسه الوزير أبو جعفر الصيمري ، فهزمه عمرانُ ؛ فوجّه إليه جيشاً آخر ، فهزمه ؛ فأرسل معز الدولة وزيرَه العظيم المهلّبيَّ ، فكانت الوقعة عليه ، وأُسر القواد ومن معه من الوجوه ؛ فلم يجد معز الدولة إلا مصالحة هذا اللص الثائر ، فأجابه إلى كل ما طلب ، وقلّده البطائح عام ٣٣٩ هـ — ٩٥١ م[3] .

وقد خرج اللصوص مرة على جماعة من الكبراء ، وهم في طريقهم على النهر ، لاستقبال بعض الملوك ؛ فطلع عليهم اللصوصُ ، ورموهم بالحرّاقات ، وجعلوا يقولون : ادخلوا يا أزواج القحاب ! وكان في الجماعة الرضي والمرتضى وابن أبي الريّان الوزير وبعض الأكابر ، ومعهم أحمد بن علي البتّي ، كاتب الخليفة القادر بالله ، وكان صاحب

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) عمد المنسوب للثعالبي في مجلة ZDMG, VIII, S. 306. ، وهو كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . (المترجم)

(٣) مسكويه ج ٦ ص ١٧١ وما يليها ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٢ وما بعدها .

نوادر ؛ فأوحت إليه هذه المناسبة نادرةً مذكورة ، وذلك أنه لما سمع صياح اللصوص عليهم : يا أزواج القحاب ! قال : ما خرج هؤلاء علينا إلا بِعَيْن ؛ قالوا : ومن أين علمت ؟ قال : وإلاّ فمن أين علموا أنا أزواج قحاب ! ؟[1] .

على أنه قد لحق الملاحة النهرية ضررٌ أكبر مما تقدم على أيدي اللصوص الرسميين ، ولا سيما بني حمدان بحلب ، وهم الأمراء الذين امتازوا بالفروسية والشهامة ، واشتهروا إلى جانب ذلك بالجور واتباع سياسة جنونية في الخراج ؛ ومن أثر هذه السياسة أن مدينة بالس كانت على شط الفرات وأول مدن الشام من العراق ، وكانت مدينة عامرة بتجارتها ، فلما كان عهد سيف الدولة ، وهو أشهر بني حمدان ، ثقل عليها الخراج ، حتى عفت رسومها ، ودرست قوافلها ، وتركها تجارُها بعد عهد هذا الأمير . ومن مشهور أخبارها أنه ، لما هزم سيف الدولة بعد لقائه صاحب مصر ، أرسل إليها القاضي المعروف بأبي حُصَيْن ؛ وكان بها تجار معتقلون عن السفر ، فأرهبهم ، وقبض أموالهم ، وأخرجهم عن أحمال بزّ وأطواف زيت وغير ذلك من متاجر الشام في دفعتين بينهما أشهر قلائل ، حتى بلغ ما أخذه منهم ألف ألف دينار[2] . وكذلك كانت تؤخذ بالعراق ضرائب على البضائع في داخل البلاد ، فكان بين بغداد والبصرة حوالي عام ٣٠٠ هـ موضعان تأخذ الحكومة عندهما المكوس على البضائع[3] . وكان نهر دجلة يُغلق بالليل ، وذلك بأن تُشدّ سفينتان من أحد جانبي دجلة وسفينتان من الجانب الآخر

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن حوقل ص ١١٩ .

(٣) ابن رسته ص ١٨٤ (أ) .

ثم تؤخذ قلوس على عرض دجلة وتشدّ رأسها إلى السفن ، لئلا تجوز المراكب بالليل[1] .

أما بمصر فقد كانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جداً في القرن الرابع الهجري ، حتى تعجب المقدسي ، وهو بمصر ، من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك ؛ وسأله يوما رجل هناك : « من أين أنت ؟ فقال : من بيت المقدس ، قال : بلدٌ كبير ؛ أُعلمك يا سيدي ، أعزك الله ! أن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبتْ إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يُقال : كان ها هنا مدينة »[2] .

وكان الجزء الذي يصلح للملاحة دون أي عائق على نهر النيل ينتهي عند انتهاء حدود مصر جنوبا[3] . وكانت أسوان مجمعاً لتجارة السودان ، ولم يكن الذين يحملون التجارة إلى بلاد النوبة مصريين ، يذهبون إلى هناك ؛ فالاتجار في الخارج لم يكن من صفات المصريين إلا في الندرة[4] ، بل كان تجار النوبة هم الذين يأتون في النيل حتى الجنادل ، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السودان ، ويتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال ، حتى يصلوا إلى أسوان ، بعد اثنتي عشرة مرحلة إلى جانب النيل[5] . وكان الإقليم الواقع جنوب الشلال الثاني موصداً أمام جميع الأجانب ؛ وهو يرجع إلى العصر المصري القديم .

---

(١) نفس المصدر ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢) المقدسي ص ١٩٨ .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٤١ ؛ وانظر حكاية عبد الله بن سليم في آخر القرن الرابع الهجري عند المقريزي ، وراجع : Marquart, Die Benînammlung, S. CCXLIX.

(٤) لطائف المعارف ص ١٠١ .

(٥) الادريسي طبعة دوزي ص ٢٠ — ٢١ .

الفصل الثامن والعشرون

المواصلات البرية

لم يعمل العرب أيام سيادتهم على تقدم نظام الطرق البرّية في بلاد الشرق ، لأن العرب أمة ركوب ، لا تميل إلى تمهيد طرق الجيوش ، ولا إلى اتخاذ المركبات ؛ بل لقد بلغ من قلة التفهم للمركبات أنهم لما أخذوا الشطرنج عن الهنود لم تعجبهم صورة العربة (راثا) ، فاستبدلوا بها صورة الرّخ[1] .

وكان التتر أول من اتخذ المركبات بشمال فارس[2] .

على أن فرق المشاة الرومانية كانت قد مهدت بعض الطرق في جزء صغير من بلاد العرب ، ولكن لم يَبْقَ من آثارها إلا ألفاظ قليلة مأخوذة من اللاتينية مثل كلمة صراط ، ومعناها الطريق عند أهل الدين ، وكلمة أيتار التي تستعمل نادراً بمعنى الطريق ، وهي مأخوذة من اللاتينية iter [3] ، هذا إلى جانب علامات الطرق المسماة بالأميال . أما الأيتار الملكي (الطريق السلطاني) فقد أخذ العرب طريقة إنشائه

---

(١) يلاحظ الأستاذ مرجليوث في الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، أن هذه الفكرة غير سديدة من وجوه ، أولها أن كلمة رخ ليست عربية ، بل فارسية ، وثانيها أن ثم دلائل على أن كلمة رخ كانت تستعمل بمعنى العربة في العربية والفارسية (انظر .H.J.R. Murray A history of Chess, Oxford 1913, p. 160.

(٢) Marco Polo, I, p. 48.

(٣) يرى مرجليوث أن التشابه بين لفظي أيتار و iter أشبه بالمصادفة .

عن الفرس ، كما أخذوا عنهم هذه التسمية[1] .

ولعل طرق ذلك العهد ، شأنها شأن طرق اليوم ، لم تكن إلا شبكة من المسالك المطروقة لا يربطها نظام . ولا نسمع عن عناية العرب بتعهد الطرق قليلا ، فمن ذلك ما حكاه ناصر خسرو من أنه كان بمصر جسر من التراب بحذاء النيل من أول الولاية إلى آخرها ، وأن السلطان كان يرسل في كل سنة عشرة آلاف دينار إلى عامل مُعْتَمَد ، ليجدّد عمارته[2] ، وكذلك مُهِّد التّيه ، « وهو أرض بالقرب من أيلة ، لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها » ، وذلك في زمان خمارويه بن أحمد ابن طولون[3] . وكانت لخمارويه عناية بالطرق في الجملة . وفي أواخر القرن الرابع الهجري أنشأ سبكتكين في جنوبي أفغانستان الطرق التي سلكها ، فيما بعد ، ابنه العظيم السلطان محمود ، لما غزا الهند[4] .

وكذلك أنشأ جنكيزخان كثيراً من الطرق الواسعة في البلاد الجبلية بآسيا الوسطى ، فشابه في ذلك نابليون ، كما شابهه في أشياء أخرى . وكان أحد هذه الطرق يخترق مضايق جبال تيان شان جنوبي بحيرة صيرم ، وقد أقيم فيه أربعون قنطرة من الخشب تتّسع كل منها لعربتين تسيران متحاذيتين[5] .

ولكن العناية كانت في غالب الأحيان تقتصر على حراسة الطرق

---

(١) يقول الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب ص ١٨٣ ، إن الطريق الذي يكثر الاختلاف عليه يسمى المحجة ، وإن الطريق المدروس يسمى الأيتار المليكي ، ولا يقوله العرب إلا مصغراً ، والقياس ملكي ، وحبال الطريق أيتاره .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ٥٤ من النص الفارسي .

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢١٣ .

(٤) كتاب الهند للبيروني ترجمة سخاو ج ١ ص ٢٢ .

(٥) رحلة تشان تشونج Tschan Tschung عام ١٢٢١ م ، وانظر Bretschneider, Mediaeval Researches, I, 69.

وتأمينها وإنشاء أماكن يستريح فيها المسافرون ، أو على تيسير الماء فيها لهم على الأقل ؛ فمثلا كان على الطريق القصير الذي يخترق صحراء شرق فارس بين كل فرسخين أو ثلاثة قباب" وخزانات" يتجمع فيها ماء المطر[1] ؛ ورأى ناصر خسرو على مقربة من بحيرة « وان » بأرمينية طريقاً على امتداده عُمُد" مقامة على الأرض ليسير المسافرون أيام المطر والضباب بهديها[2] . وذكر البكري شيئاً يشبه ذلك في الطريق الذي بين نفراوة وقسطيلية ؛ فقد أُقيمت بينهما خُشُب يهتدي المسافرين بها لكيلا يضلوا في الأرض السوّاجة التي بين هذين البلدين[3] .

وكانت هذه الأماكن التي تُبنى في الطرق الصحراوية رباطاتٍ للزهاد ، وكانت كثيرة بنوع خاص في بلاد ما وراء النهر لما عرف عن أهلها من الورع والزهد ؛ ويذكر الأصطخري أنه كان بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، « في كثير منها ، إذا نزل النازل أُقيم علفُ دابته وطعامُ نفسه ، إن احتاج إلى ذلك »[4] .

وكان شرق المملكة الإسلامية أكرم من غربها بالجملة ؛ فيحدّثنا ابن حوقل مثلا أنه كان من آل المرزبان رجل" مشهور بالكرم ، أقام رباطاتٍ ، ووقف على مصالحها بَقَراً سائمة ، وجعل عليها قوّامين ، يحلبونها ، ويأخذون ألبانها ، ويقصدون بها المجتازين عليهم ، ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها ؛ وما من رباط إلا وفيه المائة بقرة وما فوق

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٢٥٦ .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ٩ من الأصل الفارسي .

(٣) المغرب للبكري ص ٤٨ ، ويوجد في أيامنا على الطريق المار وسط صحراء الملح بين يزد وطبس بفارس خمسة أهرامات من الحجارة أقامها البرسيون من أهل يزد ، انظر : S. Hedin, Zu Land nach Indien, II, 36. ، وفي هذه النواحي تقام أعمدة من الحجارة عند ملتقيات الطرق الهامة ــ نفس المصدر .

(٤) الأصطخري ص ٢٩٠ .

ذلك لهذا الوجه[1] . وكان أهل القرى بفارس يختارون من بين أنفسهم رجلا ، مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية ، وكانوا يسمونه الجزير[2] . وكذلك كانت توضع حباب الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق ، وربما حمل إليها الماء من بعيد[3] .

وفي البلاد التي كانت نصرانية من قبل كانت الأديرة تقدم ضيافة واسعة للمجتازين ؛ وكان كبار المسافرين ينزلون بها عادة طلباً للراحة ، فكان بدير يوحنا ، على مقربة من تكريت على نهر الفرات ، وبدير باعربا ، إلى الشمال من ذلك ، أماكن خاصة لتضييف المسافرين[4] .

أما فنادق المدن فلم نسمع عنها إلا ببلاد فارس ؛ فكان في نيسابور مثلا شبستان (أي دار الليل) ومثله بشيراز . أما مصر فلم تعرف بها الخوانق ، والربط لم تعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية[5] ؛ وكان في بلاد المغرب في صحاريها ونواحيها الموحشة رباطات كثيرة يأوي إليها الناس ، وكان عليها أوقاف كثيرة بإفريقية ، والصدقات تأتيها من جميع البلاد[6] .

وكان على نهر دجلة في أيام الساسانيين قناطر ثابتة ؛ فيحدثنا ابن حوقل في القرن الرابع الهجري أنه رأى آثار قنطرة من الآجر قرب تكريت[7] . ولا تزال بقايا قنطرة جميلة من هذا الطراز باقية بالجزيرة

---

(1) ابن حوقل، ص ٢٠٨ .

(2) كتاب الفهرست ص ٤٣ .

(3) المقدسي ص ٤١٦ .

(4) كتاب الديارات للشابشتي ص ٩٥ ب ، ١١٣ ا ، وانظر Streck, Landschaft Balylonien, 179 ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٤٥ .

(5) ترجمة فستنفلد لصبح الأعشى ص ٨٢ (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٨) .

(6) ابن حوقل ص ٤٩ .

(7) نفس المصدر ص ١٦٨ .

إلى اليوم[1] . فلما جاء القرن الرابع الهجري كانت هذه القناطر كلها قد أصبحت أطلالا ، واستبدل بها جسور من السفن ، بعض أجزائها متحرك ، كما هو الحال في بغداد وواسط .

ولم يكن هذا الطراز شائعاً ، بل لم يكن معروفاً في شمال فارس ؛ ففي عام ٤٠٨ هـ ذهب يمين الدولة ، لينجد قدرخان على أرسلان خان ، فعقد على نهر جيحون جسراً من السفن وضبطه بالسلاسل وعبر عليه ؛ ويقول ابن الأثير إن ذلك لم يكن يعرف هناك قبل ذلك التاريخ[2] . وذكر الرحالة الصيني تشان تشونج (Tschan Tchung) أنه وجد جسراً مثل هـذا على نهر الشاش ، بعد ذلـك التاريخ بنحو مائتي عـام (عام ١٢٢١ م)[3] .

وكان على قناة عيسى عند خروجها من الفرات قنطرة تسمى قنطرة دِمِمّا لها خمسة أبواب ، واحد كبير وأربعة صغار ، وفي أواخر القرن الثالث الهجري جُعل عرض الباب الأكبر اثنين وعشرين ذراعاً ، وعرض الأبواب الصغيرة ثمانية أذرع ، وذلك بعد الاستيثاق من أن أكبر السفن تستطيع أن تمر منها[4] . وكان بخوزستان شرقي مدينة سوسة القديمة قنطرة ديزفول (؟) ، وطولها ثلاثمائة وعشرون خطوة ، وعرضها خمس عشرة ، وكانت تقوم على اثنتين وسبعين اسطوانة، ويسميها ابن سرابيون قنطرة الروم[5] . وكان بالأهواز قنطرة هندوان وهي من الآجر ، وعليها

---

(١) صورتها موجودة في كتاب Hugo Grothe Geographische Charakterbilder aus der asiatischen Türkei .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢١٠ .

(٣) Bretschneider, Med. Res. 1, 75.

(٤) كتاب الوزراء ص ٢٥٧ .

(٥) Le Strange, p. 239.

مسجد يشرف على النهر[١] . وكان بالقسم الأعلى من نهر قارون قنطرة ايذَج التي يقول ياقوت إنها من عجائب الدنيا المذكورة ، لأنها مبنية بالصخر على واد يابس بعيد القعر ، وكانت تقوم على دعائم ، ارتفاع كل منها مائة وخمسون ذراعاً ، تشدّها قضبان من الحديد ، وقد أُنفق على إصلاحها في آخر القرن الرابع مائة وخمسون ألف دينار[٢] .

أما أعجب قنطرة في البلاد الإسلامية كلها فقد كانت مبنية على الطريقة الأوروبية ، وهي قنطرة سِنجة التي بناها الإمبراطور فسبازيان على نهر سنجة أحد أفرع دجلة على مقربة من سميساط ، وكانت تعد من عجائب الدنيا ، وكانت « كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوّخ ، إذا زاد عليها الماء اهتزت » ، وكانت عقداً واحداً ، كل حجر من أحجاره عشرة أذرع في خمسة[٣] .

أما أعظم الجسور الخشبية فربما كانت القنطرة التي على نهر طاب بين خوزستان وفارس ، فقد كانت « معلقة بين السماء والماء ، وبينها وبين الماء عشرة أذرع[٤] » . وقد انفرد المطهر المقدسي ، أحد علماء القرن الرابع الهجري ، بذكر قنطرة خُتَّن في بلاد ما وراء النهر ، وكانت معقودة من رأس جبل إلى جبل ، وهو يقول إن أهل الصين عقدوها في الدهر القديم[٥] .

---

(١) المقدسي ص ٤١١ .

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٤١٦ .

(٣) عمد المنسوب للثعالبي .ZDMG, VIII 524 f ، والاصطخري ص ٦٢ ؛ والتنبيه للمسعودي ص ٦٤ ، ١٤٤ ، والمقدسي ص ١٤٧ و Le Strange, The lands of the eastern Caliphate, p. 124 ،وقد لاحظ بعض رحالة الرومان أهمية هذه القنطرة، فيشار إليها في كتاب : .Tab. Peut بعبارة : نحو قنطرة سنجة pontem Singe ، انظر : Miller, Itin. Romana p. 756 .

(٤) ابن حوقل ص ١٧٠ .

(٥) كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ص ٩٢ .

وكانت توجد معابر على الأنهار كالتي كانت عند الخابور فيما بين النهرين ، حيث يشدّ الملاح ، وهو على ظهر المركب ، حبلا مثبتاً على الشاطىء الآخر ، حتى يصل إليه ؛ غير أني لا أعرف إلى أي تاريخ ترجع هذه الطريقة ، وهي مستعملة إلى اليوم في حوض نهر التاريم[١] .

أما البريد فهو اختراع قديم جداً ؛ ولكن الفضل في تقدمه يرجع إلى ما قا مبه دارا الأول من ربط أجزاء الإمبراطورية الفارسية في الشرق الأدنى[٢] . ونجد أن أكثر مصطلحات البريد التي كانت مستعملة أيـام الخلفاء فارسية الأصل ، ومنها الفرانق[٣] ، والفيـج[٤] ، والشاكري[٥] ، بمعنى راكب البريد ؛ والأسكدار ، وهو السجل الذي يُدوَّن فيه عدد حقائب البريد والخطابات ، ويُثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها .

ويظهر أن البريد اخترع في وقت معيَّن ، إذ نلاحظ أن دواب البريد عند الروم والمسلمين والصينيين جميعاً كانت علامتها تحذيف أذنابها . غير أن الروم كانوا يستعملون الخيل في حمل البريد[٦] ، وكذلك كان

---

(١) Sven Hedin, Durch Asiens Wüsten, II, 152.

(٢) وتورد الروايات العربية ذلك ، انظر الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٢٩ (؟) .

(٣) وقد استعمل هذا اللفظ من قبل امرئ القيس في شعره ، انظر Ahlwardt, Six Diwans, p. 130, Vs. 27.

(٤) ومعناها الساعي على قدميه ؛ ويلاحظ أثر كلمة ped الرومية في هذه التسمية ، ولهذا اللفظ صيغة هندية هي كلمة بانك ، انظر عجائب الهند ص ١٠٦ .

(٥) معناه الصياد ؛ وقد استعمل الخوارزمي في القرن الرابع هذا اللفظ في رسائله (ص ٦٣) .

(٦) ابن خرداذبة ص ١١٢ .

الحال عند ملوك العرب في الجاهلية[1] ؛ وكان ملوك الصينيين وملوك الإسلام[2] يستعملون البغال في بُرُدهم[3] •

وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربي الفرات ، أما في شرقيه فبالفراسخ[4] ، ولم يكن عند العرب ما يسمون به علامات المسافات إلا كلمة « ميل » المأخوذة من الرومية ؛ فقد استعملت هذه الكلمة في بلاد لم تدخل في حكم الرومان قط[5] • ويظهر أن الفرس لم يستعملوا ذلك في بُرُدهم[6] • أما في شطري الدولة الإسلامية فكانت توجد محطات للبريد تسمى السكك ؛ وهي مزوّدة بالخيل والراكبين على مسافات معينة ، كل ثلاثة أميال أو فرسخين[7] • وربما كان راكب

---

(١) الكامل للمبرد طبعة مصر ١٣٠٨ ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) يلاحظ الأستاذ مرجوليوث في الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، أن هذا يظهر انه غير محقق ، فإن هذه الحيوانات تسمى فيما بين أيدينا من أوامر محفوظة على أوراق البردي بالدواب ، ومعناها الخيل عادة ؛ وعندما تكلم صاحب الفخري عن البريد ذكر الخيل خاصة.

(٣) سلسلة التواريخ ص ١١٣ ؛ وتحذيف أذناب الدواب لتعليمها مذكور في الجاهلية (انظر .Ahlwardt, Six Diwans, S. 138, Vs. 28) . وذكر حمزة الأصفهاني (تاريخ سني ملوك الأرض ج ١ ص ٢٩ طبعة Gottwaldt أن كلمة بريد مشتقة من لفظ بريدة ذنب الفارسية ؛ عربت وحذف نصفها الآخر ؛ وانظر كتاب تاريخ ملوك الفرس للثعالبي طبعة زوتنبرج ص ٣٩٨ .

(٤) الفرسخ ثلاثة أميال — ابن خرداذبة ص ٨٣ ، والمقدسي ص ٦٦ ، وكتاب البدء والتاريخ للمطهر المقدسي ج ٤ ص ٩٠ .

(٥) مثال ذلك فيما يتعلق بجزيرة العرب ما جاء في كتاب الخراج لقدامة ص ١٩٠ ؛ وفيما يختص بالمشرق انظر ابن رسته ص ١٦٨ .

(٦) وكان في الهند من أقدم العصور أعمدة مقامة كل عشر مراحل لتعليم الطريق والمسافات ، انظر Strabo, XV, 1 .

(٧) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٦٣ ، والمقدسي ص ٦٦ ، ويقول المقدسي إن في البريد خلافا ، فهو بالبادية والعراق اثنا عشر ميلا ، وفي الشام وخراسان ستة ، وهذا خلاف ما أورده قدامة فيما يختص بالعراق ؛ ويغلب على الظن أن إطالة المسافة بين الأميال حدثت في زمن متأخر عندما تحول العراق إلى صحراء ، وقد قدر ابن خرداذبة سكك البريد في المملكة الاسلامية كلها بتسعمائة وثلاثين سكة (ابن خرداذبة ص ١٥٣) .

البريد يركب الطريق كله ؛ ويدل على ذلك ما حكاه الصولي عن رجل يعرف بالخلنجي كان يحمل الخريطة من مكة إلى بغداد ، ويسبق بأخبار الحج[1] ، أي أنه كان يقطع المسافة كلها . وكان بين المغرب والمشرق شبه تبادل دولي في البريد ، فكان بريد الترك يصل إلى يوشجان الأعلى ، وهو حد الصين[3] ، وكان بريد آسيا الصغرى يواصل الرحلة إلى القسطنطينية[2] ، وكان لهذا البريد سكة كل ثلاثة أميال .

وكانت أهم طرق البريد هي :

١ ــ من بغداد إلى الموصل ، ومدينة بلد[4] بحذاء دجلة ، ثم يخترق ما بين النهرين إلى سنجار ونصيبين ورأس عين والرقة ومنبج وحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة وغِفار والقاهرة والإسكندرية ومن ثم إلى قيرين[5] .

٢ ــ من بغداد إلى الشام مع الضفة الغربية للفرات[6] ، مارّاً بالأنبار ، وكان يعبر إلى الضفة الغربية للفرات عند هيت ، وكانت حركة

---

(١) الأوراق للصولي ، مخطوط باريس ص ١٣٦ .

(٢) ابن خرداذبة ص ٢٩ .

(٣) ابن حوقل ص ١٣٠ .

(٤) أما الطريق الكبير الذي يسير من المدائن إلى حرّان ماراً بحترا ، والمبين في خريطة Peutinger فكان قد هجر منذ زمن بعيد .

(٥) الخراج لقدامة ص ٢٢٧ وما يليها .

(٦) كان الطريق قديماً يسير بحذاء الشاطىء الشرقي للفرات؛ انظر الخريطة التي عملها Peutinger .

المرور في هذا الطريق عظيمة ؛ ففي عام ٣٠٦ هـ ـــ ٩١٨ م كان ارتفاع خراج المرور عند هيت ثمانين ومائتين وخمسين ديناراً[1] .

أما الطريق بين دمشق وبين مدينة دير ، وهو طريق" كان له شأن عظيم في الزمن القديم ، ولا يزال مطروقا إلى اليوم على قلة ، وكانت تقوم على طوله أماكن للحراسة ، فلا نجد لأصحاب كتب المسالك كلاما عنه ؛ ولم يشر إليه المقدسي ، مع أنه وصف مسالك صحراء الشام وصفاً دقيقاً مسهباً . ولم يكن يوجد في ذلك الزمان بريدُ الجمال بين بغداد ودمشق ، وهو البريد الذي يجري بانتظام في أيامنا . وكان الطريق الذي يسلكه هذا البريد وهو طريق هيت ـــ دمشق يعتبر أقصر طريق بين بغداد والشام ، وكان بعض المسافرين يجتازونه على ظهور الدوابّ ؛ وكان عامل هيت عند ذلك يبعث مع المسافرين خفّارة من البدو[2] .

٣ ـــ أما الطريق الرئيسي إلى المشرق فكان يسير خلف بغداد ، ويعبر قنطرة النهروان ، ثم يسير وراء حلوان ، في جبال وصعود وهبوط ، فيما كان يعرف قديماً بميديا ؛ ثم يرتقي عقبة مشهورة ، فيها قوم يبيعون التمر والجبن ، ويواصل الصعود وراء أسعد آباد ، حتى بلغ همذان[3] ؛ وهذا الطريق مبيّن على الخرائط القديمة ، وهو بلا شك الطريق الذي كانت تسلكه ملوك فارس عند انتقالها من مشتاها في العراق إلى مصطافها في إكباتانا المرتفعة ، ثم يستمر الطريق الى الريّ

(١) V. Kremer, Einnahmebudget, 307.

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ٧٦ ، وكان آخرون يأخذون طريقا آخر يتفرع من هذا عند نقطة أعلى ، على مجرى الفرات ، ثم يدورون حول الرصافة ، ويسيرون إلى دمشق ، وفي عام ٤٤٠ هـ ـ ١٠٤٨ م فعل هذا ابن بطلان ليصل إلى حلب (أخبار الحكماء للقفطي ص ٢٩٥) ، وكان يخشى فيه من نهاية البدو ، انظر الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) ابن رسته ص ١٦٧ .

(على مقربة من طهران الحالية) ونيسابور ومرو فبخارى وسمرقند ؛ وكان الطريق يسير بعد سمرقند إلى الصين ، إذ نجد المقدسي يذكر أنه كان بهذه المدينة باب يسمى باب الصين[١] . أما اجتياز هذا الإقليم الواقع بين الترك والصين فكان يتوقف على ما يكون فيه من الأمن ؛ لأنه كان دائماً معدن الخوف ، ففي طوال عصر صدر الإسلام — بل في أثناء القرن الرابع من الهجرة — كان الناس لا يميلون إلى اتخاذ أقصر الطرق التي تخترق هذا الإقليم — وهو الطريق الذي يجتاز فرغانة وحوض التاريم ، وكان أهل الصين يؤثرونه في القرن الثامن الميلادي[٢]، وسار معه فيما بعد الرحالة الكبير ماركو بولو — فلا نجد له ذكراً عند المؤلفين . على أن المسافرين من أوزكند في فرغانة العليا لم يكونوا يجتازون ممرات علايا ، بل كانوا يسيرون في ممر أطباس بين قرى متصلة متقاربة ، سالكين طريقاً صعباً ، إذا وقعت الثلوج لم يسلك مسيرة يوم » ، ومن ثم يواصلون السير إلى برشان الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة يسك[٣] ؛ وهنا يتصل هذا الطريق بالطريق الواصل

---

(١) المقدسي ص ٢٧٨ .

(٢) Richthofen, China, I, 456.

(٣) ضبط اسم هذا المكان وموقعه بعد نشر كتاب الجردوزي (طبعة بارتولد ص ٨٩ وما بعدها) وربما كان قول قدامة (ص ٢٠٨ من كتاب الخراج) إن أطباش مدينة على عقبة مرتفعة بين التبت وفرغانة ويوشجان ، هي الحجة التي استند إليها دي غوي في قوله إن يوشجان هي الاقليم الذي يقع حول ختن (De Goeje, De Muur van Gog en Magog, Vers. der Amsterd. Acad. 1888, 114.) ؛ ولكن العبارة لا تستقيم مع هذا ، لان من الواضح ان الطريق إلى ممر أوش نحو اوز كند يتجه إلى الشمال ، وتتجلى حقيقة الامر إذا عرفنا ان حوض التاريم كان بعد إذ ذاك داخلا في إقليم التبت على ما حكاه أبو دلف (معجم ياقوت ج ٣ ص ٤٤٧) . وقد ذكر المطهر المقدسي (ج ٤ من كتاب البدء والتاريخ) أن ختن هي قصبة التبت ، وهذا يطابق ما ورد في النصوص الصينية ، ففي القرن الثامن الميلادي كانت البلاد الواقعة بين جبال التين وتيان شان تؤدي الجرية إلى التبت J. A., 1900, XV, 24 ، وظلت التبت محتفظة بها معظم القرن التاسع ، ثم انسلخت عنها، ودخلت في حوزة الأتراك الاويرانية والخرلوكية JRAS, 1898, S. 814. وفي قول ابن =

من سمرقند إلى الصين ، وهو الذي كان يسير إلي برشان على قنطرة كبيرة فوق نهر الشاش وطراز (أولي عطا) وبركي (مِرْكا)[1] ؛ وبقية هذا الطريق يعينها لنا الجردوزي في كتابه زين الأخبار (الذي ألفه حوالي عام ١٠٥٠ م) ، فيقول إن الناس كانوا يسيرون من بنشول إلى كوشا في حوض نهر التاريم ، ثم ينحرفون شرقاً حتى يصلوا إلى تشينان تشكت على حدود الصين[٢] .

وقد سلك هذا الطريق حوالي عام ٦٣٠ م الرحالة الصيني سوين تسانج Hsüen-Tsang ، وذلك بأن سار من كوشا مارا ببلوكيا (ولعلها التي ذكرت في كتاب الجردوزي باسم بتشول ، وربما كانت مدينة أكسو الحالية) إلى بحيرة يسك[٣] . بل نجد في عصرنا هذا أن الطريق الرئيسي الذي يصل أواسط حوض التاريم بطشقند يمر بأكسو وممر بِدِل وقرقول وبشجك وأولي عطا[٤] .

ومن أسف أننا لا نعرف الطريق الذي سلكه سلاّم في القرن الثالث الهجري ، لما بعثه الخليفة في كشف سد يأجوج ومأجوج ؛ ولا الطريق الذي سلكه أبو دلف في القرن الرابع ، حينما ذهب مع الوفد

= خرداذبة (ص ٣٠) إن اطباش مدينة علي عقبة مرتفعة بين التبت وفرغانة دليل على ان شرقي التركستان كانت التبت . ونجد الادريسي (ترجمة جوبير ج ١ ص ٤٩) في منتصف القرن السادس الهجري يسمى ختن قصبة التبت . واخيراً فإن مما يبطل راي دي غوي ما جاء في كتاب ابي الفدا (طبعة رينو ص ٥٠٥) نقلا عن البيروني والجردوزي والسمعاني (المتوفى عام ٥٦٢ هـ ـ ١١٦٧ م) من تسمية ختن باسمها الحالي .

(١) ابن خرداذبة ص ٢٨ وما يليها ، وكتاب الخراج ص ٢٠٤ وما بعدها ، والمقدسي ص ٣٤١ .

(٢) الجردوزي ص ٩١ .

(٣) Richthofen. China, I, 540.

(٤) S. Hedin, Durch Asiens Wüsten, I S. 466.

الذي أرسل إلى الصين أيام المخاطبات بين السامانيين وملك الصين[1] .
على أن المسعودي يقول إنه لقي كثيرين ممن رحلوا إلى الصين ، وعرف منهم أن الطريق من خراسان إلى بلاد الصين يمر ببلاد الصغد ، وأنه يمر بالجبال التي يؤخذ منها النوشادر . ويؤخذ من هذا أن طريق الصين كان في القرن الرابع هو الطريق الذي وصفه سوين تسانج والجردوزي ، لأن في الروايات الصينية ما يدل على أن هذه الجبال داخلة ضمن سلاسل تيان شان شمالي كوشا[2] . ولم يوصف هذا الطريق إلا بعد ذلك بمائتي عام ؛ وكان الإدريسي أول جغرافي عربي وصف الطريق الذي يسير من فرغانة إلى حوض التاريم مارا بهضبة البامير ، وذلك حوالي عام ٥٥٠ هـ ــ ١١٥٥ م[3] ؛ وربما كان لهذا علاقة بما حدث في ختام القرن الرابع الهجري من فتح أمراء البُغَرا لغربي بلاد ما وراء النهر ونقلهم قصبتهم إلى كشغر في تركستان الشرقية ، مما أدى إلى عودة الطريق إلى ناحية مميزات البامير .

وينحرف طريق البريد عند مرو مار¨ا بوسط إقليم خراسان ، ولا يقصد رأساً إلى بلخ بل يدور دورة عظيمة قدرها ثلاثمائة كيلومتر حول نهر مرو ، حتى يصل إلى مرو الروذ ؛ وهذا يطابق تماماً ما كان عليه الحال في الوقت الذي عملت فيه خريطة بويتنجر Peutinger ؛ وعلى فرسخ من هذا الموضع تبدأ سلسلة الجبال التي يجتازها الطريق ماراً بمنخنق فيها ، حتى يصل إلى طالقان ؛ وبعد بلخ يعبر نهر جيحون على مقربة من ترمذ ، ثم يفضي إلى فرغانة عند الراشت[4] .

---

(١) De Goeje, ، وانظر Marquart, Osteuropäische Streifzüge, S. 74 ff. De Muur..., .

(٢) Richthofen, China I, 560. ، وذكر ذلك أيضا الرحالة الصيني وانج ين تي ، الذي سافر بين عامي ٨٨١ ، ٨٨٣ م انظر : JA, 1847, Vol. I, 63 .

(٣) Richthofen, China, I, 562. .

(٤) كتاب البلدان لليعقوبي ص ٢٨٧ ، وكتاب الخراج لقدامة ص ٢٠٩ وما يليها .

أما الطريق الذي يقطع إيران عرضاً من شيراز إلى نيسابور ماراً بيزد فقد لاحظه ابن خرداذبة ، وأشار إليه في كتابه (ص ٥٠) ؛ ولكننا لا نجد له ذكراً عند ابن رسته ولا عند قدامة ؛ وربما كان سبب ذلك القلاقل التي كانت تسود شرقي فارس ، والتي زادت شر اللصوص في الصحراء الواقعة بين يزد وطبس •

وكان عضد الدولة ، (المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م) ، أول من أقرّ الأمن في هذه الربوع ؛ ودرج حكام فارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء اللصوص واستبدال غيرها بها بين الحين والحين ، لتستطيع القوافل المسافرة في حراسة الحكومة اجتياز هذا الإقليم آمنة• وحوالي منتصف القرن الرابع الهجري ابتنى عضد الدولة مخفراً ، معه خزان للماء العذب ، وقد وصفه المقدسي بقوله : « ورباط آب شنشران هو معدن الخوف ، ومأوى الكوج ؛ به قناة عذيبية ، تصب إلى بركة ؛ والرباط حسن ، ما رأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم ، من الحجارة والجص ، على عمل حصون الشام ؛ وعليه أبواب حديد ، وهو شديد العمارة ، وفيه قوم يحفظونه ، بناه ابن سيمجور صاحب جيش ملك المشرق[١] » • ولكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمّن الطريق ؛ فالمقدسي نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة في سبعين يوماً ، مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخاً بتقدير ابن خرداذبة ، وذلك لأن قافلته ضلّت سبيلها ، ولأن الطريق كان — على قوله — مخوفاً من قوم « يقال لهم القفص ، يسيرون إليه من جبال كرمان ؛ قوم لا خلاق لهم : وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، وبأس وجلادة ؛ لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بالمال ، حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار ، كما

---

(١) المقدسي ص ٤٩٣ ؛ وفي عام ١٨٨١ م و ١٨٩٢ م اقام بعض أهل يزد بناءاً فخما للمسافرين عند ملتقى الطريقين من طهران إلى طبس ومن يزد إلى طبس . انظر Sven Hedin, Zu Land nach Indien, II, 37 ff.

تُقْتَل الحيّات ، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة ، حتى يتصدع[1] » .

أما طريق الحج من بغداد فكان يعبر الفرات عند الكوفة ، ويفضي إلى الصحراء عند العُذَيْب[2] . وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، ولم تكن فريضة الحج وحدها هـي التي تجذب هذه الجماعات ، بل كان يغريها أمانُ الطريق أيضاً في حماية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تنهال إلى هناك من شتى النواحي . فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٣٣١ هـ ــ ٩٤٣ م إلى الشام ومصر ، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان[3] . وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام مـن البوزنطيين ، ففي عام ٣٣٥ هـ ــ ٩٤٦ م التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارّين بمكة ، وكان فيهم قاضي طرسوس ، ومعه مائة وعشرون ألف دينار[4] .

وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثالث الهجري يتجه نحو القيروان ، وفي ذلك الحين كانت دولة بني الأغلب الأقوياء قد أقرّت الأمن ومنحت الطرق جانباً من عنايتها ، فكان على طول الساحل محارس ومخافر ، وكان السفر مأموناً[5] .

(١) المقدسي ص ٤٨٨ وما يليها .

(٢) كتاب الخراج لقدامة ص ١٨٦ .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ٧١ ا .

(٤) نفس المصدر ص ٩٨ ب .

(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٤ (؟) .

وكان يخرج من مصر السفلى طريقان عظيمان إلى المغرب : أحدهما يسير بحذاء الساحل ، كما كان الحال في الزمن القديم ؛ والآخر يسير جنوباً . وكان البريد يتخذ الطريق الثاني أول الأمر (وكان يسمى طريق السكة)[١] ، ثم عُدل عنه بعد ذلك إلى طرابلس ، ومنها كان يقصد إلى القيروان رأساً ، وبعدها يسير بحذاء الساحل ؛ وكانت الأميال معلّمة ، وطول المسافة من القيروان إلى السوس الأدنى على المحيط الأطلسي ألفان ومائة وخمسون ميلا[٢] . وكان هذا هو الطريق الرئيسي الذي يصل الأندلس بالمشرق[٣] . وكان هناك طريق آخر جنوبي يمر بالواحات الداخلة والكفرة[٤] ، ويتجه إلى السودان الغربي متجهاً غابة وأودغشت ؛ فعُدل عنه في القرن الرابع إلى طريق سجلماسة ، وذلك لتواتر الرياح ، وترادف عدوان اللصوص على القوافل[٥] .

وكان البريد مخصصاً لأعمال الحكومة ، وكان يجري لبني العباس[٦] ؛ ولم يكن يحمل الناس إلا في حالة الضرورة القصوى ، نظراً لما في ذلك من المتاعب ، كالذي رواه البيهقي من أن « صاحب بريد حضر من قبل الخليفة إلى المازني ، فحمله على دابّة من دوابّ البريد ، حتى وافى به باب الواثق »[٧] ؛ وكانت تُحمل فيه إلى جانب الرسائل أشياءُ تُبعث للسلطان ، مما يحتاج إلى سرعة الإيصال ؛ فمن ذلك أن

---

(١) لهذا لا يتكلم قدامة عن الطريق الساحلي ـ انظر كتاب الخراج ص ٢٢٢ .

(٢) ابن خرداذبة ص ٨٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٥ (؟) .

(٤) J. Marquart, Beninsammlung, S. CV.

(٥) ابن حوقل ص ٤٢ .

(٦) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٦٣ .

(٧) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٤٢٩ من الطبعة الأوروبية .

البريد كان يحمل إلى المأمون ثماراً غضة من كابل أثناء ولايته على خراسان[1] ، وأيضاً ما يحكيه ابن طيفور من أنه كان « يُرسل لأمير المؤمنين مع البريد رطب وألطاف ، كأنما جُنيت من ساعتها »[2] .
وحينما فتح جوهر مراكش للخليفة الفاطمي وبلغ المحيط الأطلسي ، أرسل إليه من هناك سمكا في زجاجة ، ليقيم له الدليل على وصول ملكه إلى البحر المحيط[3] .

وكانت تنظم أثناء الحروب بُرُد" حربية لشئون الحكومة ؛ فمن ذلك أنه لمـــا استطال صاحب القيروان على أرض مصر ، أنهض المقتدر مؤنساً الخادم ، وندب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام ٣٠٢ هـ ــ ٩١٤ م . وتقدم علي بن عيسى بترتيب الجمّازات من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم[4] . وكذلك كان معز الدولة هو الذي أحدث أمر السعاة وأعطاهم الجرايات الكثيرة ، لأنه أراد أن يبلغ أخباره لأخيه ركن الدولة[5] ؛ وقد تهافت شبان بغداد على هذه الحرفة الجديدة ، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم على ذلك . وقد امتاز من هؤلاء السعاة اثنان ، كان كل منهما يقطع ما يزيد على الأربعين فرسخاً (حوالي ١٨٠ كيلو متراً) من مشرق الشمس إلى مغربها،وكانا أثيريْن عند عامة الناس ، وقد أورد المؤرخون ذكرهما،

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٠٢ .

(٢) كتاب بغداد لابن طيفور ص ٣٤٧ ــ ٣٤٨ .

(٣) De Goeje, ZDMG, 52. S. 76.

(٤) عريب ص ٥٣ .

(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ٣٤ ب ، وراجع Quatremère, Hist. Maml. II, 289. نقلا عن كتاب الانشاء ، ولا تزال كلمة ساع هي اسم حامل البريد إلى اليوم .

وهما : فضل ومرعوش ، وكان أحدهمـا ساعي السنّة والثاني ساعي الشيعة[1] .

وكان يقام حصن عند كل فرسخ من الطريق . والراجح أن الحكام في ذلك العصر عـدلوا عـن استعمال الخيـل في البريد إلى اتخـاذ الجمّازات[2] ، فمثلا نجد ابن العميد لما أراد اللحاق بأميره في فارس عام ٣٦٤ هـ ـ ٩٧٥ م بغاية السرعة ، اتخذ الجمّازات .

وكان يوجـد إلى جانب ذلك في بعض النواحي بُرُد" خاصة ، وذلك في المسافات القصيرة ، وهي عبارة عن جماعات منظمة من السعاة. وقد اشتهر في القرن الخامس الميـلادي جماعة مـن حملة الخطابات بالسرعة ، وهم المسمّون سيماكوي في مصر السفلى ، وكانوا لا يزالون موجودين في القرن الثامن الميلادي بدليل ما نجده في إحـدى ورقات رينر البردية . ويحدثنا ڤانسلب Wansleb أحد المؤلفين المحدثين فيقول: « من أراد أن يكون ساعياً في الإسكندرية فلا بد أن يحمل شعلة في سلة على هيئة موقد مثبّت في عمود ، طوله قامة رجل ، وله حلقات من حديد، وأن يقطع المسافة التي بين الإسكندرية ورشيد وطولها سبعة وعشرون ميلا ، ويعود في يومه ، قبل مغيب الشمس »[3] .

أما استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة ، فلم

---

(١) المنتظم ص ٣٤ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٨٠ ، وانظر لطائف المعارف للثعالبي ص ١٥ ، وهو يقول إن الجماز مشتق من جمز ، ولا تزال أسرع الجمال بفارس هي الجمال البلخية ، والواحد منها يسمى جمبس، ويقطع في اليوم مائة كيلومتر بلا أقل مشقة (انظر Sven Hedin, Zu Land nach Indien, II, 346 ff.) ، وكلمة جمبس فارسية الأصل .

(٣) Führer durch die Ausstellung Rainer S. 53.

يكن عند المسلمين في البلاد التي كانت تابعة للدولة البوزنطية من قبل ؛ لأن هذه الدولة كانت تستعملها . أما في غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعمل ؛ ويقال إنها استخدمت استخداماً حسناً في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي؛فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات إلى أربع ، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا في سنة ٤٤٠ ـ ١٠٤٨ م ، حينما ثار المغرب على الفاطميين ، ولم يعد في إمكانهم حماية الحصون من البدو[1] .

على أن المسلمين خطوا خطوات واسعة في تنظيم نقل البريد بواسطة حمام الزاجل الذي كان معروفاً أيام الرومان[2] ؛ ويظهر أن مؤسس فرقة القرامطة في القرن الثالث الهجري كان أول من نظمه واستعمله على صورة واسعة النطاق ، فجعل لنفسه من أول أمره طيوراً تحمل إليه في مقره بالعراق أخباراً من جميع البلاد ، ليستعين بذلك على الشعبذة والإخبار بالغيب[3] .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد أخباراً كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق ؛ فمن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة عام ٣٠٤ هـ ـ ٩١٦ م ، وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه في يومه[4] .

وحكى عريب في حوادث عام ٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م أن القرامطة لما

---

(١) المراكشي ترجمة فاجنان Fagnan ص ٢٩٩ .

(٢) Diels, Antike Technik, S. 68.

(٣) De Goeje, Mém. sur les Carmathes p. 207 ، وكان أول ما ذكر خبر الحمام الزاجل بالصين حوالي عام ٧٠٠ م ، والظاهر ان تجار العرب أو الهنود كانوا أول من جلبه إلى هناك ، (انظر ترجمة كتاب الرحالة Chau-Ju-Kua ص ٢٨ هامش رقم ٢) .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٣ .

دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد بن العباس قبل أن يجيء الخبر إلى البصرة بأربعة أيام ، ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القرامطة بذلك ، وأن الخبر أتاهم من وقته في جناح طائر[1] . ولما قرب القرمطي من الأنبـار تشوّف المقتدر إلى معرفة أخباره ؛ فلما عرف أبو علي بن مقلة ذلك ، طلب أطياراً وأنفذها إلى الأنبار ، وكُتِبَ له عليها أخبار القرمطي وقتاً بعد وقت[2] .

ولما اشتد خطر القرامطة في هذه السنة نفسها (٣١١ هـ ٩٢٣ م) رتّب الوزير علي بن عيسى بين بغداد ونهر زيار المرتّبين ، وسلم إليهم مائة طائر إلى مائة رجل ، ليكتبوا له على أجنحتها كتباً بخبر العدو في كل ساعة[3] .

وفي سنة ٣٢١ هـ ــ ٩٣٣ م ، استطاع ابن قرابة أن يحمل إلى الوزير ابن مقلة أخبار سلامة الكوفة من القرمطي ، لأن أطيار جاره ــ وكان من أهل الكوفة ــ حملت إليه أنباء أصدق مما حملته أطيار صاحب المعونة المعيّن في الكوفة من قبل الوزير ؛ فتعجب ابن مقلة من أن يكون ابن قرابة أعرف بأخبار صاحب المعونة[4] .

ومن غريب أخبار سنة ٣٢٨ هـ ــ ٩٤٠ م أن طائراً وقع لغلمـان بجكم ، فوجدوا على ذنبه كتاباً من بجكم ، بخط كاتبه إلى أخيه ، يعرفه فيه أخبار بجكم وأسراره[5] .

---

(١) عريب ص ١١٠ وما يليها .

(٢) مسكويه ج ٥ ص ٣٠٦ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٣٥ ، ٢٤٠ .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٢٩٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٤١٦ .

(٥) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٢ ، ونجد مثل هذا كثيراً في التواريخ المتأخرة .

وذكر الثعالبي أن الرسائل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار في يوم وليلة[١] . وفي النصف الثاني من القرن الرابع كان عند محمد بن عمر أبي الحسن الشريف ــ وكان علويا وجيها متمولا ببغداد ــ طيور كوفية، وبالكوفة طيور بغدادية ، وكان يكتب على الطير إلى الكوفة فيأتيه الخبر في ساعة أو نحوها[٢] ؛ وكان هذا الشريف جالساً عند الوزير مرة ، فوصل إلى الوزير خبرٌ وصول رسول القرامطة إلى الكوفة ، وأنه لا بد من الكتابة إلى الكوفة بالقيام بالواجب مع الرسول ، فأرسل الشريف إلى الكوفة بالخبر ، وجاءه الرد بوصول الكتاب وامتثال الإشارة ،وهو جالس مع الوزير ، وكان هذا يحسبه متهاوناً في الأمر[٣] .

وكانت الحكومات بالجملة لا تتعرض للأفراد المسافرين ؛ ومن الثابت أنه لم يكن بالمشرق في القرن الثاني الهجري على أبواب المدن من يسجّل أسماء من يدخل ابوابها[٤] . وقد تكلم أحد الرحالة العرب في النصف الأول من القرن الثالث الهجري عن جوازات المرور عند الصينيين بشيء من التعجب ، كأنها عنده شيء غريب[٥] . أما في مصر فقد كان فيها منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور ، فلم يكن أحد

---

(١) عمله المنسوب للثعالبي :ZDMG, VIII. S. 512 .

(٢) عمدة الطالب للأصيلي ، مخطوط باريس رقم ٢٠٢١ ص ١٧٠ ا ، ١٧٠ ب .

(٣) نفس المصدر ، والمنتظم لابن الجوزي ص ١٤٥ ا وانظر مسكويه ج ٦ ص ١٣ ، ١٩ ، ٤١٢ .

(٤) كتاب الاغاني ج ١٩ ص ١٤٧ ، أمر المنصور أحد قواده بالجلوس على جسر النهروان ليتصفح الناس ويعثر على المؤمل الشاعر ، وكان له عن ذلك مندوحة لو كان هناك نظام تسجيل الواردين .

(٥) سلسلة التواريخ ، طبعة رينو ص ٤٢ .

يستطيع أن يترك الناحية التي يقيم فيها إلى ناحيــة أخرى بدون إذن أولي الأمر ؛ ويقال إن عامل مصر أصدر أمره عام ١٠٠ هـ ـ ٧٢٠ م بأن يقبض على من وجد مسافراً أو متنقلا مــن مكان إلى مكان مــن غير سجلّ ، وإذا وُجد صاعداً أو نازلا مــن مركب أوقعت الحوطة على المركب وحرق بما فيه ؛ ولدينا طائفة من هذه السجلات أو الجوازات وجدت ضمن ما عثر عليه من أوراق البردي[١] . ويؤخذ من رواية لابن سعيد أنه كان لا بد من جواز للخروج من مصر ؛ ولا بد أن يدرج في هذا الجواز كل من يرافقون المسافر، ولو كانوا عبيده[٢]. أما في المشرق فكان الأمر على خلاف ذلك ، حتى نجد المقدسي يستنكر ما حدث في أيام عضد الدولة من أنه كان لا يدخل أحد مدينة شيراز أو يخرج منها إلا من كان يحمل جوازاً[٣] .

*

(١) C. H. Becker, Der Islam, II, 369.

(٢) المغرب لابن سعيد طبعة فولرز ص ٥٣ .

(٣) المقدسي ٤٢٩ .

الفصل التاسع والعشرون

الملاحة البحرية

قضت الظروف الجغرافية بأن تتنوع الملاحة البحرية في مملكة الإسلام في بحرين منفصلين تماما وهما : البحر الأبيض ، والمحيط الهندي ؛ وذلك لأن برزخ السويس كان حائلا دون اتصال هذين البحرين ؛ فكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض إلى الهند أو شرق آسيا مضطراً إلى حمل بضائعه على الظهر عند الفرما ، ثم يسير في الصحراء سبع مراحل حتى يصل إلى القلزم (Klysma اليونانية)وهناك يستطيع حملها في المراكب مرة أخرى .

وكان نوع السفن التي تستعمل في أحد البحرين يختلف عنه في الآخر ؛ فكانت مراكب البحر الأبيض ذات مسامير ، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي فكانت تخاط بحبال الليف[1] ؛ وكانت هذه هي الطريقة القديمة في إنشاء السفن عند جميع الأمم . ويذكر ابن جبير في القرن السادس الهجري طريقة إنشاء السفن على هذا النحو ، فيقول إن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار ألبتة ، « إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل، يدرسونه حتى يتخيط، ويفتلون منه أمراسا ، يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدسر من

---

(١) ابن خرداذبة ص ١٥٣ ؛ جغرافية الادريسي طبعة براندل (أو بسالا) ص ٢ ؛ والخطط للمقريزي ج ١ ص ٢١٣ ؛ ومروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٦٥ .

عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصفة سقوه بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم في البحر »[1] .

أما في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فيصف الرحالة ماركو بولو المراكب التي كانت تستعمل في هرمز بأنها كانت من أسوإ صنف ومعرّضة من يركبها للمهالك ؛ وذلك راجع إلى أنه لا يُستطاع استعمال المسامير في بنائها ، وإنما كانت تُثقب الألواح قرب أطرافها بأقصى ما يمكن من العناية بمثقاب من الحديد ؛ ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها بعض ، فإذا تمّ ذلك حُزمت أو على الأصح خيطت بعضها ببعض بنوع من الليف يُصنع من قشر جوز النارجيل ، ولا يُطلى المركب بعد ذلك بالقار ؛ بل بزيت يتخذ من دهن الحوت[2] . وهذا الخلاف في طريقة بناء المراكب راجع إلى تقاليد الصناعة للسفن عند كل فريق ، إلا أن المؤلفين علّلوه بأسباب مرجعها إلى المنفعة ، كما هي العادة ؛ فذهب ماركو بولو إلى أن « الخشب الذي كانت تصنع منه هذه السفن من صنف شديد الصلابة عرضة للتصدع والتكسر كالفخار ، فإذا حاول الصناع أن يدقوا فيه مسماراً انشدخ ، وكثيراً ما يتصدع » . أما ابن جبير فيرى أن مقصدهم من دهان الجلبة هو أن « يلين عودها ويرْطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري »[3] . أما المسعودي فيعلّل عدم استعمال المسامير في بناء هذه السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر[4] . وقال آخرون إن السبب هو خوف الملاحين

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٦٧ — ٦٨ ، وجغرافية الادريسي طبعة براندل ص ٢ .
(٢) Marco Polo I, 18.
(٣) رحلة ابن جبير ص ٦٨ .
(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٥ .

من جبال المغناطيس[1] « وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها ، فلهذا لا تستعمل المسامير في هذا البحر خوفاً من جذب جبال المغناطيس لها » .

وكانت مراكب البحر الأبيض أكبر من مراكب المحيط ، فقد حكى مفتش الضرائب تشاو–جو–كوا Chau-Ju-Kua في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، مع كثير من التعجب ، كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف من الرجال ، وعلى ظهرها حوانيت لبيع الخمر والطعام وفيها مغازل[2] . ولم تكن السفن ذات الدفتين موجودة في غير البحر الأبيض[3] . أما التي تجري في المحيط فلم يكن فيها أكثر من طبقة واحدة ، وكانت في معظم الأحيان ذات سارية واحدة[4] . هذا وكانت قيعان السفن التي تسير في البحر الأحمر « عراضاً دون تعميق في تركيبها، لتحمل بذلك كثيراً من الوسق ولا تدرّس على كبير ترس[5] » . وكانت مراكب البصرة بيضاء « مشحمة بالشحم والنورة »[6] . أما المراكب الصينية فكانت أكبر مراكب المشرق ، ولهذا لم تكن تستطيع اجتياز ما يجتازه غيرها من مضايق خليج فارس[7] . وكان مقدار ما

---

(١) عجائب المخلوقات للقزويني ج ١ ص ١٧٢ (طبعة فستنفلد) ، وورد هذا التعليل قبل ذلك في جغرافية الادريسي (ترجمة جوبير ، ج ١ ص ٤٦) نقلا عن كتاب العجائب للحسن بن المنذر (وهو من الذين الفوا في العجائب) اما المطهر المقدسي الذي الف كتابه البدء والتاريخ ، وهو في وسط فارس بعيداً عن البحار ، فقد خلط الأمر وقال إنه لا يمكن لأية سفينة أن تجري في البحر الغربي لأن جبال المغناطيس تجذب المسامير (طبعة هوار ج ١ ص ٨٩) .

(٢) Fr. Mirth, Die Lånder des Islam nach chinesischen Quellen.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٣٥ .

(٤) Marco Polo, I, 18 ; III, 1 .

(٥) جغرافية الادريسي طبعة براندل ص ٢ .

(٦) مروج الذهب ج ٨ ص ١٢٨ .

(٧) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ١٦ .

يؤخذ منها من المكوس في مواني ملبار يبلغ عشرة أضعاف ما يؤخذ من غيرها[1] وكانت ضخامتها الزائدة تثير تعجب أهل كانتون في القرن الثامن الميلادي ، « إذ يبلغ علوُّها عن سطح الماء مبلغاً يضطر الناس إلى استعمال سلالم ارتفاعها عشرات من الأقدام ليصعدوا إلى سطحها ، ولم يكن ربابنتها من أهل الصين »[2] .

وكان أغلى أصناف الخشب الذي تصنع منه المراكب هو شجر اللبخ الذي لا ينبت إلا بانصنا (Antinoe) ، وهو عود تُنشر منه ألواح للسفن ، وربما أرعفت ناشرها (لطولها) ؛ ويباع اللوح بخمسين ديناراً أو نحوها ، وإذا شُدّ لوحٌ بلوح وطُرحا في الماء ستة أيام صارا لوحاً واحداً »[3] .

وكانت البندقية في القرن الرابع تمد العرب بالخشب لبناء السفن مما جعل الإمبراطور البوزنطي يحتج لدى الدوج ، فأمر الدوج بإيقاف بيع الخشب للعرب ، ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذي لا يصلح لإنشاء السفن ، ولهذا شرط أن يكون من اللبخ والسنديان ، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم ، وأذن أيضاً بأن تباع لهم الأدوات المصنوعة من الخشب[4] . وقد شحّ خشبُ السفن

---

(١) نفس المصدر ص ١٧ .

(٢) Hirth u. Rockhill, Chau-Ju-Kua, p. 9.

(٣) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٠٤ نقلا عن كتاب النبات للدينوري وفي هذا الكتاب حرفت كلمة لبخ إلى بنج ، انظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٨١ .

(٤) Scheube, Handelsgeschichte der Romanischen Völker, S. 23 f. ، وكانت مصر تستورد خشب السفن من مدينة البندقية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت تأخذ بعض خشب الوقود من آسيا الصغرى U.J. Seetzen, Reisen, III, 207 f. ويقال إنها في وقتنا هذا تستورد الخشب الذي تصنع منه أشرعة السفن الجارية في النيل من الغابة السوداء بألمانيا

في مصر على أثر ذلك ، حتى إنه لما أراد الوزير عيسى بن نسطوروس أن ينشيء أسطولا يقوم مقام الأسطول الذي كان معداً لغزو الشام ، واحترق ، اضطر إلى جمع الأخشاب من كل الجهات ، « حتى قلعت صَوارٍ كبار كانت مسقفة على دار الضرب بمصر بجانب دار الشرطة وفي البيمارستان الذي في سوق الحمام ، ونشروا جميعها وأعدوا أسطولا آخر »[1] .

وكانت دقات السفن التي تجري في البحار تحرك بحبليْن ، كسفين النزهة عندنا[2] .

ولا يذكر كتاب القرن الرابع شيئاً عن البوصلة ، وقد وصفها القبساقي لأول مرة سنة ١٢٨٢ م[3] ، ثم ذكرها المقريزي (المتوفى عام ٨٤٥ هـ — ١٤٤٢ م)[4] . وكان على ظهر السفينة عدد من المراسي ، يقال لكل منها أنجور بلفظها اليوناني[5] . وكان يستعمل لسبر الأغوار سِبَك"[6] . وكانت القوارب الصغيرة تستعمل لتسيير المراكب ، بالمجاديف ، إذا احتاج الأمر[7] .

وقد دهش ابن حوقل ، مع تدويخه البلدان طوافاً ، من مهارة الملاحين الذين رآهم في تنيس بمصر السفلى ، إذ كانت بحيرة تنيس « قليلة العمق ، يسار في أكثرها بالمداري ؛ وتلتقي السفينتان ، تحك إحداهما الأخرى ، هذه مصعدة ، وهذه نازلة بريح واحدة ، مملاة شرعها بالريح ، ومتساوية في سرعة السير »[8] . وكان بين ملاحي

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ١١٣ ا .

(٢) المقدسي ص ١٢ .

(٣) Klaproth, Lettre sur l'invention de la Boussole, Paris 1834.

(٤) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢١٠ .

(٥) Marveilles de l'rnde, p. 87.

(٦) نفس المصدر ص ٣٠ .

(٧) نفس المصدر ص ٤٦ .

(٨) ابن حوقل ص ١٠٣ ، وقد ذكر ماركو بولو أن الملاحين في المشرق إذا وجدوا الريح غير مواتية استعملوا اشرعة قوارب السفينة متعارضة Marco Polo, III. 2 .

السفينة ملاحٌ غوّاص[1] . وكان الغواصون في مراكب الصين في القرن الحادي عشر زنوجاً يستطيعون الغوص ، وعيونهم مفتوحة[2] .

وحكى رجل من العرب في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أنه كان في مراكب البحر الهندي عادة أربعة من الغوّاصين ، فإذا نفذ الماء في المركب ، وعلا فيه ، عمدوا إلى أجسامهم ، فطلوها بزيت السمسم ، وإلى أنوفهم فسدوها بالشمع ؛ ثم أخذوا يسبحون حول المركب في مسيره ، ويسدّون ثقوبه بالشمع ؛ وهم يستطيعون أن يسدّوا عشرين إلى ثلاثين ثقباً في اليوم[3] .

وروى أحد الثقات في القرن التاسع أنه يوجد على مراكب الفرس التي تمخر عباب البحر كثيرٌ من الحمام ، يستطيع أن يطير بضعة آلاف « لي » (مقياس للمسافة) ؛ وإذا أطلق طار عائداً إلى بلاده رسولاً يحمل أحسن الأخبار[4] .

وكذلك كانت توضع في المراكب التي تجري في المحيط آنية ملأى بالأرز والدهن ، في كل يوم ، طعاماً للملائكة التي تحرس المركب[5] .

ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض خلال القرن العاشر الميلادي ؛ فقد كان بحراً عربياً ، وكان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ودَّ العرب ، كما فعلت نابولي وغيته وأمالفي . ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت في ذلك العصر على حال يُرثى لها من الضعف ؛ ففي سنة ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيد الله المهدي

---

(١) عجائب الهند ص ٧ .

(٢) Chau-Ju-Kua, S. 32 .

(٣) Gildemeister, GGN, 1882 S. 444 .

(٤) Chau-Ju-Kua, S. 28 .

(٥) عجائب الهند ص ٤٦ .

الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه ، وأن تنهبهما ، وأن تفعل مثل هذا بمدينة پيزا في عامي ١٠١١ – ١٠١٤ م .

على أن أسطول الفاطميين في شمالي إفريقية كان في ذلك الحين أقل كفاية من أسطول الشام بصورة بيّنة ، ففي عام ٣٠١ هـ – ٩١٣ م استطاعت خمس وعشرون من مراكب الشام أن تهزم ثمانين من مراكب الفاطميين هزيمة كاملة . وكانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض عرضاً في ستة وثلاثين يوما مـن مبدئه في الغرب إلى آخره حيث أنطاكية[١] ؛ وميناء أنطاكية هذه هي سلوقية التي كانت في أثناء القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أهم ميناء تجاري في الشام[٢] . وقد حصنها الخليفة المعتصم[٣] ، ولكن كان يؤذيها أكبر الأذى وجودُ شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرص ، تسمى الشُفالة ، وكانت تتحطم عليها معظم السفن[٤] .

ويذكر اليعقوبي في أواخر القرن الثالث الهجري أن ميناء طرابلس الشام « عجيب يحتمل ألف مركب »[٥] .

وكانت مدينة صور هي الميناء الحربي الإسلامي المواجه لبوزنطة ؛ إذ كان « بها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جليلة[٦] » .

---

(١) جغرافية الادريسي طبعة دوزي ص ٢١٤ .
(٢) كانت أنطاكية معتبرة في عهـد بروكوبيوس أولـى المـدن الرومانية في المشرق (انظر Heyd, Levantechandel, I, 24.) .
(٣) ابن خرداذبة ص ١٥٣ ، وانظر Michael Syrus, ed, Chabot, p. 527, 537.
(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٣٢ .
(٥) جغرافية اليعقوبي ص ٣٢٧ .
(٦) نفس المصدر .

ولكن زحف البوزنطيين في القرن الرابع الهجري على بلاد الإسلام غيّر هذه الأحوال كلها في الشام . وكان النصف الشرقي من ساحل إفريقية الشمالي أقل ملاءمة للملاحة من النصف الغربي ؛ ولهذا لا تذكر كتب تلك الأيام أي ميناء طبيعي بين الإسكندرية وخليج تونس غيرَ طرابلس ، وحتى طرابلس هذه لم يكن عمق الماء عندها كافياً لحمل مراكب ذلك العصر ، مع أنها لم تكن تحتاج إلا لعمق قليل ؛ فكانت المراكب إذا وصلتها « عرضت لها دائما الرياح البحرية ، فيشتدّ الموج لانكشاف المرسى بها ، ويصعب الإرساء ، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين ؛ فيقيد المرسى ويرسى منه في أسرع وقت بغير كلفة لأحد »[1] .

وكانت تونس تلي طرابلس في الأهمية ، وكانت ميناء للقيروان على مقربة من موقع قرطاجنة التي كانت سيدة البحر قديماً .

ويقص الإدريسي خبر جماعة يسميهم المغرّبين (أو المغررين في رواية) ، ركبوا بحر الظلمات من لشبونة ، في القرن الرابع على الأغلب، « ليعرفوا ما فيه ، وإلى أين انتهاؤه ؛ وكانوا ثمانية رجال كلهم أولاد عم فأنشأوا مركباً حمّالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوما ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء[2] ، فأيقنوا بالتلف ؛ فردّوا قلوعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوما حتى وصلوا

---

(١) ابن حوقل ص ٤٦ .

(٢) كان العرب يظنون كما ظن القدماء قبلهم أن البحر في أقصاه مظلم ، ولذلك كا نأهل المشرق يسمون أقصى البحر بالبحر الزفتي ، لأن ماءه كدر ورياحه شديدة وهو دائم الظلمة تقريباً ، انظر جغرافية أبي الفدا طبعة رينو ج ٢ ص ٢٥ .

إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عدّ ، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر ؛ ثم ساروا مع الجنوب اثني عشر يوما حتى وصلوا إلى جزيرة ، فيها عمارة وحرث ، فاعتقلوا ثلاثة أيام ، ثم جاءهم في اليوم الرابع ترجمان للملك يتكلم اللسان العربي ، وأُحضروا بين يدي الملك ، فسألهم عن حالهم ، فأخبروه بخبرهم ، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم ، إلى أن بدأ جري الرياح الغربية ، فوُضِعوا في قارب وعُصبت أعينهم وجُرِي بهم في البحر برهة قدّروها بثلاثة أيام ، حتى انتهوا إلى برٍّ ، فأُخرجوا ، وكتفوا إلى خلف ، وتركوا بالساحل ، حتى طلع النهار ؛ وجاء قوم برابر ، فحلوا وثاقهم وأخبروهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين »[1] .

وكان البحر الأحمر مخوفاً لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة ؛ ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط ، « فأما بالليل فلا يُسلك »[2] . وكان نظام هبوب الرياح فيه يجعل الملاحة من الشمال إلى الجنوب فقط في فصل من السنة ، ومن الجنوب إلى الشمال في الفصل الآخر ؛ ولهذا احتفظ نهر النيل الذي يسير موازياً لهذا البحر بأهميته الكبيرة باعتباره طريقاً من طرق الملاحة النهرية . وكانت عيذاب هي نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر ؛ وكان ميناؤها عميقاً غزير الماء مأموناً من الشعاب النابتة[3] ، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر ، ثم تُحمل على الإبل في الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص ، ومن هناك تنقل إلى القاهرة في النيل[4] .

---

(١) جغرافية الادريسي طبعة دوزي ص ١٨٤ .

(٢) الأصطخري ص ٣٠ ومروج الذهب ج ٣ ص ٥٦ والادريسي ، طبعة براندل ص ١ .

(٣) Wüstenfeld, Qalqaschandi, 169. (هو ترجمة من صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨) .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٩٤ من الأصل الفارسي ، وقد زار هذا الرحالة عيذاب عام ٤٤٢ هـ ــ ١٠٥٠ م .

وقد بلغت عيذاب في نهاية القرن الخامس الهجري درجة عظيمة من الازدهار ، وأصبحت إحدى المواني التي تختلف إليها المراكب من جميع البلاد،ولا يعرف السبب الذي كان يجعل تجارة شمال إفريقية إلى المشرق تمرّ بها ؛ وكان حُجاج مصر يسيرون عن طريق عيذاب بين سنتي ٤٥٠ ــ ٦٦٠ هـ (١٠٥٨ ــ ١٢٥٨ م) ، ولم تأخذ عدن شأن عيذاب إلا منذ عام ٨٢٣ هـ ــ ١٤٣٠ م[١] ، وكان يؤخذ من كل حاج ثمانية دنانير[٢] . وقد تحدث ابن جبير عنها في عام ٥٧٩ هـ ــ ١١٨٣ م ، فقال إنها « من أحفل مراسي الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً على مراكب الحجاج الصادرة والواردة » ؛ ثم قال بعد ذلك إن أكثر ما شاهده في عيذاب من سلع الهند أحمال الفلفل[٣] .

وقال المسعودي في عام ٣٣٢ هـ ــ ٩٤٣ م : « وقد ركبتُ عدة من البحار ، كبحر الصين والروم والقلزم واليمن ، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أجد أهول من بحر الزنج » ؛ وكان قد ركب البحر سنة ٣٠٤ هـ ــ ٩١٦ م من زنجبار (قنبلو) إلى عمان ، وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوي عبد الرحيم بن جعفر السيرافي ، وفي ذلك البحر غرقا ، فيما بعد ، بمركبهما وجميع من كان معهما[٤] . وكان ملوك زنجبار في تلك الأيام مسلمين[٥] ، وكان أقصى ما تصل إليه مراكب المسلمين في أسافل بحر الزنج إقليم سُفالة (موزمبيق) ، « وهي أقاصي بلاد الزنج ، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين » ، وكان

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٩٤ ــ ١٩٨ ، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ .

(٢) جغرافية الادريسي ، ترجمة جوبير ، ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٦٤ ــ ٦٦ .

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٤ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٣١ .

يغربهم بقصدها معدنُ الذهب في ماشونا لاند[1] ؛ وكان الحديد أكبر ما يؤخذ منها إلى الهند للصناعة ، وكانت تصنع منه في الهند آلات عظيمة القيمة[2] . ويذكر لنا بعض المؤلفين المحدثين بعض التواريخ المضبوطة فيما يتعلق بذلك فيقولون إن مَقْدِشو أُنشئت عام ٩٠٨ م (وهي موجادو كسو في الصومال الإيطالي) ، وإن مدينة براوه (كِلْوَة في إفريقية الشرقية الألمانية) أُنشئت حوالي عام ٩٧٥ م[3] ، وذلك نقلا عـن تقرير Rizby المسمّى : Report on the Zanzibär Dominions (ص ٤٧) ، وهو يعتمد على ما لا يزال يروى هناك عن أيامنا هذه من حكايات في أخبار تلك البلاد . أما المراجع القديمة فليس بين أيدينا منها شيء في هذا الموضوع ، وربما نجد شيئا من ذلك فيما كتبه مؤرخو جنوب جزيرة العرب .

ويعتبر البحريون الإسلاميون عدنًا مبدأ « البحر الفارسي » ، ويقولون إن هذا البحر يحيط ببلاد العرب حتى يصل إلى خليج فارس ، وينتهي على مقربة من المكان الذي تبتدىء عنده بلوخستان ؛ أما ما بعد ذلك فكانوا يعتبرونه من المحيط الهندي . وكانت الملاحة ميسورة في هذين البحرين في موسمين ، فإذا هدأ أحدهما هاج الآخر ، وانقلب ، « وأول ما يبدأ هياج بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي ، إلى أن تصير الشمس في الحوت ، وأشد ما يكون صعوبة في آخر زمان الخريف ، عندما تكون الشمس في القوس ،

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٦ .

(٢) جغرافية الادريسي (ترجمة جوبير) ج ١ ص ٦٥ .

(٣) انظر مثلا ما كتبه شورتز Schurtz في كتاب : Helmholt, Weltgeschichte, III, S. 428.

وأشد ما يكون البحر الهندي عند الاستواء الربيعي ... وبحر فارس قد يُركب في كل أوقات السنة ، فأما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه »[1] . ولهذا كان البحر الأول مجالا كبيراً لمتلصصة البحر ، وكان للساحل العربي خاصة أسوأ سمعة بسبب هؤلاء القرصان . وحوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م قام أهل البصرة بحملة على القرصان في بلاد البحرين ، ولكنهم أخفقوا[2] ؛ أما في القرن الرابع فلم يكن الناس يجرأون على ركوب البحر الأحمر من غير « مُقاتِلَةٍ ونفّاطين »[3] ؛ وكانت جزيرة سقطرى (أو أشقطره) بنوع خاص عُشا خطراً للقرصان ، وكانت المراكب ، إذا مرت بها ، لا تزال في هلع ، حتى تتجاوزها ؛ وكانت تأوي إليها بوارج قرصان الهند ، ليقطعوا الطريق على المسلمين[4] ، ولم تكن هذه القرصنة تعتبر عملا شائنا أو أمرا غريبا ؛ ولم ينشيء العرب للقرصان لفظا خاصا ، والأصطخري مثلا يسميهم باسم ليّن فيقول : « مُتَلَصِّصَة البحر » (ص ٣٣) ؛ وفيما عدا ذلك كان يطلق عليهم الاسم الهندي Barques[5] .

وكانت عدن وسيراف وعُمان أكبر مرافيء المملكة الإسلامية على المحيط الهندي ، ويلي ذلك في الأهمية البصرة ودَيْبُل (على مصب نهر السند) وهرمز وكانت فرضة كرمان .

وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين إفريقية وبلاد العرب ، ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ، فيسميها المقدسي مثلا

(١) ابن رسته ص ٧٦ — ٧٧ .

(٢) Michael Syrus, ed. Chabat p. 514.

(٣) المقدسي ص ١٢ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣٧ ، والمقدسي ص ١٤ .

(٥) فهرس المكتبة الجغرافية ص ١٩٥ (؟) ؛ وعجائب الهند ص ١٩٣ .

« دهليز الصين »[1] ، ويحدثنا أنه سمع أن من الناس من دخلها بألف درهم ، فرجع بألف دينار ؛ ومنهم من دخلها بمائة ، فرجع بخمسمائة ، ومنهم من دخلها بكندر ، فرجع بمثل ما دخل به كافوراً[2] .

وكانت سيراف هي الفرضة التي تمر بها صادرات فارس وارداتها[3] ، وكانت على الخليج الفارسي ، تقصدها المراكب من جميع البلاد ؛ وكانت فرضة لبضائع الصين خاصة ، بل كانت بضائع اليمن المرسلة إلى الصين تحمل على المراكب بسيراف[4] . وبلغت المكوس التي كانت تؤخذ من المراكب بها حوالي آخر القرن الثالث الهجري نحواً من مائتين وثلاثة وخمسين ألف دينار في كل عام[5] . وكان أهل سيراف أغنى تجار فارس كلها ، وخير شاهد على ذلك ما كان لهم من مساكن عالية ذات طبقات عديدة مبنية من خشب الساج الغالي الثمن ؛ ويحكي الأصطخري عن أحد أصحابه أنه أنفق في بناء داره ثلاثين ألف دينار ، وكانت ملابس تجارها ، مع هذا الغنى ، بسيطة إلى درجة تبعث على العجب ؛ ويقول الأصطخري إن الإنسان ليجد فيهم من يملك الأربعة آلاف دينار ، وتراه مع هذا لا يتميز في لباسه عن أجيره[6] . وكان لأهل سيراف متاجر يملكونها في البصرة أيضاً ؛ ويقول ابن حوقل إنه لقي رجلا منهم يملك ثلاثة آلاف ألف دينار ، ويقول إنه لم يسمع أحداً من التجار ملك هذا المقدار ولا تصرّف فيه ، لأن ذلك

---

(١) المقدسي ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٧ .

(٣) الاصطخري ص ٣٤ .

(٤) سلسلة التواريخ، طبعة Langlés ص ٥١ (ألف هذا الكتاب حوالي عام ٣٠٠ هـ).

(٥) ابن البلخي .JRAS, 1912, p. 188

(٦) الاصطخري ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

كالخرافات ، يستوحش من حكاها منها[1] . وكان كثير من أهل سيراف يقضون حياتهم كلها في البحر ، فمن ذلك ما رواه الأصطخري من أن رجلا منهم ألِف البحر ، حتى ذُكر أنه لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة ، وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه في كل مدينة ، وكان إذا انكسرت السفينة التي هو فيها وتشعثت تحوّل عنها إلى أخرى[2] .

وكان أشهر أصحاب السفن في ذلك العهد ، وهو محمد بن بابِشاد ، من أهل سيراف ؛ ويُذكر أن ملك الهند أمر أن ترسم له صورة ، لأنه كان أكبر أهل صنعته ، وكانت عادة ملوك الهند أن يقتنوا صوراً لأشهر الرجال في كل حرفة[3] .

وكان من أثر هذا المركز العظيم الذي تمتعت به مدينة سيراف ، أن اللغة الفارسية أصبحت أكبر لسانٍ يتكلم به تجار المسلمين الذين يقصدون الهند وشرق آسيا ، ولا تزال اللغة العربية إلى اليوم تشتمل على كثير من الاصطلاحات البحرية الفارسية مثل : « ناشُدا » ، وهو صاحب السفينة[4] ، و « ديدبان » ، وهو الحارس ، و « ربّان » (ربما كان أصلها ره بان) ، وهو قائد السفينة ، أما الرجل الذي كانت

---

(١) ابن حوقل ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٢) الأصطخري ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٣) عجائب الهند ص ٩٨ .

(٤) وليس هو قائد السفينة ، لأن القائد يسمى الراس أو الربان (المقدسي ص ٣١) ، فكان الناشدا بابشاد ، وهو الرجل الذي يسافر على سفينته ، يصطحب معه ربانا يتولى أمر الملاحة ، والحكايات المتعلقة بالمهارة الملاحية لا تنسب إلى الناشدا بل إلى الربان ، أما اليوم فيفرق الناس في البحر الأحمر بين من يسمى ناشدا البحر ، وهو الرئيس الحقيقي للسفينة، وهو يقودها ويرأس بحارتها ويمسك الدفة، (وهذا عجيب)، وبين ناشدا البر الذي هو صاحب السفينة، انظر Malazan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865, I, S. 71 .

مهمته تبليغ أوامر الربّان إلى الملاحين بصوته فكثيراً ما كان يسمى المنادي ، وهو لفظ شائع عند الناطقين بالعربية[1] . وكان كل ربَّان يحلف يميناً ألا يتهاون بسفينته ، فيلقيها في الهلاك ، ما دامت سليمة لم يحلّ بها القضاء المحتوم[2] .

وتقع البصرة على نهر شط العرب ، وبينها وبين البحر مرحلتان[3]، وكان هناك تجاه مصب النهر جزيرة" صغيرة تشبه جزيرة هلجولاند ، فيها مدينة صغيرة ذات حصن صغير ، وهي مدينة عبّادان ، وكان فيها رباطات وعبّاد صالحون ، وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الحلفاء ؛ غير أن الماء بها ضيّق والبحر عليها مطبق[4] . وكان الناس يقصدونها للإقامة بها متعبّدين ومكفّرين عن ذنوبهم[5] ؛ وكانت رسوم المراكب تجبى عندها[6] ، وكانت بها حامية لمكافحة القرصان ؛ وكان على نحو ثلاثة أميال منها تجاه البحر موضع يعرف بالخشبات ، فيه عمد من الخشب منصوبة في الماء ، قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور ؛ ويوقد المرقب بالليل لتهتدي به السفن ، وتستدل به على مدخل دجلة ، وكان هذا الموضع مخوفاً ، إذا ضلّت فيه السفينة خيف انكسارها لرقة الماء به[7] . وقد سخر أحد شعراء البصرة من رجل شديد النحول ، فقال فيه :

---

(١) عجائب الهند ص ٢٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٣) الأصطخري ص ٧٩ .

(٤) المقدسي ص ١١٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٧٣ .

(٦) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٧٧ .

(٧) الأصطخري ص ٣٢ ؛ والمقدسي ص ١٢ ، وهو يذكر أنه كان عند عبادان بيوت كثيرة توقد فيها النار ، لتتباعد المراكب عن الماء الرقيق .

لا تَعنشَقَنَّ ابنَ الربيع فإنه عنـد التجرد آيـة الآيـات
وجـه كعبّادان ليس وراءه لمحبّه شيء سوى الخشبات(1)

وذكر المسعودي في القرن الرابع الهجري أنه كان ثَمَّ ثلاث خشبات كالكراسي ، عليها أُناس يوقدون النار بالليل في جوف البحر ، خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها أن تقع في تلك الجزيرة ، فتعطب ، فلا يكون لها خلاص(2) . ويقول ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري إن الخشبات اثنتان ، وهو يفصّل في وصفها ، فيقول إنها أعمدة من خشب الساج منصوبة بحيث تؤلف على الأرض قاعدة مربعة واسعة ، ثم تضيق في أعلاها ؛ وهي تعلو سطح البحر بخمسين متراً ، وفي أعلاها حجرة مربعة للناظور(3) . ويدل هذا على رقة الماء عند مدخل نهر شط العرب ؛ وكانت السفن إذا دخلته مسّ قاعَها الأرضُ ، واصطدم بها بضع مرات ؛ فلا غرابة أن يروي المقدسي أنه سمع شيخاً يقول إن هذا موضع يسافر فيه أربعون مركباً ، فيرجع واحد(4) .

وتاريـخ المراكز التجارية الإسلامية في الشرق الأقصى مملوء بالحوادث(5) ؛ فيُحكى من أخبار القرن الثامن الميلادي أن أسماء ربابنة السفن الأجانب كانت تقيّد في ديوان التجارة البحرية في مدينة خانقو ، وأن هذا الديوان كان يطالب بحق تفتيش المراكب قبل السماح لها بإنزال ما تحمله إلى البر ، وكان يأخذ رسوم تصدير وتحميل . وكان

(1) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ١٣٤ .
(2) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٢٣٠ .
(3) رحلة ناصر خسرو ص ٩٠ .
(4) المقدسي ص ١٢ .
(5) جمعت المراجع الصينية اخيراً في كتاب تشاو يو كوا الذي نشره هيرث وروكهل Fr. Hirth, W. Rockhill في سانت بطرسبرج عام ١٩١٢ م ص ٩ وما يليها .

تصدير الأشياء النادرة أو ذات القيمة محظوراً ، وكان كل من يحاول التهريب يعاقب بالحبس[1] . وربما تكون قد أنشئت في ذلك العصر مراكز تجارية إسلامية في نواح أخرى من الصين . وفي عام ٧٥٨ م كانت جالية الأجانب الوافدين من الغرب إلى كانتون « خانقو » كبيرة العدد ، حتى استطاعت أن تنتهب المدينة وتحرق مخازنها وتهرب بما انتهبت[2] .

وفي أوائل القرن التاسع الميلادي كان على رأس الجالية الإسلامية في كانتون رئيس مسلم يعيّنه إمبراطور الصين ، وكان هذا الرئيس يقضي بين أفراد الجالية بأحكام الشريعة ، وإذا كانت الجمعة أو العيد خطب في المسلمين ، ودعا في خطبته لسلطان المسلمين[3] .

وفي ذلك العصر كان البحريون ، إذا وصلوا المدينة ، قبض الصينيون متاعهم وصيّروه في البيوت ، وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر ، إلى أن يدخل آخر البحريين ؛ ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويسَلّم الباقي إلى التجار . وكان السلطان إذا احتاج الى شيء أخذه بأغلى الثمن وعجّله ، ولم يظلم فيه ؛ وكان مما تأخذه الحكومة الكافور ، المنُّ بخمسين فكّوجاً ، والفكّوج ألف فلس ؛ وكان هذا الكافور ، إذا لم يأخذه السلطان ، بيع بنصف الثمن[4] . وكان يستورد أيضاً العاج وقضبان النحاس والذبل ، وهو قشر السلاحف ، وقرن الكركدن الذي كان أهل الصين يتخذون منه المناطق ، وفي طول ذلك العصر كانت مراكب المسلمين تذهب إلى بحار الصين ، كما كانت مراكب الصين

---

(١) نفس المصدر ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤ وما بعدها .

(٣) سلسلة التواريخ ص ١٤ ، طبعة رينو بباريس عام ١٨١١ م .

(٤) نفس المصدر ص ٣٦ .

تختلف إلى عـمان والأبلّة والبصرة[1] .

وتؤيد التواريخ الصينية ما حكاه بحريثو العرب من القضاء على المراكز والجاليات التجارية الإسلامية في الصين[2] ولا سيما مدينة خانقو (وهي كانتون الحديثة) [3] حوالي عام ٨٨٠ م ؛ وذلك أن شريراً نبغ في الصين ــ كما يقول المسعودي ــ فقضي على أسرة تَنج ، وأفسد أمور الصين ، وفتح خانقو ، وكانت ملتقى السفن التجارية الإسلامية ، وقتل من أهلها مائتي ألف من المسلمين ومن غيرهم ؛ وباضمحلال أمر هذه الأسرة فسد كل شيء في جنوب الصين[4] ، واختفت معالم التجارة البحرية من هناك . ونستطيع أن نستدل من كتاب عجائب الهند ــ وأهم ما فيه وصف أحوال القرن الرابع الهجري هناك ــ على أن أقصى ما كانت تبلغه مراكب المسلمين مدينة كَلَه أو كدا في ملقا ، وكان هذا البلد في موضع سنغافورة اليوم . ويقول أبو دُلَف إن كَلَه هي أول بلاد الهند ، وآخر منتهى مسير المراكب ، لا يتهيأ لها أن تتجاوزها ، وإلا غرقت[5] . وكذلك يقول المسعودي حوالي عام ٣٣٢ هـ ــ ٩٤٤ م

---

(١) نفس المصدر ص ٣٥ ؛ وانظر مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٠٨ ، ويستبعد هيرث وصاحبه في كتاب Chau-Ju-Kua (ص ١٥ هامش رقم ٣) أن تكون هذه المراكب أو قوادها صينيين ، لأن أهل الصين كانوا حتى آخر القرن الثاني عشر لا يعرفون عدن ولا سيراف ، ولا أسماء هذين البلدين ، ويؤيد هذا أيضاً أن العرب لم يذكروا شيئاً قط عن الملاحين الصينيين ، وأن مراكب الصين لم تختلف إلى المياه العربية بعد أن دمرت مراكز المسلمين التجارية في الصين ، فالمقصود إذن من عبارة مراكب الصين أنها مراكب صينية يملكها المسلمون وتسير بين بلادهم وبين الصين .

(٢) سلسلة التواريخ ص ٦٢ وما بعدها ؛ ومروج الذهب ج ١ ص ٣٠٢ ؛ وتاريخ أبي الفدا في حوادث عام ٢٦٤ هـ . .

(٣) انظر أيضاً Fr. Hirth and Rockhill, Chau-Ju-Kua p. 15 .

(٤) Richthofea China. I. 572 .

(٥) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٥٣ ، (كلمة صين) .

إن بلاد كَلَه· هي النصف من طريق الهند أو نحو ذلك ، وإليها تنتهي مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت ؛ وفي كَلَه· أيضاً كان التاجر السمرقندي ينزل من المراكب الآتية من عمان ، ويركب البحر في مراكب الصين إلى خانقو[١] •

على أن حكومة الصين بذلت في نهاية القرن العاشر جهداً كبيراً لاجتذاب التجارة الأجنبية الآتية من البحر إلى الصين رأساً ؛ فأرسلت بعثة لتدعو التجار الأجانب الذين يعملون في البحر الجنوبي ويركبون البحار في البلاد الأخرى ، للحضور للصين ، ووعدتهم بتهيئة الظروف الحسنة لاستبدال بضائعهم • وفي عام ٩٧١ م أعيد تنظيم ديوان البحر في مدينة كانتون ؛ ثم احتكرت الحكومة التجارة الخارجية عام ٩٨٠ م ، وأصدرت الأمر بعقاب كل من وُجد متاجراً مع الأجانب بالنفي من البلاد وبكيّ وجهه بالنار • وفي ذلك العصر وما جاء بعده تذكر الروايات كثيراً من تجار المسلمين ، زاروا بلاط إمبراطور الصين واستُقبلوا هناك استقبالا مملوءاً بالمودة ، مما يعجب له المؤرخ • وفي عام ٩٧٦ م جلب رجل من العرب أول عبد أسود إلى قصر إمبراطور الصين ؛ فلما جاء القرن الحادي عشر الميلادي كان أغنياء الناس في كانتون يقتنون الكثير من هؤلاء العبيد[٢] ، واستقر كثير من التجار في تسوان شو إلى جانب استقرارهم في كانتون • وفي عام ٩٩٩ م أنشئت دواوين للتجارة البحرية في ثغري هانجشون ومانجشون ، زيادة على ما كان في غيرهما من الموانى ، وذلك إجابة لطلب التجار الأجانب وتوفيراً لأسباب راحتهم[٣] •

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣٠٨ •

(٢) Chau-Ju-Kua, S. 31 f. •

(٣) نفس المصدر ص ١٧ وما يليها ، وص ١١٩ •

وفي عام ١١٧٨ م يقول أحد كتّاب الصين : إن مملكة العرب لا يفوقها بلد آخر من البلدان الأجنبية الغنية في كثرة ما يُدَّخر بها من البضائع المتنوعة الغالية ، ويليها في ذلك جاوة ، وبالمبانج (وهي سومطرة) ، ثم تأتي بعد ذلك بلاد أخرى كثيرة[1] . ويحدثنا هذا المؤلف أيضاً عما كان من تجدد نشاط الملاحة إلى الصين ، قائلا : إن الذين يأتون من بلاد العرب يتخذون أول الأمر سفناً صغيرة تسير بهم إلى الجنوب حتى ساحل كويلون (ملبار) ، ومن ثم ينقلون إلى سفن كبيرة تحملهم إلى بالمبانج (سومطرة)[2] ؛ وكان الطريق البحري إلى الصين خاضعاً لما يقتضيه هبوب الرياح الموسمية التي تستطيع السفن أن تسير معها من غير حاجة إلى استعمال البوصلة . وقد وصف هذا الطريق في كتاب سلسلة التواريخ (طبعة Langlés) ، وأورد هـذا الوصف رينـو Reinaud في كتابـه المسمـى Relation des voyages طـ. باريس ١٨٤٥ م ، ص ١٦ وما يليها ، وابن خرداذبة (ص ٦١ وما بعدها) ؛ ونجده أيضاً في كتاب عجائب الهند ، ومن ذلك كله نعلم أن الناس كانوا يسيرون بحذاء ساحل الهند أو يتجهون من مسقط إلى ميناء كولام (كويلون الحالية) رأساً ، وذلك في نحو شهر ، ثم يواصلون سيرهم ، جاعلين جزيرة سرنديب إلى يمينهم ، ويقصدون جزائر نيكوبار (على مسيرة عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً من جزيرة سرنديب)[3] ، ومن ثم إلى مدينة كدا في ملقا ، وهي على مسيرة نحو شهر من كويلون ؛ ومن هناك يقصدون جاوة وجزيرة ماهيت في جزائر سندا ؛ ثم يسيرون

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣ .

(٢) المصدر المتقدم ص ٢٤ .

(٣) وكذلك يقول الكاتب الصيني Chau-Ju-Kua في القرن الثالث عشر الميلادي إن الرحلة من سومطرة إلى ملبار تستغرق شهرا مع الرياح الموسمية ، وانظر أيضا Marco Polo, III, 4 ؛ وقد سلك هذا الطريق في القرن الخامس عشر الميلادي الحاج فاه هين الصيني عائدا إلى وطنه ، انظر Chau-Ju-Kua ص ٢٧ وما بعدها .

خمسة عشر يوما ، حتى يصلوا كمبوديا ، ومنها إلى كوشين شين وإلى الصين •

وكان المسافر يسير مع ساحل الصين وحده شهرين ؛ وكان لا بد له بعد ذلك من انتظار الرياح الطيبة ، لأن تلك النواحي تسودها رياح واحدة في كل ستة أشهر • أما في العودة فكان الناس يسيرون أربعين يوماً من تسوان تشو إلى أتيا (على الطرف الشمالي الغربي من جزيرة سومطرة) ، وكانوا يتاجرون هناك ، ثم يعودون إلى البحر في العام التالي ، ويعودون إلى بلادهم في ستين يوماً بمعاونة الرياح العادية[1] •

ولما كانت هذه السفن خلواً من كل آلة يُستعان بها في الملاحة كانت الرحلة محفوفة بالمعاطب ؛ فكان الناس يتعجبون أشد التعجب إذا عمل الربان هذه الرحلة سبع مرات[2] ؛ وكان المسافر إذا وصل إلــى الصين عُدّ ذلك عجيباً ؛ أمــا رجوعه إلى بلاده فكان يعتبر كالمستحيل[3] ، ولهذا فلا عجب أن نسمع أن الرجل الذي في أعلى السارية كان ، إذا رأى أول علامات أرض الوطن ، نادى قائلا : رحم الله كل من قال : الله أكبر ! فعند ذلك يجيبه جميع من في المركب قائلين : الله أكبر ! ويهنيء بعضهم بعضاً ، ويبكون ، لما يكون قد هجم عليهم من السرور[4] •

(تم الكتاب بعون الله ، والحمد لله)

---

(١) وهذا على الأقل ما حكاه أحد الرحالين الصينيين في القرن الثاني عشر الميلادي ، انظر Chau-Ju-Kua, 114. .

(٢) عجائب الهند ص ٨٥ •

(٣) نفس المصدر •

(٤) نفس المصدر ص ٩١ •

الفهارس

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن عشر: الجغرافيا (تقويم البلدان)	**٧ ــ ١٨**
البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية في القرن الثالث ؛ ابن خرداذبة ، وكتاب المسالك والممالك ، ورأى المسعودي والمقدسي فيه	٧ ــ ٨
الجيهاني	٨ ، ١٧
أبو زيد البلخي ، ابن الفقيه	٨ ــ ٩
الهمداني	٩ ، ١٧
قدامة : كتاب الخراج	٩
اليعقوبي أول جغرافي اعتمد على ملاحظته الخاصة	٩ ــ ١٠
ذروة كتب الجغرافية : ابن حوقل والمقدسي	١٠ ــ ١٤
التأثر بابن حوقل	١٤
روح الاستطلاع وإرسال البعثات وجمع الأخبار عن البلاد السعيدة ، ابن فضلان ، أبــو دلف ، الإصطخري ، ابن النديم	١٤ ــ ١٦
المهلبي يؤلف للخليفة المعز بمصر ويصف السودان وصفا دقيقا ، وصف أفريقية والمغرب والهند : محمد التأريخي ، خواشير بن يوسف ، البيروني ،	

الموضوع	الصفحة
الجاحظ ، المسعودي	١٦ — ١٧
صور الأقاليم لأحمد بن سهل البلخي ؛ الجغرافيون المسلمون	١٧ — ١٨
الفصل التاسع عشر : الدين	**١٩ ـ ١٥٦**
الديانات القديمة تسد حاجات جديدة ، النصرانية	١٩
المثل الأعلى الجديد : « معرفة الله » ، وعودة الغنوسطية إلى الظهور في صورة مذهب عقلي أو في صورة التصوف ، التحام النسب بين التصوف والمذهب العقلي ومقابلتهما للمعرفة النبوية ، ظهور علامات الغنوسطية	٢٠
الحارث المحاسبي والتأثر بالنصرانية	٢٠ — ٢١
الانزلاق إلى تأليه البشر	٢١ — ٢٢
ابن هانىء يمدح الحاكم مدحاً خارجاً عن الحدود الإنسانية ؛ أول ظهور طوائف الصوفية بمصر ، مهد الرهبنة النصرانية	٢٢ — ٢٣
صوفيون عمليون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر	٢٣ — ٢٤
ذو النون وأثره ، نمو التصوف وتكامله كان بالمشرق	٢٤
السريّ السقطي أول من تكلم في علوم التوحيد والورع ، أبو خمرة الصدفي أول متكلم في اصطلاحات الصوفية : المحبة ، العشق ، القرب ..... الخ ، طيفور البسطامي يضيف لفظة السكر	٢٥

الموضوع	الصفحة
علي بن الموفق وعبادته العالية	٢٥ ــ ٢٦
أبو سعيد الخراز أول متكلم في الفناء ، حمدون القصار أول مؤسس للملامتية ــ قدم فكرة الفناء والملامة	٢٦
ترك الصوفية للتدخل في شئون الجماعة	٢٦ ــ ٢٧
التصوف في بغداد والزهد في البصرة	٢٧
الحسن البصري ونقده للباس الصوف وانتساب الصوفية له ، حذيفة بن اليمان واختصاصه بعلوم خفيـة	٢٧ ــ ٢٨
تلاميذ السري السقطي ينشرون التصوّف البغدادي في أنحاء المملكة الإسلامية	٢٨
ثلاثة شيوخ من كبار الصوفية ببغداد : الشبلي ، المرتعش ، الخلدي	٢٨ ــ ٢٩
الخوانق وتقليد النصارى ، صوفية بجبال الشام	٢٩
الكِرامية ينشئون الخوانق ويتجولون متسوّلين ، لباسهم الرباطات	٣٠ ــ ٣١
الأغاني الروحية وشأنها	٣١ ــ ٣٢
رقص الدراويش ، ونقد أبي العلاء له	٣٢ ــ ٣٣
التصوف والكُدية ، ولائم الطعام للصوفية	٣٣ ــ ٣٤
آفات الصوفية	٣٤ ــ ٣٥
ادعاء بعض المتصوفة سقوط التكاليف الشرعية عنهم	٣٥ ــ ٣٦
كرامة لصوفي فقير	٣٦ ــ ٣٧
التجريد (العزوبة) وظهوره	٣٧ ــ ٣٨
فتنة تصيب قلب الحجويري	٣٨

الموضوع	الصفحة
صوفية غير راضين عن تطور مذهبهم ، قيمة الجنيد والصوفية الأولين	٣٩
القشيري ورسالته	٣٩ — ٤٠
شدة الصوفية في قمع شهواتهم : السري السقطي ، رُوَيم ، الجنيد ، بشر الحافي	٤٠ — ٤٢
الجبر الصوفي ، التوكل	٤٢ — ٤٥
المحاسبي وفصله بين الرضا والتوكل	٤٥ — ٤٦
مسألة الولاية ، الأبدال ، الأخيار ... الخ	٤٦ — ٤٨
أهل السنة لا يقدسون الأولياء	٤٨ — ٤٩
السلمي أول مؤلف في طبقات الصوفية	٤٩
أنواع الكرامات : ذو النون ، البربهاري ، بنّان ، السريّ السقطي ، وآخرون	٤٩ — ٥٣
ظهور الخضر للأولياء ، لم يكن من كرامات المسلمين إحياء الموتى ، خاصة الصوفية لا يهتمون بالكرامات ، المرتعش والبسطامي والتستري	٥٣ — ٥٥
المعجزة والكرامة ، الخلاف في هل يعلم الولي أنه ولي ؟	٥٥ — ٥٦
التعلق بالكرامات وتعظيم الأولياء شأن العامة ، تقديس النبي عند المتصوفة ، الحلاج وتعظيمه لعيسى ومحمد عليهما السلام : طَسّ السراج	٥٦ — ٥٧
الأصول الثلاثة الكبرى التي رسمها التصوف	٥٧
التصوف لا يضمن اليقين بالنجاة : المكي ، الماوردي	٥٨ — ٥٩
قيمة الاستشهاد عند المسلمين ومحاولة تقفور تقليدهم	٥٩
خروج التصوف عن حدود المبادىء الإسلامية ، كثرة الزنادقة ، قتل الحلاّج	٥٩ — ٦٠

الموضوع	الصفحة
الحلاج والمعتزلة ، الحلاج والنصارى الغنوسطيين	٦٠ — ٦٢
رأي الاصطخري والصولي في الحلاّج وبعض أقواله	٦٢ — ٦٥
أثر الحلاج ورأي الحجويري فيه	٦٥
المذاهب النصرانية هي أصل آراء كثير من الزنادقة : منصور العجلي ، الشلمغاني	٦٥ — ٦٧
الحركات المتعلقة بالمهدي وناحيتها السياسية : القرامطة وثوراتهم وآراؤهم	٦٨ — ٧٣
الفاطميون	٧٣ — ٧٥
الاسماعيلية	٧٥ — ٧٦
أثر الغنوسطيين وغيرهم	٧٧
طريقة الدعوة القرمطية	٧٧ — ٧٨
مدّعو النبوة	٧٨ — ٨٠
أهل الجد من مجاهدي أنفسهم : أبو العلاء ، القادر ، الأديب الكمندي ، الأصبهاني المحدّث ، البغدادي الزاهد ، الجويني ، الحاكم بأمر الله ، الدهان وغيرهم	٨٠ — ٨٦
القرآن وأثره في انقلاب الناس فجأة : جعفر بن حرب	٨٦
الاستعداد للآخرة عند قرب نهاية العمر : نصر بن أحمد الساماني ، معز الدولة	٨٦ — ٨٧
الحج وصعوبته ومخاطره وما كان يحدث للحجاج	٨٧ — ٩٠
العبّاد والحج سيراً على الاقدام متوكلين ، الحج بالنيابة وبأجر	٩٠ — ٩١
أماكن أخرى يحج إليها	٩١ — ٩٢
معارضة بعض المتصوفة للحج ، الحج العقلي	٩٢

الموضوع	الصفحة
الحجويري ورأيه في الحج	٩٣
محبة النبي والتقرب منه	٩٣ ــ ٩٤
الجهاد والغزو في سبيل الله ، أهل الثغور والخراسانية	٩٤ ــ ٩٦
فساد الغزو أحياناً	٩٦ ــ ٩٧
الخطبة الدينية ، الخليفة يخطب بكلامه	٩٧ ــ ٩٨
أول من خطب بكلام غيره ، الخلفاء والولاة يعينون خطباء بدلا منهم ، خطبة الراضي وخطبة الطائع	٩٨ ــ ١٠٠
خلفاء الفاطميين يخطبون من مسطور ، الخطبة وما عند النصارى	١٠٠
ابن نباته أشهر خطباء القرن الرابع ، قِصَر خطب النبي ، روح الخطبة ، الخطب الجهادية	١٠٠ ــ ١٠٨
ملابس الخطباء	١٠٨ ــ ١٠٩
القصاص والمذكّرون ، الليث بن سعد وتعريف القصص	١٠٩ ــ ١١٥
عد التسبيح بالحصى	١١٤
الذكر والذاكرون والتسبيح وظهور السبحة	١١٣ ــ ١١٧
الوعاظ	١٠٩ ــ ١١٧ وما بعدها
ابن سمعون أشهر وعاظ القرن الرابع ، حكايته مع عضد الدولة	١١٨ ــ ١٢٠
أبو الحسن المصري ، أبو عبدالله الشيرازي ، ميمونة ، أبو زكريا الرازي	١٢٠ ــ ١٢٢
الفاطميون ووعاظهم	١٢٢
المساجد وما كانت تستخدم له عدا الصلاة كالحديث	

الموضوع	الصفحة
والنوم والتعزية ــ الاحتيال لجمع المال وقصة القرد المسحور	١٢٢ ــ ١٢٦
إضاءة المساجد وتزيينها	١٢٦ ــ ١٢٧
أثاث الأزهر	١٢٧
نفقات المسجد وتنظيم المسجد وإعداده	١٢٨ ــ ١٢٩
ظهور التطريب في الأذان وقراءة القرآن	١٢٩ ــ ١٣٥
العناية بالمخلفات	١٣٢ ــ ١٣٣
المصاحف في المسجد ، والمصاحف المنسوبة لعثمان	١٣٣ ــ ١٣٥
أبو العلاء يهاجم الدين من وجهة نظر عقلية	١٣٥ ــ ١٣٨
موقف ابن الروندي وابن أبي البغل وأبي العلاء من القرآن	١٣٨ ــ ١٤٠
شعراء ماجنون : قاضي البقر ، أحمد بن عصام ، السلامي ، ابن الحجاج ، المتيم	١٤٠ ــ ١٤٤
تديُّن العامة وميلهم للأراجيف	١٤٢
مشاهدة غريبة	١٤٢ ــ ١٤٣
محنة المسلمين عند انتصارات الروم ، قوة إيمان المسلمين	١٤٤ ــ ١٤٥
القصص والقصاص وأنواعهم	١٤٦
القصص قديم في الإسلام	١٤٦ ــ ١٤٧
القصاص مع الجيوش	١٤٧ ــ ١٤٨
القصاص والتفسير	١٤٨ ــ ١٤٩
إساءة استعمال القصص والاعتراض على ذلك	١٤٩ ــ ١٥٦

الموضوع | الصفحة

الفصل العشرون: الاخلاق والعادات ١٥٧ ــ ٢٠٨

استخدام الخصيان وتحريم الإسلام للخصاء ،
الخصاء شيء غير عربي، الأمين واتخاذه الخصيان.
اليهود والنصارى هم الذين كانوا يقومون
بالخصاء ١٥٨
أنواع الخدم الخصيان وأماكن اجتلابهم وسخرية
العوام بهم ، وخصالهم وصفاتهم ١٥٨ ــ ١٦١
بعض الخصيان في وظائف عالية ١٦١ ــ ١٦٤
ظهور الخادمات في ثوب الخدم ، أم جعفر والأمين ١٦٥
الولوع بالغلمان شيء غير عربي ١٦٥ ــ ١٦٦
الغزل في الغلمان : مصعب ، السلامي ، أبو فراس ١٦٦ ــ ١٦٧
لم يستهتر الخلفاء بالغلمان ، بختيار وسيف الدولة
واختصاص كل منهما بغلام أثير ١٦٧ ــ ١٦٨
تولّع بعض العلماء بالغلمان : ابن داود ، أحمد بن
كليب النحوي ، سعد الوراق ١٦٨ ــ ١٧٣
البغاء وإنكار الإسلام لـه ، عضد الدولة يتركه
ويفرض الضرائب عليه ، الفاطميون يفعلون مثل
ذلـك ١٧٣ ــ ١٧٤
عضد الدولة والأميرة جميلة الحمدانية ١٧٤
البغاء في اللاذقية والسوس ١٧٤ ــ ١٧٥
الحنابلة يطاردون المنكر ١٧٥
واجب المحتسب عند الماوردي ١٧٥ ــ ١٧٦

الموضوع	الصفحة
لزوم المرأة بيتها ، الحاكم ، أثر ذلك في الأسبان وفي الإيطاليين	١٧٦
الفصل بين الأسرة والأغراب ، وظهور الحظايا ، عقلية هؤلاء	١٧٧
تعليل طريف لسلطان المرأة في مصر	١٧٧ — ١٧٨
مطالبة المرأة بالوظائف	١٧٨
نساء عالمات بالدين : أم الواحد ، أم الفتح ، جواز قضاء المرأة	١٧٨ — ١٧٩
تفضيل الطبقة الوسطى الزواج بواحدة ، حظية المعز لدين الله الفاطمي	١٧٩ — ١٨٠
التعدد عند الكبراء كان من طريق اتخاذ الجواري ، الزوجة الأساسية تسمى الحرة ، سبب حظوة الإماء دون المهيرات	١٨٠
زواج الأرامل وكراهيته	١٨٠ — ١٨١
الشعور بالنسبة لميلاد البنت	١٨١
سبب الفحش في أمم الجنوب ليس مجرد انفصال النساء عن الرجال ، بل هو شيء غير عربي ، البدوي أعف وأطهر من غيره	١٨١ — ١٨٢
ظهور الفحش وزيادته : ابن المعتز ، الوزير سليمان ابن الحسن ، الصاحب بن عباد ، الصابي	١٨٢ — ١٨٣
استغواء الشعراء الماجنين للصبيان في المسجد	١٨٣ — ١٨٤
قوة المال وشرها ، القاهر وتلاعبه بسلطته ، الإخشيد وطمعه	١٨٤ — ١٨٦
قلة شعور الإنسان بكرامته يسهل عليه اضطهاد	

الموضوع	الصفحة
الآخرين : أحمد بن طولون مع ابنه ، المحسِّن ابن الفرات يهين (حامد بن العباس) سلف أبيه	١٨٦
النبي مثال للمحافظة على كرامة العربي	١٨٦ — ١٨٧
زوال الشعور العربي بالكرامة ، والإهانات : معز الدولة ووزيره المهلبي	١٨٧
معاملة الثوار في عهد المكتفي والحاكم	١٨٧ — ١٩١
ضعف الخلفاء ومعاملة الثوار كمحاربين	١٩١
منع الشريعة للقسوة من جانب القاضي ، سلطة صاحب الحرس ، التعذيب من جانب المديرين وأصحاب الخراج ، العقوبات الشرعية الكبيرة : الرجم ، القطع ، القتل	١٩٢
ظهور التعليق والصلب والإحراق	١٩٢ — ١٩٤
السلخ عند الفاطميين	١٩٤ — ١٩٥
الفظائع عند تنصيب الخلفاء : قطع الغذاء ، الحقن بالماء المغلي ، الإدخال في حمام محمى أو في سرداب ، الخنق ، السمل ، الشنق ، السم	١٩٥ — ١٩٩
السمل عادة بوزنطية	١٩٧
حكام قساة : المعتضد ، القاهر ، عضد الدولة	١٩٩ — ٢٠٠
قلة الانتحار	٢٠٠ — ٢٠١
السجون : عدم غلّ المسجونين ، إجراء الصدقات عليهم دفعاً لظلم السجّان ، اشتغالهم داخل السجن ، أطباء للسجون ، تضمين السجون	٢٠١ — ٢٠٢
الزكاة وسمو الشعور في الصدقة	٢٠٢ — ٢٠٤
تهادي العشاق	٢٠٤

الموضوع	الصفحة

العناية بالأيتام ٢٠٥
بناء المستشفيات : الوليد بن عبد الملك ، طاهر ابن الحسين ، أحمد بن طولون ، المعتضد ، المقتدر ، أم المقتدر ، ابن الفرات ، معز الدولة ٢٠٥ ــ ٢٠٨

الفصل الحادي والعشرون: أحوال المعيشة ٢٠٩ ــ ٢٦٧

متوسط مستوى المعيشة والثروة ، نظام بناء الدور ، السراديب ٢٠٩ ــ ٢١٠
طرق تبريد الجو ٢١٠ ــ ٢١٣
المتوكل يحدث البناء الحيري ، انتشاره ٢١٣ ــ ٢١٤
دار الخلافة ودور الكبراء ٢١٤ ــ ٢١٦
التفنن في إعداد القصور : البرك الزئبقية وغيرها ٢١٦ ــ ٢١٨
ولوع الأمراء الترك بالزهور : خمارويه ، القاهر ٢١٨ ــ ٢٢٠
الولوع بالبساتين في مصر ٢٢٠
مقارنة بين قصر المقتدر وقصر إمبراطور القسطنطينية ٢٢٠ ــ ٢٢١
الرواشن ، الأبواب ، الحجرات ٢٢١ ــ ٢٢٣
الحمامات : أصلها ورأي علماء المسلمين فيها ، زخرفتها ، وكثرتها ٢٢٣ ــ ٢٢٥
الملابس : القلانس والدراريع في عهد المنصور ٢٢٥ ــ ٢٢٦
انتقال القلانس والخُمُر لأوروبا ٢٢٦
الظرفاء في ملابسهم ٢٢٧ ــ ٢٢٩
تميز طبقات العمال بملابسها ٢٢٩
بعض الملابس والمظاهر ، القباء هو اللباس الرسمي ،

الموضوع	الصفحة
القمصان ، الخفتان ، الجوارب الخفاف ، لوي الشعور على الأصداغ ، الخضاب ، صبغ الحيوان	٢٢٩ — ٢٣٢
بناء الخلفاء مقابر لهم ، الجنائز وإظهار الأحزان ، الترف في الغسل والتكفين ، غسل سيف الدولة الحمداني ، النداء على الموتى	٢٣٢ — ٢٣٥
دفن العلماء في دورهم ، الشيعة يحملون موتاهم إلى كربلاء	٢٣٥ — ٢٣٦
صور الدعوات إلى المجالس ، ابن الفرات ، وصف مائدة ابن الفرات	٢٣٦ — ٢٣٧
العادتان الإسلامية والفرنسية ومخالفتهما للطريقة الروسية	٢٣٧
غسل الأيدي ونحوه من السواك والحديث على الطعام والحمد	٢٣٧ — ٢٤٠
من أدب الطعام ، الظرفاء في طعامهم	٢٤٠
أكل المنفرد	٢٤١ — ٢٤٢
فن الطبيخ والمؤلفون فيه ، المسامرة والشراب والتنقل	٢٤٢ — ٢٤٣
الشراب ، اختلافه باختلاف البلاد : المصريون ، نساء مراكش ، الأزهري ، القاهر ، الراضي ، المستكفي ، بعض القضاة ، ابن طباطبا ، الحاكم	٢٤٤ — ٢٤٨
عدد الندماء على الشراب ، نثر الورد في مجلس الشراب ، التحية بالورد ، الموسيقى والغناء والرقص	٢٤٨ — ٢٥٠

الموضوع	الصفحة
التأثر بالغناء : مخارق ، ابراهيم بن المهدي ، سارية ، رنام	٢٥٠ ـــ ٢٥١
الحديث والحكايات على الشراب	٢٥٢
وصف مجلس الشراب	٢٥٢ ـــ ٢٥٣
الحشيش ، الشاي ، الماء المثلج	٢٥٣ ـــ ٢٥٥
حكاية متاع غريب	٢٥٥ ـــ ٢٥٦
لعب الشطرنج	٢٥٦ ـــ ٢٥٨
الشطرنج للعجم ، وللعرب الموسيقى والغناء والبلاغة	٢٥٨
النرد	٢٥٨ ـــ ٢٥٩
إجراء الخيل ، سباق الحمام والمحارشة بين الحيوانات	٢٥٩ ـــ ٢٦٠
القمـــار	٢٦١ ـــ ٢٦٢
الرياضة عند الكبراء : لعب الصوالجة ، المصارعة ، الصيد ، حظائر الحيوانات	٢٦٢ ـــ ٢٦٥
اللعب بالخيال ، الحاكون	٢٦٥ ـــ ٢٦٧

الفصل الثاني والعشرون : أحوال المدن ٢٦٨ ـــ ٢٨١

تصنيف المدن على اعتبار سياسي	٢٦٨
علامة المدينة : المنبر	٢٦٨ ـــ ٢٦٩
عدد المساجد وحركة إنشائها في المدن : بغداد ، الفسطاط ، البصرة	٢٦٩ ـــ ٢٧١
إحصاء سكان المدن	٢٧١ ـــ ٢٧٢
أنواع المدن بحسب طرازها : يوناني ، عربي ، بابلي ، إيراني	٢٧٣

الموضوع	الصفحة
مدن الخلفاء	٢٧٤ — ٢٧٥
مياه الشرب وطريقة إمداد السكان بها : مصر ، بغداد ، مكة ، سمرقند ، نيسابور	٢٧٥ — ٢٧٨
تصريف الفضلات الإنسانية	٢٧٨
الانتقال في المدن : الحمير ، القوارب	٢٧٨ — ٢٧٩
إدارة المدينة ، الموظفون ، المحتسب	٢٧٩ — ٢٨١
مراقبة أبواب المدن	٢٨١

الفصل الثالث والعشرون : الاعياد ٢٨٢ — ٣٠٣

بقاء الأعياد القديمة ، واشتراك المسلمين في الجانب الاجتماعي منها	٢٨٢
الأديرة مكان اللهو والشراب	٢٨٢ — ٢٨٣
عيد أحد الشعانين ومظهره ببغداد وبيت المقدس ومصر	٢٨٣ — ٢٨٥
الخميس المقدّس ، عيد الفصح ، ومظهرهما بمصر وبغداد، عيد دير الثعالب، عيد القديسة أشموني ، عيد بربارة	٢٨٥ — ٢٨٧
عيد الميلاد والاحتفال بايقاد النيران ، ليلة الوقود (السَدَق) وأشهر ليلة وقود في القرن الرابع (عملها مرداويج)	٢٨٧ — ٢٨٩
عيد الغطاس بمصر وشهود الخليفة له	٢٨٩ — ٢٩٠
أعياد أخرى بمصر : عيد الأحد من الصوم المسيحي ، عيد الخروج لسجن يوسف ، عيد الشهيد	٢٩١ — ٢٩٢

الموضوع | الصفحة

أعياد رأس السنة ، عيد النيروز في بغداد ومصر ، عيد الكوسج ، عيد الأضحى وعيد الفطر ، مولد النبي ٢٩٢ — ٢٩٩
الأعياد العائلية : عيد الختان ، حفلات الزواج ٢٩٩ — ٣٠١

الفصل الرابع والعشرون : الحاصلات ٣٠٢ ـ ٣٤٩

التغذي في المملكة الإسلامية كان بالخبز ، فوارق إقليمية ، زراعات مختلف البلاد ، وانتشار المزروعات والفواكه ، دخول الاترج والنارنج في المملكة الإسلامية ، فواكه أخرى وخصائص الأقاليم ٣٠٢ — ٣١٢
الفاكهة المسكرة في اليمن ، السمك المجفف من بحيرة « وان » ومن سبتة ٣١٢
الطين ، الحلتيت ، الكافور ٣١٣ — ٣١٤
مواد الصباغة : النيل والقرمس ، الزعفران ، البورق ٣١٤ — ٣١٦
الشبّ حول بحيرة شاد ، ملح النوشادر في صقلية وبلاد ما وراء النهر والصين وارتياد بعض هذه البلاد في العصر الحديث ٣١٦ — ٣٢٠
المعدنان النفيسان : الفضة في المشرق والذهب في المغرب ، التبر في الصحراء الشرقية بمصر (العلاقي) ، الذهب في السودان ٣٢٠ — ٣٢١
الذهب في سجستان ، أكبر معدن للفضة في مدينة بنجهير ببلاد هندكوش ، اصفهان ، باذغيس ٣٢١ — ٣٢٣
النحاس والحديد ، الزئبق في الأندلس ٣٢٣ — ٣٢٤

الموضوع	الصفحة

الفحم الحجري بفرغانة وبخارى ، حجر الفتيلة في مدينة دخشان ٣٢٥

أنواع الأحجار النفيسة ، الأذواق فيها ، أماكنها وأنواعها : الفيروزج ، العقيق ، الزمرد ، الجزع ، المرجان ، اللؤلؤ ٣٢٥ — ٣٣٢

العاج ، الذبل ، جلود النمور ٣٣٢ — ٣٣٣

تجليد الكتب بالجلد ، وفضل الزنوج في ذلك ٣٣٣

غابات الخشب ، وأماكن استيراده ٣٣٣ — ٣٣٥

البلاد التي عنيت بمسائل الري وتشريعه ، السدود والاسكار ، المصانع ، القنوات ٣٣٥ — ٣٤١

النيل وما كان عليه من سدود ، مقياس ارتفاع النيل ٣٤٢ — ٣٤٣

تقسيم الماء ، الطرجهارة ٣٤٣

محاربة طغيان الرمال ٣٤٤

صور الزراعة ، التسميد ، طرد الطيور ٣٤٤ — ٣٤٦

تربية البقر والجاموس ، استيراد مصر لحيوانات الذبح ، الجمال ، الخيل ، الدواجن ونحوها ٣٤٦ — ٣٤٩

الفصل الخامس والعشرون : الصناعات ٣٥٠ — ٣٦٨

كانت صناعة الملابس أرقى الصناعات، الترف يتلخص في حسن اللباس وتعليق الستور على الحيطان وفرش البسط على الأرض ٣٥٠

لكل بلد نموذجه الصناعي المميّز ، أنواع السجاجيد ٣٥٠ — ٣٥١

لم يكن القطن من حاصلات مصر بل كان فيها الكتان : الفيوم ، تنيس ٣٥١ — ٣٥٣

الموضوع	الصفحة
أبو قلمون (قماش متقلب الألوان) في تنيس ، صناعة النسيج في الدلتا المصرية صناعة منزلية	٣٥٣–٣٥٤
الكتان في المشرق بفارس ، الثياب التوزية بمدينة كازرون	٣٥٤–٣٥٦
القطن وانتشاره ومراكزه	٣٥٦–٣٥٨
انتقال صناعة الحرير إلى المشرق	٣٥٨–٣٥٩
الفرش الصوفية ، انواعها وأفضلها ، الحصر	٣٥٩–٣٦١
صناعة الروائح العطرية	٣٦١–٣٦٣
الطواحين المائية ، المطاحن ، الطواحين الهوائية	٣٦٢–٣٦٥
صناعة الورق	٣٦٥–٣٦٨
الفصل السادس والعشرون : التجارة	**٣٦٩ ـ ٣٩١**
تقسيم العمل ، احتقار العرب للتجارة	٣٦٩–٣٧٠
تغير ذلك في القرن الرابع	٣٧٠–٣٧١
التجارة في القرن الرابع مظهر من مظاهر أبهة الإسلام ، فتح الطريق إلى بلاد الروس في الشمال ، وإلى الصين في الشرق ، الجاليات الإسلامية في البلاد الأجنبية	٣٧١–٣٧٤
العملة وقيمتها الحضارية ، مناظرة بين تاجرين رومي وفارسي ، الدنانير والدراهم ، ضرب العملة في مختلف البلاد ، ارتفاع قيمة العملة الذهبية ، العملة البغدادية وتقوية مركزها ، التزييف ، السفاتج ، الصكوك	٣٧٥–٣٨٠
مهمة الجهبذ	٣٨٠–٣٨١

الموضوع	الصفحة
البصريون والتجارة والارتحال ، الفرس ، المصري الحق ، اليهود والاتجار بالعملة والجهبذة	٣٨١–٣٨٥
الروم والهنود والأرمن والشاميون ، الأسواق وطوائف التجار ، الأسواق الأسبوعية ، الفنادق	٣٨٥–٣٨٧
رأس المال والترف ، تجارة البز ، التأجير	٣٨٨–٣٨٩
طرق البيع والشراء	٣٨٩–٣٩٠
التحايل للربا	٣٩٠–٣٩١
الفصل السابع والعشرون : الملاحة النهرية	**٣٩٢ ـ ٤٠٣**
قلة الطرق المائية في مملكة الإسلام ،الأنهار الصالحة للملاحة	٣٩٢–٣٩٣
البحيرات	٣٩٣–٣٩٤
حركة الملاحة والنقل النهري ، الدجلة والفرات	٣٩٤–٣٩٧
عدد السفن في بغداد وأنواع المراكب وأسماؤها ، بغداد تشبه البندقية في الحركة التجارية	٣٩٧–٤٠٠
اللصوص وخطرهم على الأمن والتجارة : ابن حمدون ، عمران بن شاهين	٤٠٠–٤٠٢
جور الحمدانيين وسياستهم الجنونية في الخراج	٤٠٢
الملاحة على النيل	٤٠٣
الفصل الثامن والعشرون : المواصلات البرية	**٤٠٤ ـ ٤٢٥**
العرب أمة ركوب فلم يعتنوا بالطرق البرية	٤٠٤–٤٠٥
جنكيزخان والعناية بالطرق ، العناية بحراسة الطرق ، الرباطات وكرم أهل المشرق	٤٠٥–٤٠٧

الموضوع	الصفحة
الأديرة والضيافة ، الفنادق في المدن	٤٠٧
القناطر الثابتة وجسور السفن	٤٠٧–٤١٠
البريد وفضل دارا ، دواب البريد ، قياس المسافات وعلاماتها	٤١٠–٤١٢
أهم طرق البريد	٤١٢–٤١٧
عضد الدولة وتأمين الطرق	٤١٧–٤١٨
طريق الحج من بغداد ، طرق المغرب	٤١٨
الطرق من مصر إلى المغرب ، أعمال البريد الحكومي	٤١٩–٤٢٠
البريد الحربي	٤٢٠–٤٢١
البريد الخاص ، استعمال النار في الإشارة والمراسلة	٤٢١–٤٢٢
حمام الزاجل	٤٢٢–٤٢٤
جوازات المرور	٤٢٤–٤٢٥
الفصل التاسع والعشرون : الملاحة البحرية	**٤٢٦ ـ ٤٤٦**
الملاحة البحرية في بحرين كبيرين	٤٢٦
اختلاف الطريقة في بناء السفن في كل بحر	٤٢٦–٤٢٩
البندقية مصدر خشب بناء السفن	٤٢٩–٤٣٠
البوصلة ، مهارة ملاحي تنيس بمصر السفلى	٤٣٠
الغواصون المرافقون للسفن، البحر الأبيض في القرن الرابع بحر عربي	٤٣١
الموانى المختلفة	٤٣١–٤٣٣
المغرّبون يحاولون ارتياد المحيط الأطلسي	٤٣٣–٤٣٤
البحر الأحمر ، الملاحة فيه ، موانيه	٤٣٤–٤٣٥
بحر الزنج	٤٣٥–٤٣٦

الموضوع	الصفحة
البحر الفارسي والمحيط الهندي والملاحة فيهما بحسب الرياح الموسمية	٤٣٦–٤٣٧
القرصان في بحر فارس وفي جزيرة سقطرى ، مرافىء المملكة الإسلامية : عدن، سيراف وثروة تجارها ، البصرة ومنارة وعبّادان	٤٣٧–٤٤٢
الجاليات الإسلامية والمراكز التجارية في الشرق الأقصى ، القضاء عليها واختفاء معالم التجارة البحرية من هناك ، محاولات حكومة الصين لاجتذاب التجارة إليها ، تجدد نشاط التجارة الإسلامية مع الصين	٤٤١–٤٤٥
الطريق إلى الصين ومخاطره	٤٤٥–٤٤٦



فهرست الاعلام

(أ)

آدم (عليه السلام) —٦٦
آل سامان — ٣٧٣
آل المرزبان — ٤٠٦
الآمدي الحلاوي —٢٠١
الإبراهيم (عليه‌السلام) —٥٢—٦٦—٩٩
ابراهيم بن أبي عون —٦٧
إبراهيم بن إسحاق القاري —١١٠
إبراهيم بن أيوب العنبري — ٢٣١
إبراهيم بن القاسم (الكاتب) —٢٨٣
إبراهيم بن المهدي (الامير) — ٢٥٠
إبليس — ٦٦
ابن ابي الريان (الوزير) — ٤٠١
ابن أبي زكريا الطمامي — ٧٣
ابن ابي العزاقر — ٦٦ — ٦٧
ابن أبي الفوارس القرمطي — ١٤٢ — ١٨٨
ابن الأثير — ١٥٢ — ١٩٦ — ١٩٩ — ٢٨٧ — ٤٠٨

ابن بابويه القمي (الشيعي الفارسي) — ٢٨٧
ابن البغدادي (الزاهد) — ٨٢
ابن البلخي — ٣٥٥
ابن بويه — انظر ركن الدولة
ابن جامع (المغني) — ٢٦١
ابن جبير — ١٣٣ — ٢٧١ — ٤٢٦ — ٤٣٥
ابن جرير الطبري — ١٥٤ — ١٧٩
ابن الجصاص—انظر الحسين بن احمد
ابن الجوزي — ٦٥ — ١٢١ — ١٥٢ — ٢٨٧
ابن الحجاج — ١٤١ — ١٨٣ — ٢٦٠
ابن حزم — ٣٥ — ٥٣ — ٧٢ — ٧٥
ابن حمدون (اللص) — ٤٠١
ابن حمدون النديم — ١٦١
ابن حمديس (الشاعر) — ١٠١
ابن حوقل — ١٠ — ١١ — ١٢ — ١٣ — ١٤ — ٧٤ — ٩٤ —

١٢٤ — ١٤٥ — ١٧٥ —
٢٧٢ — ٢٧٧ — ٣٠٥ —
٣٠٧ — ٣٦٦ — ٣٧٩ —
٣٩٦ — ٤٠٦ — ٤٣٠ —
٤٣٨
ابن خالويه — ٨٠
ابن خرداذبة — ٨ — ١٢ — ٣٧٢ —
٤١٧ — ٤٤٥
ابن خلدون — ٢٩١
ابن خلكان — ١٠٥
ابن دأب — ١١٣
ابن داود — ١٦٨
ابن دريد — ٤٧ — ٢٤٥
ابن دينار — ٢٧
ابن الراوندي — ١٣٩
ابن الربيع (الوزير) — ١١٦
ابن رزام — ٧٥
ابن رسته — ٩ — ١٢٩ — ٣٣٩ —
٣٤٧ — ٤١٧
ابن سبكتكين — انظر محمود بن سبكتكين
ابن سرابيون — ٤٠٨
ابن سريج — ٢٢٨
ابن سعيد — ٢٦١ — ٤٢٥
ابن سمعون — ١١٨ — ١١٩ — ٢٠٣
ابن طباطبا — ٢٤٧
ابن طولون — انظر احمد بن طولون
ابن الطوير — ٢٨٠
ابن طيفور — ١٣١ — ٤٢٠
ابن عباد (الوزير) — ٢٩٨
ابن عباس — ١٤٩
ابن عبد العزيز السوسي — ٣١
ابن عدي بن النجام — ١٨٧
ابن عقدة — ٢٠٣
ابن عمّار — ٢٥٤
ابن العميد — ٩٦ — ٩٧ — ٤٢١
ابن عوف — ١٥٠
ابن غسان (الطبيب) — ٢٠٠
ابن الفرات — ١٨٦ — ٢٠٧ —
٢٢٢ — ٢٥٤ — ٤٢٣
ابن قريعة — ٢٤٦
ابن فضلان — ١٥
ابن الفقيه — انظر ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني
ابن القارح — ١٣٨
ابن قديد — ٢٣
ابن قرابة — ٤٢٣
ابن كلّس — ٢٣٥
ابن مجاهد — ٣٨٨
ابن المدبر (الكاتب) — ٢٦٥
ابن مروان (الكردي) — ٤٠٠
ابن مسكويه (المؤرخ) — ١٨١— ٢٤٢
ابن المعتز — ٨٨ — ١٩٣ — ٢٠٢ —
٢٠٤ — ٢١٥ — ٢٢٠ —
٢٣١ — ٢٣٩ — ٢٤٤ —
٢٥٢ — ٢٨٣ — ٣٠٥ —
٣٨٨ — ٣٨٩

ابن مقلة ـ ٣٧٩ ـ ٤٢٣
ابن نباتة ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦
ابن النديم ـ ٦٠ ـ ٧٥ ـ ٧٦
ابن هانىء ـ ٢٢
ابن هشام ـ ١٨٦
ابن يحيى ثعلب (النحوي اللغوي) ـ ٣٧٦
أبو أحمد بن ابي بكر (الكاتب) ـ ٢٠٠
أبو احمد الموسوي ـ ٢٧١
ابو إسحاق البلوطي ـ ٢٩
أبو اسحاق الصابي ـ انظر الصابي
أبو اسحاق المعتصم ـ ٢٣
أبو بكر الآدمي (القاضي) ـ ١٣٠ ـ ١٣١
أبو بكر أحمد بن إسحاق ـ ٨٢
أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري ـ ٨٢
أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ـ ابن الفقيه ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٣٠٤ ـ ٣٨١
أبو بكر الزقاق ـ ٢٤
ابو بكر السلمي ـ ٢٢٣
أبو بكر الشبلي ـ ٢٩
أبو بكر الصدّيق (رضي الله عنه) ـ ٥٦ ـ ١٥٢
أبو بكر الصنوبري (الشاعر) ـ ١٧١
أبو بكر الفرغاني الصوفي ـ ٢٢٩
أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ـ ١٣٩
أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (الطبيب) ـ ٣٤٧
أبو بكر محمد بن علي المادراني ـ ١٨٥ ـ ٣٨٣
ابو بكر الملطي ـ ١١٠
ابو بكر النابلسي (الزاهد) ـ ١٩٤
أبو جعفر البحاث ـ محمد بن الحسين ابن سليمان ـ ٨٥
أبو جعفر الجزار ـ ٢٩٩
أبو جعفر الصيمري (الوزير) ـ ٤٠١
ابو جعفر المنصور ـ ٢٢٥
أبو الحسن بن أبي البغل ـ ١٣٩
ابو الحسن بن سمعون ـ ١١٨
أبو الحسن البوشنجي ـ ١١٥
أبو الحسن الرفّاء ـ ١٣١
أبو الحسن السريّ السقطي ـ انظر السري السقطي
أبو الحسن علي بن الفرات (الوزير) ـ ١٣١ ـ ١٣٣ ـ ٢١٤ ـ ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ـ ٢٥٠
أبو الحسن علي بن محمد (الواعظ) الملقب بالمصري ـ ١٢٠
أبو الحسن علي بن هارون (المعروف بالمنجم) ـ ٢٣٢ ـ ٢٤٢
أبو الحسن الماوردي (الامام) ـ انظر الماوردي

أبو الحسين بن أبي الحواري — ٣٧
ابو الحسين بن سعد (الكاتب) — ٢٧٩
أبو الحسين عبد الله بن يحي بن خاقان التركي (الوزير) — ٢٦٢
أبو الحسين محمد بن جامع الصيدلاني — ١٦٨
أبو حمزة محمد بن ابراهيم الصدفي البغدادي — ٢٥
أبو حنيفة — (الإمام) — ٣٠ — ١٥٣ — ١٦٠ — ١٧٩ — ٢٦٨
أبو حيان التوحيدي — ٩٢
أبو الخطاب بن أبي زينب — ٧٢
ابو الخير العابد الأقطع الشامي — ٥٠
أبو الخير فهر بن جابر الطائي — ٢٩
أبو دُلامة — ٢٢٥
ابو دلف الخزرجي (الشاعر) — ١٥ — ١٥١ — ١٥٢ — ٤١٥ — ٤٤٣
أبو ركوة (الثائر) — ١٨٩
أبو رياش — ٢٤١
أبو الريحان البيروني — ١٦
أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي — ١١٥
أبو زكريا يحي بن معاذ الرازي (الواعظ) — ١٢١
أبو زيد الآدمي — ٢٨
أبو زيد البسطامي — ٥٤
أبو زيد البلخي — ٨ — ٧٦
أبو زيد السروجي — ١٥١ — ١٥٦
أبو السرايا نصر بن أحمد — ١٩٩
أبو سعيد الأعرابي (الشيخ) — ٣٩
أبو سعيد بن الفضل — ٣٧٠
أبو سعيد الجوزي — ١٦٠
ابو سعيد الخزاز البغدادي — ٢٦ — ٣٥
أبو سعيد الحسن إبن بهرام الجنابي — ٧٢
أبو سعيد عبد الواحد بن عبد الكريم ابن هوازن — ١٠٠
أبو سعيد مظفر الدين الإربلي (الامير) — ٢٩٩
أبو سهل بن يونس — ١٤٣
أبو سهل التري — ٣٩ — ٥٤
أبو سهل الصدفي — ١٤٢
أبو شجاع محمد بن الحسن (الوزير) — ٩٤
ابو صالح حمدون بن أحمد عمارة القصار النيسابوري — ٢٦
ابو طالب المكي — ٥٨ — ١١٢
أبو طاهر القرمطي — ٦٩
أبو الطيب المتنبي (الشاعر) — ٨٠
أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري (القاص) — ١٤٨
أبو العباس عبد الله بن محمد البشتي (الزاهد) — ٨١
أبو العباس اليساري — ١٣٢
أبو عبد الرحمن حاتم الأصم — ٣٧
ابو عبد الرحمن السلمي — ٣٦

أبو عبد الرحمن الصوفي — ٢٣
أبو عبدالله أحمد بن عطاء الروذباري —انظر الروذباري
ابو عبدالله أحمد بن يحي الجلاء —٤٢
أبو عبداللهبن أبي ذهل الضبي الهروي— ٢٠٢
أبو عبد الله بن محمد(الواعظ) — ١٢٠
ابو عبد الله بن محمد نفطويه(اللغوي)— ١٦٨
أبو عبد الله الدجاجي — ١٣١
ابو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني— ٨ — ١٧
أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي — انظر الترمذي
ابو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي— ٣٨
أبو العلاء المعري (الشاعر) — ٢١— ٦٥ — ٧١ — ٧٢ — ٧٦ — ٨٠ — ١٣٥ — ١٣٦ — ١٣٨ — ١٣٩ — ١٤٠ — ١٧٩ — ٣٢١
أبو علي الإسكافي — ٣٨٤
أبو علي بن حازم — ١٣
أبو علي بن مقلة (الوزير) — ٦٦—٤٢٣
أبو علي الدقاق — ٥٣
أبو علي الروذباري — ٣٤ — ٣٦
أبو علي عمر بن يحي العلوي — ٧٠
أبو علي القالي (اللغوي) — ٩٤
ابو علي بن الكاتب الصوفي — ٤٢
أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي— ٢٨
أبو عمر — ٢٧
أبو الفتح بن العميد (الوزير) — ١٩٧
أبو الفتوح برجوان — ١٦٤
أبو الفدا — ١٨ — ١٩٦ — ٢٨٧
أبو فراس (الشاعر) — ١٦٦
أبو الفرج قدامة بن جعفر — ١٢
أبو الفرج يعقوب (الوزير) — ٢٦٠
ابو الفضل الميكالي (الأمير) — ٨٤
ابو الفضل الهمذاني — ٢٣٤
أبو القاسم الأنماطي — ١٣
أبو القاسم البغدادي — ٢٢٢ — ٣٩٤
ابو القاسم الدمشقي — ٣٦
ابو القاسم النجار القائم — المسمى بالمنصور — ٧٢
أبو كعب (القاص) — ١٥٠
أبو لؤلؤة فيروز (المجوسي) — ٦٤
أبو الليث السمرقندي الحنفي — ٣٧ - ٢٥٩
ابو المحاسن — ٤٩
أبو محمد إسماعيل بن محمد الدهان — ٨٤
أبو محمد البربهاري — ٥٠
أبو محمد بن عبد الله بن محمد المرتعش— ٥٤
أبو محمد الحسن بن عمار الكتاني — ١٦٤

ابو محمد رويم بن أحمد البغدادي — ٤١
ابو محمد عبدالله بن محمد المرتعش — ٢٩
أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني — ٨٢
أبو محمد الفرغاني — ١٤٢
أبو محمد المهلبي (الوزير) — ١٨٧
أبو محمد النيسابوري — ٩٣
ابو مروان بشر بن إسحاق — ٣٢٧
أبو النجم (أمير الجيوش) — ٣٨٥
أبو نصر بشر الحافي — ٤٢
ابو نصر الفارابي — ٣٨٨
أبو نعيم (المؤرخ) — ٢٣١
أبو نواس — ١١٦ — ١٥٧ — ٢٣١ — ٢٤٨
أبو هريرة أحمد بن عصام (الشاعر) — ١٤٠
أبو الورد (الخادم) — ٢٦٦
أبو يحيي القتّات — ١٦٩
أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن أنسطاس — ٢٤٧
أبو يوسف اليزيدي — ٢٤١
إبيفانيوس (الرحالة) — ٢٤
أتُو — الملك — ٢٢١
احمد بن حوقل — ٢٥
احمد بن سهل البلخي — ١٧
احمد بن طولون — ٥٠ — ٢٠٥ — ٢٠٦ — ٢١٤ — ٢٥٩ — ٢٦٩
أحمد بن عطاء الروذباري — انظر الروذباري
أحمد بن علي البتّي — ٤٠١
أحمد بن كليب (النحوي) — ١٦٩ — ١٧٠
أحمد بن محمد الإفريقي (الشاعر المتيم) — ١٤٣
الإخشيد — ١٤٢ — ١٨٥ — ٢٣٠ — ٢٥٣ — ٢٥٩ — ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٩٠ — ٣٧٩ — ٣٨٩
الإدريسي — ١٤ — ٣٢١ — ٣٢٤ — ٤١٦ — ٤٣٣
أرسلان خان (الامير) — ٤٠٨
أريون — ١٣١
الأزهري (اللغوي) — ٢٤٥
إسحاق بن إسماعيل (عليه السلام) — ١٩٩
إسحاق الواسطي — ٢٤٦
إسماعيل (عليه السلام) — ٩٩
إسماعيل بن بلبل — ١٩٨
إسماعيل بن القائم (الفاطمي) — ٢٩٩
إسماعيل بن نخشد — ٢٧
إسماعيل الساماني — ٣٥٧
أشموني (القديسة) — ٢٨٦
الاشوريون — ٣٩٩
الاصطخري — ١٥ — ٦٢ — ٦٤ — ٩٥ — ٢١٤ — ٣٣٣ —

٣٧٦ — ٣٩٣ — ٤٠٦ —
٤٣٧ — ٤٣٨ — ٤٣٩
الأصمعي (اللغوي) — ٩٨ — ١١٣
الأصيفر — ٨٧ — ١٣١
الأعشى (الشاعر) — ٣٢٩
أفلاطون — ٢٦
إقليدس — ١٣٩
أكثم بن صيفي — ١٣٩
الأكراد — ٢٣٩ — ٤٠٠
الياس (عليه السلام) — ٥٣
أم جعفر — ١٦٥
أم الفتح بنت (القاضي) أبي بكر
أحمد بن كامل بن خلف
ابن شجرة — ١٧٨
أم موسى (القهرمانة) — ٣٠٠
أم الواحد — ١٧٨
الأمويون — ٣٧٠
الأمين بن هارون الرشيد (الخليفة)
١١٦ — ١٥٧ — ١٦٥ —
٣٩٧
الأهوازي — ٧٧
أورستيس (البطريرك) — ١٩٥
أوغسطوس — ٢١٧
إيرينيوس — ٦١

(ب)

الباخرزي — ١٤٠
بازيليديس — ٦١
باسيل (ملك الروم) — ١٦٢
البجة (قبائل) — ٣٢١
بجكم (القائد) — ٢٠٧ — ٢٧١ —
٤٠٠ — ٤٢٣
البحتري (الشاعر) — ٢٣٠
البخاري — ٩٣ — ١٤٩
بختيشوع بن يحيى (الطبيب) — ٢٠٨
بختيار البويهي — ١١٩ — ١٦٧
بدر بن حسنويه — ٣٧٠
بدر الدولة — ٢٩٠
البرامكة — ٢٠٥
البزاز — ٣٨٩
برقوق (السلطان) — ٢٩٥
بشر الحافي — ٤٨ — ٤٩ — ٨١
البطريرك ديوتيسيوس التلمخري — ٣٥٤
بطليموس — ١٣٩
البكري — ٤٠٦
بلاش (ملك الفرس) — ٢٢٣
البلخي — ١٣
بنان الصوفي (المعروف بالحمال) — ٥٠
بنو اسد — ٧٢
بنو إسرائيل — ٤٨ — ١٤٩
بنو الأغلب — ٢٧٣ — ٤١٨
بنو أمية — ٣٤٦
بنو بويه — ٧١ — ٩٦
بنو خفاجة — ٨٩
بنو ساسان — ١١١ — ١١٧ — ١٢٥ —
١٥١
بنو سامان — ٢٠٠

بنو العباس — ١٠٨ — ١٩٧ — ٤١٩
بنو وائل — ١٨٥
بنو وهب — ٦٧
بنيامين — ٣٢٩ — ٣٣١
بهاء الدولة (السلطان) — ٣٦٧ — ٣٨٥
بوكسر (الرسّام) — ٣٤٦
بوكلير (الامير) — ٣٨٧
البويهيون — ١٩٧
البيروني — ١٧ — ٦٠ — ١٧٤ — ٢٨٨ — ٢٩٤ — ٣٢٥
البيهقي — ٤١٩

(ت)

التتر — ٣٦٩ — ٤٠٤
الترك — ١٦٢
الترمذي— أبو عبد الله محمد — ٢١ — ٤٧
تشان تشونج(الرحالة الصيني)—٣٥٦— ٤٠٨
تشاو—جو—كوا (مفتش الضرائب)— ٤٢٨
تميم بن المعز — ٢٣٤ — ٢٥١
تنج (أسرة) — ٤٤٣
التنوخي — ٢٥٥ — ٤٠١
توزون — ٥٠ — ١٩٧
تولوستوي — ١٣٦

(ث)

الثعالبي — ٨٤ — ٣٦٥ — ٤٢٤
ثمل (الخادم) — ١٦٢

(ج)

الجاثليق — ١٥
الجاحظ — ١٧ — ١٤٨ — ١٤٩ — ١٥٠ — ١٨٠ — ٢٢٢ — ٢٤٠ — ٣٣٣
جانج تي (الرحالة الصيني) — ٣٣١
جبريل (عليه السلام) — ٧٩
جحظة (الشاعر) — ٢٠٣ — ٢٤٢ — ٣٨٠
الجردوزي — ٤١٥ — ٤١٦
جعفر بن حرب — ٨٦
جعفر بن فضل الفرات المعروف بابن خنزانة (الوزير) — ٩٣ — ٢٦٥
جعفر الجزار — ٣٠٠
جميلة الحمدانية (الأميرة) — ١٧٤
الجنابي — ٢٣٣
الجنيد — ٣٧ —٣٩—٤١—٦٠ — ١١٦
جولد زيهر — ١٠٩ — ١٤٦
جوهر (القائد) — ١٩٤ — ٤٢٠
الجوهري — ٨٤ — ٩٣
جويار (مؤرخ) — ٧٥
الجويني — ٨٣
الجيهاني — ١٢ — ١٧

(ح)

الحارث بن أسد المحاسبي — ٢٠
الحارث بن مسكين — ١٣٠ — ١٣٤
الحاكم بأمر الله (الخليفة) — ٢٢ — ٧٠ — ٨٣ — ١٠٠ — ١٠٩ — ١٢٧ — ١٦٢ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٦٨ — ١٧٦ — ١٨٩ — ١٩٥ — ٢٣٣ — ٢٤٧ — ٢٥٤ — ٢٨٤
حامد بن العباس (الوزير) — ١٨٦ — ١٩٨ — ٤٢٢ — ٤٢٣
الحجويري الافغاني — ٢٨ — ٣٢ — ٣٥ — ٣٨ — ٤٧ — ٩٣ — ١١٧ — ٣١٧
الحجويري — ٣٦ — ٦٥ — ٨١ —
حذيفة بن اليمان (الصحابي)—٢٧—٢٨
الحريري — ١٥١ — ١٥٦
حسن البصري — ٢٧ — ٤٨
حسن بن أبي الحسن الصابي — ١٩٧
الحسن بن علي (رضي الله عنه) — ٦٦
الحسن بن مخلد (الوزير) — ٢٢٧ — ٣٨٠
حسن بن المنذر — ١٤
الحسين الأهوازي — انظر الأهوازي
الحسين بن أحمد—ابن الجصاص—٣٥٩
الحسين بن حمدان — ١٩٠ — ١٩١
الحسين بن علي (رضي الله عنه)—٦٦— ١٤٧
الحسين بن علي القرمطي — ٧٦
الحسين بن القاسم بن عبد الله (الوزير)— ٦٧
الحلاّج — الحسين بن منصور— ٥٦ — ٥٩ — ٦٠ — ٦١ — ٦٢ — ٦٣ — ٦٤ — ٦٥ — ١٩٣
حمدان بن الأشعث — ٧٧
حمدان قرمط — ٦٨ — ٧٥ — ٧٧
الحنابلة — ١٧٥

(خ)

الخاقاني (الوزير) — ١٣٩
خدا بخش — ١٧ — ١٤٦
الخدم السودان — ١٦١
الخضر (عليه السلام) — ٥٣ — ١٤٩
الخطيب البغدادي—٢٢٩—٢٣٥—٢٧٢
الخلدي — ٢٩
خلف الأحمر — ١١٣
خمارويه — ١١٥ — ٢١٧ — ٢١٨ — ٢٥٩— ٢٦٤— ٢٨٣— ٤٠٥
الخوارج — ١٤٩ — ١٩٠
الخوارزمي — ٣٣ — ١٨٠ — ١٨١ — ٣٦٧ — ٤٠٠
خواشير بن يوسف بن صلاح الأركي — ١٦
الخيزران (أم الهادي) — ٣٥٩

(د)

الدارقطني (المحدث) — ٩٣
داود — ٦٦

الدارامي — ١١٤
الدراويش — ٣٢
الدروز — ٢٢ — ٦٢
دعبل — ٢٦٦
دعلج بن أحمد بن دعلج ابو محمد السجزي — ٢٠٣
الدمُسْتُق — ١٤٤
دي ساسي — ٧٥
دي غوي — ١٧ — ١٨
ديلم — ٩٦ — ١٤٨ — ٢٦٣ — ٣٧٠ — ٣٧٨ — ٣٩٨
ديوجينيس — ٤١
ديوكره الهندي — ١٦
البطريرك ديوتيسيوس التلمخري — ٣٥٤

(ذ)

الذهبي — ٦٥
ذو النون — ٢٤ — ٢٦ — ٥٠ — ٥٢

(ر)

الرازي (الطبيب) — انظر أبو بكر الرازي
الراضي بالله (الخليفة) — ٩٨ — ٢٣٢ — ٢٤٥ — ٢٧١ — ٣٩٨
ربي بتاحيا — ٣٩٠
الرشيد — هارون — ٩٨ — ١٥٠ — ٢٠٤ — ٢٠٩ — ٢٦١
ركن الدولة بن بويه (الأمير) — ٩٦ — ٩٧ — ٣٧٧ — ٤٢٠
الراهدانية أو الراذانية (تجار اليهود) — ٣٧٢
الروذباري — أحمد بن عطاء — ٢٨ — ٣٤
الروم — ٩٤ — ٩٦ — ٩٧ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٤٨ — ١٥٩ — ١٦٢ — ١٧٥ — ١٩٤ — ١٩٧ — ٢٣٠ — ٣١٠ — ٣٥٨ — ٣٦١ — ٣٧١ — ٣٨٥ — ٤١٠ — ٤٣٢
الرومان — ١٢٢ — ٢٢٣ — ٢٣٢ — ٢٧٦
ريجل Regel (عالِم) — ٣٢٠
رينالدو — رينالديني — ٤٠١
رينر (المؤرخ) — ٤٢١
رينو — ١٨ — ٤٤٥
رينولد نيكلسون — ٢٤

(ز)

زبيدة — السيدة — ٢٧٦
زكريا بن يوحنا — ٣٨٤
الزمخشري — ٢٢٣
الزنادقة — ٣٦
زيتونة — الجارية — ٣٧
زيرك (الخادم) — ٢٣٣

(س)

سابور (ملك الفرس) — ٣٣٨ — ٣٥٨ — ٣٦٢

الساسانيون ـ ٣٧٥
الساماني ـ ٣٧٣
السامانيون ـ ٣٧٣
سبكتكين ـ ٤٠٥
سترابو (الرحالة المؤرخ)ـ٣٠٥ـ٣٢٧
ستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين ابن إسماعيل الضبي ـ ١٧٨
سخاو (الرحالة) ـ ٢٦٧
السري السقطي ـ ابو الحسن ـ ٢٥ ـ ٢٨ ـ ٤٠ ـ ٥٢
سعد (الوراق) ـ ١٧١ ـ ١٧٢
سعيد (الشاعر)ـ انظر قاضي البقر
سعيد بن جبير ـ ١٤٩
سفين هيدت (الرحالة) ـ ٣٦٤
السلامي (الشاعر) ـ ١٤٠ ـ ٢٤٩
سلمون (قائد روماني) ـ ١٦٢
السلمي ـ ٤٩
سليمان بن صرد ـ ١٤٧
السمرقندي ـ ١١٢
سنان بن ثابت (الطبيب)ـ٢٠٦ـ٢٠٨
سهل بن سهل (المفتي) ـ ٢٥٧
سواد بن غزية ـ ١٨٧
السودان (علم) ـ ١٥٨ ـ ٣١٧
سويد بن سعيد الحدثاني ـ ١٦٩
سوين تسانج (الرحالة الصيني)ـ٤١٥
سيف الدولة بن حمدان ـ ١٠١ ـ ١٦٨ ـ ٢٣٤ ـ ٣٢٤
سيكز (الميجر) ـ ٣٤١

(ش)

الشافعي ـ ١٣٠ ـ ٣٨٨
شاك (مؤرخ) ـ ١٥٦
الشبلي ـ ٣٧
شرف الدولة(ابن عضد الدولة)ـ٣٩٨
شرف الدولة (الأمير ـ ٣٩٨
الشريف الإدريسي ـ ١٣٤
الشريف الرضي ـ ١٨١ ـ ٢٦١
الشعبي (المحدث) ـ ١٥٣ ـ ١٥٤
شكر (خادم عضد الدولة) ـ ١١٨ ـ ١٦٣
الشلمغاني(المعروف بابن ابي العزاقر)ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧
الشهرستاني ـ ٧٥
الشوكري ـ ١١٣
الشيعة ـ ٣٦ ـ ٢٣٥

(ص)

الصابي ـ أبو اسحاق ـ ١٨٣ـ٢٥٤ـ ٢٩٦ ـ ٣٠٧
الصاحب بن عباد ـ ١٣ ـ ١١٨ ـ ٢٣٦
صاحب الشامة (القرمطي) ـ ١٨٨
الصقالبة ـ ٩ ـ ١٥٨ ـ ١٥٩ ـ ٣٧٢
صلاح الدين ـ ٣٧٧
الصنوبري (الشاعر) ـ ٢١٩ ـ ٢٤٩
الصوفية ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ

٢٣ – ٢٤ – ٢٨ – ٢٩ –
٣٠ – ٣١ – ٣٣ – ٣٥ –
٣٦ – ٣٨ – ٣٩ – ٤٠ –
٤٣ – ٤٤ – ٤٥ – ٤٦ –
٤٨ – ٥١ – ٥٣ – ٥٤ –
٦٥ – ٩٠ – ٩٢ –١١٦–
١٣٢
الصولي – ٦٤ – ٢٤٥ – ٢٥٧ –
٤١٢

(ط)

الطائع (الخليفة) – ٩٩ – ١١٩ –
٢٧١ – ٣٩٨
الطالبيون – ٢٤٧
طاهر بن الحسين – ٢٠٥ – ٢٥٠
طاهر ذو اليمينين – ٢٥٢
الطبري – ٨٨ – ١١١ – ٢٢٣
طبس – ٤١٧
طرفان (كانتشانج) – ٢٩٤
الطوسي (الزاهد) – ٣٥٠
الطولونيون – ٢١٧
طيفور البسطامي – ٢٥ – ١١٠

(ظ)

الظاهر (الخليفة) – ٢٩٠ – ٢٩١

(ع)

العاصي بن هشام – ٢٦١
العباس بن احمد بن طولون – ١٨٦
العباس بن كيغلغ (أمير) – ١٧٢
العباسيون – ١٦٦
عبدان الأصبهاني – ٢٤٩
عبد الرحمن بن محمد – ٢٧٤
عبد الرحمن بن ملجم – ١٤٣
عبد الرحيم بن جعفر السيرافي – ٤٣٥
عبد الكريم بن هوازن القشيري – ٣٩
عبد الله بن طاهر بن البن – ٢٠٥
عبد الله بن عباس – ١١٦
عبد الله بن مروان – ٩٧
عبد اللهالمروزي – ٥١
عبد الله المعتز بن المتوكل – ٣٠٠
عبد اللطيف البغدادي – ٣٤٩
عبيد الله بن عبد الله بن طاهر –٢٥٠–
٢٦٤
عبيد بن عمير – ١٤٧
عبيد الله المهدي (الفاطمي) – ٤٣١
عثمان – ١٠٩ – ١٣٣ – ١٣٤ –
١٥٠
عريب (المؤرخ) – ٤٢٢
العز بن عبد السلام (شيخ الاسلام) –
١٠٥
العزيز بالله (الخليفة)– ١٦ – ١٣٤–
١٦٤
عضد الدولة (الخليفة)– ١٣ – ١١٨–
١٣٤ – ١٦٣ – ١٧٤ –
١٩٧ – ٢٠٠ – ٢٠٧ –
٢١٢ – ٢١٦ – ٢٤٢ –

٢٧٤ ــ ٢٨١ ــ ٢٩٦ ــ
٣٣٩ ــ ٣٨٧ ــ ٣٨٨ ــ
٣٩٨ ــ ٤١٧ ــ ٤٢٥
عطاء بن رباح ــ ٢٢٨
عفاف بن سليمان ــ ٣٨٨
العلاقي ــ ٣٢٠
علي بن إبراهيم الحصري الصوفي ــ ٣١
علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ــ ٦٥ ــ ٦٦ ــ ٦٧ ــ ١٠٣ ــ ١١٩ ــ ١٤٣ ــ ١٥٢ ــ ٢٢٤
علي بن سعد (المحتسب) ــ ٢٩٧
علي بن عيسى (الوزير) ــ ٢٧٦ ــ ٣٩٥ ــ ٤٢٠ ــ ٤٢٣
علي بن الفرات (الوزير) ــ ٣٨٤
علي بن الموفق ــ ٢٥
علي بن يلبق ــ ١٩٩
عماد الدولة بن بويه ــ ١٩١
عمار بن ياسر ــ ١٠١
عمران بن الحصين ــ ١٥٥
عمران بن شاهين ــ ٤٠١
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ــ ٢٨ ــ ١٤٧ ــ ٣٦٤ ــ ٣٦٩
عمر بن عبد العزيز (الخليفة) ــ ٢٠١ ــ ٢٤٤
عمرو بن العاص ــ ٢٦٩
عمرو بن قائد الأسواري ــ ١٤٨
عيد الصعود ــ ٢٩٥
عيد الكرنفال ــ ٢٩٥
عيد الكوسج ــ ٢٩٥
عيد النيروز ــ ٢٩٣
عيسى (عليه السلام) ــ ٤٧ ــ ٥٦ ــ ٦٢ ــ ٦٣ ــ ٦٥ ــ ٦٦ ــ ٦٧
عيسى بن لهيعة المصري ــ ٢٥٩
عيسى بن المنكدر ــ ٢٣
عيسى بن نسطوروس (الوزير) ــ ٤٣٠
عيسى بن يزيد بن دأب الليثي ــ ٢٣٩

(غ)

الغزولي ــ ٣٦٤
غسان الحكم ــ ١٣
غريب (خال المقتدر) ــ ٢٣٣
الغنوسطيون ــ ٢٠ ــ ٢٦ ــ ٦٠ ــ ٦١ ــ ٦٢ ــ ٧٢ ــ ٧٧

(ف)

فائق (قائد) ــ ١٦٢
الفاطميون ــ ١٢٢ ــ ١٢٧ ــ ١٧٤ ــ ١٩٤ ــ ٢٠٢ ــ ٢١٥ ــ ٢٢٢ ــ ٢٩٣ ــ ٣٥٣ ــ ٣٨٥ ــ ٤٣٢
فانسلب (مؤرخ) ــ ٣٩١ ــ ٤٢١
الفرس ــ ٣٧٥ ــ ٣٨٢ ــ ٣٨٥
فرعون ــ ٦٦ ــ ١٧٧
الفرغاني ــ ١٤٣

فريدريشن Friedriechen ـ عالِم ـ ٣٢٠
فريزر Fraser (الرحالة) ـ ٣٢٦
فضل (الساعي) ـ ٤٢١
الفُضَيْل ـ ٥٢
فون فيريدي (الرحالة) ـ ٢٦٧
فيتيسوف Fetisow ـ عالِم ـ ٣٢٠

(ق)

القادر بالله (الخليفة) ـ ٨٠ ـ ٩١ ـ ٢١٥ ـ ٢٧١ ـ ٤٠١
قاضي البقر (الشاعر) ـ ١٤٠ ـ ٢٣٠ ـ ٢٥٣
القاهر بالله (الخليفة) ـ ١٨٤ ـ ١٩٧ ـ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ـ ٢١٩ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٩ ـ ٢٤٥ ـ ٣٠٦
قباذ ـ ٢٢٣
القهساقي (المؤرخ) ـ ٤٣٠
القبط ـ ١٥٨ ـ ١٧٧
قدامة بن جعفر ـ ٩ ـ ٤١٧
قدرخان (الأمير) ـ ٤٠٨
القرآن الكريم ـ ١٢
القرامطة ـ ٣٦ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٨٧ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ٣٤٥ ـ ٤٢٢ ـ ٤٢٣
القزويني (المؤرخ) ـ ٤٩
القشيري ـ ٣٦ ـ ٣٩ ـ ٤٥ ـ ٥٣ ـ ٥٥ ـ ١١٥
القمي (العالم الشيعي) ـ ٢٣٥

(ك)

كازرون ـ ٣٥٥ ـ ٣٥٦
كافور الاخشيدي ـ ٩٣ ـ ٢٥٤
كراباتشك (الرحالة) ـ ٣٦٦
الكرامية ـ ٣٠ ـ ٣١
كتامة ـ ١٧٩
كسرى أنوشروان ـ ٣٤
كُسْماس « Cosmas » الرحالة الهندي ـ ٣٧٥
كشاجم (الشاعر) ـ ٢١٩ ـ ٢٣٨
كلثوم بن عمرو العتابي (الشاعر) ـ ١٥٠
الكندي ـ ٢٧٥

(ل)

الليث بن سعد ـ ١٠٩
لنج - وي - تي ـ تا (الرحالة) ـ ٣٠٣
لويتبراند (الأسقف) ـ ٢٢١
ليفيوس (الرحالة المؤرخ) ـ ٣٩٦

(م)

المادراني - انظر أبو بكر محمد بن علي
ماركوبولو (الرحالة) ـ ٣٠٨ ـ ٣٢٨ ـ ٣٤٨ ـ ٣٦٠ ـ ٣٦٩ ـ ٤١٤ ـ ٤٢٧
ماسينيون (الأستاذ) ـ ٦٠

مالك بن أنس (الامام) — ١١١ — ١٣٠ — ١٥٤
مالك بن دينار (المتصرف) — ٤٨ — ٣٨٦
المأمون بن هارون الرشيد (الخليفة) — ٢٣ — ٧٨ — ١١٠ — ١٢٦ — ١٣٢ — ١٥٠ — ٢٥٠ — ٢٥٨ — ٢٦٥ — ٣٠٠ — ٣٠٨ — ٣٩١ — ٤٢٠
الماوردي - أبو الحسن - (الإمام) — ٥٨ — ١٧٥ — ٢٨٠ — ٣٠٤
المتقي (الخليفة) — ١٩٧ — ٢٦٤
المتنبي (الشاعر) — ٢٤٢ — ٢٤٧ — ٣٥٧
المتوكل (الخليفة) — ٩١ — ٢١٣ — ٢٧٤ — ٢٩٣ — ٢٩٧ — ٣٠٠ — ٣١٦ — ٣٤٢
مجد الدولة — ٣٧٠
المحاسبي — ٤٥ — ٤٦
محسن بن الفرات — ٦٧
محمد (عليه الصلاة والسلام) — ١٩ — ٢٠ — ٢٧ — ٥٦ — ٥٧ — ٦٧ — ٩٢ — ٩٣ — ٩٤ — ٩٩ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٦ — ١٠٩ — ١١٠ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٩ — ١٣٠ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٤٦ — ١٤٧ — ١٥٤ — ١٥٥ — ١٥٧ — ١٦٠ — ١٦٩ — ١٨٦ — ٢٠٥ — ٢٢٣ — ٢٢٨ — ٢٣٥ — ٢٥٩ — ٢٦١ — ٢٧١ — ٢٩٨ — ٣٧٠
محمد بن أبي سعدون — ٣٧٩
محمد بن أحمد أبو المطهر الأزدي — ٢٦٦
محمد بن إسماعيل (الإمام المهدي) — ٧٨
محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد — ٧٢
محمد بن بابشاد — ٤٣٩
محمد بن الحسين بن سليمان — انظر ابو جعفر البحاث
محمد بن داود الأصفهاني (الفقيه) — ١٦٨
محمد بن رائق — ٣٩٤
محمد بن الرشيد — ٩٨
محمد بن عبد الله بن أحمد الصفار الأصبهاني (المحدث) — ٨١
محمد بن علي الحكيم الترمذي — انظر الترمذي
محمد بن عمر أبي الحسن الشريف — ٤٢٤
محمد بن كرام — ٣٠
محمد بن ياقوت — ٢٨١

محمد التاريخي — ١٦
محمود بن سبكتكين (السلطان) — ٤٠٥
مخارق (المغني) — ٢٥٠
مرداويج (القائد) — ٢٨٨
مرعوش (الساعي) — ٤٢١
مروان بن الحكم — ١٤٧
مريم (عليها السلام) — ٢٨٧
مزاحم بن رائق — ١٨٥
المستعين بالله (الخليفة) — ٢٢٦
المستكفي (الخليفة) — ٢٤٥ — ٣٩٨
المستنصر (الخليفة) — ٣٢١
المسعودي (المؤرخ) — ٨ —١٠—١٧— ٦٦ — ١٤٢ — ١٥١ — ١٥٨ — ١٦١ — ١٦٥ — ١٩٦ — ١٩٨ — ٢٢٤ — ٢٥٢ — ٢٥٤ — ٢٥٩ — ٢٩٠ — ٣٠٦ — ٣١٨ — ٣٢٩ — ٣٣٢ — ٣٤٦ — ٣٥٨ — ٣٦٠ — ٤١٦ — ٤٢٧ —٤٣٥— ٤٤١—٤٤٣
المسيح (عليه السلام) — ٢١
المطيع (الخليفة) — ٢٠٨ — ٢٧١
معاوية — ١٠٩ — ١٤٧ — ٣٨٢
المعتز بن المتوكل (الخليفة) — ١٩٦ — ٢٥٠ — ٢٦٤ — ٣٠٥
المعتزلة — ٤٢ — ٤٨ — ٦٠ — ٩٢
المعتصم بالله (الخليفة) —١٨٠—٢٣٨— ٢٦٤ — ٤٣٢
المعتضد بالله (الخليفة) — ٦٨ — ٩٨— ١٦١ — ١٩٨ — ١٩٩ — ٢٠١ — ٢٠٦ — ٢٥٧ — ٢٦٦ — ٢٦٩ — ٢٧٠
المعرّي — ٣٢
معروف الكرخي — ٤٨
معز الدولة بن بويه ـ السلطان ـ الأمير— ٨٧ — ١٨٧ — ٢٠٧ — ٢٣٢ — ٢٦٠ — ٢٦٣ — ٣٣٦ — ٣٩٨ — ٤٠١ — ٤٢٠
المعز لدين الله (الخليفة) — ٢٢—٧٣— ٧٤ — ٧٥ — ١٧٩—١٩٤— ١٩٥ — ٢٦٠
المقتدر بالله ـ (الخليفة) — ١٣٤ — ١٣٩ — ١٩٣ — ٢٠٨ — ٢١٧ — ٢٢٠ — ٢٢٢ — ٢٣٠ — ٢٦٥ — ٢٧٠ — ٢٨١ — ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٥٩ — ٤٢٠ — ٤٢٣
المقدسي (المؤرخ) — ٨—١١—١٢— ١٣ — ١٤ — ٢٧ — ٢٩ — ٣٠ — ٣٢ — ٣٣ — ٩٠ — ١١٠ — ١٣٢ — ١٢٤ — ١٥٥ — ١٥٩ — ١٧٥ — ١٧٨ — ٢١٢ — ٢٣٠ — ٢٤٤ — ٢٧٠ — ٢٨١ — ٢٨٦ — ٢٨٧ — ٣٠٤ —

٣٠٦ – ٣٣٣ – ٣٥٤ –
٣٦٩ – ٣٧٧ – ٣٨٨ –
٣٩٢ – ٣٩٦ – ٤٠٩ –
٤١٣ – ٤١٧ – ٤٢٥ –
٤٣٧ – ٤٤١
المقدونيون – ٣٠٥
المقريزي – ٧٥ – ١٣٤ – ١٠٩ –
١٩٥ – ٢١١ – ٢٢٥ –
٣٧٧ – ٤٣٠
المكتفي بالله (الخليفة) – ٢٧٠
الملامتية – ٢٦
ملكشاه (السلطان) – ٩٢
المنصور بالله (الخليفة) – ٢١١
منصور العجلي (الملقب بالكِسف)– ٦٥
المهتدي بالله (الخليفة)– ٩٨ – ١٩٦
المهدي (الخليفة) – ٢٢ – ٦٨ – ٧١ – ٧٢ – ٧٣
المهلبي (الوزير) – ١٦ – ٢٤١ – ٢٤٦ – ٢٦٦ – ٤٠١
موسى (عليه السلام) – ٦٧ – ١٤٩
موسى الانصاري – ٢٨
موسى بن سيار الأسواري – ١٤٨
الموفق بن المتوكل (الخليفة) – ٢٢٧ – ٢٧٩
مؤنس (القائد) – ١٦٢ – ١٩٠ – ١٩٩ – ٢٨١ – ٤٢٠
مير خند (كاتب) – ١٩٨
ميمون القداح – ٧٧
ميمونة بنت ساقولة (الواعظة) – ١٢٠

(ن)

نابليون – ٤٠٥
نارسيس (قائد روماني) – ١٦٢
الناصر (الملك) – ١٩٥
ناصر خسرو– ٧١ – ٩١ – ١٢٩ –
٢١١ – ٢١٦ – ٢٢٠ –
٢٢٣ – ٢٧٠ – ٢٧٢ –
٢٧٣ – ٢٧٤ – ٢٧٥ –
٢٧٧ – ٣٧٩ – ٣٨١ –
٤٠٥ – ٤٠٦ – ٤٤١
الناصر لدين الله الأموي (أمير الاندلس) – ٢١٨
الناصر محمد بن قلاوون (السلطان)– ٢٩٢
النصارى – ٢٩ – ١٠٢ – ١٠٤ –
١٠٥ – ١٢٢ – ١٢٦ –
١٣٥ – ١٥٨ – ١٧٢ –
١٩٥ – ٢٣٦ – ٢٨٤ –
٢٨٥ – ٢٨٦ – ٢٨٧ –
٢٨٩ – ٢٩٠ – ٢٩١ –
٢٩٢ – ٢٩٥ – ٣٤٢ –
٣٧٢ – ٣٩٠ – ٣٩١
النصرانية – ١٩ – ٢٠ – ٢٢
نصر بن أحمد – ٣٧٣
نصر بن أحمد الخبزأرزي (الشاعر)– ١٦٧

نصر بن أحمد الساماني — ٨٦
نصر (الحاجب) — ٦٤
نظام الملك (الوزير) — ٩٢
نفطويه — ١٦٩
نقفور — ٥٩
نمرود — ٦٦
نميم الداري — ١٤٧
نوف بن فضالة — ١٤٩
النويري — ٧٥
النيروز — ٢٩٤
نيكيتاس (الأميرال) — ١٦٢

(هـ)

الهادي (الخليفة) — ١٩٨ — ٢٣٩
هارون بن عمران — ٣٨٤— ٣٩٠
هارون بن المقتدر — ٢٠٨
هارون الرشيد — ٦٦— ٦٧— ١٥٧— ٢٠١ — ٢٠٧ — ٣٠٠
هرمز — ٤٢٧
الهمذاني (الاديب الشاعر) — ٩ — ١٧ — ٧٤ — ١١١— ١٨٤— ٢٤٢ — ٣٨٦
هيرودوت — ٣٦٩ — ٣٩٥

(و)

الواثق بالله (الخليفة) — ٣٠٨
الواسطي — ٣٥
وانج ين تي (الرحالة) — ٢١٠ — ٢٩٤ — ٣١٨
الورّاق — ١٥٠
الوليد بن عبد الملك (الخليفة) — ٢٠٥
الوليد بن يزيد (الخليفة) — ٣٥٩
وهب بن منبّه — ٢٨٧
وهب بن الورد — ٤٤

(ي)

ياقوت — ١٧ — ٣٢٢
يأنس الصقلبي (صاحب الشرطة) — ٢٩٧
يحيى بن آدم — ٣٧٥
يحيى بن سعيد (المؤرخ) — ١٨٩ — ١٩٥
يزيد بن أبي حبيب — ١٧٧
يزيد بن عبد الله التركي — ٢٥٩
اليعقوبي — ٩ — ١٠ — ٢٧٤—٣٦٥— ٤٣٢
يمين الدولة — ٤٠٨
اليهود — ٢٩ — ١٣٣ — ١٥٨ — ١٥٩ — ٢٣٦ — ٣٢٩ — ٣٧١ — ٣٧٢ — ٣٧٤ — ٣٧٦ — ٣٨٣ — ٣٨٤ — ٣٨٥ — ٣٩٠
يوسف بن أبي الساج — ١٩١
يوسف بن فنجاس — ٣٨٤ — ٣٩٠
اليونان — ١٣٦

فهرست
المدن والأماكن

(أ)

آمد — ١٢٩ — ٢٢٣ — ٣٥٨

آمل — ٢١٣

أبرقوة — ٣٤٤

الأبلّة — ٣٧٢ — ٤٤٣

أتيا — ٤٤٦

الأحساء — ٧١

أذربيجان — ١٢٠ — ٣٠٥

أرارات — ٣١٥

أراهسنان — ٣٤٥

أرجان — ٢١١ — ٢٧٢ — ٣٤٣

أردبيل — مدينة — اقليم — ٣٤٤

أرمينية — ٩ — ١٤ — ٩٥ — ٣٠٤ — ٣١٥ — ٣٥٨ — ٣٥٩ — ٣٩٦ — ٤٠٦

أريحا — ١٣

إسبانيا — ١٧٦ — ٣١٢

اسبيجاب — ٩٥

أسعد آباد — ٤١٣

الاسكندرية — ٢٢ — ٢١٦ — ٢٣٤ — ٢٧٥ — ٢٨٥ — ٣٥٢ — ٣٧١ — ٣٨٣ — ٤١٢ — ٤٢١ — ٤٢٢ — ٤٣٣

أسوان — ٣٢٠ — ٣٧٩ — ٤٣٤

أسيا — ٢١٩ — ٣٣٣ — ٤٢٦ — ٤٣٩

آسيا الشرقية — ٣٠٢

آسيا الصغرى — ٣٠٣ — ٣٩٢ — ٤١٢

آسيا الغربية — ٣٢٤ — ٣٨٦

آسيا الوسطى — ١٥ — ١٥٤ — ٢١٠ — ٤٠٥

أسيوط — ١٥٨ — ٣٦٠

اصطخر — ٣٣٩

أصفهان — ٧٩ — ١٢٩ — ٢٠٥ —

٢٠٨ — ٢٣١ — ٢٧٩ —
٢٨٨ — ٣٢٣ — ٣٦٠ —
٣٨١ — ٣٨٣
أطرابزندة — ٣٥٨ — ٣٧٤
إفريقية — ١٠ — ١٦ — ١٩٤ — ٣١٢
٣٢٤ — ٣٣٠ — ٤٣٧
إفريقية الجنوبية — ١٦
إفريقية الشرقية — بلاد الزنج — ٣٣٢
إفريقية الشمالية — ٧٣ — ٣١٠ — ٤٣٣
أفغانستان — ١٦٦ — ٣٠٥ — ٣١١
٣١٣ — ٣٢٣ — ٣٢٧ —
٣٣٣ — ٣٣٥ — ٣٤٠ —
٣٤١ — ٣٤٤ — ٤٠٥
أقور — ١٥٩
ألمانيا — ١٥ — ٣٨١
ألوسة — ٣٩٥
أنام (بلاد) — ٣٣٢
الانبار — ٣٩٥ — ٤١٢ — ٤٢٣
الأنباط — ٣٤٦
الأندلس — ١٥٩ — ٢٢٨ — ٢٧٤ —
٣١١ — ٣٢٤ — ٣٣٤ —
٣٤٦ — ٣٥٧ — ٣٦٢ —
٣٧٩ — ٤١٩
انطاكية — ٣٠٦ — ٣٤٦ — ٣٧٢ —
٤٣٢
الأهرام — ٢٨٣
الأهواز — ٣٣٩ — ٣٨٤ — ٤٠٨
أودغشت — ٣٧٩ — ٤١٩
أوروبا — ٢٢٦ — ٢٣١ — ٢٣٧ —
٣٠٢ — ٣٠٩ — ٣١٧ —
٣٢٨ — ٣٧٣—٣٧٤—٤٣١
أوزكند — ٤١٤
إيجلي — ٣٦٣
إيران — ٣٠ — ١٩١ — ٢٣١ — ٢٧٧
٢٨٨ — ٣٤٣ — ٣٦٩ —
٤١٧
إيطاليا — ١٧٦ — ٣٤٠ — ٣٤٦ —
٣٩٦

(ب)

باذغيس — ٣٢٣
باسند — ٧٩
بيتنج — ٣١٩
بجّانة (بشينا) — ١٥٩
البحر الأبيض المتوسط — ٢٧٣ —
٣١٠ — ٤٢٦ — ٤٢٨ —
٤٣١ — ٤٣٢ — ٤٣٤
البحر الأحمر — ٤٢٦ — ٤٣٤ —
٤٣٧
بحر جرجان — ٣٧٢
بحر جيحون — ٥١
بحر الخزر — ٢٢٢ — ٣٤٤ — ٣٥٨—
٣٧٣
بحر الروم — ١٢

بحر الزنج — ٤٣٥
بحر الصين — ١٢ — ١٣ — ٤٣٥
بحر الظلمات — ١٥ — ٤٣٣
بحر فارس — ٣٢٨
البحر الميت — ٣٠٥ — ٣١٥
بحر الهند — ٤٣٧
البحرين — بلاد — ٤٣٧
بحيرة أرمية — ٣٩٣
بحيرة تنيس — ٣٥١
بحيرة شاد — ٣١٦
بحيرة صيرم — ٤٠٥
بحيرة طبرية — ٣٤٩
بحيرة كنستانس — ٣٩٤
بحيرة وان — ٣١٢ — ٣١٦ — ٤٠٦
بحيرة يسلك — ٤١٤ — ٤١٥
بخارى — ٩٥ — ١٤٣ — ٢٦٩ — ٢٩٣ — ٣١٨ — ٣٢٣ — ٣٢٥ — ٣٣٨ — ٣٧٣ — ٣٧٦
بدر — ١٨٧
براج — ٣٧٤
البرازيل — ٣١٦
البردان — ٣٦٣
براوة (كلوة) — ٤٣٦
برشان — ٤١٥
برقة — ١٨٦ — ١٨٩ — ٣١٤ — ٣٤٧
بروفانس — مقاطعة — ٣٧١
البصرة — ١٣ — ٢٧ — ٦٩ — ٧١ — ١٠٩ — ١٢٨ — ١٥٠ — ١٦٧ — ١٨٣ — ٢١٩ — ٢٢٥ — ٢٤١ — ٢٥٤ — ٢٧٠ — ٢٧٨ — ٢٧٩ — ٢٩٧ — ٣٠٦ — ٣٠٧ — ٣١١ — ٣٤٥ — ٣٦٢ — ٣٨١ — ٣٨٢ — ٣٨٧ — ٣٩٦ — ٤٠٠ — ٤٠١ — ٤٢٣ — ٤٢٤ — ٤٢٨ — ٤٣٧ — ٤٣٨ — ٤٤٠ — ٤٤٣
البطيحة — ٣٨٥
بعلبك — ٤١٢
بغداد — ١٠ — ١٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٧ — ٢٨ — ٤١ — ٤٩ — ٦٥ — ٦٧ — ٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٨٠ — ٨٧ — ٨٩ — ٩٠ — ٩١ — ٩٣ — ٩٤ — ١١١ — ١١٢ — ١١٨ — ١٢٠ — ١٢٨ — ١٣٤ — ١٣٥ — ١٤٢ — ١٧٥ — ١٨٨ — ١٨٩ — ١٩٠ — ١٩١ — ١٩٣ — ١٩٩ — ٢٠٦ — ٢٠٢ — ٢٠٣ — ٢٠٧ — ٢٠٨ — ٢١١ — ٢١٢ — ٢١٤ — ٢٢١ — ٢٢٤ — ٢٣٢ — ٢٣٣ — ٢٤٦ — ٢٥١ — ٢٦٣ — ٢٦٤ — ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٣ — ٢٧٦ —

٢٧٨ — ٢٧٩ — ٢٨٠ —
٢٨٢ — ٢٨٤ — ٢٨٥ —
٢٨٦ — ٢٩١ — ٢٩٣ —
٢٩٥ — ٢٩٧ — ٣٠٣ —
٣٠٧ — ٣٠٨ — ٣٠٩ —
٣٣٤ — ٣٤٨ — ٣٥٩ —
٣٦١ — ٣٦٣ — ٣٦٤ —
٣٧١ — ٣٧٥ — ٣٧٨ —
٣٧٩ — ٣٨٢ — ٣٨٥ —
٣٨٦ — ٣٨٩ — ٣٩٣ —
٣٩٥ — ٣٩٦ — ٣٩٧ —
٣٩٨ — ٣٩٩ — ٤٠٠ —
٤٠١ — ٤٠٨ — ٤١٢ —
٤١٨ — ٤٢٠ — ٤٢٣ —
٤٢٤

بلخ — ١٧ — ٣٠٨ — ٣١٢ — ٣٢٢ —
٣٢٥ — ٣٤٧ — ٤١٦

بلد (مدينة) — ٣٦٣

بَلرَمْ — ٢٧٢

بلغاد — مدينة — ١٥

بلوخستان — ٧٤ — ٤٣٦

بِم — ٣٥٧

بنجهير — ٣٢٢

البندقية — ٣٣٤ — ٣٩٦ — ٤٢٩

بنديسيستن — ٣٤١

بورنيو — جزيرة — ٣١٤

بوزنطة — ١٦٠ — ٣٥٨ — ٣٧٤ —
٤٣٢

بولينيزيا — ٣٠٤

بيت المقدس — ٣٠ — ٩١ — ١٩٥ —
٢٧٢ — ٢٨٤ — ٣٦٨

البيرة — ١٥٩

بيروت — ٣٢٣ — ٣٨٢

بيزا — ٤٣٢

بيار — ٣٤٣ — ٣٦٩

بيسان — ٣١٥

البيضاء — ٦٢

بيكَنْد — ٩٥ — ٢٦٩

بين النهرين — بلاد — ٣٣٥ — ٣٥٦

(ت)

التبت — ١٤ — ٣١٨

تبريز — ٣٤٤

تدمر — ١٥٣

تراقية — ٢٣١

التركستان — ٢٦٠ — ٣٢٠ — ٣٢٨ —
٣٤٥ — ٣٥٧ — ٤١٦

تركيا — بلاد الترك — ١٥٨ — ٣١٣
٣١٨ — ٣١٩ — ٣٧٤

تُسْتَر — ٣٣٨ — ٣٨٣ — ٣٨٤

تسوان شو — ٤٤٤ — ٣٤٤

تكريت — ٣٦٣ — ٤٠٧

تُنج — كنج — ٣٣٢

تنيس — ٣٥١ — ٣٥٢ — ٣٥٣ —
٣٥٤ — ٤٣٠

توز — ٣٥٥
توزر — ٣٤٣
تونس — ٤٣٣

(ج)

جالوت — ٦٦
جامع ابن طولون — ١٠٠ — ١٢٨
جامع الأزهر — ١٠٠ — ١٢٧
الجامع الأموي — ١٥٦
جامع تبر — مسجد — ١٨٩
جامع الحاكمي — ١٠٠
المسجد الحرام — ٦٩
جامع دار السلطان — ١٢٨
جامع رام هرمز — ٣٨٧ — ٣٨٨
جامع صنعاء — ١٢٩
جامع عمرو — ١٠٠ — ١٢٧ — ١٢٩ — ١٣٣ — ٢٧٠
جامع قرطبة — ١٣٤
الجامع الكبير — ١٣٣
جامع مدينة الخليل — ١٣٥
جامع المنبعي — ١٠٠
جامع الياسمين — مسجد — ١٢٨
جامع يونس — مسجد — ٩١
جاوة — ٤٤٥
جبال الألب — ٧٣
جبل بيشان — ٣٢٠
جبل الجولان — ٢٩
جبل الجلجلة — ٩١
جبال سنجار — ٦٩
جبال الصين — ١٤
جبل طيء — ١٤
جبل المقطم — ١٤ — ٢٧٣
جبال تيان شان — ٣١٩
جدّة — ٢٧٢ — ٢٧٦ — ٣٧١ — ٣٨٢
جرجان — ٧٤ — ٢٢٢ — ٣٧٢
الجزائر — ٣٨٧
الجزيرة — ٦٤
جزيرة ابن عمر — ٢٦٨
جزيرة الروضة — ٣٤٢
جزيرة سرنديب — ٣٣٠ — ٤٤٥
جزيرة سقطرى — أشقطرة — ٤٣٧
جزيرة العرب — ٢٨ — ٦٨ — ٧١ — ٨٨ — ١٣٥ — ٢٣١ — ٢٧٣ — ٣٠٢ — ٣١٤ — ٣٢٤ — ٣٢٨ — ٣٤٧ — ٣٤٨ — ٣٨٣ — ٣٩٤ — ٤٣٦
جزيرة الغنم — ٤٣٤
جزيرة ما هيت — ٤٤٥
جزائر نيكوبار — ٤٤٥
جزيرة هلجولاند — ٤٤٠
جزر اليونان — ٣٠٣
جسر منبج — ٣٩٥
الجعفرية — ٢٧٣
جنابة — ٣٥٥
جنديسابور — ٣١١
جنوه — ٤٣٢

جور — ٣٦٢
جيروفت — ٣٦٢ — ٣٨٥
الجيزة — ٢٩١ — ٢٩٢ — ٢٨٣ — ٣٦١

(ح)

الحبشة — ١٥٨ — ٤٣٤
الحجاز — ١٣ — ١١٣ — ١٥٤ — ٢٤٤ — ٢٥٤
الحديثة — ٣٦٣ — ٣٩٥
حرّان — ١٢٥ — ٣٦٨
حضرموت — ٢٦٧
حلب — ١٠١ — ١٦٨ — ٣١٠ — ٣١٢ — ٤١٢
حماة — ٤١٢

(خ)

خانقون = كانتون — ٤٤١ — ٤٤٣ — ٤٤٤
خراسان — ٨ — ٩ — ١٣ — ١٧ — ٢٨ — ٣٧ — ٣٩ — ٧٤ — ٨١ — ٨٥ — ٨٨ — ٩١ — ٩٦ — ١٠٨ — ١٢٨ — ١٣٠ — ١٦٦ — ٢١٨ — ٢٥٨ — ٢٧٩ — ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٨ — ٣٢٤ — ٣٢٥ — ٣٣٤ — ٣٥٦ — ٣٥٧ — ٣٩٠ — ٤١٦ — ٤٢٠
الخزر (بلاد) — ٣٧٤
خشباجي (ناحية) — ٣٢٢
خليج فارس — ٣٢٨ — ٤٣٦
خليج الخور — ٢٩٢
خوارزم — ١٥٩
خوزستان — ١٠٨ — ١٧٥ — ٣٠٣ — ٣١١ — ٣٣٨ — ٣٥٨ — ٣٨٦ — ٣٩٣ — ٤٠٧ — ٤٠٨ — ٤٠٩
خيبر — ١٣٣

(د)

دار السلام — ١٥٠
دبيق — ٣١
دجلة — انظر نهر
دخشان — ٣٢٥
الدلتا المصرية — ٣٥٤
دمشق — ٢٩ — ١٣٣ — ١٥٦ — ٢٥٥ — ٣٦٦ — ٣٩٥ — ٤١٢ — ٤١٣
دمياط — ١٦٣ — ٣٥١ — ٣٥٣
ديار مضر — ٣٢٤
دَيْبُل — ٤٣٧
دير الحوّات — ٢٩١
دير دُرفالس — ٢٩١

دير سمعان — ١٧٣
دير (مدينة) — ٤١٣
هزقل — دير — ٢٠٦
الدينور — ٢٧٨

(ر)

الراشت — ٤١٦
الرحبة — ٣٩٥
رشيد — ٤٢١
الرصافة — ٢٣٢
رقّادة — ٢٢ — ٢٧٣
الرقة — ١٣ — ١٢٨ — ٣٢٤ — ٤١٢ — ٤٢٤
الرملة — ٤١٢
الرّها — ١٧١
روسيا — ٣٢٨ — ٣٧٢ — ٣٧٣
روما — ٢١٧ — ٣١٠
ريجنز بورج — ٣٩٠
ريزبي — ٤٣٦
الريّ — ٣٣٥

(ز)

زَرَنج — ٢١١
زُعَر — ٣٠٥ — ٣١٥
زنجبار — ٤٣٤ — ٤٣٥
الزهراء — ٢١٨ — ٢٧٤

(س)

سابور — ٣٦١
سامرّا — ٩٢ — ٢٠٩ — ٢١٣ — ٢٦٤ — ٢٧٣ — ٣٩٩
سبتة — ٣١٢ — ٤٢٢
سجستان — ٩٤ — ٢١١ — ٣١٣ — ٣٢٢ — ٣٦٤ — ٣٦٥
سجلماسة — ٣١٠ — ٣٤٨ — ٣٧٩ — ٣٨٢ — ٣٩٠ — ٤١٩
سد يأجوج ومأجوج — ١٤
سردوس — ٣٤٢
سرنديب — ٣٢٥ — ٣٧٥
السرير — (بلاد) — ٣٧٤
سفاقس — ٣١٠
سمرقند — ٢٧٧ — ٣١٨ — ٣٦٥ — ٤١٤ — ٤١٥
سميساط — ٣٩٥ — ٤٠٩
سُمَيْرة — ٣٩٧
سنجار — ٤١٢
السند — ٨ — ٣٠٧ — ٣٤٦ — ٣٧١
سنغافورة — ٤٤٣
سهرورد — ٣٧٠
السودان — ١٦ — ٣١٠ — ٣١٦ — ٣٢١ — ٣٢٨ — ٤١٩
السوس — ٣٢ — ١٧٥ — ٣٨١ — ٤٠٨
سومطرة — ٣١٤ — ٤٤٥
السويس — ٤٢٦

سويسرة — ٧٣
سيراف — ٣٤٥ — ٤٣٧ — ٤٣٨ —
٤٣٩ — ٤٤١
السيرجان (مدينة) — ٣٣٥
سينيز — ٣٥٤ — ٣٥٥

(ش)

الشام — ١٤ — ٢٩ — ٣٧ — ٤٧ —
٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٣ —
٩١ — ١٢٦ — ١٣٣ —
١٣٥ — ١٥٩ — ١٧١ —
١٨٦ — ٢١٩ — ٢٢٤ —
٢٢٥ — ٢٣٠ — ٢٥٤ —
٢٦٤ — ٢٨٥ — ٣٠٦ —
٣٠٩ — ٣١٠ — ٣١٣ -
٣١٦ — ٣٣٣ — ٣٤٦ —
٣٧٥ — ٣٨٢ — ٣٨٩ —
٣٩٤ — ٣٩٥ — ٤١٢ —
٤١٣ — ٤١٨ — ٤٣٠ —
٤٣٢ — ٤٣٣
الشامستيان (قرية) — ١٧
شبرا — ٢٩٢
شبرقان — ٣٠٨
شط العرب — ٣٦١ — ٤٤٠ — ٤٤١
شطا — ٣٥١
شمال أفريقيا — ٣٠٩ — ٣١٠ —
٣٢٨ — ٣٤٣ — ٣٤٨ —
٣٥٧ — ٤٣٢ — ٤٣٥
شيراز — ٢٨ — ٣٣ — ١٢١ — ١٢٨
١٧٨ — ٢٠٨ — ٢١٢ —
٢١٦ — ٢٢١ — ٢٧٤ —
٢٨١ — ٣٣٩ — ٣٦٧ —
٤٠٧ — ٤١٧ — ٤٢٥

(ص)

الصحراء الغربية الكبرى — ١١
الصحراء الكبرى الأفريقية — ٣٤٣
الصَعيد — انظر مصر العليا
الصغد — ٣١٨
صقلية — ١٦٢ — ٢٧٢ — ٢٩٨ —
٣١٧ — ٣٢٤ — ٣٣٤
صنعاء — ٢١٣ — ٢٧٣ — ٣٢٧ —
٣٣٩
صِيِّ — ٣٦١
صور — ٣١١ — ٤٣٢
صيدا — ٣٨٢
الصين — ١٠ — ١٤ — ١٥ — ١٥٥ —
١٧٣ — ٢٣٠ — ٢٥٣ —
٢٨١ — ٣١٣ — ٣١٤ —
٣١٨ — ٣١٩ — ٣٢٨ —
٣٣٢ — ٣٥٦ — ٣٥٨ —
٣٥٩ — ٣٦٢ — ٣٦٥ —
٣٦٦ — ٣٧١ — ٣٧٢ —
٣٧٣ — ٣٧٤ — ٤٠٩ —

٤١٢ — ٤١٤ — ٤١٥ —
٤١٦ — ٤٢٩ — ٤٣١ —
٤٣٧ — ٤٣٨ — ٤٤٢ —
٤٤٤ — ٤٤٦

(ط)

الطائف — ٣٠٥
طالقان — ٤١٦
طبرستان — ٣٠٣ — ٣٣٥ — ٣٥٨ —
٣٥٩
طبرية — ١٢٨ — ٣٦٦ — ٤١٢
طحا — ٣٥١
طرابلس — ٤١٩ — ٤٢٢ — ٤٣٣
طرابلس الشام — ١٢٩ — ٢٧٢ —
٣٦٧ — ٤٣٢
طرسوس — ٩٤ — ٩٥ — ١٦٢ —
٢٩٨ — ٣٠٦ — ٤١٨
طرطوشة — ٣٣٤
طشقند — ٤١٥
طليطلة — ٣١٣ — ٣١٦
طهران — ٤١٤

(ع)

عانة — ٣٩٥
عبادان — ٣٦١ — ٤٤٠
عدن — ١٣ — ٣٣٣ — ٤٣٥ — ٤٣٧
العذيب — ٤١٨
العراق— ٦٤ — ٦٥ — ٦٨ — ٦٩ —
٧١ — ٧٧ — ٧٨ — ٨٨ —
١٠٨ — ١٣٤ — ١٤٩ —
١٥٤ — ٢٠٩ — ٢١٠ —
٢٣٨ — ٢٤٤ — ٢٨٢ —
٣٠٢ — ٣٠٤ — ٣٠٥ —
٣٠٦ — ٣٠٧ — ٣٠٨ —
٣٠٩ — ٣١١ — ٣١٢ —
٣١٣ — ٣١٦ — ٣٢٥ —
٣٣٥ — ٣٣٨ — ٣٤٠ —
٣٤٥ — ٣٤٦ — ٣٥٣ —
٣٥٦ — ٣٥٧ — ٣٦١ —
٣٦٣ — ٣٧٥ — ٣٧٦ —
٣٨٠ — ٣٨١ — ٣٨٢ —
٣٨٣ — ٣٨٤ — ٣٨٥ —
٣٨٦ — ٣٩٠ — ٣٩٤ —
٣٩٩ — ٤٠٠ — ٤١٨ —
٤٢٢
عرفات (جبل) — ٩٢
العريش — ٩٥
عكبرا — ٢٩١ — ٣٦٣
عمان — ١٣ — ٣٠٦ — ٣٠٧ — ٣٢٥
٣٣٢ — ٣٧٢ — ٤٣٥ —
٤٣٧ — ٤٤١ — ٤٤٣ —
٤٤٤
عيذاب — ٣٢٠—٣٧٩—٤٣٤—٤٣٥
عين شمس — ٣٤٢

(غ)

غانة — ١٤ — ٣٢٨ — ٣٧٤
غزنة — ١٦
غِفار — ٤١٢

(ف)

فارس — ١٤ — ٤٢ — ٦٠ — ٧٠ — ٧٤ — ١٢٤ — ١٧٤ — ٢١١ — ٢٢٣ — ٢٧٩ — ٣٠٥ — ٣٠٨ — ٣١١ — ٣١٦ — ٣٢٣ — ٣٣٥ — ٣٣٧ — ٣٣٨ — ٣٣٩ — ٣٤١ — ٣٤٣ — ٣٤٤ — ٣٥١ — ٣٥٤ — ٣٥٥ — ٣٥٦ — ٣٥٧ — ٣٥٨ — ٣٥٩ — ٣٦١ — ٣٦٢ — ٣٧٦ — ٣٨١ — ٣٨٣ — ٣٩٤ — ٤٠٤ — ٤٠٧ — ٤٠٨ — ٤٠٩ — ٤١٣ — ٤١٧ — ٤٢٨ — ٤٣٨
الفرات (نهر)— ٢٦٤ — ٢٧٦ —٣٠٩ — ٣٦٣ — ٣٧٢ — — ٤١٨
فرغانة — ٣٢٣ — ٣٢٥ — ٣٨١ — ٣٩٣ — ٤١٤ — ٤١٦
الفرما — ٤٢٦
فرنسا — ١٥ — ٣٧١ — ٤٣٢
الفسطاط — ٣٠ — ١٢٣ — ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧٣ — ٢٧٨ — ٢٩٠ — ٣١٤
فلسطين — ١٢٨ — ٢٣٦ — ٢٦٩ — ٣٠٣ — ٣٠٥ — ٣٠٦ — ٣١٥ — ٣٦٦
الفلوجة — ٣٩٥
فناخسرو (مدينة) ٢٧٤
الفيوم — ٣٥١ — ٣٥٢

(ق)

قابس — ٣٠٩
القاهرة — ٧٣ — ١٢٧ — ١٨٩ — ١٩٠ — ١٩٤ — ٢٢١ — ٢٢٥ — ٢٤٤ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٨٣ — ٢٨٥ — ٢٩٧ — ٣٦٠ — ٤١٢ — ٤٣٤
قبرص — ٤٣٢
القدس — ١٣٧
قرح — ١٣٥
قرطاجنة — ٢٧٥ — ٤٣٣
قرطبة — ٢٧٢ —٢٧٤ —٣٢٤ — ٣٣٤
قزوين — (بحر) — ٥١ — ٩٧
القسطنطينية — ٩ — ١٩٥ — ٢٢١ — ٣٧١ — ٤١٢
قسطيلية — ٣٠٩ — ٣٤٨ — ٤٠٦
قصر التاج — ٢١٤
قصر الشمع — ٢٨٩

القطائع — ٢٧٣
الفصة — ٣٤٨
قلزم — ٣٧١ — ٤٢٦
قليوب — ٢٩٧
قُمّ — ٢٧٧ — ٣٣٥ — ٣٣٧
قوص — ٤٣٤
القوقاز — ٣٩٢
قوهستان — ٣١٣
القيروان — ٢٢—٢٧٣ — ٤١٨—٤١٩
قيرين — ٤١٢

(ك)

كابل — ٣١١ — ٣١٥ — ٣٢٣ — ٣٥٦
كازرون — ٣٥٤ — ٣٨٧
كالف — مدينة — ٣٩٣
كانتون — ٤٢٩ — ٤٤٢ — ٤٤٣ — ٤٤٤
كدا — ٤٤٥
كران — ٣٢٣ — ٣٤٥
كربلاء — ٢٣٥
كرمان — ٩٤ — ١٦٣ — ٢٠٤ — ٣٠٢ — ٣٠٩ — ٣١٥ — ٣٢٣ — ٣٣٥ — ٣٥٧ — ٣٦٢ — ٣٦٤ — ٣٦٥ — ٣٨٥ — ٤٣٧
كشغر — ٤١٦
كشمير — ٣٢٨ — ٣٨٣
الكفرة — ٤١٩
كَلَسَه — ٤٤٣
كنيسة القيامة — ٢٨٤
كوت — ٣١٩
كوريا — ٣٧٤
كوشا — ٣١٩
كوشين شين — ٤٤٦
كوغة — ٣٧٤
الكوفة — ٦٩ — ٧٢ — ٧٧ — ٨٨ — ٨٩ — ١١٣ — ١٤٩ — ٢٢٥ — ٣٦٢ — ٣٨٢ — ٤١٨ — ٤١٣ — ٤٢٤
ملبار = كويلون — كولام — ٤٤٥

(ل)

اللاذقية — ١٤٤ — ١٧٤ — ١٧٥
اللان — ٣٧٤
لشبونة — ١٥ — ٤٣٣
لندن — ٣٤١
لوبية — ٩٥

(م)

مارك برندنبرج — ٢١٦
مازندران (إقليم) — ٣٠٣ — ٣٣٤
ماشونا لاند — ٤٣٦
مانجشون — ٤٤٤
الماهين — ٣٧٠

المجر — ٩
المحمدية — مدينة — ٢٧٤
المحيط الأطلسي — ٣١٧ — ٤١٩ — ٤٢٠
المحيط الهندي — ٤٢٦—٤٣٦—٤٣٧
المدينة المنورة — ٩٣ — ١٥٥ — ٢٢٨ — ٢٥٨
مراكش — ١٩٠ — ٢٤٤ — ٣١٠ — ٣٤٦ — ٣٦٣ — ٣٨٢ — ٤٢٠
مرسمندة — ٣٢٤
مرو — ٢٨ — ٨٣ — ١٣٢ — ٣٠٨ — ٣٣٦ — ٣٥٧ — ٣٥٨
مصر — ٩ — ١٤ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٣٤ — ٧٠ — ٧٤ — ٨٣ — ٩٠ — ٩٤ — ٩٥ — ١١٠ — ١١٥ — ١١٧ — ١٢٢ — ١٢٣ — ١٢٤ — ١٢٦ — ١٢٨ — ١٣٠ — ١٣٣ — ١٣٤ — ١٣٦ — ١٣٨ — ١٤٢ — ١٥٨ — ١٥٩ — ١٦٢ — ١٦٨ — ١٧١ — ١٧٦ — ١٧٨ — ١٨٥ — ١٨٧ — ١٨٩ — ١٩٤ — ١٩٥ — ٢٠٢ — ٢٠٥ — ٢١٤ — ٢١٧ — ٢١٩ — ٢٢٠ — ٢١١ — ٢٢٣ — ٢٢٥ — ٢٣٣ — ٢٣٩ — ٢٤٤ — ٢٤٧ — ٢٥١ — ٢٥٤ — ٢٥٥ — ٢٥٩ — ٢٦٠ — ٢٦١ — ٢٦٤ — ٢٦٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٧٣ — ٢٧٥ — ٢٨٢ — ٢٨٣ — ٢٨٤ — ٢٨٥ — ٢٨٩ — ٢٩٠ — ٢٩٢ — ٢٩٤ — ٢٩٥ — ٢٩٧ — ٣٠٣ — ٣٠٦ — ٣٠٧ — ٣٠٩ — ٣١١ — ٣١٣ — ٣١٥ — ٣١٦ — ٣٢١ — ٣٢٥ — ٣٢٧ — ٣٣٣ — ٣٣٤ — ٣٣٥ — ٣٤٠ — ٣٤٢ — ٣٤٧ — ٣٤٩ — ٣٥١ — ٣٥٢ — ٣٥٣ — ٣٥٤ — ٣٥٥ — ٣٥٧ — ٣٦٠ — ٣٦١ — ٣٦٢ — ٣٦٥ — ٣٦٦ — ٣٦٩ — ٣٧٥ — ٣٧٧ — ٣٧٩ — ٣٨٢ — ٣٨٣ — ٣٨٤ — ٣٨٦ — ٣٨٨ — ٣٨٩ — ٣٩١ — ٤٠٥ — ٤٠٧ — ٤١٨ — ٤١٩ — ٤٢٠ — ٤٢١ — ٤٢٤ — ٤٢٥ — ٤٣٠ — ٤٣٧
مصر السفلى — ٣٦٦
مصر العليا — الصعيد — ٣١٥ — ٣٢٠ — ٣٣٤ — ٣٥١ — ٣٦٠
المعرة — ١٣٥ — ٣٢١
المغرب — ٩ — ١٤ — ١٦ — ٣٠ —

٩٤ — ١١٠ — ١١١ —
٣٠٥ — ٣١٢ — ٣١٣ —
٣١٦ — ٣١٧ — ٣٢٤ —
٣٦٢ — ٣٩٠ — ٤١٨
مقابر قريش — ٢٣٢
مقديشو — ٤٣٦
مكة المكرمة — ٥٤ — ٦٩ — ٧٠ —
٨١ — ٨٧ — ٩٠ — ٩١ —
٩٢ — ٩٣ — ١١٥ —
١٢٦ — ١٣٨ — ٢٥٤ —
٢٧٢ — ٢٧٣ — ٢٧٦ —
٣٠٥ — ٣١٢ — ٣٧٨ —
٣٨٢ — ٤١٢ — ٤١٨
مكران — ٣١٣
ملبار — ٤٢٩
ملطية — ١٤٤
ملقا — ٤٤٣ — ٤٤٥
منى — ٥٢ — ٩٢
منازجرد (قرية) — ٩٥
منبج — ٤١٢
المنصورة (بالسند) — ٣٠٧
المنصورية — ٢٧٤
المهدية — ٢٧٤
موزمبيق — ٤٣٥
الموصل — ١٣ — ١٠٩ — ٣١٢ —
٣٤٨ — ٣٦٣ — ٣٩٦ —
٤١٢ — ٤٢٤
ميافارقين — ١٤٣
ميديا القديمة — ٣١٦

(ن)

نابلس — ٣١٠
نابولي — ٤٣١
النجف — ٢٣٥
نصيبين — ٤١٢
نفراوة — ٤٠٦
نهر الأردن — ٣٤١
نهر الأهواز — ٣٩٢
نهر بردان — ٣٩٢
نهر التاريم — ٤١٠ — ٤١٥
نهر التاميز — ٣٤١
نهر تنيس — ٣٧٢
نهر جيحون — ١٧ — ٩٥ — ٣٩٢ —
٣٩٣ — ٤٠٨ — ٤١٦
نهر دجلة — ٤٥ — ٥١ — ٦٥ — ٨٩ —
٩٢ — ١٦٨ — ١٧٤ —
١٨٨ — ٢٠٧ — ٢١٢ —
٢١٥ — ٢٣٣ — ٢٥٠ —
٢٦٤ — ٢٦٩ — ٢٧٠ —
٢٧٣ — ٢٧٦ — ٢٧٩ —
٢٨٦ — ٣١٨ — ٣٦٣ —
٣٧٢ — ٣٩٢ — ٣٩٤ —
٣٩٦ — ٣٩٧ — ٣٩٨ —
٣٩٩ — ٤٠٧ — ٤١٢ —
٤٤٠
نهر دجيل — ٣٣٩
نهر الرس — ٣٩٢

نهر الرهبان — ٣٥٥
نهر الرون — ٣٧٢
نهر زيار — ٤٢٣
نهر سيحان — ٣٩٢
نهر سنجة — ٤٠٩
نهر السند — ٤٣٧
نهر الشاش — ٣٩٢ — ٣٩٣ — ٤٠٨ — ٤١٥
نهر الشيطان — ٣٦٢
نهر عيسى — ٣٩٥
نهر الفرات — ٧٣ — ٣١٨ — ٣٩٢ — ٣٩٤ — ٣٩٥ — ٤٠٧ — ٤١١
نهر الفلجا (أتل) — ١٥ — ٣٧٢ — ٣٧٣
نهر قارون — ٤٠٩
نهر مرو — ٤١٦
نهر مشرقان — ٣٣٩
نهر الملك — ٣٩٢
نهر المهدي — ٢٨٥
نهر مهران — ٣٩٢
نهر النيل — ٢٧٥ — ٢٨٩ — ٢٩٢ — ٣٢٠ — ٣٤٢ — ٣٩٢ — ٤٠٥ — ٤٣٤
نهر هندوند — ٣٤١
نهاوند — ٢٦٨ — ٣٦٤
النوبة — بلاد — ٣٠٢
نيسابور — ١٣ — ٢٦ — ٢٨ — ٣٠ — ٣٥ — ٨٥ — ١٠٠ — ١٦٠ — ٢٥٧ — ٢٧٧ — ٣١٣ — ٣٢٥ — ٣٢٦ — ٣٣٧ — ٣٥٧ — ٤١٤ — ٤١٧
نينوى القديمة — ٩١

(هـ)

هانجشون — ٤٤٤
هَجَر — ١٣ — ٦٩ — ٣٢٤
هدية — ١٥٨
هراة — ١٧٨ — ٣٠٥
همدان — ٧٢ — ٣٧٠
همذان — ٩ — ٤١٣
الهند — ٨ — ٩ — ١٤ — ١٦ — ١٢٥ — ١٧٤ — ٢٥٤ — ٣٠٦ — ٣١٥ — ٣٢٤ — ٣٢٨ — ٣٣٢ — ٣٤٦ — ٣٤٨ — ٣٥٦ — ٣٦٢ — ٣٧١ — ٣٧٢ — ٣٧٣ — ٣٧٤ — ٣٩٢ — ٤٠٥ — ٤٢٦ — ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٣٧ — ٤٣٩ — ٤٤٣ — ٤٤٤ — ٤٤٥

هندكوش ـ ٣٢٢
هيت ـ ٣٢٤ ـ ٣٩٥ ـ ٤١٢ ـ ٤١٣

(و)

الواحات الداخلة ـ ٤١٩
وادي إيلي ـ ٣٥٦
وادي فرغانة ـ ٣٤٠
واسط ـ ٦٦ ـ ٢٠٦ ـ ٣٤٩ ـ ٣٩٣ ـ ٤٠٠ ـ ٤٠١ ـ ٤٠٨ ـ ٤٢٤

(ي)

يزد ـ ٤١٧
اليمامة ـ ١٣
اليمن ـ ٩ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٢١٣ ـ ٢٣٠ ـ ٢٤٢ ـ ٢٥٤ ـ ٣٠٤ ـ ٣١٢ ـ ٣١٦ ـ ٣٢٥ ـ ٣٢٧ ـ ٣٣٣ ـ ٣٣٥ ـ ٣٣٩ ـ ٣٤٧ ـ ٣٦٢ ـ ٣٨١ ـ ٣٨٧ ـ ٤٣٤ ـ ٣٤٥ ـ ٤٣٨
اليهودية ـ مدينة ـ ٣٨٣
اليونان ـ ٢٢٣

